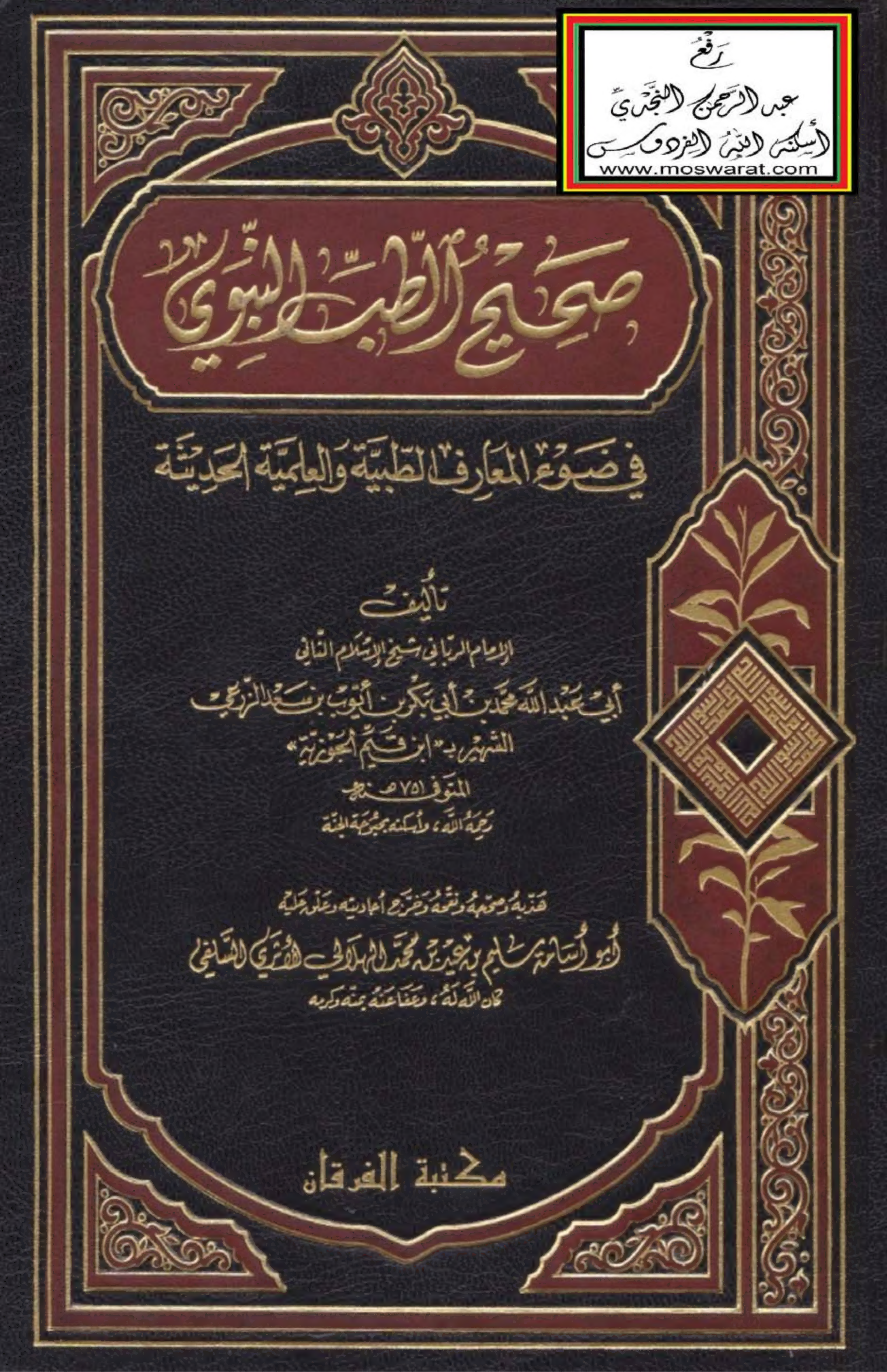


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
صحيح الطب النبوي
في ضوء المعارف الطبية والعلمية الحديثة
تأليف
الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي
الشهير بـ «ابن قيم الجوزية»
المتوفى ٧٥١ هـ
رحمه الله، وأسكنه بحبوحة الجنة
هذبه وصححه ونقحه وخرج أحاديثه وعلق عليه
أبو أسامة سليم بن عيد بن محمد الهلالي الأثري السلفي
كان الله له، وعفا عنه بمنه وكرمه
مكتبة الفرقان



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صحيح الطب النبوي

في ضوء المعارف الطبية والعلمية الحديثة

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



مكتبة الفرقان

الفرع الرئيسي

الإمارات العربية المتحدة - عجمان - ص ب: ٢٠٢٨٨
هاتف: ٠٠٩٧١٦٧٤٤٤٤٣٥، فاكس: ٠٠٩٧١٦٧٤٢٤٠٩٤

- فرع الشارقة: هاتف وفاكس: ٠٠٩٧١٦٥٦٣٦٣٣٦
- فرع المدينة المنورة: شارع الملك عبد العزيز النازل
الجوال: ٠٥٢٥٩١٤٦٧
- فرع مصر: القاهرة - عين شمس - هاتف: ٠١٠٥٦١٨١٧٩
- فرع باكستان: كراتشي - منطقة مترو ول - تلفاكس: ٠٠٩٢٢١ ٨١٤٣٩٨٤

موقع المكتبة على شبكة الإنترنت: www.furqanalsalafia.com
E-mail : furqan1@emirates.net.ae

صحيح الطب النبوي

في ضوء المعارف الطبية والعلمية الحديثة

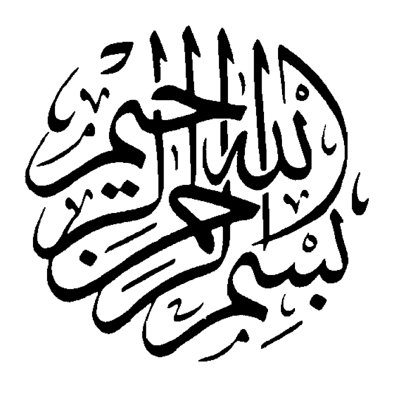
تأليف

الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي
الشهير بـ «ابن قيم الجوزية»
المتوفى ٧٥١ هـ
رحمه الله، وأسكنه بحبوحة الجنة

هذبه وصححه ونقحه وخرج أحاديثه وعلق عليه
أبو أسامة سليم بن عيد بن محمد الهلالي الأثري السلفي
كان الله له، وعفا عنه بمنه وكرمه



مكتبة الفرقان



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن نظرة الإسلام إلى الطب تنطلق من ناحيتين:

الأولى: نظرة الإسلام إلى الإنسان؛ فالإنسان جعله الله خليفة(١) في الأرض:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) أي: يخلف بنو آدم بعضهم بعضاً في هذه الأرض؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس:١٤]، وقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٦٢].

وقد اختلف في صحة المقولة: «الإنسان خليفة الله في أرضه» على ثلاث وجوه:

الجواز.

والمنع.

والتفصيل.

والراجح عندي: ما ذهب إليه الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله- في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٢): «قلت: إن أريد بالإضافة إلى الله: أنه خليفة عنه؛ فالصواب: قول الطائفة المانعة منها.

وإن أريد بالإضافة: أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله؛ فهذا لا يمنع فيه الإضافة، وحقيقتها: خليفة الله الذي جعله خلفاً عن غيره».

ولذلك كرمه الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠]، وسخر له ما في الأرض؛ ليعمرها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠]، وقوله : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٢و١٣].

لهذه القيمة العظمى لبني آدم أحاطه الله -سبحانه وتعالى- بسياج منيع من الضمانات والحرمات لمنع العدوان عليه- إلا بحق الله- وغلظت العدوان على الإنسان؛ فجعلت العدوان عليه اعتداء على البشرية جميعاً: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٖ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ [المائدة:٣٢].

وهذه الضمانات عبّر عنها أهل العلم بـ «الضروريات الخمس»، وقد اتفقت الأمة على أن الشريعة وضعت للمحافظة عليها.

قال الإمام الشاطبي- رحمه الله-: « فقد اتفقت الأمة - بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس -وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل- وعلمها عند الأمة كالضروري...»[١].

(١) «الموافقات» (١/ ٣١).

وعلم الطب من أبرز الوسائل لحماية: النفس ، والنسل، والعقل، وهي حق البدن على صاحبه؛ كما فهمه السلف الصالح- رضي الله عنهم-.

عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء مبتذلة[١]، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا[٢]. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كُلْ؛ فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال له: نم، فلما كان في آخر الليل قال له سلمان: قم الآن، فصليا جميعاً، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سلمان»[٣].

ولقد أدرك المسلمون عظيم قدر الطب وقيمته بين العلوم؛ فاهتموا به ونبهوا على أهميته ولزوم تعلمه وتعليمه.

عن عروة بن الزبير: أنه كان يقول لأم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق الأكبر -رضي الله عنها-: يا أمتاه![٤] لا أعجب من فهمك؛ أقول: زوجة رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس؛ أقول: ابنة أبي بكر، وكان من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب؛ كيف هو؟! ومن أين هو؟!.

---

(١) عليها ثياب الخدمة.

(٢) أي: لا يقربها ولا يطأ فراش زوجته.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

(٤) لأنها خالته، والخالة بمنزلة الأم، وكذلك هي أمه؛ لأنها زوج رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦].

قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عريَّة[١]! إن رسول الله ﷺ كان يسقم[٢] في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كُلِّ وجه، فتنعت له الأنعات[٣]، وكنت أعالجها له، فمن ثمّ[٤].

ولقد أحكم الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- هذا الباب إحكاماً أتعب من بعده؛ فقد كان -رحمه الله- يتقن الطب.

قال الإمام الذهبي -رحمه الله-: «ومن بعض فنون هذا الإمام الطبّ؛ كان يدريه»[٥].

وكان الشافعي -رحمه الله- يقول: «العلم علمان: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وما سوى ذلك فَبُلْغَة مجلس»[٦].

وقال: «لا تسكن بلداً لا يكون فيها عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك»[٧].

ولذلك كان -رحمه الله- يعيب على كثير من المسلمين إهمال هذا العلم النافع.

---

(١) ترخيم عروة.

(٢) يمرض.

(٣) الوصفات الطبية.

(٤) حسن- أخرجه أحمد (٦/ ٦٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٥٠)، والذهبي في «السير» (٢/ ١٨٢) بإسناد فيه ضعف.

وله طرق أخر: ذكرها الذهبي في «السير» (٢/ ١٨٢-١٨٣) يرتقي بها إلى مرتبة الحسن.

(٥) «السير» (١٠/ ٥٦).

(٦) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١١٤).

(٧) «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص٣٢٣)، و «مناقب الشافعي» (٢/ ١١٥).

عن حرملة قال سمعت الشافعي يقول: «اثنان أغفلها النـاس: الطـب والعربية»[(١)].

وقال- أيضاً-: كان الشـافعي يتلـهف علـى مـا ضَيَّـع المسـلمون مـن الطب، ويقول: «ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى»[(٢)].

ولذلك؛ فـالطب عنـد المسـلمين ضـرورة إنسـانية وحاجـة أساسـية، وليس ترفاً فكرياً أو أمراً كمالياً.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: «لا أعلم علماً بعد الحـلال والحـرام أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه»[(٣)].

الآخر: إن الإسلام يختلف عن غيره من الأديـان؛ فقـد جـاء للآخـرة والأولى؛ فلم يقتصر على تعليم الناس ما ينجيهم في الآخرة بل علمـهم مـا يسعدهم في دنياهم؛ لإقامة مجتمع متكامل في الأرض، فأنزل كافة التعاليم في شتى المجالات؛ فهناك نظام الحكم والسياسة، والنظـام الاجتمـاعي، والنظـام الاقتصادي، والنظام الصحي...إلخ.

ومن تأمل هدي الرسول ﷺ وجـده أفضـل هـدي وأكملـه في حفـظ الصحة؛ فإن حفـظ الصحـة موقـوف علـى حسـن تدبـير المشـرب والمـأكل والملبس والمسكن والهواء والنوم واليقظة والحركة والسـكون؛ فـإذا حصلـت هذه على الوجه المعتدل الملائم للبدن كان أقرب إلى دوام الصحـة والعافيـة وحفظها وحمايتها.

ولما كان علم الطب بهذه المنزلة في الإسلام وكان أصدقه ما صح عـن رسول الله ﷺ؛ لأن مفردات الطب النبوي تقع في القمـة السـامقة والـذورة العالية والمقام الأسنى، فهي تمتاز عن الطب البشري بأنها صادرة من مشكاة الوحي.

---

(١) «مناقب الشافعي» (٢١/ ١١٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٦)

(٣) «السير» (١٠/ ٥٧).

ولما كان الاهتمام بالطب النبوي لم يبلغ السعي؛ انشرح صدري وقويت عزيمتي على خدمة ما كتبه علماؤنا الذين سبقونا في هذا الباب؛ فذهبت أقلب النظر فيما تركوه، فوجدت من أحسنها وأكملها وأوعبها؛ كتاب «الطب النبوي» للإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني ابن قيم الجوزية -رحمه الله-؛ حيث ولع بمفردات الطب النبوي، ودافع عنها، ورد على من استنكرها أو أعرض عنها أو قلل من أهميتها، بصورة لا تجد لها نظيراً له مر الأيام، فقمت على تهذيبه وتنقيحه، وربطت كثيراً من مباحثه بـ «علم الطب الحديث»؛ لأنه مع ما تقدم من فضل الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- حيث بذل وسعه وأفرغ جهده؛ إلا أنه كان لا يتجاوز المعارف الطبية التي سادت في عصره: ينطلق منها، ويرجع إليها، ويعول عليها، ومن المعلوم ضرورة: أن هذه المعارف الطبية ليست لها عصمة الطب النبوي ولا حصانته!

ولذلك كان لا بد من قراءة جديدة لأبواب الطب النبوي؛ تعتمد الحقائق العلمية المعاصرة في فهم معانيه وتوجيه مقاصدة وتنسيق أبجدياته؛ لكن بالاحتفاظ بالروح والكلمة التي تعامل بها هذا الإمام الرباني مع نصوص الطب النبوي؛ فغدا -بتوفيق الله وفضله- معلمة طبية، ومفخرة علمية، وصيدلية نبوية.

أسأل الله العلي الأعلى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا: أن يتقبله مني نصرة لدينه، وخدمة لسنة رسوله ﷺ، ونفعاً لإخواني المسلمين، وأن يدخر لي ثواب ذلك كله إلى يوم لقائه: يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وكتبه

سليم بن عيد الهلالي الأثري السلفي

أبو أسامة

ضحى يوم السبت حادي عشرمن شهر ربيع الآخر

سنة (١٤٢٣ هـ) في عمان البلقاء عاصمة جند الأردن من

بلاد الشام المحروسة

إلماعة

* كتاب الطب النبوي فصول من كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» للإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي المتوفى سنة (٧٥١هـ = ١٣٥٠م).

* وأول من أخرج الكتاب مطبوعاً هو شيخ شيوخنا[1] العلامة محمد راغب الطباخ -رحمه الله- محدث حلب الشهباء ومؤرخها، المتوفى سنة (١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م).

ومما قاله في كلمته بين يدي الكتاب:

«في أثناء بحثي عن البقية الباقية من المخطوطات النفيسة في مكاتب حلب الشهباء عثرت في مكتبة المدرسة الحلوية على كتاب قديم الخط يرجع عهد كتابته إلى القرن الثامن أو التاسع كتب عليه «كتاب الطب النبوي» للشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة...

وبعد أن تصفحت الكتاب؛ تذكرت أن هذه الفصول ذكرها المؤلف ضمن كتابه: «زاد المعاد في هدي خير العباد» الذي طبع في مصر سنة (١٣٢٤هـ) في مجلدين ضخمين، ولما قابلت بين هذا الكتاب وبين الفصول التي ذكرها في الجزء الثاني منه وجدتها بعينها بدون زيادة ولا نقص؛ فتبين:

---

(١) لقد رغب العلامة المؤرخ راغب الطباخ -رحمه الله- بلقاء شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- لما سمع عن نشاطه في الدعوة إلى الكتاب والسنة، وإقباله على علم الحديث -وكان ذلك بواسطة الأستاذ محمد المبارك- فخصه بإجازته ومروياته تقديراً له واعترافاً بعلمه، وقدّم إليه كتابه: «الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية» ختمه بإجازات مشايخه له.

أن بعض الناس جرد هذه الفصول من هذا الكتاب في كتاب على حدة إذ لا ذكر له في ترجمة المؤلف، وكذلك لم يذكره صاحب «كشف الظنون» في كلامه على علم طب النبي ﷺ».

* الموارد الطبية لابن القيم هي:

١- «شرح الأربعين الطبية المستخرجة من سنن ابن ماجه» لعبد اللطيف البغدادي.

٢- «الأحكام النبوية في الصناعة الطبية» للكحال ابن طرخان.

ولم يشرِ الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- إليهما، لكن ذلك لا يخفى على من تأمل وقارن.

* يمتاز كتاب الطب بما يأتي:

أ- يضم الموضوعات المتشابهة بعضها إلى بعض، بينما تجدها مفرقة في غيره.

ب- أهمل ما لا يتعلق بالطب النبوي.

ت- فيه مباحث فقهية هامة وتنبيهات عقدية مفيدة.

ث- أغفل عن قصد وسائل المعالجة التي لا تصطدم مع عقيدة التوحيد بفهم السلف الصالح.

ج- يمتاز الكتاب بإسلوب ابن القيم البديع وبيانه الرشيق وتعبيره البارع.

ح- أضاف أبحاثاً جديدة غير موجودة في الكتب السابقة.

* مما يؤخذ على كتاب الطب النبوي:

أ- أن ابن القيم -رحمه الله- لم يشر إلى مصادره العلمية وموارده الطبية، ولعل عذره أن هذه المعلومات مشاع في كتب الطب.

ب- وجود أحاديث ضعيفة بلِ موضوعة دون بيان درجتها، ومن ثم بنى عليها أبواباً وعلق بها أحكاماً، مثل: «فصل في هديه ﷺ في علاج الخدران»، و«فصل في هديه ﷺ في علاج داء الحريق وإطفائه».

* عملي في الكتاب.

أ- حذفت الاحاديث الموضوعة والضعيفة وما بني عليها من أبواب وأحكام.

ب- إذا وجدت حديثاً صحيحاً يسد الباب الذي يستحق الحذف؛ أبقيت الباب، وحذفت الضعيف، ووضعت مكانه الصحيح.

ت- إذا كانت المعلومات الطبية لا تتعلق مباشرة بالحديث الضعيف أو الموضوع أبقيتها؛ لأن الرسول ﷺ قبل ما نعتته له العرب بالجملة؛ كما في أثر عائشة -رضي الله عنها- المتقدم.

ث- خرجت الأحاديث الثابتة تخريجاً يسيراً، وأحلت في بيان درجتها إلى كتب شيخنا الإمام المحدث الألباني -رحمه الله-؛ فإن الناس من بعده عالة عليه.

جـ- عرفت بالمصطلحات العلمية وبينت معانيها.

حـ- ربطت مسائله بالمعارف العلمية والطبية الحديثة، وكل تعليق طبي ينتهي بـ (ع)؛ فهو للدكتور عادل الأزهري، وكل تعليق ينتهي بـ (ق)؛ فهو للأستاذ عبد الغني عبد الخالق.

خـ- صنعت مجموعة من الفهارس العلمية الكشافة التي تعين الباحث في الوصول إلى غايته بأيسر الطرق وأسهلها.

د- كتبت طلائع للكتاب بينت خلالها أهمية الطب في الإسلام، ورددت على من طعن في الطب النبوي، وجعله بمنزلة الطب البشري الذي يخضع للخطأ والصواب.

هذا ما تيسر لي عمله، والله الموعد، وهو الهادي

النظام الصحي في الإسلام
وأثره في حفظ صحة الفرد والمجتمع

إن التعاليم الصحية في الإسلام فعالة في حفظ صحة الأفراد والمجتمع، وإليك نبذ موجزة في بيان تحقيق فعاليته:

١- الإنسان مجموع من جسد وروح، ولكل منهما مقوماته؛ فمقومات الجسد: الطعام، والشراب، والمسكن، والملبس، والشهوات المادية الحسية.

وقد قام الإسلام على هذه الرغبات والغرائز بالتهذيب والتقويم للمحافظة على صحة الجسم وإعطاء البدن حقه، ومن مظاهر هذا القيام ما يأتي:

أ- أمر الإسلام بنظافة الجسم وضوء أو غسلاً أو استحماماً؛ لأسباب كثيرة: بعضها واجب والقسم الآخر مستحب.

ب- حض على غسل الأيدي بعد القيام من النوم وقبل أن توضع في الآنية.

ت- حض على نظافة الرأس والشعر والأطراف.

ث- ونص على نظافة الثوب.

ج- وحرص على نظافة البيوت وأفنيتها.

ح- وحذر من تلويث مصادر المياه العامة؛ كالآبار والأنهار.

خ- ونص على نظافة المأكل والمشرب بتغطية الآنية حفظاً من غبار أو ذباب أو آفة.

د- ونهى عن إتعاب الجسم وإنهاكه حتى في العبادة، فنهى عن الوصال في الصوم أو قيام الليل كله.

ذ- بَيَّن سنن الفطرة وحض المسلمين على القيام بها وجعلها عبادات.

وبذلك يظهر: أن الإسلام عمل على تتمة القوة الجسدية وتوفير الصحة الإيجابية لها بمفهومها الحديث.

وبالإضافة إلى اهتمام الإسلام بصحة الأجسام وجمالها ونضارتها إيجاباً، فقد اهتم بعدم تعريض صحة البدن إلى ما يضعفها، ولذلك شرعت الرخص الشرعية؛ ليستطيع الإنسان القيام بواجباته التعبدية في حالة الضعف أو الوهن الذي يعرض للجسم، ومن ذلك:

أ- أباح للمسافر والمريض والمرضع والحامل والشيخ والكبير والعجوز الإفطار في نهار رمضان.

ب- حرم الصيام على الحائض حيث يرافق ذلك ضعف الجسم نتيجة فقد الدم في الطمث.

ت- حط بعض محظورات الإحرام عن الحاج أو المعتمر الذي قد يلحقه الأذى بسبب ذلك مقابل فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

ث- وفي حالة كون الماء يؤذي الجسم ويضر بصحته أباح الإسلام التيمم.

٢- الوقاية من الأمراض ومكافحة الأوبئة:

أ- ربط بعض العبادات؛ كالصلاة بالوضوء أو الغسل؛ فلا تصح إلا بها، ولا شك أن مداومة الوضوء يؤدي إلى نظافة البدن، والتي تعمل بدورها على الوقاية من الأمراض.

ب- أمر الإسلام بعزل المريض بمرض معدٍ؛ وذلك منعاً لانتشار الأمراض في المجتمع.

ت- نص على مبدأ الحجر الصحي، فإذا وقع الطاعون أو ما في معناه من الأوبئة؛ كالكوليرا والجدري بأرض؛ فلا خروج منها أو دخول إليها.

ث- وأمر الإسلام بالتداوي والعلاج من الأمراض.

٣- علم الأغذية:

لقد اهتم الإسلام بالغذاء من جوانب متعددة:

أ- بيان الأغذية المحرمة؛ ومنها: الميتة والدم ولحم الخنزير وكل واحد من هذه المحرمات -في تحريمه- له حكمة علمية عالية لا يجادل فيها ذو مسكة عقل.

ب- وحرم الإسلام الخمر: قليلها وكثيرها؛ لمالها من مضار على الصحة والعقل والخلق والمجتمع ؛ فهي أم الخبائث.

ويلحق بالخمر كل العقاقير والأدوية التي تذهب العقل؛ كالحشيش والأفيون أو تضر بالجسم؛ كالدخان.

ومن رأى ما تعانيه المجتمعات الغربية من كثرة الأمراض التي تفتك بأجسامهم الناتجة عن شرب الخمر والدخان والمخدرات علم حكمة الإسلام في تحريمه لهذه الخبائث.

ت- بيان الأغذية الحلال.

لم يحرم الإسلام من الطعام إلا ما كان ضاراً، ولذلك شجع على الأغذية النافعة للجسم، وعارض المذهب النباتي الذي يمنع أكل اللحوم تعبداً، وفي ذلك بيان أن الجسم البشري لا يستطيع أن يعيش على النباتات وحدها؛ لأن أمعاء الإنسان أقصر عن أمعاء الحيوانات آكلة العشب؛ فهي لا تستطيع أخذ ما يكفيها من البروتينات عن طريق الوجبة الغذائية.

وشجع الإسلام- أيضاً- على الأغذية الغنية بالدواء والتي فيها شفاء؛ كالعسل واللبن.

ث- نظم الإسلام الغذاء كما وتوقيتا:

- فقد نص الإسلام على تحريم الإسراف في الطعام والشراب وبين أنه ما ملأ أدمي وعاء شراً من بطنه.

- وجعل علاقة بين الطعام والشراب والهواء، فإن كان ولا بد؛ فلكل ثلث.

- وفرض الإسلام نظاماً عجيباً للصوم، ففي كل عام شهر، وهو: رمضان، وحض على صيام التطوع ثلاث أيام من كل شهر، وهي: الأيام البيض، وعلى يومين في الأسبوع، هما: الاثنين والخميس.

ولا أحد يماري في فوائد الصوم الصحية والجسمية والعقلية والنفسية.

٤- لم يترك الإسلام في معالجة مسائل الجنس ومشاكله صغيرة وكبيرة إلا وضع لها تنظيماً ثابتاً وحلاً دقيقاً.

أ- اهتم الإسلام بالتربية الجنسية بأسلوب مهذب: يشرح علاقة الإنسان بالجنس وتكوين الجنين حيث تظهر في كل ذلك قدرة الله -سبحانه وتعالى-.

ب- اهتم الإسلام بالزواج وبناء الأسرة، ونظم العلاقات القائمة بين الزوج والزوجة والأبناء في ظروف الاتصال والانفصال.

ت- شرح الإسلام العلاقة الصحية السليمة بين الزوجين: الذكر والأنثى، وبين كيف يشبع أحدهما الآخر جنسياً حتى تستقيم العشرة الزوجية.

ث- حرم الإسلام المتعة الحرام ؛ فحرم الزنى واللواط وإتيان الدبر.

ج- وأمر بالختان، وهو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة، حيث هناك تتجمع فيها الأوساخ ، وقد أثبت الطب الحديث أن سرطان الحشفة ترتفع نسبته مع بقاء الجلدة دون اختتان.

ح- اهتم بالنظافة الجنسية؛ فأمر بالغسل من الجنابة، والاستنجاء من الغائط والبول، وحرم الجماع أثناء الحيض.

٥- التربية النفسية.

يعد التوتر العصبي والنفسي من أخطر مشاكل العصر وبخاصة في الدول الصناعية، فهناك الملايين انتحروا ، وكثير من الآباء والأمهات أصيبوا بلوثة مفاجئة، فقتلوا أولادهم وأهليهم، والبقية الباقية يعيشون على المهدئات والمسكنات والمنومات؛ كي يستطيعوا ممارسة نشاطهم اليومي... وكل ذلك يعود إلى ما يسمى بـ«التوتر الحضاري» ومن أسبابه:

أ- الفراغ الروحي والعقدي.

ب- انعدام الوازع الخلقي.

ت- طغيان المادة.

ث- انحسار التراحم والتعاون في المجتمعات الصناعية المادية.

ولا يشك عاقل أن العلاج الحقيقي لكل هذه العوامل هو الإسلام؛ لأن المجتمع الإسلامي هو الوحيد الذي تتعانق فيه بمحبة وإخاء شؤون الدنيا مع الآخرة، ولذلك فهو المؤهل للقضاء على جميع أسباب التوتر الحضاري.

أ- فهو يقوم على المحبة والتعاون والأمن والأمان والإيمان والتراحم بين الخلق.

ب- وهو يخلو من بؤر الفساد والتوتر العصبي؛ كالخمر والزنى والقمار والمخدرات.

ت- وهو مجتمع يرفض اليأس والقنوط والانتحار والغضب.

ومع هذه التعاليم الإسلامية لا يمكن ظهور أسباب التوتر الحضاري المادي.

٦- نظرة الإسلام إلى المرض والمرضى.

إن كره المرض أمر فطري؛ لكن الإسلام بنظرته إلى المرض والمرضى حوله إلى عامل إيجابي:

أ- فهو ابتلاء يكفر الذنوب، ويرفع الدرجات؛ إذا تلقاه المسلم من غير حزن ولا شكوى ولا ضجر.

ب- جعل للمريض حق على بقية إخوانه المسلمين؛ فجعل عيادة المريض من حقوق المسلم على المسلم.

ت- الدعاء له بالشفاء، وحثه على التحمل والصبر؛ ليكون قادراً على التماسك، وهذه حالات نفسية تعين على مقاومة المرض.

ث- عامل الإسلام المرضى معاملة خاصة؛ فأسقط عنهم بعض الفروض؛ كالجهاد، وخفف عنهم بعضها؛ كالصيام والصلاة إذا كان قيام المريض بها على الأصل يجعل صحته في تدهور وشفاؤه في تأخر.

ج- أعطى المريض رخصة تعفيه من التزامات شرعية حسب ما تقتضيه الضرورة؛ فأباح استعمال الذهب في العلاج التعويضي، ورخص لمن به حكة في لباس الحرير.

مما تقدم يظهر لنا جلياً: أن الإسلام نظر لصحة الأجسام؛ كحاجة أساسية في حياة الناس، ولذلك قرنها بالعبادات؛ ولذلك فالمسلم مدعو للعناية بالصحة الفردية والعامة للمجتمع؛ لكي يبقى المجتمع المسلم قوياً وفتياً، ولن يتم له ذلك إلا في ظلال تعاليم الرسول الكريم ﷺ في النواحي الطبية.

وإذا كان المسلمون -اليوم- يمرون في مرحلة تخلف صحي؛ فذلك بسبب بعدهم عن تعاليم الإسلام الصحية؛ لأنهم عندما طبقوها لأول مرة أثمرت هذه التعاليم مجتمعاً صحياً نقياً مثالياً...بينما كانت مدن أوربة بخاصة والغرب بعامة تنضح بالقمامة وتضج بالحشرات وتعيث فيها الخنازير.

ذكرت الدكتورة (سيجريد هونكة) في كتابها : «شمس العرب تطلع على أوروبة»: أن الرّحالة الأندلسي الطرطوسي كتب في جولته في أوروبة يصف أهلها وسكانها: «قد طالت لحاهم وشعورهم، ولا يغسلون ملابسهم ولا يستحمون إلا مرة أو مرتين في كل عام» .

وتأمل اعتراف الطبيب الإنجليزي (برناردشو) في كتابه «حيرة الطبيب» وهو يقول: «إن بريطانيا عندما استعمرت « جزر الساندويش» قد عملت بكل وسائل الضغط والإغراء على تحويل سكانها من دين الإسلام إلى دين المسيحية[1] حتى نجحت في ذلك، ولكن النتيجة هي انتشار الأمراض الفتاكة والأوبئة بينها ، وذلك بسبب بعدهم عن تعاليم الدين الإسلامي التي تقضي بالنظافة المطلقة في كل صغيرة وكبيرة إلى حد الأمر بقص الأظافر وتنظيف ما تحتها والعناية بدفن القلامات».

(١) هذا خطأ، والصواب: «النصرانية».

مدى الاحتجاج بالهدي النبوي
في الشؤون الطبية والعلاجية

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين:

الأول: من جعل جميع أقوال الرسول ﷺ حجة شرعية على العباد إن ثبتت.

الآخر: من جعل أقواله وهديه حجة في ما كان متصلاً بأمور الدين؛ كالإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والأحاديث المبينة لأحكام الحلال والحرام والفرائض والتعبدات والمعاملات وغيرها من أمور الدين والشريعة.

أما الأمور الدنيوية؛ فلا يلزم أن تكون اعتقاداته وأقواله فيها مطابقة للواقع؛ لأنه لا صلة لهذا الأمر بمقام النبوة.

بل قد يقع الخطأ في ذلك الاعتقاد قليلاً أو كثيراً بل قد يصيب غيره حيث يخطىء هو ﷺ.

وزعموا: أن هذا القول ليس فيه حط من منصب النبوة الذي أكرمه الله به؛ لأنه منصب يدور على العلم بالأمور الدينية.

قال ابن خلدون في «المقدمة» (ص٤٩٣): «الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل[1]، وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل، فإنه ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات.

---

(١) أي: من باب طب البادية المبني على التجارب القاصرة.

وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم...»؛ فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه، اللهم إذا استعمل على جهة التبرك وصدق القصد الإيماني، فيكون له أثر عظيم النفع ، وليس ذلك في الطب المزاجي».

وقال القاضي عياض في «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ١٨٣- ١٨٥): «فصل: فأما أحواله في أمور الدنيا؛ فنحن نسبرها على أسلوبها المتقدم بالعقد والقول والفعل؛ أما العقد منها، فقد يعتقد في أمور الدنيا الشيء على وجه ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن بخلاف أمور الشرع (ثم ذكر حديث تأبير النخل) وهذا على ما قررناه فيما قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظنه من أحوالها لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده في شرع شرعه وسنة سنها..فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها يجوز عليه فيها ما ذكرناه، إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة.

وقد تواتر بالنقل عنه ﷺ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها وسياسة فرق أهلها ما هو معجز في البشر مما قد نبهنا عليه في باب معجزاته من هذا الكتاب»

وكل من جاء بعدهما لا يخرج كلامه عن فحوى كلامهما أو استدلالهما، والجواب على ذلك من وجوه:

١- أن الطب النبوي صادر عن الوحي ومشكاة النبوة وكمال العقل، ومما يحتج به في هذا الباب قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾ [النجم:٣-٥]؛ فإن

قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ عموم شامل بمقتضى اللغة لكل ما يخرج من فم النبي ﷺ من القول سواء ما يتعلق بأمور الدين أو أمور الدنيا، فكل ذلك وحي أوحاه الله إليه لا مجال فيه لخطأ، ولا مدخل فيه لزلل؛ لقوله -تعالى-: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

وهذا مذهب المحدثين بعامة، ففي صحيح البخاري -مثلاً-: «باب السعوط»، «باب أي ساعة يحتجم»، «باب الحجامة في السفر»، و«باب الحجامة من الشقيقة والصداع»، وفي «السنن» تجد كتباً مفردة عن الطب.

٢- أن اجتهاد الرسول ﷺ ليس كاجتهاد المجتهدين؛ لأنه لا يقر على خطأ ألبتة سواء أكان في أمور الدين أو الدنيا.

ولعل قائلاً يقول: إن كون السنة وحي من الله ينافي كون الرسول ﷺ مجتهداً على قول القائلين بذلك.

والجواب: إن مسألة اجتهاد الرسول ﷺ مسألة أصولية خلافية.

ولكن جمهور الأصولين ذهب إلى جواز وقوع ذلك منه ﷺ عقلاً وشرعاً[1].

ولا يوجد ما ينفي ذلك إلا أفهام قوم قصروا عن إدراك الحق؛ فلم يستطيعوا الجمع بين الحقائق الشرعية الصحيحة؛ لأن في المسألة نكتة لطيفة لم يقع عليها إلا المحققون في هذا الفن؛ وهي:

١- أن اجتهاده ﷺ ينزل منزلة الوحي.

٢- أن اجتهاده ﷺ ليس له حكم اجتهاد غيره.

قال العلامة الشوكاني -رحمه الله- في «إرشاد الفحول» (ص٢٥٦) راداً على قول من قال: أن الاجتهاد فيه صواب وخطأ،فأجاب -رحمه الله-: «فقد أجيب عنه بمنع كون اجتهاده يكون له حكم اجتهاد غيره؛ فإن ذلك

---

(١) انظر«المسودة في أصول الفقه» لآل تيمية (ص٤٥١-٤٥٢)، و«إرشاد الفحول» للشوكاني (ص٢٥٥-٢٥٦).

إنما كان لازماً لاجتهاد غيره لعدم اقترانه لما اقترن به اجتهاده ﷺ من الأمر باتباعه».

وقال العلامة علي بن سلطان محمد القاري في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٢٣٧)، «ثم من قال بأنه -عليه الصلاة والسلام- كان مجتهداً، ينزل اجتهاده منزلة الوحي؛ لأنه لا يخطىء، وإذا أخطأ ينبه عليه بخلاف غيره».

ومن قبلهما الإمام الشاطبي فقد حقق المسألة تحقيقاً عميقاً ووثقها توثيقاً دقيقاً؛ فقال -رحمه الله- في «الموافقات» (٤/ ٢١): «فإن الحديث: إما وحي من الله صرف، وإما اجتهاد من الرسول ﷺ معتبر بوحي صحيح من كتاب الله وسنة، وعلى كلا التقديرين لا يمكن فيه التناقض مع كتاب الله؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وإذا فرع على القول بجواز الخطأ في حقه، فلا يقر عليه ألبتة، فلا بد من الرجوع إلى الصواب».

قلت: هذا هو الحق اللباب والصواب العجاب؛ فإن الوقائع الصحيحة تؤكده، وبهذا القيد الدقيق تقيده؛ فإن الرسول اجتهد؛ كما في قصة أسارى بدر، وفي الإعراض عن الأعمى: عمرو بن أم مكتوم -رضي الله عنه-، وفي الإذن للمخلفين؛ فسرعان ما تنزل الوحي يريه الحق حقاً ويرشده لاتباعه.

وبهذا يكون الخلاف بين الفريقين خلاف لفظي شكلي؛ لأن النتيجة واحدة بحيث لا يقر النبي ﷺ على خطأ؛ لأنه مؤيد بالعصمة، وبذلك يكون أمر السنة؛ كما قال الشاطبي في «الموافقات» (٤/ ٨٠): «كل ما أخبر به الرسول ﷺ من خبر؛ فهو كما أخبر، وهو حق وصدق، معتمد عليه فيما أخبر به وعنه سواء انبنى عليه في التكليف حكم أم لا، كما أنه إذا شرع حكماً أو أمر أو نهى؛ فهو كما قال -عليه الصلاة والسلام- لا يفرق في ذلك بين ما أخبره به الملك عن الله وبين ما نفث في روعه وألقى في نفسه أو رآه رؤية كشف واطلاع على مغيب على وجه خارق للعادة أو كيف ما

كان؛ فذلك معتبر يحتج به وينبني عليه في الاعتقادات والأعمال جميعاً؛ لأنه ﷺ مؤيد بالعصمة وما ينطق عن الهوى».

قلت: وفي مسألة تأبير النخل شفاء للعي؛ فدونك تحقيقها:

أخرج الإمام مسلم (١٥/ ١١٦- نووي)، وابن ماجه (٢٤٧٠)، وأحمد (١/ ١٦٢) عن سماك: أنه سمع موسى بن طلحة بن عبيد الله يحدث عن أبيه قال: مررت مع النبي ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء» قالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فلقح، قال: «ما أظن يغني ذلك شيئاً» فأخبروا بذلك، فتركوه، فأخبر الرسول ﷺ بذلك، فقال: «إن كان ينفعهم؛ فليصنعوه؛ فإني إنما ظننت ظناً؛ فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً؛ فخذوه؛ فإني لن أكذب على الله -عز وجل-».

وأخرج مسلم (١٥/ ١١٧) من حديث رافع بن خديج قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل، يقولون يلقحون النخل، فقال: « ما تصنعون»؟ قالوا: كنا نصنعه. قال : «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً، فتركوه، فنفضت أو فنقصت. قال: فذكروا ذلك له، فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي؛ فإنما أنا بشر».

قال عكرمة: أو نحو هذا. قال المَعْقِرِي[1] : فَنَفَضَت ولم يشك[2].

---

(١) هو أحمد بن جعفر المعقِري، بفتح الميم وإسكان العين المهملة وكسر القاف، منسوب إلى معقِر.

(٢) بهذه الدقة العجيبة نقلت أحاديث النبي ﷺ؛ فإذا شك الراوي، أو روى بالمعنى صرح بذلك، ليعلم الواقف على المنقول حقيقته(!)

وهذا المثال الذي بين يديك وأمثاله صاعقة على رأس أبي رية وأضرابه وأفراخه الذين زعموا: أن جميع الأحاديث النبوية مستها أفهام الرواة القاصرة؛ فسلبتها إشراقة البلاغة النبوية؛ ومرادهم: الطعن في الرواة والمروي والناقل والمنقول؛ ليسلم لهم ما نفث

=

وأخرج مسلم (١٥/ ١١٧- نووي) وابن ماجه (٢٤٧١) وأحمد (٦/ ١٢٣) عن حماد حدثنا ثابت عن مالك بن أنس، وهشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبي ﷺ مرّ بقوم يلقحون، فقال: «لو لم تفعلوا؛ لصلح» فخرج شيصاً، فمر بهم، فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت: كذا، قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

لقد أخبر الرسول ﷺ عن ظنه، وكذلك كان ظنه، فالخبر صدق قطعاً، أما بالنسبة لهم فلم يكن خبراً، وإنما كان ظناً؛ كما بينته الروايات الصحيحة؛ لذلك؛ فهو ليس من باب اجتهاده ﷺ الذي يراه شرعاً؛ فهذا يجب العمل به، ومع ذلك؛ فلم يقر الخطأ.

قال النووي -رحمه الله- في «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ١١٦-١١٧): «...قال العلماء: قوله ﷺ: «من رأيي»؛ أي: في أمر الدنيا ومعاشها لا على التشريع، فأما ما قاله باجتهاده ﷺ ورآه شرعاً يجب العمل به وليس أبار النخل من هذا النوع بل من النوع المذكور قبله، مع أن لفظة (الرأي)

= الشيطان في روعهم، ولكن أبى الله إلا أن يرسل الحق على الباطل؛ فيدمغه؛ فإذا هو زاهق، ولنابتة السوء الويل مما تصف، وهاك ما اقترف؛ لتعرف إنه انحرف.

قال في كتابه الموسوم بـ «أضواء على السنة النبوية» (ص٢٠ط٣): « ...حتى انتهيت إلى حقائق عجيبة ونتائج خطيرة: ذلك أني وجدت أنه لا يكاد يوجد في كتب الحديث كلها- مما سموه صحيحاً أو ما جعلوه حسناً- حديث قد جاء على حقيقة لفظه ومحكم تركيبه كما نطق به الرسول، ووجدت أن: الصحيح منه على اصطلاحهم إن هو إلا معان مما فهمه بعض الرواة، وقد يوجد بعض ألفاظ مفردة بقيت على حقيقتها في بعض الأحاديث القصيرة، وذلك في الفلتة والندرة وتبين لي: أن ما يسمونه في اصطلاحهم حديثاً صحيحاً، إنما كانت صحته في نظر رواته لا أنه صحيح في ذاته...».

وفي الجزء الثاني من كتابي: «السنة النبوية بين اتباعها وأعدائها» غاية المريد وبغية المستفيد وبلغة المستزيد حيث قطعنا -بفضل الله وتوفيقه- دابر شبهاتهم الزائغة الداحضة بحجج الله البالغة الناهضة.

إنما آتى به عكرمة على المعنى؛ لقوله في آخر الحديث: قال عكرمة: أو نحو هذا، فلم يخبر بلفظ النبي محققاً[١].

قال العلماء: لم يكن هذا القول خبرا وإنما كان ظنا؛ كما بينه في هذه الروايات...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٢):

«...وهو لم ينههم عن التلقيح، لكن هم غلطوا في ظنهم أنه نهاهم؛ كما غلط من غلط في ظنه أن الخيط الأبيض والخيط الأسود هوالحبل الأبيض والأسود».

٣- الطب فعل من أفعال المكلفين، وإنما جاء الشرع الحنيف؛ ليضبط أفعال المكلفين ويحكمها ببيان ما يوجبه الله منها وما يحرمه أوما يستحبه أو يكرهه أو يجيزه.

وهذه هي الأحكام التكليفية الخمسة؛ فلا يخرج عنها أي فعل من أفعال المكلفين.

ولذلك جاءت أحاديث تأمر بالتداوي، وأحاديث تصف بعض الأدوية، وأخرى تحرم قسما آخر...إلخ.

٤- الله -سبحانه- أنزل الداء والدواء علمه من علمه وجهله من جهله، وما يتعلق بأمور الداء والدواء الموجودة في السنة النبوية؛ إنما هو بتعليم الله لرسوله ﷺ ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾ [النجم:٥]؛ ولأن الرسول لم يتلق علما من عند غير الله، إذا؛ لارتاب المبطلون ﴿ وَمَا كُنتَ

(١) وفيه دليل واضح وبرهان لائح لمن ألقى السمع وهو شهيد: أن أهل العلم يرون أن الراوي الثقة إن لم يستدرك على روايته، فقد جاء بلفظ النبي ﷺ محققا؛ كما خرج من مشكاة النبوة.

فليتأمل المنصف مقالة أهل العلم ولا يخذله مكاء الناعقين؛ فإنه طنين ذباب ونعيق غراب، لم يضربوا بنصيب في هذا الباب(!).

تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

٥- أن الحقائق العلمية والطبية الواردة في السنة اشتملت على أدلة دامغة أيدها العلم الحديث، وأكدها الطب الجديد، مما يدل دلالة لا لبس فيها، ولا غموض يعتريها: أن الذي أوحاها لرسول الله ﷺ هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

٦- وردت أحاديث تدل جزماً: أن الطب النبوي وحي من عند الله؛ ففي «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- : أن رجلاً أتى للنبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «إسقه عسلاً»، ثم أتاه الثانية، فقال: «إسقه عسلاً»، ثم أتاه الثالثة، فقال: «إسقه عسلاً»، ثم أتاه، فقال: فعلت، فقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، إسقه عسلاً»؛ فسقاه؛ فبرأ.

قال الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله- : « فهذا الذي وصف له النبي ﷺ كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء، فأمر بشرب العسل؛ لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المعدة والأمعاء؛ فإن العسل فيه جلاء ودفع للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة؛ تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجتها، فإن المعدة لها خمل كخمل المنشفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة؛ أفسدتها وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء، لا سيما إن مزج بالماء الحار.

وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو: أن الدواء يجب أن يكون له مقدار كمية بحسب حال الداء، أن قصر عنه؛ لم يزله بالكلية، وإن جاوزه؛ أوهن القوى ، فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل، سقاه مقداراً لا يفي بمقاومة الداء؛ ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره؛ علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي ﷺ؛ أكد عليه المعاودة؛ ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء؛ بريء بإذن الله.

واعتبار مقادير الأدوية وكيفياتها ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب.

قوله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك» ؛ إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه، ولكن لكذب البطن وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمره بتكرار الدواء لكثرة المادة.

وليس طبه ﷺ كطب الأطباء؛ فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي ومشكاة النبوة وكمال العقل، وطب غيره أكثره حدس وظنون وتجارب، ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة؛ فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء به وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان؛ فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق هذا التلقي؛ لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجساً إلى رجسهم، ومرضاً إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية؛ فإعراض الناس عن طب النبوة؛ كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخبث الطبيعة وفساد المحل، وعدم قبوله، وبالله التوفيق».

٧- ولذلك كله دندن الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- كثيراً حول هذه القضية، وانتصر لها بالحجة والبرهان وبينّها أكمل بيان، ومما قاله:

«فهذه فصول نافعة في هديه ﷺ في الطب الذي تطبَّب به، وَوَصَفَه لغيره، ونُبَيِّنُ ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكثر الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم»[(١)].

«ونحن نقول: إن ها هنا أمراً آخر: نسبة طب الأطباء إليه؛ كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم، وقد اعترف به حذاقهم وأئمتهم، فإن ما عندهم

---

(١) (ص ٣٥).

من العلم بالطب منهم من يقول: هو قياس، ومنهم من يقول: هو تجربة، ومنهم من يقول: هو إلهامات ومنامات وحدس صائب، ومنهم من يقول: أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذوات السموم، تعمد إلى السراج؛ فتلغ في الزيت تتداوى به، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض، وقد عشيت أبصارها، تأتي إلى ورق الرازيانج؛ فتمر عيونها عليها. وكما عهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انحباس طبعه، وأمثال ذلك مما ذكر في مبادئ الطب .

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره؛ فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي؛ كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء، بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم؛ من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب؛ فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه .

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء، وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجاً عنها، ولكن الأسباب متنوعة؛ فإن القلب متى اتصل برب العالمين وخالق الداء والدواء ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه، وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفس والطبيعة؛ تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به، وحبها له وتنعمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه واستعانتها به، وتوكلها

عليه: أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية؛ وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس، وأغلظهم حجاباً، وأكثفهم نفساً، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية، وسنذكر -إن شاء الله- السبب الذي به أزالت قراءة الفاتحة داء اللدغة عن اللديغ التي رقي بها، فقام حتى كأن ما به قلبة»[(١)].

«وسنزيد هذا المعنى -إن شاء الله تعالى- إيضاحا وبيانا: عند الكلام على التداوي بالرقى، والعوذ النبوية، والأذكار، والدعوات، وفعل الخيرات، ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوي؛ كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم، كما اعترف به حذاقهم وأئمتهم، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالا عن الأرواح، وأن قوى العوذ، والرقى، والدعوات، فوق قوى الأدوية، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة»[(٢)].

«وبالجملة: فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي؛ كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم، بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطرقية بما لا يدرك الإنسان مقداره، فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابغة، والحجة البالغة»[(٣)].

«وقد تقدم: أن طب الأطباء بالنسبة إلى طب الأنبياء، أقل من نسبة طب الطرقية والعجائز إلى طب الأطباء؛ وأن بين ما يلقى بالوحي، وبين ما يلقى بالتجربة، والقياس -من الفرق- أعظم مما بين القدم والفرق.

---

(١) (ص ٤١-٤٣).
(٢) (ص ٧٧).
(٣) (ص ٢٣٨).

ولو أن هؤلاء الجهَّال وجدوا دواء منصوصاً عن بعض اليهود والنصارى والمشركين -من الأطباء-: لتلقوه بالقبول والتسليم، ولم يتوقَّفوا على تجربته.

نعم: نحن لا ننكر أن للعادة تأثيراً في الانتفاع بالدواء وعدمه؛ فمن اعتاد دواءً وغذاءً: كان أنفع له، وأوفق ممن لم يعتده، بل ربما لم ينتفع به مَن لم يعتده.

وكلام فضلاء الأطباء -وإن كان مطلقاً- فهو بحسب الأمزجة والأزمنة، والأماكن والعوائد. وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح في كلامهم ومعارفهم، فكيف يقدح في كلام الصادق المصدوق، ولكن نفوس البشر مركبة على الجهل والظلم، إلا من أيده الله بروح الإيمان، ونوّر بصيرته بنور الهدى»[1].

«قد أتينا على جملة نافعة من أجزاء الطبِّ العلميِّ والعمليِّ، لعل الناظر لا يظفر بكثير منها إلا في هذا الكتاب، وأريناك قرب ما بينها وبين الشريعة، وأن الطب النبوي: نسبة طبِّ الطبائعيين إليه، أقلّ مِن نسبة طب العجائز إلى طبهم.

والأمر فوق ما ذكرناه، وأعظم مما وصفناه بكثير، ولكن: فيما ذكرناه تنبيه باليسير على ما وراءه، ومن لم يرزقه الله بصيرة على التفصيل، فليعلم ما بين القوة المؤَيدة بالوحي من عند الله، والعلوم التي رزقها الله الأنبياء، والعقول والبصائر التي منحهم الله إياها؛ وبين ما عند غيرهم.

ولعل قائلاً يقول: ما لهدي الرسول ﷺ، وما لهذا الباب، وذكر قوى الأدوية، وقوانين العلاج، وتدبير أمر الصحة؟.

وهذا من تقصير هذا القائل في فهم ما جاء به الرسول ﷺ، فإن هذا وأضعافه، وأضعاف أضعافه: من فهم بعض ما جاء به، وإرشاده إليه،

---

(١) (ص ٤٤٢).

ودلالته عليه، وحسن الفهم عن الله ورسوله: مَنٌّ يَمُنُّ الله به على من يشاء مِن عباده.

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة في القرآن، وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان؛ كاشتمالها على صلاح القلوب؛ وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها، ودفع آفاتها؛ بطرق كلية: قد وُكِل تفصيلها إلى العقل الصحيح، والفطرة السليمة؛ بطريق القياس والتنبيه والإيماء؛ كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه، ولا تكن ممن إذا جهل شيئاً عاداه.

ولو رزق العبد تضلعاً من كتاب الله وسنة رسوله، وفهماً تاماً في النصوص ولوازمها: لاستغنى بذلك عن كلّ كلام سواه، ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه، وذلك مسلَّم إلى الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه-؛ فهم أعلم الخلق بالله وأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره .

وطبُّ أتباعهم: أصحُّ وأنفع من طب غيرهم. وطبُّ أتباع خاتمهم وسيدهم وإمامهم: محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم-: أكمل الطب وأصحّه وأنفعه.

ولا يَعْرِفُ هذا إلا من عرف طبَّ الناس سواهم وطبَّهم، ثم وازن بينهما، فحينئذ: يظهر له التفاوت. وهم أصحُّ الأمم عقولاً وفطراً، وأعظمهم علماً، وأقربهم في كل شيء إلى الحقّ؛ لأنهم خيرة الله من الأمم، كما أن رسولهم خيرته من الرسل. والعلم الذي وهبهم إياه، والحلم والحكمة؛ أمر لا يدانيهم فيه غيرهم.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده»: من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنتم توفون سبعين أمة؛ أنتم خيرها وأكرمها على الله»**.

فظهر أثر كرامتها على الله -سبحانه-: في علومهم وعقولهم، وأحلامهم وفطرهم، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم، وأعمالهم ودرجاتهم؛ فازدادوا بذلك علما وحلما وعقولا، إلى ما أفاض الله -سبحانه وتعالى- عليهم: من علمه وحلمه .

ولذلك كانت الطبيعة الدموية لهم، والصفراوية لليهود، والبلغمية للنصارى.

ولذلك غلب على النصارى: البلادة، وقلة الفهم والفطنة، وغلب على اليهود: الحزن والهم والغم والصغار، وغلب على المسلمين: العقل والشجاعة، والفهم والنجدة، والفرح والسرور.

وهذه أسرار وحقائق إنما يعرف مقدارها: من حسن فهمه، ولطف ذهنه، وغزر علمه؛ وعرف ما عند الناس. وبالله التوفيق»[١].

(١) (ص٤٩٩-٥٠١).

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فهذه فصول نافعة في هديه ﷺ في الطب الذي تطبَّب به، وَوَصَفَه لغيره، ونُبَيِّنُ ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكثر الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم.

فنقول -وبالله المستعان؛ ومنه نستمد الحول والقوة-:

فصل

المرض نوعان:

مرض القلوب.

ومرض الأبدان[1].

---

(١) إن هذا التقسيم فيه من الحكمة الإلهية والإعجاز الكثير، ما لم يتوصل إليه الأطباء إلا حديثاً: في منتصف القرن الثامن عشر، فقد قسمت الأمراض عموماً إلى قسمين:

١- **الأمراض العضوية**، وهي: الأمراض التي تنتج من عدم أداء أي جزء من أجزاء الجسم وظيفته كاملاً أو توقفه عن العمل بالكلية، أو تنتج من دخول ميكروبات مختلفة الأنواع إلى الجسم، وتصيب أي عضو فيه بالتلف، وينتج عن ذلك أعراض المرض. وكل مرض عضوي له أعراض وتاريخ ومواصفات ومضاعفات خاصة به: بحيث يمكن التفرقة بين الأمراض العضوية، وتشخيص كل منها.

وهذا هو المقصود بمرض الأبدان، وأمثال هذه الأمراض هي: الشلل، والحميات، والدرن، والصفراء... إلخ.

٢- **الأمراض النفسية**، وهي -في الحقيقة-: أعراض أمراض متنوعة وكثيرة جداً، يشعر بها المريض، وبالكشف عليه بواسطة الطبيب، مع الاستعانة بجميع الأبحاث اللازمة -مثل الأشعة والتحاليل المختلفة...إلخ- يوجد المريض في حالة طبيعية؛ أي: عدم وجود مرض عضوي بالجسم.

وهذه الأعراض تنتج عن مؤثرات خارجية في الحياة العامة؛ مثل: الخوف، والشك، وعدم الاكتفاء الجنسي، وكثرة الإجهاد... إلخ.

وهذا هو مرض القلوب؛ وحكمة تقسيمه إلى أمراض شبه وشك، ومرض شهوة وغي، ففيه كل الحكمة حسب النظريات الحديثة في علم النفس.(ع).

وهما مذكوران في القرآن.

ومرض القلوب نوعان:

مرض شبهة وشك.

ومرض شهوة وغي.

وكلاهما في القرآن:

قال -تعالى- في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر:٣١]، وقال -تعالى-في حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة؛ فأبى وأعرض:﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور:٤٨-٥٠]؛ فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأما مرض الشهوات فقال -تعالى-: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٢]؛ فهذا مرض شهوة الزنى، والله أعلم.

فصل

وأما مرض الأبدان؛ فقال -تعالى-:﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١]، وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء؛ لسرّ بديع يُبيّنُ لك عظمة القرآن، والاستغناء به لمن فهمه وعقله عن سواه.

وذلك: أن قواعد طب الأبدان ثلاثة:

حفظ الصحة.

والحمية عن المؤذي.

واستفراغ المواد الفاسدة.

فذكر -سبحانه- هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة:

فقال في آية الصوم: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة:١٨٤]؛ فأباح الفطر للمريض؛ لعذر المرض، وللمسافر؛ طلباً لحفظ صحته وقوته؛ لئلا يذهبها الصوم في السفر؛ لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل، وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل؛ فتخور القوة، وتضعف؛ فأباح للمسافر الفطر؛ حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها.

وقال في آية الحج: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه- من قمل، أو حكّة، أو غيرهما- أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، تفتحت المسام؛ فخرجت تلك الأبخرة منها؛ فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا تَبَيَّغ، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع، والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه.

وقد نبه -سبحانه- باستفراغ أدناها -وهو البخار المحتقن في الرأس- على استفراغ ما هو أصعب منه؛ كما هي طريقة القرآن: التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية؛ فقال -تعالى- في آية الوضوء:﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء:٤٣]؛ فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذ له من داخل أو خارج، فقد أرشد -سبحانه- عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده، ونحن نذكر هدي رسول الله ﷺ في ذلك، ونبين أن هديه فيه أكمل هدي.

فأما طب القلوب؛ فَمُسَلَّم إلى الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم[1]؛ فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربِّها، وفاطرها، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابِّه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة ألبتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل، وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم؛ فغلط ممن يظن ذلك، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته، وقوته عن ذلك بمعزل، ومن لم يميز بين هذا وهذا؛ فليبك على حياة قلبه؛ فإنه من الأموات، وعلى نوره؛ فإنه منغمس في بحار الظلمات.

فصل

وأما طب الأبدان؛ فإنه نوعان:

الأول: نوع قد فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيمه؛ فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب؛ كطب الجوع، والعطش، والبرد، والتعب بأضدادها وما يزيلها.

---

(١) إن الإيمان بالله وبرسله، والعقيدة الراسخة؛ لمن أهم علاج حالات مرض القلوب؛ أي: المرض النفسي.(ع).

والثاني: ما يحتاج إلى فكر وتأمل؛ كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج، بحيث يخرج بها عن الاعتدال، إما إلى حرارة، أو برودة، أو يبوسة، أو رطوبة، أو ما يتركب من اثنين منها، وهي نوعان: إما مادية، وإما كيفية؛ أعني: إما أن يكون بانصباب مادة، أو بحدوث كيفية، والفرق بينهما: أن أمراض الكيفية تكون بعد زوال المواد التي أوجبتها؛ فتزول موادها، ويبقى أثرها كيفية في المزاج.

وأمراض المادة أسبابها معها تمدّها، وإذا كان سبب المرض معه؛ فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولاً، ثم في المرض ثانياً، ثم في الدواء ثالثاً.

أو الأمراض الآلية، وهي: التي تخرج العضو عن هيئته؛ إما في شكل، أو تجويف، أو مجرى، أو خشونة، أو ملاسة، أو عدد، أو عظم، أو وضع، فإن هذه الأعضاء إذا تألفت وكان منها البدن سمي تألفها: اتصالاً، والخروج عن الاعتدال فيه يسمى: تفرق الاتصال، أو الأمراض العامة التي تعم المتشابهة والآلية.

والأمراض المتشابهة، هي: التي يخرج بها المزاج عن الاعتدال، وهذا الخروج يسمى مرضاً بعد أن يضر بالفعل إضرارا محسوساً.

وهي على ثمانية أضرب: أربعة بسيطة، وأربعة مركبة.

فالبسيطة: البارد، والحار، والرطب، واليابس.

والمركبة: الحار الرطب، والحار اليابس، والبارد الرطب، والبارد اليابس.

وهي إما أن تكون بانصباب مادة، أو بغير انصباب مادة، وإن لم يضر المرض بالفعل يسمى: خروجاً عن الاعتدال صحة.

وللبدن ثلاثة أحوال: حال طبيعية، وحال خارجة عن الطبيعية، وحال متوسطة بين الأمرين.

فالأولى: بها يكون البدن صحيحاً.

والثانية: بها يكون مريضاً.

والحال الثالثة: هي متوسطة بين الحالتين؛ فإن الضد لا ينتقل إلى ضده إلا بمتوسط[١]، وسبب خروج البدن عن طبيعته، إما من داخله؛ لأنه مركب من الحار والبارد، والرطب واليابس، وإما من خارج؛ فلأن ما يلقاه قد يكون موافقاً، وقد يكون غير موافق، والضرر الذي يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج بخروجه عن الاعتدال، وقد يكون من فساد في العضو، وقد يكون من ضعف في القوى، أو الأرواح الحاملة لها، ويرجع ذلك إلى زيادة ما الاعتدال في عدم زيادته، أو نقصان ما الاعتدال في عدم نقصانه، أو تفرق ما الاعتدال في اتصاله، أو اتصال ما الاعتدال في تفرقه، أو امتداد ما الاعتدال في انقباضه، أو خروج ذي وضع وشكل عن وضعه وشكله بحيث يخرجه عن اعتداله.

فالطبيب: هو الذي يفرق ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضره تفرقه، أو ينقص منه ما يضره زيادته، أو يزيد فيه ما يضره نقصه؛ فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية، وسترى هذا كله في هدي رسول الله ﷺ شافياً كافياً بحول الله وقوته، وفضله ومعونته.

فصل

فكان من هديه ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه استعمال هذه الأدوية المركّبة التي تسمى: «أقرباذين»؛ بل كان غالب أدويتهم بالمفردات، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه، أو يكسر سَوْرته[٢]، وهذا غالب طبٍّ

---

(١) وفي نسخة: «لمتوسط» وكلاهما صحيح.(ق).

(٢) أي: ثورته وشدته وحدته.

الأمم على اختلاف أجناسها من العرب والترك، وأهل البوادي قاطبة، وإنما عني بالمركبات الروم واليونانيون، وأكثر طب الهند بالمفردات .

وقد اتفق الأطباء: على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء؛ لا يعدل عنه إلى الدواء، ومتى أمكن بالبسيط؛ لا يعدل عنه إلى المركب.

قالوا: وكل داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية؛ لم يحاول دفعه بالأدوية.

قالوا : ولا ينبغي للطبيب أن يولع بسقي الأدوية[١]؛ فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داء يحلله، أو وجد داء لا يوافقه، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه، أو كيفيته؛ تشبث بالصحة وعبث بها. وأرباب التجارب من الأطباء طِبُّهم بالمفردات غالباً، وهم أحد فرق الطب الثلاث.

والتحقيق في ذلك: أن الأدوية من جنس الأغذية؛ فالأمة والطائفة التي غالب أغذيتها المفردات، أمراضها قليلة جداً، وطبها بالمفردات، وأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة، يحتاجون إلى الأدوية المركبة، وسبب ذلك: أن أمراضهم في الغالب مركبة؛ فالأدوية المركبة أنفع لها، وأمراض أهل البوادي والصحاري مفردة؛ فيكفي في مداواتها الأدوية المفردة، فهذا برهان بحسب الصناعة الطبية.

ونحن نقول: إن ها هنا أمراً آخر، نسبة طب الأطباء إليه؛ كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم، وقد اعترف به حذاقهم وأئمتهم، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول: هو قياس، ومنهم من يقول: هو تجربة،

---

(١) عند وجود مرض معين؛ يجب استعمال الدواء اللازم بدون إسراف ؛ لأن كل دواء سلاح ذو حدين يفيد المريض من المرض من ناحية؛ فإن زادت كميته وجرعته وطالت مدة استعماله؛ فربما يؤدي إلى مرض أي عضو من أعضاء الجسم السليمة، ويوجد كثير من الأمراض لا يحتاج إلى علاجها إلى أكثر من الراحة التامة، ونظام معين في التغذية.(ع).

ومنهم من يقول: هو إلهامات ومنامات وحدس صائب، ومنهم من يقول: أخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية، كما نشاهد السنانير إذا أكلت ذوات السموم، تعمد إلى السراج؛ فتلغ في الزيت تتداوى به، وكما رؤيت الحيات إذا خرجت من بطون الأرض، وقد عشيت أبصارها، تأتي إلى ورق الرازيانج[1]؛ فتمر عيونها عليها؛ وكما عُهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انحباس طبعه، وأمثال ذلك مما ذكر في مبادئ الطب.

وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره؛ فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء، بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم، من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب؛ فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه .

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية عند الأطباء، وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجاً عنها، ولكن الأسباب متنوعة؛ فإن القلب متى اتصل برب العالمين وخالق الداء والدواء

---

(١) كلمة فارسية، وهو: الآنيسون، وهو نبات حولي، زهره صغير، وثمره حب طيب الرائحة، يستعمل في أغراض طبية.

ويعرف في بلاد الشام ومصر بـ«الشمار» أو «الشومر» وفي المغرب بـ«البسباس». وانظر «معجم الأعشاب والنباتات الطبية» (ص٢٠٨).

ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه، وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفس والطبيعة؛ تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به، وحبها له وتنعمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه واستعانتها به، وتوكلها عليه: أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية؛ وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس، وأغلظهم حجاباً، وأكثفهم نفساً، وأبعدهم عن الله وعن حقيقة الإنسانية، وسنذكر[١] -إن شاء الله- السبب الذي به أزالت قراءة الفاتحة داء اللدغة عن اللديغ التي رقي بها، فقام حتى كأن ما به قلبة[٢].

فهذان نوعان من الطب النبوي، نحن -بحول الله- نتكلم عليهما بحسب الجهد والطاقة، ومبلغ علومنا القاصرة، ومعارفنا المتلاشية جداً، وبضاعتنا المزجاة[٣]، ولكنا نستوهب من بيده الخير كله، ونستمد من فضله؛ فإنه العزيز الوهاب[٤].

فصل

روى مسلم في «صحيحه»[٥]: من حديث جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: **«لكل داء دواء؛ فإذا أصيب دواء الداء؛ برأ بإذن الله -عز وجل-»**.

---

(١) (ص ٢٤٠).

(٢) هو الداء والألم يتقلب معه صاحبه، ولا تستعمل إلا في النفي.

(٣) القليلة.

(٤) وهذا أحد الأسباب الداعية إلى إعادة قراءة حقائق الطب النبوي التي لا يعتريها الظن ولا يرقى إليها الشك، في ضوء المعارف العلمية والطبية المعاصرة، التي أضحت من سنن الله وآياته في النفس البشرية: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]. فكان بعون الله وتوفيقه هذا الكتاب، وسيبلغ الأمر تمامه -إن شاء الله- في كتابنا العجاب: «معلمة الطب النبوي».

(٥) برقم (٢٢٠٤).

وفي «الصحيحين»[١]: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»**.

وفي «مسند الإمام أحمد»[٢]: من حديث أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله! أنتداوى؟ فقال: **«نعم يا عباد الله تداووا؛ فإن الله -عز وجل- لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد»** قالوا: ما هو؟ قال: **«الهرم»**.

وفي لفظ[٣]: **«إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»**.

فقد تضمنت هذه الأحاديث: إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، ويجوز أن يكون قوله: «لكل داء دواء» على عمومه حتى يتناول الأدواء القاتلة، والأدواء التي لا يمكن لطبيب أن يبرئها، ويكون الله -عز وجل- قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل لهم إليه سبيلاً؛ لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله، ولهذا علّق النبي ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء؛ فإنه لا شيء من المخلوقات إلا له ضد، وكل داء له ضد من الدواء يعالج بضده، فعلّق النبي ﷺ البرء بموافقة الداء للدواء، وهذا قدر زائد على مجرد وجوده؛ فإن الدواء متى جاوز درجة الداء في الكيفية، أو زاد في الكمية على ما ينبغي؛ نقله إلى داء آخر، ومتى

---

(١) هذا وهم من المصنف -رحمه الله-؛ فهو عند البخاري (٥٦٧٨) وحده دون مسلم.

(٢) (٤/ ٢٧٨). وأخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٩)، وابن ماجه (٣٤٣٦).

قلت: إسناده صحيح.

وفي الباب عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم-: عبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس.

(٣) في «المسند» (٤/ ٢٧٨).

قصر عنها؛ لم يف بمقاومته، وكان العلاج قاصراً، ومتى لم يقع المداوي على الدواء، أو لم يقع الدواء على الداء؛ لم يحصل الشفاء، ومتى لم يكن الزمان صالحاً لذلك الدواء لم ينفع، ومتى كان البدن غير قابل[1] له، أو القوة عاجزة عن حمله، أو ثم مانع يمنع من تأثيره؛ لم يحصل البرء لعدم المصادفة ومتى تمت المصادفة حصل البرء بإذن الله ولا بد، وهذا أحسن المحملين في الحديث.

والثاني: أن يكون من العام المراد به الخاص، لا سيما والداخل في اللفظ؛ أضعاف أضعاف الخارج منه، وهذا يستعمل في كل لسان، ويكون المراد: أن الله لم يضع داءً يقبل الدواء؛ إلا وضع له دواء؛ فلا يدخل في هذا الأدواء التي لا تقبل الدواء، وهذا؛ كقوله -تعالى- في الريح التي سلطها على قوم عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥]؛ أي: كل شيء يقبل التدمير، ومن شأن الريح أن تدِّمره، ونظائره كثيرة.

ومن تأمل خلق الأضداد في هذا العالم، ومقاومة بعضها لبعض، ودفع بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، تبيَّن له كمال قدرة الرب -تعالى- وحكمته، واتقانه ما صنعه، وتفرده بالربوبية، والوحدانية، والقهر، وأن كل ما سواه؛ فله ما يضاده ويمانعه، كما أنه الغنيّ بذاته، وكل ما سواه محتاج بذاته.

وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها: أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها

(١) أي: للدواء، وهذا ما يعرف في الطب الحديث: بالحساسية للدواء؛ أي: عدم قبول الجسم لهذا الدواء، مع شيوع استعماله في أجسام أخرى. (ع).

عجزاً؛ ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطّلاً للحكمة والشرع؛ فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً.

وفيها رد على من أنكر التداوي، وقال: إن كان الشفاء قد قدر؛ فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قدر؛ فكذلك.

و-أيضاً-؛ فإن المرض حصل بقدر الله، وقدر الله لا يدفع ولا يرد.

وهذا السؤال هو الذي أورده الأعراب على رسول الله ﷺ، وأما أفاضل الصحابة؛ فأعلم بالله وحكمته وصفاته من أن يوردوا مثل هذا، وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كرد قدر الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكل من قدر الله الدافع والمدفوع والدفع.

ويقال لمورد هذا السؤال: هذا يوجب عليك أن لا تباشر سبباً من الأسباب التي تجلب بها منفعة، أو تدفع بها مضرة؛ لأن المنفعة والمضرة إن قدرتا؛ لم يكن بد من وقوعهما، وإن لم تقدرا؛ لم يكن سبيل إلى وقوعهما، وفي ذلك خراب الدين والدنيا، وفساد العالم، وهذا لا يقوله إلا دافع للحق معاند له، فيذكر القدر ليدفع حجة المحق عليه؛ كالمشركين الذين قالوا:﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام:١٤٨]، و ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [النحل:٣٥]؛ فهذا قالوه دفعاً لحجة الله عليهم بالرسل .

وجواب هذا السائل: أن يقال: بقي قسم ثالث لم تذكره، وهو أن الله قدر كذا وكذا بهذا السبب، فإن أتيت بالسبب؛ حصل المسبب، وإلا؛ فلا.

فإن قال: إن كان قدر لي السبب؛ فعلته وإن لم يقدره لي؛ لم أتمكن من فعله.

قيل: فهل تقبل هذا الاحتجاج من عبدك، وولدك، وأجيرك إذا احتج به عليك فيما أمرته به، ونهيته عنه؛ فخالفك ؟

فإن قبلته؛ فلا تَلُمْ من عصاك، وأخذ مالك، وقذف عرضك، وضيَّع حقوقك.

وإن لم تقبله؛ فكيف يكون مقبولاً منك في دفع حقوق الله عليك .

وفي قوله ﷺ: «لكل داء دواء»؛ تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه.

فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواءً يزيله؛ تعلق قلبه بروح الرجاء، وبردت عنده حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، ومتى قويت نفسه؛ انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية، والنفسانية، والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح؛ قويت القوى التي هي حاملة لها؛ فقهرت المرض ودفعته.

وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه.

وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضاً إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه؛ أبرأه بإذن الله -تعالى-.

فصل

في هديه ﷺ في الاحتماء من التخم والزيادة في الأكل على قدر الحاجة والقانون الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب

في «المسند»(١) وغيره: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه(٢)؛ فإن كان لا بد فاعلا؛ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»(٣).

فصل

الأمراض نوعان: أمراض مادية تكون عن زيادة مادة: أفرطت في البدن حتى أضرت بأفعاله الطبيعية، وهي: الأمراض الأكثرية، وسببها: إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول، والزيادة في القدر الذي يحتاج

---

(١) (٤/ ١٣٢)، وأخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معد يكرب -رضي الله عنه- مرفوعاً به.

قلت: إسناده صحيح، وقد فصلت القول فيه في كتابي: «إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم» (ص٦١١-٦١٢)؛ فأنظره غير مأمور.

(٢) أي: ظهره، والمراد: جميع البدن.

وهذا الحديث النبوي يدل على أن الإنسان يتغذى ليعيش، لا يعيش ليتغذى؛ فمن كان على الأول؛ فإنه يقنع من الطعام بما يحقق له ذلك؛ فلا يصل لحالة الشبع، ولا يظهر فيهم السمن، ومن كان على الأخير؛ فإنه يأكل ولا يشبع؛ فشأنه كالبهيمة ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد:١٢].

(٣) هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلِّها، ولما أقره ابن ماسويه الطبيب؛ قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات سلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات ودكاكين الصيادلة.

وإنما قال ذلك؛ لأن أصل كل داء التخم، ولذلك قال طبيب العرب الحارث بن كَلَدَة: «الحمية رأس الدواء، والبطنة رأس الدواء». وقال -أيضاً-: «الذي قتل البَرِيَّة، وأهلك السباع في البَرِّيَّة؛ إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام».

فهذا بعض منافع تقليل الغذاء، وترك التملي من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته.

وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه؛ فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى، والغضب، وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك؛ قاله الإمام ابن رجب الحنبلي- رحمه الله- في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٢٥-٥٢٦).

إليه البدن، وتناول الأغذية القليلة النفع، البطيئة الهضم، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة، فإذا ملأ الآدمي بطنه من هذه الأغذية، واعتاد ذلك أورثته أمراضاً متنوعة، منها بطيء الزوال وسريعه، فإذا توسط في الغذاء، وتناول منه قدر الحاجة، وكان معتدلاً في كميته وكيفيته؛ كان انتفاع البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير.

ومراتب الغذاء ثلاثة:

أحدها: مرتبة الحاجة.

والثانية: مرتبة الكفاية.

والثالثة: مرتبة الفضلة.

فأخبر النبي ﷺ: أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه؛ فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها؛ فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثالث للنفس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام؛ ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه الشراب؛ ضاق عن النفس، وعرض له الكرب والتعب وصار محمله، بمنزلة حامل الحمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشِّبَعُ.

فامتلاء البطن من الطعام مضر للقلب والبدن[١].

هذا إذا كان دائماً أو أكثرياً، وأما إذا كان في الأحيان؛ فلا بأس به، فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبي ﷺ من اللبن، حتى قال: والذي بعثك بالحق، لا أجد له مسلكاً[٢]، وأكل الصحابة بحضرته مراراً حتى شبعوا.

---

(١) قال الإمام الشافعي- رحمه الله-: «ما شبعت منذ ستة عشر سنة، إلا شبعة طرحتها؛ لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة».

أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

والشبع المفرط يضعف القوى والبدن، وإن أخصبه، وإنما يقوى البدن بحسب ما يقبل من الغذاء، لا بحسب كثرته .

ولما كان في الإنسان جزء أرضي، وجزء هوائي، وجزء مائي، قسم النبي ﷺ طعامه، وشرابه، ونفسه على الأجزاء الثلاثة.

فإن قيل: فأين حظ الجزء الناري ؟

قيل: هذه مسألة تكلم فيها الأطباء، وقالوا : إن في البدن جزءاً نارياً بالفعل، وهو أحد أركانه واسْطُقْسَاته[1] .

ونازعهم في ذلك آخرون من العقلاء من الأطباء وغيرهم، وقالوا : ليس في البدن جزء ناري بالفعل، واستدلوا بوجوه:

أحدها : أن ذلك الجزء الناري إما أن يدعى: أنه نزل عن الأثير، واختلط بهذه الأجزاء المائية والأرضية؛ أو يقال: إنه تولد فيها وتكوّن.

والأول مستبعد لوجهين:

أحدهما : أن النار بالطبع صاعدة؛ فلو نزلت؛ لكانت بقاسر من مركزها إلى هذا العالم .

الثاني: أن تلك الأجزاء النارية لا بد في نزولها أن تعبر على كرة الزمهرير التي هي في غاية البرد، ونحن نشاهد في هذا العالم: أن النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل؛ فتلك الأجزاء الصغيرة عند مرورها بكرة الزمهرير - التي هي في غاية البرد، ونهاية العظم- أولى بالانطفاء .

وأما الثاني: -وهو أن يقال: إنها تكونت ها هنا - فهو أبعد وأبعد؛ لأن الجسم الذي صار ناراً بعد أن لم يكن كذلك، قد كان قبل صيرورته: إما أرضاً، وإما ماءً، وإما هواءً؛ لانحصار الأركان في هذه الأربعة، وهذا الذي

---

(١) أي: أصوله، مفردها: اسطقس، وهو لفظ يوناني بمعنى: الأصل، وسموا العناصر الأربع: الماء، والتراب، والهواء، والنار: اسطقسات؛ لأنها أصول المركبات التي هي الحيوانات والنباتات والمعادن عندهم.(ق).

قد صار ناراً أولاً، كان مختلطاً بأحد هذه الأجسام، ومتصلاً بها، والجسم الذي لا يكون ناراً: إذا اختلط بأجسام عظيمة ليست بنار ولا واحد منها؛ لا يكون مستعداً لأن ينقلب ناراً؛ لأنه في نفسه ليس بنار، والأجسام المختلطة باردة، فكيف يكون مستعداً لانقلابه ناراً ؟

فإن قلتم: لم لا تكون هناك أجزاء نارية تقلب هذه الأجسام، وتجعلها ناراً؛ بسبب مخالطتها إياها؟

قلنا : الكلام في حصول تلك الأجزاء النارية؛ كالكلام في الأول.

فإن قلتم: إنا نرى مِنْ رش الماء على النَّورة[1] المطفأة تنفصل منها نار، وإذا وقع شعاع الشمس على البلورة؛ ظهرت النار منها، وإذا ضربنا الحجر على الحديد؛ ظهرت النار، وكل هذه النارية حدثت عند الاختلاط، وذلك يبطل ما قررتموه في القسم الأول -أيضاً- .

قال المنكرون: نحن لا ننكر أن تكون المصاكَّة[2] الشديدة محدثة للنار؛ كما في ضرب الحجارة على الحديد، أو تكون قوة تسخين الشمس محدثةً للنار؛ كما في البلورة، لكنا نستبعد ذلك جداً في أجرام النبات والحيوان، إذ ليس في أجرامها من الاصطكاك ما يوجب حدوث النار، ولا فيها من الصفاء والصِّقال ما يبلغ إلى حدِّ البلورة، كيف وشعاع الشمس يقع على ظاهرها، فلا تتولد النار ألبتة، فالشُّعاع الذي يصل إلى باطنها كيف يولد النار؟

الوجه الثاني – في أصل المسألة-: أن الأطباء مجمعون على أن الشراب العتيق في غاية السخونة بالطبع، فلو كانت تلك السخونة بسبب الأجزاء النارية، لكانت محالاً إذ تلك الأجزاء النارية مع حقارتها، كيف

---

(١) حجر الكلس؛ أي: الجير، ثم غلب على أخلاط تضاف إلى الكلس: من زرنيخ وغيره.

(٢) مفاعلة من الصك، وهي: المصادمة.

يعقل بقاؤها في الأجزاء المائية الغالبة دهراً طويلاً، بحيث لا تنطفئ، مع أنا نرى النار العظيمة تطفأ بالماء القليل .

الوجه الثالث: أنه لو كان في الحيوان والنبات جزء ناري بالفعل؛ لكان مغلوباً بالجزء المائي الذي فيه، وكان الجزء الناري مقهوراً به، وغلبة بعض الطبائع والعناصر على بعض يقتضي انقلاب طبيعة المغلوب إلى طبيعة الغالب، فكان يلزم بالضرورة انقلاب تلك الأجزاء النارية القليلة جدا إلى طبيعة الماء الذي هو ضد النار.

الوجه الرابع: أن الله -سبحانه وتعالى- ذكر خلق الإنسان في كتابه في مواضع متعددة: يخبر في بعضها أنه خلقه من ماء، وفي بعضها: أنه خلقه من تراب، وفي بعضها: أنه خلقه من المركب منهما وهو الطين، وفي بعضها: أنه خلقه من صلصال كالفخار، وهو الطين الذي ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالا كالفخار، ولم يخبر في موضع واحد أنه خلقه من نار، بل جعل ذلك خاصية إبليس.

وثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال:« خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[١].

وهذا صريح في أنه خلق مما وصفه الله في كتابه فقط، ولم يصف لنا -سبحانه- أنه خلقه من نار، ولا أن في مادته شيئاً من النار.

الوجه الخامس: أن غاية ما يستدلون به ما يشاهدون من الحرارة في أبدان الحيوان، وهي دليل على الأجزاء النارية، وهذا لا يدل؛ فإن أسباب الحرارة أعم من النار؛ فإنها تكون عن النار تارة وعن الحركة أخرى، وعن انعكاس الأشعة، وعن سخونة الهواء، وعن مجاورة النار، وذلك بواسطة سخونة الهواء -أيضاً-، وتكون عن أسباب أخر، فلا يلزم من الحرارة النار.

(١) برقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة - رضي الله عنها-.

قال أصحاب النار[1]: من المعلوم أن التراب والماء: إذا اختلطا؛ فلا بد لهما من حرارة تقتضي طبخهما وامتزاجهما، وإلا كان كل منهما غير ممازج للآخر، ولا متحداً به، وكذلك إذا ألقينا البذر في الطين بحيث لا يصل إليه الهواء ولا الشمس فسد، فلا يخلو، إما أن يحصل في المركب جسم منضج طابخ بالطبع أولا، فإن حصل؛ فهو الجزء الناري، وإن لم يحصل، لم يكن المركب مسخناً بطبعه، بل إن سخن كان التسخين عرضياً، فإذا زال التسخين العرضي، لم يكن الشيء حاراً في طبعه ولا في كيفيته، وكان بارداً مطلقاً، لكن من الأغذية والأدوية ما يكون حاراً بالطبع، فعلمنا أن حرارتها إنما كانت؛ لأن فيها جوهراً نارياً.

و-أيضاً-؛ فلو لم يكن في البدن جزء مسخن لوجب أن يكون في نهاية البرد؛ لأن الطبيعة إذا كانت مقتضية للبرد، وكانت خالية عن المعاون والمعارض؛ وجب انتهاء البرد؛ إلى أقصى الغاية، ولو كان كذلك لما حصل لها الإحساس بالبرد؛ لأن البرد الواصل إليه إذا كان في الغاية كان مثله، والشيء لا ينفعل عن مثله، وإذا لم ينفعل عنه؛ لم يحس به، وإذا لم يحس به؛ لم يتألم عنه، وإن كان دونه؛ فعدم الانفعال يكون أولى، فلو لم يكن في البدن جزء مسخن بالطبع؛ لما انفعل عن البرد، ولا تألم به.

قالوا: وأدلتكم إنما تبطل قول من يقول: الأجزاء النارية باقية في هذه المركبات على حالها، وطبيعتها النارية، ونحن لا نقول بذلك، بل نقول: إن صورتها النوعية تفسد عند الامتزاج.

قال الآخرون: لم لا يجوز أن يقال: إن الأرض والماء والهواء إذا اختلطت: فالحرارة المنضجة الطابخة لها، هي: حرارة الشمس وسائر الكواكب، ثم ذلك المركب، عند كمال نضجه مستعد لقبول الهيئة التركيبية

---

(١) القائلون بدخولها في العناصر التي خلق منها الإنسان، وفيه تعريض بكفرهم على سبيل التورية والإيهام.(ق).

بواسطة السخونة: نباتاً كان، أو حيواناً، أو معدناً، وما المانع أن تلك السخونة والحرارة التي في المركبات، هي بسبب خواص وقوى يحدثها الله -تعالى- عند ذلك الامتزاج لا من أجزاء نارية بالفعل[1]؟ ولا سبيل لكم إلى إبطال هذا الإمكان ألبتة، وقد اعترف جماعة من فضلاء الأطباء بذلك.

---

(١) ما قرره الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في هذه المسألة العلمية هو عين ما قرره العلم الحديث؛ فإن الكائنات الحية جميعها تشترك في حاجتها إلى الطاقة، وعملية التنفس هي سلسلة منظمة من تفاعلات حيوية يتم فيها تحطيم الجزيئات العضوية إلى ثاني أكسيد الكربون وماء وطاقة، ولكون هذه التفاعلات تحدث في الخلية، فقد سميت: «عملية التنفس الخلوي».

وتتم عمليت التنفس الخلوي في الميتوكندريا، وهي بمنزلة محطات لإنتاج الطاقة في الخلية، إذ تتم فيها معظم تفاعلات التنفس الخلوي.

وتتركب من غشائين لهما تركيب الغشاء البلازمي نفسه وهما:

غشاء خارجي أملس، وهو منفذ لمعظم المواد الكيمائية.

وغشاء داخلي يحتوي على انثناءات إصبعية الشكل، تمتد إلى الداخل، وتسمى: (الأعراف Cristae) وتساعد هذه الأعراف على زيادة المساحة السطحية للغشاء الداخلي، وهذا يزيد في الكفاية الوظيفية للميتوكندريا.

ولقد وجد أن الغشاء الداخلي اختياري النفاذية، إذ يسمح بمرور مواد معينة دون غيرها، ويدعي الجزء المحصور بين الغشائين الداخلي والخارجي: الحيز بين الغشائين، أما المنطقة الداخلية المحاطة بالغشاء الداخلي؛ فتسمى: الحشوة (Matrix) وتحتوي على الأنزيمات اللازمة لعملية التنفس جميعها إضافة إلى بعض البروتينات، والرايبوسومات، وكمية من (DNA) على شكل خيطي، ويمكن لجزيء (DNA) في الميوكندريا، إصدار تعليمات وراثية لبناء بعض الأنزيمات اللازمة، دون الرجوع إلى (DNA) الموجودة في النواة.

وتتضمن عملية التنفس عملية أكسدة وحرق للمواد السكرية لإنتاج الطاقة، فما الذي يمكن أن يحدث لو تم حرق جزيء السكر دفعة واحدة في الخلية؟ إن تحطيم روابط الكربون في جزيء الغلوكوز يتم تدريجياً وبانتظام، ويتم خزن معظم الطاقة الناتجة في جزيئات (ATP) وهكذا؛ فإن عملية التنفس الخلوي تشمل سلسلة معقدة من الخطوات

=

= المنظمة والمترابطة، التي يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل رئيسة، هي: التحلل الغلايكولي، ودورة كربس، وسلسلة نقل الإلكترون.

أ- مرحلة التحلل الغلايكولي (**Glycolysis**):

تحدث هذه المرحلة في الكائنات الحية جميعها بما فيها الكائنات التي تقوم بالتنفس اللاهوائي، وتتم تفاعلاتها جميعها في السيتوبلازم؛ لوجود الأنزيمات اللازمة فيه.

ويعد سكر الغلوكوز المادة الخام الأساسيةالتي يتم تحللها دون استخدام الأكسجين؛ ولذا سميت: عملية التحلل الغلايكولي.

١- تبدأ عملية التحلل الغلايكولي بدخول جزيء غلوكوز إلى الخلية؛ فيحوله أنزيم متخصص إلى جزيء نشط، وذلك بإضافة مجموعتي فوسفات إلى غلوكوز باستخدام (ATP) فينتج مركب غلوكوز ثنائي الفوسفات.

٢- ينقسم جزيء غلوكوز ثنائي الفوسفات إلى جزيئين من مركب حمض غليسرين أحادي الفوسفات (ثلاثي الكربون)، ويمر الجزيئان الناتجان بسلسة من خطوات إعادة ترتيب الذرات التي تنشطها أنزيمات متخصصة؛ لينتج جزيئان من حمض بيروفيك (Pyruvic acid).

أما في النباتات؛ فإنه يتم تحلل النشا وسكر الكروز الثنائي لإنتاج الغلوكوز اللازم لعملية التحلل الغلايكولي، ويمكن للسكريات ثلاثية الكربون الناتجة عن البناء الضوئي، الدخول مباشرة والتحول إلى حمض بيروفيك.

وفي نهاية مرحلة التحلل الغلايكولي، وفي حال توافر الأكسجين، فإن حمض البيروفيك يدخل إلى الميتوكندريا، حيث يتحول إلى حمض الخليك (Acetic acid) (ثنائي الكربون) ويتصاعد ثاني أكسيد الكربون، وعندها يتحد (مرافق الأنزيم- أ) مع حمض الخليك؛ لتكوين استيل (مرافق الأنزيم- أ، acetli-koa) الذي يدخل المرحلة الثانية من التنفس الخلوي.

ب- دورة كربس (**Krebs Cycle**): تتضمن الدورة ثماني خطوات، ولكل خطوة أنزيم خاص بها، وتحدث تفاعلات دورة كربس في الحشوة الداخلية للميتوكندريا.

لاحظ أن ذرات الهيدروجين التي يتم انتزاعها في أثناء خطوات الدورة، يستقبلها نوعان من المستقبلات هما:

=

= NAD ويتحول إلى NADH.

FAD ويتحول إلى FADH.

وفي دورة كربس واحدة، تدخل ذرتان من الكربون على شكل أستيل المختزل، وتنطلق ذرتان من الكربون على شكل جزئين من (CO_2) بصورة مؤكسدة، ومعظم الطاقة الناتجة عن عمليات الأكسدة في دورة كربس، يتم خزنها في جزيء (NADH)، وفي كل دورة يتم إنتاج (٣) جزيئات من (NADH)، وجزيء واحد من ($FADH_2$)، كما أن هناك جزيئاً واحداً من (ATP) ينتج بطريقة مشابهة لإنتاجه في عملية التحلل الغلايكولي.

ج- سلسلة نقل الإلكترون (**Electron Transport Chain**): لا يزال معظم الطاقة التي تم استخلاصها من تحلل الغلوكوز مختزناً في النواقل الكيمائية (NADH) و($FADH_2$)، وتستخدم هذه الطاقة في بناء جزيئات (ATP)، في أثناء مرور الإلكترونات وأيونات الهيدروجين عبر سلسلة من النواقل الكيمائية الموجودة في الغشاء الداخلي للميتوكندريون، التي تعرف باسم سلسلة نقل الإلكترون، وتتكون هذه النواقل من مجموعة من الأنزيمات، وبروتينات أخرى تسمى: السيتوكرومات (Cytochromes) تكون مطمورة في الغشاء الداخلي للميتوكندريا، وتوفر الأعراف في الميتوكندريا مساحة كبيرة لوجود آلاف من سلاسل نقل الإلكترون.

تستقبل النواقل الكيمائية في سلسلة نقل الإلكترون ذرات هيدروجين من الناقلين (HADH، $FADH^2$)، وتنفصل ذرات الهيدروجين إلى أيونات الهيدروجين والإلكترونات حسب المعادلة:

$$nH \longrightarrow nH^+ + ne$$

ويتم انتقال الإلكترونات إلى النواقل في السلسلة عبر خطوات متسلسلة، حتى تصل إلى آخر هذه النواقل في السلسلة، وهو سيتوكروم (C)، الذي يربط الإلكترونات وأيونات الهيدروجين بجزيئات الأكسجين؛ لتكوين الماء.

وفي أثناء انتقال الإلكترونات، يتم فقدان جزء من طاقتها بالتدرج، ويستخدم جزء من هذه الطاقة في نقل البروتونات، وفي أثناء نقلها، تمر البروتونات عبر أنزيم يدعى (ATP- dynthetase) الذي يبني جزيء (ATP) حسب المعادلة:

$$ADP + Pi + \text{طاقة} \longrightarrow ATP$$

=

وأما حديث إحساس البدن بالبرد، فنقول: هذا يدل على أن في البدن حرارة وتسخيناً؛ ومن ينكر ذلك؟ لكن ما الدليل على انحصار المسخن في النار؟ فإنه وإن كان كل نار مسخناً، فإن هذه القضية لا تنعكس كلية؛ بل عكسها الصادق: بعض المسخِّن نار .

وأما قولكم بفساد صورة النار النوعية؛ فأكثر الأطباء على بقاء صورتها النوعية، والقول بفسادها قول فاسد قد اعترف بفساده أفضل متأخريكم في كتابه المسمى «بالشفاء»[1] وبرهن على بقاء الأركان أجمع على طبائعها في المركبات. وبالله التوفيق.

= وتسمى هذه العملية عملية فسفرة تأكسدية، ويتم بناء أكثر من ٩٠٪ من جزيئات ATP في الخلية.

وانظر- لزاماً- «رحلة الإيمان في جسم الإنسان»، د -حامد أحمد حامد، (ص٧١-٧٨).

(١) هو كتاب الشيخ الرئيس: أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا؛ يعد أكبر فلاسفة المكثرين في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، وله شطحات خالف فيها سبيل الإسلام لا يرضى عن مثلها العلماء ومنهم المؤلف. ولهذا عرض به بقوله: «متأخريكم»

ولشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية- رحمهما الله-نقدات كثيرة لانحرافاته وشطحاته الخطيرة، توفي سنة(٤٢٨هـ)

فصل

وكان علاجه ﷺ للمرض ثلاثة أنواع:

أحدها: بالأدوية الطبيعية.

والثاني: بالأدوية الإلهية.

والثالث: بالمركب من الأمرين.

ونحن نذكر الأنواع الثلاثة من هديه ﷺ؛ فنبدأ بذكر الأدوية الطبيعية التي وصفها واستعملها، ثم نذكر الأدوية الإلهية، ثم المركبة.

وهذا إنما نشير إليه إشارة؛ فإن رسول الله ﷺ إنما بعث هاديا، وداعيا إلى الله، وإلى جنته، ومعرفا بالله، ومبينا للأمة مواقع رضاه، وآمرا لهم بها، ومواقع سخطه وناهيا لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم، وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها، وأسباب ذلك .

وأما طب الأبدان: فجاء من تكميل شريعته، ومقصودا لغيره، بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه، كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدا، وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة، وبالله التوفيق.

ذكر القسم الأول
وهو العلاج بالأدوية الطبيعية

فصل
في هديه في علاج الحمى[(١)]

ثبت في «الصحيحين»[(٢)] عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: **«إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم؛ فأبردوها بالماء»**.

وقد أشكل هذا الحديث على كثير من جهلة الأطباء، ورأوه منافيا لدواء الحمى وعلاجها، ونحن نبين -بحول الله وقوته- وجهه وفقهه، فنقول:

خطاب النبي ﷺ نوعان:

عام لأهل الأرض.

وخاص ببعضهم.

فالأول: كعامة خطابه.

والثاني؛ كقوله: **«لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول، ولا تستدبروها؛ ولكن شرقوا، أو غربوا»**[(٣)]؛ فهذا ليس بخطاب لأهل المشرق والمغرب، ولا

---

(١) كل حالات الحميات عند اشتداد الحرارة تعالج بالماء بطريقتين:
أ- من الخارج على هيئة مكمدات باردة أو مثلجة، لغرض تهبيط درجة الحرارة.
ب- تعاطي الماء بالفم بكثرة أثناء الحميات، يساعد جميع أعضاء الجسم - خصوصا الكليتين- على النهوض بوظائفها الحيوية للجسم.(ع).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢٣)، ومسلم (٢٢٠٩).

(٣)أخرجه البخاري(١٤٤) ومسلم(٢٦٤) من حديث أبي أيوب - رضي الله عنه-.

العراق، ولكن لأهل المدينة وما على سمتها؛ كالشام وغيرها[١]. وكذلك قوله: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»[٢].

وإذا عرف هذا؛ فخطابه في هذا الحديث خاص بأهل الحجاز، وما والاهم؛ إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية الحادثة عن شدة حرارة الشمس، وهذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، فإن الحمى: حرارة غريبة تشتعل في القلب، وتنبث منه بتوسط الروح والدم في الشرايين والعروق إلى جميع البدن؛ فتشتعل فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية[٣]، وهي تنقسم إلى قسمين:

عرضية؛ وهي الحادثة إما عن الورم، أو الحركة، أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد، ونحو ذلك.

ومرضية: وهي ثلاثة أنواع، وهي لا تكون إلا في مادة أولى، ثم منها يسخن جميع البدن:

---

(١) قال البغوي في « شرح السنة» (١/ ٣٥٩): « وقوله: « شرقوا أو غربوا»: خطاب لأهل المدينة، ولمن كانت قبلته على ذلك السمت، فأما من كانت قبلته إلى جهة المشرق أو المغرب؛ فإنه ينحرف إلى الجنوب أو الشمال».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٦٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- مرفوعاً به.

قلت: وهذا سنده صحيح؛ رجاله ثقات.

(٣) قال الإمام ابن مفلح- رحمه الله- في «الآداب الشرعية» (٣/ ١٠٠): «قال بعض الأطباء: هذا من أفضل علاج هذا الداء إذا كان وقوعه بالحجاز، وهي بلاد حارة يابسة، والحار الغريزي ضعيف في بواطن سكانها، وصب الماء البارد عليهم في ذلك الوقت المذكور- وهو أبرد أوقات اليوم- يوجب جمع الحار الغريزي المنتشر في البدن الحامل لجميع قواه، فتقوى القوة الدافعة وتجتمع من أقطار البدن إلى باطنه الذي هو محل ذلك الداء، ويستظهر بباقي القوى على دفع المرض المذكور، فيدفعه بإذن الله -تعالى-».

فإن كان مبدأ تعلقها بالروح؛ سميت: حمى يوم؛ لأنها في الغالب تزول في يوم، ونهايتها ثلاثة أيام.

وإن كان مبدأ تعلقها بالأخلاط؛ سميت: عفنية، وهي أربعة أصناف: صفراوية، وسوداوية، وبلغمية، ودموية .

وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة الأصلية، سميت: حمى دق.

وتحت هذه الأنواع أصناف كثيرة .

وقد ينتفع البدن بالحمّى انتفاعاً عظيماً لا يبلغه الدواء، وكثيراً ما يكون حمى يوم، وحمّى العفن سبباً لإنضاج مواد غليظة لم تكن تنضج بدونها، وسبباً لتفتح سُدَدٍ لم يكن تصل إليها الأدوية المفتحة.

وأما الرمد الحديث والمتقادم؛ فإنها تبرئ أكثر أنواعه برءاً عجيباً سريعاً، وتنفع من الفالج، واللَّقْوَة[1]، والتشنُّج الامتلائي، وكثيراً من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة .

وقال لي بعض فضلاء الأطباء: إن كثيراً من الأمراض نستبشر فيها بالحمّى؛ كما يستبشر المريض بالعافية، فتكون الحمّى فيه أنفع من شرب الدواء بكثير؛ فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ما يضرُّ بالبدن، فإذا أنضجتها؛ صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها؛ فأخرجها؛ فكانت سبباً للشفاء[2] .

وإذا عرف هذا؛ فيجوز أن يكون مراد الحديث من أقسام الحميَّات العرضية؛ فإنها تسكن على المكان بالانغماس في الماء البارد، وسقي الماء

---

(١) داء يكون في الوجه؛ يعوج منه الشِّدق.

(٢) إن بعض الأمراض الزمنة-: مثل مرض الروماتيزم المفصلي، الذي تتصلب فيه المفاصل، وتصبح غير قادرة على التحرك، أو مرض الزهري المزمن في الجهاز العصبي- تتحسن كثيراً بارتفاع درجة حرارة الجسم؛ أي: في حالات الحميات؛ ولذلك من ضمن طرق العلاج الطبي- في مثل هذه الحالات-: الحمى الصناعية؛ أي: خلق حالة حمى في المريض بحقنه بمواد معينة.(ع).

البارد المثلوج، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر، فإنها مجرد كيفية حارة متعلقة بالروح، فيكفي في زوالها مجرد وصول كيفية باردة تسكنها، وتخمد لهبها من غير حاجة إلى استفراغ مادة، أو انتظار نضج .

ويجوز أن يُراد به جميعُ أنواع الحميات.

وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس[١]: بأن الماء البارد ينفع فيها، قال في المقالة العاشرة من كتاب «حيلة البرء»: «ولو أن رجلاً شاباً حسن اللحم، خصب البدن في وقت القيظ، وفي وقت منتهى الحمَّى، وليس في أحشائه ورم، استحم بماء بارد، أو سبح فيه؛ لانتفع بذلك». قال: «ونحن نأمر بذلك بلا توقف».

وقال الرازي[٢] في كتابه الكبير[٣]: «إذا كانت القوة قوية، والحمّى حادَّة جداً، والنضج بيِّن ولا ورم في الجوف، ولا فتق، ينفع الماء البارد شرباً، وإن كان العليل خصِب البدن والزمان حارٌّ وكان معتاداً لاستعمال الماء البارد من خارج، فليؤذن فيه»[٤].

---

(١) طبيب يوناني له اكتشافات رائعة في التشريح، وهو من أكبر مراجع أطباء العرب، توفي سنة (٢٠١م).

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا، ولد في «الري» ونسب إليها، ولقب جالينوس العرب؛ لشهرته، وله مصنفات كثيرة، توفي سنة (٣١١هـ).

(٣) هو المسمى: «الحاوي في صناعة الطب» يقع في ثلاثين مجلداً.

(٤) قلت: وكذلك الطب الحديث يعترف بنفع الماء في علاج الحمى.

قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢١١):
«... إن الأدوية النوعية المضادة لعوامل الحميات الإنتاجية لم تعرف قبل القرن التاسع الميلادي، وعلى أن مخفضات الحرارة الشهيرة في الطب الحديث، والتي اكتشفت باكراً كالكينين والأسبرين، لم تنتشر في العالم قبل ذلك القرن؛ ولذا كان استعمال الماء لتبريد الحمى هو الواسطة الأولى.

ولقد نبه الرسول -عليه الصلاة والسلام- إلى هذه الواسطة الفيزيائية لتلطيف الحميات...».

وقوله: «الحمى من فيح جهنم»؛ هو شدة لهبها، وانتشارها، ونظيره قوله: «شدة الحر من فيح جهنم»[١]، وفيه وجهان:

أحدهما : أن ذلك أنموذج ورقيقة اشتقت من جهنم؛ ليستدلَّ بها العباد عليها، ويعتبروا بها، ثم إن الله -سبحانه- قدَّر ظهورها بأسباب تقتضيها، كما أن الروح والفرح والسرور واللذة من نعيم الجنة أظهرها الله في هذه الدار عبرة ودلالة، وقدَّر ظهورها بأسباب توجبها.

والثاني: أن يكون المراد التشبيه؛ فشبه شدة الحمّى ولهبها بفيح جهنم، وشبه شدة الحر به -أيضاً- تنبيها للنفوس على شدة عذاب النار، وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهة بفيحها، وهو: ما يصيب من قرب منها من حرّها.

وقوله: «فابردوها»؛ روي بوجهين:

بقطع الهمزة وفتحها، رباعي من أبرد الشيء: إذا صيره بارداً، مثل: أسخنه: إذا صيّره سخناً.

والثاني : بهمزة الوصل مضمومة من «برد الشيء يَبْرُدُهُ» وهو أفصح لغةً واستعمالاً، والرباعي لغة رديئة عندهم، قال الحماسي:

أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
إذا وجدت لهيب الحب في كبدي

هبني بردت ببرد الماء ظاهره
فمن لنار على الأحشاء تتقد[٢]

وقوله: «بالماء»، فيه قولان:

أحدهما: أنه كل ماء، وهو الصحيح.

---

(١) البخاري (٥٣٣ و ٥٣٤) من حديث أبي هريرة وابن عمر -رضي الله عنهم-.

(٢) من شعر عروة بن أذينة؛ كما في «الشعر والشعراء» (ص٥٨٠)، و «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٩٤).

والثاني : أنه ماء زمزم، واحتج أصحاب هذا القول بما رواه البخاري في «صحيحه»[1] عن أبي جمرة نصر بن عمران الضبعي، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى، فقال: أبردها عنك بماء زمزم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: **« إن الحمى من فيح جهنم؛ فابردوها بالماء، أو قال: بماء زمزم»**.

وراوي هذا قد شك فيه، ولو جزم به؛ لكان أمراً لأهل مكة بماء زمزم، إذ هو متيسر عندهم، ولغيرهم بما عندهم من الماء .

ثم اختلف من قال: إنه على عمومه، هل المراد به الصدقة بالماء، أو استعماله ؟ على قولين، والصحيح: أنه استعماله، وأظن أن الذي حمل من قال: المراد: الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في الحمى، ولم يفهم وجهه مع أن لقوله وجهاً حسناً، وهو: أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما أخمد لهيب العطش عن الظمآن بالماء البارد أخمد الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقاً، ولكن هذا يؤخذ من فقه الحديث وإشارته، وأما المراد به؛ فاستعماله .

عن أنس قال: قال النبي ﷺ: **« إذا حم أحدكم؛ فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر»**[2].

عن أبي هريرة قال ﷺ: **« الحمى كير من كير جهنم، فنحوها عنكم بالماء البارد»**[3].

---

(١) برقم (٣٢٦١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٧٩)، والحاكم (٤/ ٢٠٠و ٤٠١) .

قلت: إسناده صحيح، وصححه الحاكم والذهبي- رحمها الله- على شرط مسلم، ووافقهما شيخنا الألباني- رحمه الله- في « الصحيحة» (١٣٠١).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٥).

قلت: إسناده صحيح، ورجاله ثقات؛ كما قال البوصيري- رحمه الله- في «زوائده»، وصححه.شيخنا الألباني- رحمه الله-.

وعن جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب، فقال: «مالك يا أم السائب تزفزفين؟» قالت: الحمى؛ لا بارك الله فيها! فقال: «لا تسبي الحمى؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم؛ كما يذهب الكير خبث الحديد»[١].

لما كانت الحمَّى يتبعها حمية عن الأغذية الرديئة، وتناول الأغذية والأدوية النافعة، وفي ذلك إعانة على تنقية البدن، ونفي أخباثه وفضوله، وتصفيته من مواده الرديئة، وتفعل فيه كما تفعل النار في الحديد في نفي خبثه، وتصفية جوهره؛ كانت أشبه الأشياء بنار الكير التي تصفي جوهر الحديد، وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان.

وأما تصفيتها القلب من وسخه ودرنه، وإخراجها خبائثه؛ فأمر يعلمه أطباء القلوب ويجدونه؛ كما أخبرهم به نبيهم رسول الله ﷺ، ولكن مرض القلب إذا صار مأيوساً[٢] من برئه، لم ينفع فيه هذا العلاج.

فالحمى تنفع البدن والقلب، وما كان بهذه المثابة؛ فسبه ظلم وعدوان، وذكرت مرة وأنا محموم قول بعض الشعراء يسبها:

زارت مكفرة الذنوب وودعت
تباً لها من زائر ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها
ماذا تريد فقلت أن لا ترجعي

فقلت: تباً له؛ إذ سب ما نهى رسول الله ﷺ عن سبه، ولو قال:

---

(١) أخرجه مسلم(٢٥٧٥).

(٢) أي: ميئوساً، من «أيس» مقلوب «يئس».

زارت مكفــــرة الذنـــــوب لصبــــــها
أهـــلاً بــــها مـــن زائـــر ومــــودع

قـــالت وقـــد عزمـــت علـــى ترحالهـــا
مـــاذا تريـــد فقلـــت: أن لا تقلعـــي

لكان أولى به، ولأقلعت عنه، فأقلعت عني سريعاً[1].

فصل
في هديه في علاج استطلاق البطن

في «الصحيحين»[2]: من حديث أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إن أخي يشتكي بطنه (وفي رواية: استطلق بطنه)، فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب ثم رجع، فقال: قد سقيته، فلم يغنِ عنه شيئاً. (وفي لفظ: فلم يزده إلا استطلاقاً) مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول له: «اسقه عسلاً»، فقال له في الثالثة أو الرابعة: «صدق الله[3]، وكذب بطن أخيك».

وفي «صحيح مسلم» في لفظ له: إن أخي عرِب بطنه؛ أي: فسد هضمه، واعتلت معدته، والاسم (العرب) بفتح الراء، و(الذرب) -أيضاً-.

---

(١) وتعقبه الإمام ابن مفلح- رحمه الله- في «الآداب الشرعية» (٣/ ١٠٦) بقوله: «ولم يصب من (وذكر الشعر المتقدم) ثم قال: لأن الأول ارتكب النهي عن سبها، والثاني ترك الأمر بسؤال العفو والعافية، وأراد بقاء المرض».

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم(٢٢١٧).

(٣) إشارة إلى قوله -تعالى-:﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل:٦٩].

والعسل فيه منافع عظيمة؛ فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلل للرطوبات أكلاً وطلاءً، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه بارداً رطباً، وهو مغذٍ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مذهبٌ لكيفيات الأدوية الكريهة، منق للكبد والصدر، مدر للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حاراً بدهن الورد: نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون، وإن شرب وحده ممزوجاً بماء نفع من عضة الكَلْبِ الكَلِبِ، وأكل الفطر[1] القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري. حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جعل فيه القثاء، والخيار، والقرع، والباذنجان، ويحفظ كثيراً من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويسمى: الحافظ الأمين. وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر؛ قتل قمله وصئبانه، وطول الشعر، وحسنه، ونعمه، وإن اكتحل به؛ جلا ظلمة البصر، وإن استنَّ به؛ بيَّضَ الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها، وصحة اللِّثة، ويفتح أفواه العروق، ويدرُّ الطَّمث، ولعقه على الريق يذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقلُّ ضرراً لسدد الكبد والطحال من كل حلو .

وهو -مع هذا كله- مأمون الغائلة، قليل المضار، مضرٌّ بالعرض للصفراويين، ودفعها: بالخل ونحوه؛ فيعود حينئذ نافعاً له جداً .

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرِّح مع المفرِّحات، فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريبٌ منه، ولم يكن معوّلُ القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر ألبتة، ولا يعرفونه؛ فإنه حديث العهد حدث قريباً.

---

(١) نوع من الكمأة قَتّال.

وفي الأثر: « عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن »[١] ؛ فجمع بين الطب البشري والإلهي، وبين طب الأبدان وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضي والدواء السمائي .

إذا عرف هذا؛ فهذا الذي وصف له النبي ﷺ العسل، كان استطلاق بطنه: عن تخمة أصابته عن امتلاء، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المعدة والأمعاء؛ فإن العسل فيه جلاء، ودفع للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة، تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجتها، فإن المعدة لها خمل كخمل القطيفة[٢]، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة: أفسدتها وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط، والعسل جلاء، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء، لا سيما إن مزج بالماء الحار .

وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو: أن الدواء يجب أن يكون له مقدار، وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه؛ لم يزله بالكلية، وإن جاوزه أوهى[٣] القوى، فأحدث ضرراً آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل، سقاه مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرر ترداده إلى النبي ﷺ، أكد عليه المعاودة؛ ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء: برأ بإذن الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٨٧/ ٣٧٤١)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢/ ٢٢١/ ٨٦٩)، والواحدي في « الوسيط» (٣/ ٧٢-٧٣)،والبيهقي في « السنن الكبرى» (٩/ ٣٤٥) عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- موقوفاً.

قلت: وقد روي مرفوعاً؛ ولا يصح؛ كما قال البيهقي- رحمه الله- وشيخنا الألباني- رحمه الله- في «الضعيفة» (١٥١٤).

(٢) وفي نسخة: « المنشفة»، وهما بمعنى واحد.

(٣) في نسخة: « أوهن»، والمراد: أضعفها.

واعتبار مقادير الأدوية، وكيفياتها، ومقدار قوة المرض والمريض من أكبر قواعد الطب.

وفي قوله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»، إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه، ولكن لكذب البطن، وكثرة المادة الفاسدة فيه، فأمره بتكرار الدواء؛ لكثرة المادة .

وليس طبه ﷺ كطب الأطباء؛ فإن طب النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي، صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة، وكمال العقل . وطب غيره، أكثره حدس وظنون وتجارب؛ ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة؛ فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور - إن لم يتلق هذا التلقي - لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسا إلى رجسهم، ومرضا إلى مرضهم، وأين يقع طب الأبدان منه؟! فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة؛ كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة والقلوب الحية، فإعراض الناس عن طب النبوة؛ كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع، وليس ذلك لقصور في الدواء، ولكن لخبث الطبيعة، وفساد المحل، وعدم قبوله، والله الموفق.

فصل

وقد اختلف الناس في قوله -تعالى-: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل:٦٩]، هل الضمير في «فيه» راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن؟ على قولين: الصحيح: رجوعه إلى الشراب، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وقتادة، والأكثرين؛ فإنه هو المذكور، والكلام سيق لأجله، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح، وهو: قوله «صدق الله»؛ كالصريح فيه، والله -تعالى- أعلم.

فصل
في هديه ﷺ في الطاعون وعلاجه والاحتراز منه

في «الصحيحين»[(١)] عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه: أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض؛ فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فراراً منه[(٢)]».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم».

الطاعون -من حيث اللغة-: «نوع من الوباء»؛ قاله صاحب «الصحاح»[(٤)].

وهو عند أهل الطب: ورم رديء قتال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جداً، يتجاوز المقدار في ذلك، ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر، أو أكمد، ويؤول أمره إلى التقرح سريعا.

وفي الأكثر، يحدث في ثلاثة مواضع: في الإبط، وخلف الأذن، والأرنبة، وفي اللحوم الرخوة[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

(٢) هذا هو ما يتبع حتى الآن في الوقاية من الطاعون؛ فإن أصيبت قرية ما بهذا المرض، عمل حولها (كردون صحي): يمنع أي شخص من الخروج منها، ويمنع دخول أي شخص إليها، ما عدا الأطباء والمعاونين لهم، وبذلك يمنع المرض من الانتشار خارج هذه القرية، ويحصر المرضى في مكان واحد يسهل فيه مراقبتهم وعلاجهم.(ع).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٣٢)، ومسلم (١٩٦١).

(٤) (ص ١٥٧).

(٥) مرض الطاعون تجيء عدواه من البراغيث المحملة بالميكروب من الفئران، وغالبا ما يلدغ البرغوث الساق، ثم الذراع،ثم الوجه، وهذا يفسر وجود الطاعون الدملي في الأوردة أو تحت الإبط أو الرقبة. (ع).

=

= قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٢/ ٣٧٧-٣٨٠): «الطاعون في الأصل مرض حيواني وخيم، أكثر ما يصيب به الجرذان والفئران الوحشية والأهلية. تنتقل الإصابات بينها بواسطة البراغيث، وعند إصابة الجرذ بالطاعون تتركه براغيثه بسبب ما يكون فيه من حمى أو بسبب موته، وتنتقل إلى غيره من الحيوانات السليمة، فإن لم تجد حيواناتها المعتاد، أو صادفت إنسانا علقته ولقحته بدائها، فتبدأ الجائحة البشرية عندئذ، وتستمر ما وجدت تلك الحشرات الملوثة فرصة للوصول إلى الإنسان السليم.

تحدث العدوى في معظم الحوادث عن طريق خرء البراغيث المفعم بالعصيات الطاعونية تلقى به على الجلد فتدخل بسبب سحج الجلد بالحك، أو من موضع وخزة البرغوث نفسها. ومن النادر دخول تلك الجراثيم عن طريق اللدغة مباشرة؛ لأن ذلك لا يكون إلا إذا انسدت معدة البرغوث، بحيث لا يمكنه أن يستسيغ ما يمتصه من الدم، فيعود إلى اللدغة، ويكون ذلك الدم الرجيع قد تلوث بتلك الجراثيم فتحصل العدوى.

هذا، وإن الطاعون الرئوي شديد السراية؛ لأن عدواه لا تحتاج إلى واسطة البراغيث، بل تكون مباشرة بانتقال الجراثيم الكثيرة جداً في القشع، تحملها نفاثة المريض التي يلقي بها حوله. ومما يزيد في خطر هذه السراية دخول تلك الجراثيم بسهولة من الأغشية المخاطية التي تصادفها، حتى من ملتحمة العين والغشاء النخامي في الأنف.

التوافق في وصف العلامات:

أ- الوصف الطبي:

إن للطاعون ثلاثة أشكال سريرية تشاهد في وبائه، أوجزها بما يلي:

١- الطاعون الدبلي(ويسمى بالطاعون الدملي وبالطاعون الغدي):

ويتصف بضخامة الغدد اللنفاوية (أي العقد البلغمية) في المغابن كالإرب والإبط أو في الرقبة بحسب موقع التلقيح بالجراثيم، يرافق ذلك شيء من التوعك والحمى، وله شكلان: سيار(الطاعون الصغير) وشكل وخيم، ثم إن التهاب العقد قد تنتهي بالارتشاف أو بالتقيح والانبثاق.

٢- الطاعون الإنتاني الدموي:

يكون ثانوياً للطاعون الدبلي أو مستقلاً بدون دبل.

٣- الطاعون الرئوي (أو ذات الرئة الطاعونية):

=

عن عائشة قالت للنبي ﷺ: الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «غدة كغدة البعير يخرج في المراق والإبط»[1].

قال الأطباء: إذا وقع الخرَّاج في اللحوم الرخوة، والمغابن، وخلف الأذن والأرنبة، وكان من جنس فاسد، سمِّي: طاعوناً، وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جوهر سمِّي، يفسد العضو ويُغيِّر ما يليه، وربما رشح دماً وصديداً ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة، فيحدث القيء

= هو النوع الوخيم والخطر جداً، لأنه يصيب جميع أطراف الرئة؛ فيقضي على المصاب في مدة قصيرة، قد لا تتجاوز اليومين أو الثلاثة.

إن معظم إصابات الطاعون في وبائه تترافق بالتهاب العقد البلغمية وضخامتها، ولذا؛ فإن الذي يلفت الانتباه إلى تشخيص الطاعون سريرياً (قديماً وحديثاً) هو وجود وباء يتصف بضخامة العقد البلغمية والتهابها، أما التشخيص المخبري؛ فهو من وسائل العصر الحديث.

ب- الوصف النبوي:

«لقد وصف رسول الله ﷺ علامات الطاعون الغدي (أو الدملي أو الدبلي) التي يستند إليها سريرياً في تشخيص وباء الطاعون وتفريقه عن الأوبئة الأخرى حتى زماننا هذا. مع -أنه عليه السلام- نبي أمي لم يشهد وباء للطاعون، ولم يتلق شيئاً من علوم زمانه طبية كانت أم غير طبية.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون»، قلت: يا رسول الله! هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «غدة كغدة البعير، المقيم فيها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف».

انتبه -لقوله عليه السلام-: «غدة»، ولتأكيده وجوب الحجر على أرض وباء الطاعون.

إن انسجام وصفي الطاعون على لسان النبوة وفي الطب الحديث؛ يدل على أن الطاعون المقصود في الأحاديث النبوية هو الطاعون نفسه المعروف في الطب حتى يومنا هذا».

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥و٢٥٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٤٠٨).

قلت: إسناده صحيح؛ رواته كلهم ثقات؛ كما قال شيخنا الألباني- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٦/ ٧٢/ ١٦٣٨).

والخفقان والغشي، وهذا الاسم -وإن كان يعم كل ورم يؤدي إلى القلب كيفية رديئة حتى يصير لذلك قتالاً- فإنه يختص به الحادث في اللحم الغددي؛ لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما حدث في الإبط وخلف الأذن لقربهما من الأعضاء التي هي أرأس، وأسلمه الأحمر، ثم الأصفر . والذي إلى السواد؛ فلا يفلت منه أحد.

ولما كان الطاعون يكثر في الوباء، وفي البلاد الوبيئة[1] عبر عنه بالوباء؛ كما قال الخليل[2]: «الوباء: الطاعون» . وقيل: هو كل مرض يعم .

والتحقيق: أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون، فإنه واحد منها، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة في المواضع المتقدم ذكرها.

قلت : هذه القروح، والأورام، والخراجات[3]، هي: آثار الطاعون، وليست نفسه، ولكن الأطباء لما لم تدرك منه إلا الأثر الظاهر، جعلوه نفس الطاعون.

والطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور:

أحدها : هذا الأثر الظاهر، وهو الذي ذكره الأطباء.

والثاني : الموت الحادث عنه، وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله: **«الطاعون شهادة لكل مسلم»**.

---

(١) في نسخة: «الحربية» وكلاهما صحيح، والمراد التي تكثر فيها الحروب، فحينئذ يكثر القتل؛ فتصير وبيئة، والله أعلم.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي.

ولد ومات في البصرة، وعاش فقيرا صابرا.

قال النضير بن شميل: ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه.

(٣) في «الأصل»: «الجراحات»، والمثبت هو الصواب؛ لأنه ورد في السياق.

والثالث: السبب الفاعل لهذا الداء، وقد ورد في الحديث الصحيح: «أنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل»[١]، وورد فيه: «أنه وخز الجن»[٢]، وجاء: «أنه دعوة نبي»[٣].

وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدل عليها، والرسل تخبر بالأمور الغائبة، وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون ليس معهم ما ينفي أن تكون بتوسط الأرواح؛ فإن تأثير الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها، أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها، والله -سبحانه- قد يجعل لهذه الأرواح تصرفاً في أجسام بني آدم: عند حدوث الوباء، وفساد الهواء، كما يجعل لها تصرفاً: عند غلبة بعض المواد الرديئة التي تُحدث للنفوس هيئة رديئة، ولا سيما عند هيجان الدم، والمرة السوداء، وعند هيجان المني؛ فإن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بصاحب هذه العوارض ما لا تتمكَّن من غيره، ما لم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب من الذكر، والدعاء، والابتهال، والتضرع، والصدقة، وقراءة القرآن؛ فإنه يستنزل بذلك من الأرواح الملكية ما يقهرُ هذه الأرواح الخبيثة، ويبطل شرها ويدفع تأثيرها، وقد جربنا -نحن وغيرنا- هذا مراراً لا يحصيها إلا الله، ورأينا لاستنزالِ هذه الأرواح الطيبة واستجلاب قربها تأثيراً عظيماً في تقوية الطبيعة، ودفع المواد الرديئة، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها، ولا يكاد ينخرم، فمن وفقه الله؛ بادر عند إحساسه بأسباب الشر إلى هذه

---

(١) تقدم (ص ٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥و٤١٣و٤١٧)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ١٢٧)، والحاكم (١/ ٥٠).

قلت: سنده صحيح.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ؛ وعند البخاري ومسلم: «أنه رجز أرسل على بني إسرائيل»؛ فلعله دعوة نبي من أنبيائهم، والله أعلم.

الأسباب التي تدفعها عنه، وهي له من أنفع الدواء، وإذا أراد الله -عز وجل- إنفاذ قضائه وقدره؛ أغفل قلبَ العبد عن معرفتها وتصوُّرها وإرادتها، فلا يشعر بها، ولا يريدها، ليقضي الله فيه أمراً كان مفعولاً.

وسنزيد هذا المعنى -إن شاء الله تعالى- إيضاحاً وبياناً: عند الكلام على التداوي بالرُّقى، والعُوذ النبوية، والأذكار، والدعوات، وفعل الخيرات، ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوي؛ كنسبة طب الطرقية والعجائز إلى طبهم؛ كما اعترف به حذاقهم وأئمتهم، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالاً عن الأرواح، وأن قوى العوذ[1]، والرقى، والدعوات، فوق قوى الأدوية، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة[2].

---

(١) جمع «عوذة»؛ وهي الرقية. فعطف «الرقى» عليها للتفسير. وسميت: «عوذة»؛ لأنها يعوذ بها المريض؛ أي: يمتنع من المرض.

(٢) وقد تأول الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٢/ ٣٨٥-٣٩١) قوله ﷺ: «إنه وخز الجن» بالجراثيم. وهذا التأويل الفاسد امتداد للمدرسة العقلانية المعاصرة التي دندن حولها جمال الدين الأفغاني وتلاميذه كالشيخ محمد عبده.

والجواب على تأويله من وجهين: مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإن عدم العلم بالشيء لا يستلزم نفيه، فعدم إدراك العلم الحديث والطب الجديد لهذا السبب الذي ذكره الرسول ﷺ لا يدل على بطلانه بل العكس؛ لأن الكلام النبوي في هذه المسألة قطعي الثبوت قطعي الدلالة بينما الدراسات العلمية والطبية المعاصرة ليس لها عصمة الوحي المحمدي.

وإذا كانت الجراثيم لم تكتشف إلا في القرون المتأخرة، فهل عدم معرفة الأولين لها ينفي وجودها وفاعليتها وأثرها في نقل الأمراض؟! فإن كان الجواب بالنفي؛ فالقول في هذا هو كالقول في قوله ﷺ: «إنه وخز الجن»، وإن كان الجواب بالإثبات؛ فهو هدم لكل القواعد العلمية التي أصبحت بدهيات عند أهل العلم والعرفان.

وأما المفصل؛ فمن وجوه:

١- قوله ﷺ: «إنه وخز أعدائكم من الجن» يؤكد أن المراد الجن كما عرفهم الشرع، وهم: أحد الثقلين؛ لأن الجراثيم لا توصف بالعداوة والصداقة.

فإن قيل: الجراثيم أعداء الإنسان -التي اكتشفها أخيراً-؛ حيث تنقل الأمراض التي تفتك به.

=

= فالجواب: إن أردنا هذا المعنى؛ فالجراثيم كلها أعداء وليس فيها أخوة وأصدقاء، وهذا عكس مراد الحديث.

٢- فرق بين كلمة(الجن) في الشرع في غير بحث الطاعون حيث يراد منها أحد الثقلين وأما في بحث الطاعون؛ فالمراد: الجراثيم.

وهذا التفريق لا دليل عليه، وتخصيص لا مستند له، ومعلوم لدى أهل العلم: أن العام لا يخصص إلا بدليل جلي.

٣- أن حمل كلمة(الجن) على المعنى اللغوي باطل؛ لأن هذه الكلمة أخذت معناً شرعياً؛ فلا يجوز صرفها عنه.

٤- لقد جعل التوافق الدقيق بين الأحاديث النبوية الصحيحة في الطاعون ومعطيات الطب الحديث سببا لهذا التأويل ، فقال: «أقول -والله أعلم-: إن التدقيق في مجموع أحاديث الطاعون، والمقارنة فيما بينهما من جهة، وفيما بينهما وبين الحقائق الطبية في زماننا من جهة أخرى يؤكدان وجود صارف من الواقع عن إرادة المعنى الحقيقي....».

قلت: اعكس تصب؛ فإن التوافق العجيب والتطابق الشديد بين الأحاديث النبوية والحقائق العلمية يؤكد المعنى الحقيقي، لأن الأحاديث هي الأصل وجاء العلم الحديث ليوافقها وحقائقه لتطابقها، وكذلك المعنى الحقيقي في الأحاديث هو الأصل، فإذا عجز العلم الحديث أو لم يكتشف - بعد- بعض هذه المعاني الحقيقية؛ فلا يسوغ لنا صرفها إلى معاني مستجدة وتأويلات محدثة، فتدبر هذا المقام، فإنه دقيق وعميق لا يعقله إلا العالمون.

٥- أساء فهم شرط الحديث الصحيح: فقال: «...لقد ثبت علمياً: أن سبب الطاعون أو عامله المرضي نوع من الجراثيم العصوية تدعى: الباستورة لات الطاعونية أو عصيات يه رسن، تنقلها براغيث الجرذان والقواضم المصابة بهذا الوباء.

ومحال أن يتكلم رسول الله ﷺ بما هو مخالف للواقع. وأذكر في هذه المناسبة بأن متن الحديث الذي يخالف الواقع بمعناه الحقيقي والمجازي يكون ضعيفاً؛ لأن مخالفة الواقع علة قادحة في صحة نسبة المتن إلى النبي ﷺ المعصوم عن الخطأ، ولو صح سند ذلك المتن؛ لأن من شرط الحديث الصحيح والحسن كما في كتب مصطلح الحديث: «أن لا يشذ وأن لا يعل».

=

= وبما أن المعنى المجازي في قوله ﷺ: «وخز أعدائكم من الجن» محتمل ومقبول لغة؛ فهو المتعين؛ فلا حاجة لإعلال ذلك المتن ذي السند الحسن...».

قلت: والجواب من وجوه:

أ- قوله: « محال أن يتكلم رسول الله ﷺ بما هو مخالف للواقع» كلمة حق لم يفهمها حق فهمها؛ فإن رسول الله ﷺ لا يتكلم بما هو مخالف للواقع، ولكن لا يجوز لي اعناق النصوص لتوافق الواقع، وإنما نتركها ليفسرها الواقع؛ لأن رسول الله ﷺ تكلم بأمور لم تكن معلومة في عصره وواقعه، ثم جاء الواقع وصدق بعضها، وسيأتي يوم تظهر فيه حقائقها كلها؛ ولذلك لا يجوز الاستعجال؛ فنتأول النصوص؛ لندعي أنها توافق الواقع، وإلا؛ فهي ضعيفة؛ لأن هذا تحكم في النصوص، والأصل: أن تحكمنا النصوص.

ب- قوله: «....متن الحديث الذي يخالف الواقع بمعناه الحقيقي والمجازي يكون ضعيفاً».

إن الحديث لا يخالف الواقع، وإنما يخالف فهمنا للواقع؛ فلذلك لا يجوز أن نجعل فهمنا للواقع هو الواقع في نفس الأمر، ثم ندعي مخالفة الحديث للواقع، فلم لا نجعل فهمنا هو المخالف للواقع، والحديث النبوي هو الموافق للواقع؟ وإن لم ندرك هذا الواقع فسيأتي يوم تتجلى فيه حقائق الواقع المطابقة لحديث رسول الله ﷺ كما تجلت في بعض أجزائه ومعانيه.

ت- مخالفة الواقع أو مطابقته ليس معياراً على ضعف الحديث أو صحته؛ لأننا إذا قلنا: إن الحديث الذي صح سنده وكان مخالفاً للواقع يصير ضعيفاً؛ فإن هذا يستلزم أن الحديث الذي ضعف سنده وكان مطابقاً للواقع يصير صحيحاً، وهكذا يصير التصحيح والتضعيف حسب الواقع وهذا أمر ليس له في علم الحديث واقع!

ولعله من أجل ذلك أورد كثير من الأطباء المعاصرين -الذين صنفوا في الطب النبوي- أحاديث لم تصح ونسبوها للنبي ﷺ لمجرد موافقتها لبعض الحقائق العلمية، وما علموا أن هذا جناية على السنة النبوية وهدم لعلم الحديث الشريف.

ث- إن مخالفة الواقع بهذا الطرح لم يعتبرها أحد من علماء الحديث وجهابذته من العلل القادحة التي يرد بها الحديث إلا شرذمة من أصحاب الرأي المعاصرين.

٦- يتسائل قائلاً: كيف يؤدي الحجر الطبي فائدته والجن طليقون يستطيعون التنقل حيث شاؤوا؟ وعلى ذلك؛ فإن فائدة الحجر المشاهدة تنفي احتمال وجود طاعون

=

والمقصود: أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون؛ فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده، يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة؛ لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه؛ كالعفونة والنتن والسمية، في أي وقت كان من أوقات السنة، وإن كان أكثر حدوثه في أواخر الصيف وفي الخريف -غالباً-؛ لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحلّلها في آخره، وفي الخريف؛ لبرد الجو، وردغة[1] الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف، فتنحصر، فتسخن، وتعفن؛ فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعداً، قابلاً، رهلاً، قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب.

وأصحُّ الفصول فيه فصل الربيع؛ قال أبقراط[2] : إن في الخريف أشد ما تكون من الأمراض وأقتل، وأما الربيع؛ فأصحُّ الأوقات كلها وأقلها موتاً.

وقد جرت عادةُ الصيادلة، ومجهزي الموتى: أنهم يستدينون، ويتسلّفون في الربيع والصيف على فصل الخريف، فهو ربيعهم، وهم أشوق شيءٍ إليه، وأفرح بقدومه، وقد رُوي في حديث: «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن**

= سببه الجن وطاعون سببه الجراثيم، وإلا؛ فأين الطاعون الجني المنشأ في بقاع الأرض ولم تخل من الجن؟

قلت: تساؤله غير وارد؛ لأنه جاء من فهم بارد وذهن شارد، وإلا فإن الجن طليقون يعيثون في الأرض فساداً ومع ذلك لا يصلون إلى عباد الله المخلصين... لماذا؟ لأن الله -عز وجل- شرع أسباباً للاستعاذة من إفسادهم وفتح أبواباً للتخلص من شرورهم فمن اتخذ هذه الأسباب وولج هذه الأبواب كان معصوماً منهم... فإن كان الأمر كذلك في نفس الأمر؛ فلِمَ لا يكون النهي عن الدخول والخروج من الأسباب الشرعية الطبية التي تحصن الإنسان من هذا الوباء، ولا فرق؟! فتدبر، ولا تكن من الغافلين.

(١) الردغة: الماء والطين والوحل الكثير الشديد.

(٢) من أشهر أطباء الإغريق ترجمت بعض مصنفاته إلى العربية كـ «تقدمة المعرفة»، و«طبيعة الإنسان»، توفي سنة (٣٧٧ق.م).

كل بلد »[١]، وفسر بطلوع الثريا، وفسر بطلوع النبات زمن الربيع، ومنه ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾ [الرحمن:٦]، فإن كمال طلوعه وتمامه يكون في فصل الربيع، وهو الفصل الذي ترتفع فيه الآفات.

وأما الثُّريا؛ فالأمراض تكثر وقتَ طلوعها مع الفجر وسقوطها. قال التميمي[٢] في كتاب «مادة البقاء»: «أشدُّ أوقات السنة فساداً، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان:

أحدهما : وقتُ سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر.

والثاني : وقت طلوعها من المشرق قبل طلوع الشمس على العالم، بمنزلة[٣] من منازل القمر، وهو: وقت تصرُّم فصل الربيع وانقضائه، غير أن الفسادَ الكائن عند طلوعها أقلُّ ضرراً من الفساد الكائن عند سقوطها».

وقال أبو محمد بن قتيبة[٤]: «يقال: ما طلعت الثريا ولا نأت إلا بعاهة في الناس والإبل، وغروبها أعوَهُ[٥] من طلوعها».

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٤١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٢١) من طريق أبي حنيفة عن عطاء عن أبي هريرة به؛ قلت: إسناده ضعيف.

(٢) محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، أبو عبد الله: طبيب عالم بالنبات والأعشاب.

ولد في القدس، وانتقل إلى مصر، فسكنها وتوفي بالقاهرة.

من كتبه: «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء» عدة مجلدات؛ صنفه للوزير يعقوب بن كلس بمصر، ومقالة في « ماهية الرمد وأنواعه وأسباب علاجه».

(٣) وفي نسخة: «لمنزلة»، وكلاهما صحيح.

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ينحدر من أسرة فارسية، ولد (٢١٣هـ)، وتوفي(٢٧٦هـ)، وعرف بخطيب أهل السنة والأثر، وله مصنفات كثيرة من أشهرها «تأويل مختلف الحديث»، وقد حققته -بحمد الله ومنته- على عدة نسخ خطية، وترجمت له فيه ترجمة وافية.

(٥) أشد عاهة وإصابة من « عاه الشيء» إذا أصابته آفة وفي بعض النسخ: «أعود»، وهو تطبيع قبيح غريب.

وفي الحديث قول ثالث - ولعله أولى الأقوال به - أن المراد بالنجم: الثريا. وبالعاهة: الآفة التي تلحق الزروع والثمار في فصل الشتاء وصدر فصل الربيع، فحصل الأمن عليها عند طلوع الثريا في الوقت المذكور، ولذلك نهى ﷺ عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدو صلاحها[1].

والمقصود: الكلام على هديه ﷺ عند وقوع الطاعون.

فصل

وقد جمع النبي ﷺ للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه[2]؛ فإن في

---

(١) البخاري (١٤٨٦)، ومسلم (١٥٣٤) (٥٢) من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما-.

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٢/ ٣٨١-٣٨٤): «إن العزل والحجر وسيلتان هامتان للوقاية من سراية الأمراض المعدية والوبائية، ويقصد بالحجر تحديد حرية الانتقال لكل حي تعرض للعدوى بمرض سار، وحجره مدة من الزمن تعادل أطول حد لحضانة ذلك المرض. فإذا ثبتت سلامته رفع عنه الحجر وإلا عزل لإصابته.

كان فريق من الناس منذ القديم يبتعدون عمن يعلمون أنه مصاب بمرض سار؛ تجنبا للعدوى، وكذلك كانوا يتخوفون من الدخول إلى بلدة أو قطر فيه وباء. ولكن لم يكن معروفا أنه لا يجوز أن يخرج الإنسان السليم من بلدة أو منطقة موبوءة بمرض وبائي، لأنه لم تكن الجراثيم عوامل الأمراض السارية معروفة، لا هي ولا مدة حضانة أمراضها، ولذا لم يكن معروفا أن الخارج السليم ظاهرا ربما كان في دور الحضانة أو في دور النقاهة، أو كان ذا مناعة على ذلك الوباء، ولكنه من حملة جراثيمه أو من حملة الحشرات الناقلة لجراثيم ذلك الوباء؛ كالبراغيث المصابة بجراثيم الطاعون والقمل الحاملة لجراثيم التيفوس، لم يكن ذلك معروفاً،ومع ذلك؛ فقد خطط رسول الله ﷺ بنور النبوة طريق الوقاية وسبيل الحجر الصحي قبل اكتشاف الجراثيم وتعيين مدة حضانة الأمراض السارية والوبائية باثني عشر قرناً ونيفاً، وذلك عندما نهى عن القدوم على منطقة الوباء الداخل إلى العدوى، ولا خروج منها فراراً، خشية أن يكون السليم ظاهراً واسطة لنقل الوباء إلى منطقة أخرى (وذكر الأحاديث).

=

الدخول في الأرض التي هو بها تعرضاً للبلاء، وموافاة لـه في محـل سـلطانه، وإعانة للإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنب الدخـول إلى أرضه من باب الحمية التي أرشد الله -سبحانه- إليـها، وهـي حمية عـن الأمكنة والأهوية المؤذية.

وأما نهيه عن الخروج من بلده؛ ففيه معنيان:

أحدهما : حمل النفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر علـى أقضيته، والرضى بها .

والثاني: ما قاله أئمة الطب : أنه يجب على كل محـترز مـن الوبـاء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفـف من كل وجه؛ إلا الرياضة والحمام، فإنهما مما يجب أن يحذرا؛ لأن البـدن لا يخلو غالباً من فضل رديء كـامن فيـه، فتثيره الرياضـة والحمـام، ويخلطانـه

= تدل هذه الأحاديث الشريفة على أن رسول ﷺ وضع أساس الحجر الصحـي في مكافحة الأوبئة، وذلك بما يتلاءم مع حقائق الطـب وفـن الصحـة ومـع الامكانيـات العلمية في زمانه ﷺ. ثم بعد أن عرفت جراثيم الأمـراض السارية ومـدة حضانـة كـل مرض ووسائل تشخيصه وطـراز سـرايته وانتشـار وبائـه، وبعـد أن عرفـت ذلـك كلـه حددت مدة العزل ومدة الحجر بالنسبة لكل مرض وبائي، كما حدد من يتناولهم العـزل ومن يتناولهم الحجر ونوعيته.

أما بدون الوسائل العلمية المستحدثة؛ فيجب أن يشمل الحجر عـدداً مـن النـاس أضخم، ورقعة من الأرض أوسع، كما أشار إلى ذلـك رسـولنا العظيـم في تعاليمـه عـن الطاعون والأوبئة.

إن الحجر الصحي الإسلامي في نهيه عن الخروج من منطقة الوباء، يعـني: وقايـة المناطق السليمة من امتداد الوباء إليها؛ خشـية أن يكـون الخـارجون مـن منطقـة الوبـاء سليمين ظاهراً، ولكنهم من حملة جراثيم الوباء أو من حملـة الحشـرات الحاملـة لهـا، ولا يعني ذلك النهي ترك السليمين عرضـة للإصابـة؛ فـإن الإسـلام يناديـهم باتبـاع قواعـد النظافة والطهارة، وبالبعد عن المصابين بمرض سار».

بالكيموس[١] الجيد، وذلك يجلب علة عظيمة، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدعة، وتسكين هيجان الأخلاط، ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جدا.

هذا كلام أفضل الأطباء المتأخرين، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما[٢].

فإن قيل: ففي قول النبي ﷺ: «لا تخرجوا فراراً منه» ما يبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذي ذكرتموه، وأنه لا يمنع الخروج لعارض، ولا يحبس مسافراً عن سفره؟

قيل: لم يقل أحد -طبيب ولا غيره-: إن الناس يتركون حركاتهم عند الطواعين، ويصيرون بمنزلة الجمادات، وإنما ينبغي فيه التقلل من الحركة بحسب الإمكان، والفار منه لا موجب لحركته إلا مجرد الفرار منه، ودعته وسكونه أنفع لقلبه وبدنه، وأقرب إلى توكله على الله -تعالى- واستسلامه لقضائه .

وأما من لا يستغني عن الحركة ؛ كالصناع، والأجراء، والمسافرين، والبرد، وغيرهم؛ فلا يقال لهم: اتركوا حركاتكم جملة، وإن أمروا أن يتركوا منها ما لا حاجة لهم إليه؛ كحركة المسافر فاراً منه، والله -تعالى- أعلم.

وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها، عدة حكم:

---

(١) الكيموس: الخلط أو الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة، والكلمة يونانية.

(٢) قلت: وفيه- أيضاً- معان أخر، منها:

١- التحرز عن نقل عدوى المرض الوبيء.

٢- أن هذا الداء يضعف البدن، وكذلك الانتقال يضعف البدن؛ فتتضاعف البلية، وتعظم الرزية.

وهذا الحديث العظيم: أصل في الطب الوقائي حيث أصّل مبدأ «الحجر الصحي»، والذي يعده الأطباء المعاصرون من أعظم قواعد الطب الحديث!

أحدهما : تجنب الأسباب المؤذية، والبعد منها.

الثاني : الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد.

الثالث: أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد؛ فيمرضون.

الرابع: أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم .

الخامس: حمية النفوس عن الطيرة والعدوى، فإنها تتأثر بهما، فإن الطيرة على من تطير بها.

وبالجملة؛ ففي النهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرض لأسباب التلف .

وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل، والتسليم، والتفويض.

فالأول: تأديب وتعليم.

والثاني: تفويض وتسليم .

وفي «الصحيحين»[1]: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ[2]، لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام[3]، فاختلفوا، فقال لابن عباس: ادع لي المهاجرين الأولين، قال: فدعوتهم: فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا، فقال له بعضهم: خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه. وقال آخرون: معك بقية

---

(١) البخاري (٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩)، وفي نسخة: «الصحيح»، والمراد: الحديث الصحيح.

(٢) قرية بوادي تبوك في طرف الشام مما يلي الحجاز.

(٣) قال ابن طولون في « المنهل الروي» (ص٣٠٨): «وقال التميمي: لم تزل الشام إلى آخر بني مروان مطروقة بالطواعين، لا سيما دمشق والأردن. وقيل: إن عم السفاح خطب بدمشق، فقال: يا أهل الشام! أحسن الله إليكم إذ رفع عنكم الطاعون في زماننا.

فقال له قائل: الله أعدل من أن يجمعكم والطاعون علينا».

الناس، وأصحاب رسول الله ﷺ؛ فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم له، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم له، فلم يختلف عليه منهم رجلان، قالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فأذن عمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله -تعالى-؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم؛ نفر من قدر الله -تعالى- إلى قدر الله -تعالى-، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان[1]: إحداهما: خصبة، والأخرى: جدبة، ألست إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله -تعالى-، وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله -تعالى-؟! قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجاته، فقال: إن عندي في هذا علماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه».

فصل
في هديه في داء الاستسقاء وعلاجه

في «الصحيحين»[2] من حديث أنس بن مالك، قال: قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ، فاجتووا المدينة[3]، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: «لو خرجتم إلى إبل الصدقة؛ فشربتم من أبوالها وألبانها»، ففعلوا،

---

(١) العدوة: جانب الوادي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٥)،ومسلم (١٦٧١).

(٣) عافوا المقام بالمدينة، وصابهم الجوى في بطونهم.

فلما صحوا؛ عمدوا إلى الرعاة؛ فقتلوهم، واستاقوا الإبل، وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا، فقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمل أعينهم[١]، وألقاهم في الشمس حتى ماتوا.

والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء: ما رواه مسلم في «صحيحه»[٢] في هذا الحديث أنهم قالوا : إنا اجتوينا المدينة، فعظمت بطوننا، وارتهشت أعضاؤنا، وذكر تمام الحديث.

والجوى: داء من أدواء الجوف، والاستسقاء[٣]: مرض مادي سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء، فتربو لها: إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط.

وأقسامه ثلاثة: لحمي -وهو أصعبها-، وزقي، وطبلي .

ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه، هي: الأدوية الجالبة، التي فيها إطلاق معتدل، وإدرار بحسب الحاجة-؛ وهذه الأمور موجودة في أبوال الإبل وألبانها-: أمرهم النبي ﷺ بشربها؛ فإن في لبن اللقاح جلاء وتليينا، وإدراراً وتلطيفاً، وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيح، والقيصوم،

---

(١) فقأ أعينهم.

(٢) هذا سبق قلم من المصنف- رحمه الله-؛ فإن مسلماً لم يخرج هذه الرواية، وإنما هي عند النسائي(٧/ ٩٨) -بنحوه- بلفظ: «حتى اصفرت ألوانهم، وعظمت **بطونهم**».

(٣) الاستسقاء: مرض يتميز بانتفاخ البطن؛ نتيجة لوجود سائل مصلي داخل التجويف البريتوني.

وأسبابه عديدة:

أهمها: تليف الكبد نتيجة بلهارسيا، وهبوط القلب ، والدرن البريتوني...إلخ.

وعلاجه: ينصب على علاج السبب له، مع عمل عملية بزل بطن؛ لاستخراج السائل في حالة الشدة.(ع).

والبابونج، والأقحوان، والإذخر، وغير ذلك: من الأدوية النافعة للاستسقاء[(١)] .

---

(١) استخدم العرب حليب النوق في معالجة كثير من الأمراض؛ كأوجاع البطن، وأمراض الكبد، والربو، وضيق التنفس، والسكري. واستخدمه بعضهم لمعالجة الضعف الجنسي حيث يتناوله الرجل عدة مرات قبل الزواج.

وحليب النوق يساعد في تنمية العظام عند الأطفال، ولذلك تصبح قامة الرجل طويلة، ومنكبه عريض، وجسمه قوي، إذا شرب كميات كبيرة من الحليب في صغره، ويقوي حليب النوق عضلة القلب؛ لأن نسبة الدهن قليلة، وكذلك الأحماض الأمينية المشبعة، ويحمي اللثة والأسنان؛ لاحتوائه على فيتامين (ج).

ويساعد على ترميم خلايا الجسم؛ لأن نوعية البروتين فيه تساعد على تنشيط الخلايا المختلفة.

وأكد كثير من الباحثين في علوم الأغذية: أن ألبان الإبل هي الأفضل من حيث ثرائها بمكونات الغذاء وسلامتها.

فقد كشفت الدراسات العلمية والتحاليل المخبرية:

١- أن فيتامين (ج) في حليب النوق ثلاثة أضعاف مثيله في ألبان البقر.

٢- وأن نسبة الدهون في حليب النوق أقل منها في حليب الأبقار، كما أنها حبيبات أقل حجماً يسهل هضمها وامتصاصها.

٣- وأن فيه مواد تقاوم السموم والبكتيريا ونسبة كبيرة من الأجسام المناعية المقاومة للأمراض.

٤- ويحوي حليب النوق على نسبة عالية من الماء، وقد تجلت قدرة الله -سبحانه وتعالى- في دور هرمون (البرولاكتين) في دفع المياه إلى ضرع الناقة؛ لتزيد كمية الماء في الحليب، وتتم هذه العلمية في وقت اشتداد الحر التي يحتاج فيها رضيعها لهذه الكمية من الماء، وكذلك الإنسان العابر معها الصحراء؛ ليطفىء ظمأه .

وحليب النوق يحتفظ بجودته وقوامه لمدة (١٢) يوماً.

واستخدام بول الإبل؛ كمادة مطهرة؛ لغسل الجروح والقروح، ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، وفي معالجة القشرة والقرع.

=

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة، أو مع مشاركة، وأكثرها عن السدد فيها، ولبن اللقاح العربية نافع من السدد؛ لما فيه من التفتيح، والمنافع المذكورة.

قال الرازي: «لبن اللقاح يشفي أوجاع الكبد، وفساد المزاج».

وقال الإسرائيلي: «لبن اللقاح: أرق الألبان، وأكثرها مائية وحدة، وأقلها غذاء؛ فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول، وإطلاق البطن، وتفتيح السدد، ويدل على ذلك ملوحته اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة

= وبول الإبل يحتوي على نسبة كبيرة من البوتاسيوم والبروتينات الزلالية وكميات قليلة من الصوديوم وحامض اليوريك.

وقد تواترت أخبار حالات مرضية مستعصية: كتليف الكبد الوبائي، وأمراض السرطان، عولجت بألبان الإبل وأبوالها؛ فتم شفاؤها بإذن الله -تعالى-، وقد شاهدت بعضها، وحدثني أحدهم: أنه عندما يشرب بول الإبل يشعر في جسمه بحالة تشبه العلاج الكيماوي الذي يتناوله المصابون بالسرطان.

وينصح عند العلاج بألبان الإبل وأبوالها ما يأتي:

١- أن تكون الناقة بكراً ترعى الأعشاب البرية.

٢- تناول فنجان من بول الإبل مع كوب من حليبها على الريق.

٣- قال ابن مفلح -رحمه الله- في «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥٠): «قال ابن جزلة: لبن اللقاح -وهي النوق- أقل الألبان دسومة وجبنية، وهو رقيق جداً لا يحدث سوداء كغيره من الألبان؛ لقلة جبنيته، ينفع من الربو، والاستسقاء، وأمراض الطحال والبواسير، وأجود ما يستعمل للاستقساء مع أبوال الإبل؛ فإنه يسهل الماء الأصفر وهو سريع الانحدار عن المعدة، وهو أقل غذاء من سائر الألبان.

قال الزهري في أبوال الإبل : قد كان المسلمون يتداون بها، فلا يرون بها بأساً؛ ذكره البخاري.

وقال الطحاوي: حدثنا حسن بن نصر الفريابي عن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: كانوا يستشفون بأبوال الإبل لا يرون بها بأسا».

وهذه كلها بعض الحكم العلمية في حض الرسول ﷺ العرنيين أن يشربوا ألبان الإبل وأبوالها، والله أعلم.

حيوانية بالطبع؛ ولذلك صار أخص الألبان بتطرية الكبد، وتفتيح سددها، وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثا، والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استعمل لحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل، وهو حار كما يخرج من الحيوان، فإن ذلك مما يزيد في ملوحته، وتقطيعه الفضول، وإطلاقه البطن، فإن تعذر انحداره وإطلاقه البطن؛ وجب أن يطلق بدواء مسهل».

قال صاحب «القانون»[1]: «ولا يلتفت إلى ما يقال: من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء. قال: واعلم أن لبن النوق دواء نافع لما فيه من الجلاء برفق، وما فيه من خاصية، وأن هذا اللبن شديد المنفعة؛ فلو أن إنسانا أقام عليه بدل الماء والطعام: شفي به، وقد جرب ذلك في قوم دفعوا إلى بلاد العرب، فقادتهم الضرورة إلى ذلك، فعوفوا.

وأنفع الأبوال: بول الجمل الأعرابي، وهو: النجيب»[2] انتهى.

وفي القصة: دليل على التداوي والتطبب.

وعلى طهارة بول مأكول اللحم؛ فإن التداوي بالمحرمات غير جائز[3]، ولم يؤمروا -مع قرب عهدهم بالإسلام- بغسل أفواههم، وما أصابته ثيابهم من أبوالها للصلاة، وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة.

---

(١) هو كتاب في الطب النظري والعملي، وفي أحكام الأدوية؛ ألفه ابن سينا، طبع في روما سنة (١٥٩٣م) وترجمه إلى اللاتينية، ثم طبع في البندقية سنة(١٥٩٥م).

(٢) هو القوي البنية الفتي النشيط.

(٣) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «هذا غير متفق عليه، ودليل المجيز: أنه لا يكون حينئذ حراما».

قلت: هذا قول متناقض، وبالدليل الصحيح معارض:

أما تناقضه: فإذا كان المجيز لا يعد ذلك حراماً؛ عاد الأمر إلى القول الأول، وهو أن التداوي بالمحرمات غير جائز؛ فعاد الأمر إلى اتفاق.

وأما معارضته للدليل الصحيح؛ فقد فصلت المسألة في كتابي:« موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ١٧٧-١٨١)؛ فانظره غير مأمور.

وعلى مقاتلة الجاني بمثل ما فعل؛ فإن هؤلاء قتلوا الراعي، وسملوا عينيه؛ ثبت ذلك في «صحيح مسلم».

وعلى قتل الجماعة، وأخذ أطرافهم بالواحد .

وعلى أنه إذا اجتمع في حق الجاني حد وقصاص استوفيا معا؛ فإن النبي ﷺ قطع أيديهم وأرجلهم حداً لله على حرابهم؛ وقتلهم؛ لقتلهم الراعي.

وعلى أن المحارب إذا أخذ المال، وقتل؛ قطعت يده ورجله في مقام واحد وقتل .

وعلى أن الجنايات إذا تعددت؛ تغلظت عقوباتها؛ فإن هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم، وقتلوا النفس، ومثلوا بالمقتول، وأخذوا المال، وجاهروا بالمحاربة .

وعلى أن حكم ردء[1] المحاربين حكم مباشرهم؛ فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه، ولا سأل النبي ﷺ عن ذلك.

وعلى أن قتل الغيلة يوجب قتل القاتل حداً، فلا يسقطه العفو، ولا تعتبر فيه المكافأة، وهذا مذهب أهل المدينة، وأحد الوجهين في مذهب أحمد، واختاره شيخنا، وأفتى به[2].

فصل

في هديه ﷺ في علاج الجرح

في «الصحيحين»[3] عن أبي حازم: أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دووي به جرح رسول الله ﷺ يوم أحد، فقال: «جرح وجهه، وكسرت

---

(١) هذا هو الصواب وما يناسب السياق، وليس كما قال الأستاذ عبد الغني عبد الخالق: أنها مصحفة عن «ردع»؛ فـ«الرد»: المعين، و«الردع»: الكف عن الشيء، يقال: ردعه يردعه ردعاً؛ فارتدع: كفه فكف، والله أعلم .

(٢) انظر« السياسة الشرعية» (ص٦٩و٧٥)

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠).

رباعيته، وهشمت البيضة[١] على رأسه، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن[٢]، فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة؛ أخذت قطعة حصير، فأحرقتها، حتى إذا صارت رمادا؛ ألصقته بالجرح؛ فاستمسك الدم». برماد الحصير المعمول من البردي[٣]، وله فعل قوي في حبس الدم؛ لأن فيه تجفيفا قويا، وقلة لذع؛ فإن الأدوية القوية التجفيف إذا كان فيها لذع هيجت الدم وجلبته، وهذا الرماد إذا نفخ وحده، أو مع الخل في أنف الراعف قطع رعافه[٤] .

---

(١) الخوذة التي توضع على الرأس.

(٢) هو الترس الذي يتقي به المحارب.

(٣) نبات مائي كالقصب تصنع منه الحصر، وكان قديما يستعملون قشره للكتابة.

(٤) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٥٠-٢٥١):

«وعلل طبيا فائدة الرماد بصورة عامة في إيقاف النزيف كما يلي: إن الرماد يمتص قسما كبيرا من ماء المصل الدموي؛ فيساعد على تكوين الخثرة البدئية من الصفيحات الدموية، كما إن وجوده يزيد من تخريب بعض الصفيحات التي يتخرب قسم منها أيضا بتماسها بسطح الجرح الشئز(الخشن). وفي علم الفيزيولوجيا: إن الصفيحات الدموية بتخربها تطلق الخميرة المساعدة على التخثر(ترومبوكيناز) كما تطلقها الأنسجة المجروحة. فإذا انضم إلى ذلك وجود مواد قابضة كالعفص في المادة المحروقة، يكون رمادها أقوى في إيقاف النزيف، كما هو الأمر في رماد البلوط...

وبما أن المادة المحترقة إذا كانت تحوي مواد قابضة، تكون فائدة رمادها في إيقاف النزيف أقوى، قال الكحال ابن طرخان لدى شرحه الحديث السابق: والمراد هنا بالحصير المعمول من البردي.. ولرماده فعل قوي في حبس الدم؛ لأن فيه تجفيفاً قوياً وقلة لذع... وهذا الرماد إذا نفخ وحده أو مع الخل في أنف الراعف قطع رعافه. ولقد تبع ابن القيم ما قاله ابن طرخان بأن الحصير معمول من البردي، وقبلهما قال ابن سينا في «القانون»: «البردي ينفع من النزف ويمنعه رماده ويذر على الجراحات الطرية فيدملها.. وقال أيضا: رماد: جلاء مجفف كله وإن اختلف... ورماد الخشب القابض كالبلوط وغيره يحبس الدم».

وقال صاحب «القانون»: «البردي ينفع من النزف، ويمنعه، ويذر على الجراحات الطرية، فيدملها، والقرطاس المصري كان قديماً يعمل منه، ومزاجه بارد يابس، ورماده نافع من آكلة الفم، ويحبس نفث الدم، ويمنع القروح الخبيثة أن تسعى».

فصل
في هديه في العلاج بشرب العسل والحجامة والكي

في «صحيح البخاري»[(١)] عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي**».

قال أبو عبد الله المازري: «الأمراض الامتلائية : إما أن تكون دموية، أو صفراوية، أو بلغمية، أو سوداوية.

فإن كانت دموية؛ فشفاؤها إخراج الدم.

وإن كانت من الأقسام الثلاثة الباقية؛ فشفاؤها بالإسهال الذي يليق بكل خلط منها.

وكأنه ﷺ نبه بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على الفصد، وقد قال بعض الناس: إن الفصد يدخل في قوله: «**شرطة محجم**». فإذا أعيا الدواء؛ فآخر الطب الكي، فذكره ﷺ في الأدوية؛ لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية، وحيث لا ينفع الدواء المشروب. وقوله: «**وأنا أنهى أمتي عن الكي**»، وفي الحديث الآخر: « **وما أحب أن أكتوي**»[(٢)] إشارة إلى

---

(١) برقم (٥٦٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٤)، ومسلم (٢٢٠٥) من حديث جابر -رضي الله عنه-.

أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه، ولا يعجل التداوي به؛ لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي» انتهى كلامه.

وقال بعض الأطباء: «الأمراض المزاجية: إما أن تكون بمادة، أو بغير مادة، والمادية منها : إما حارة، أو باردة، أو رطبة، أو يابسة، أو ما تركب منها، وهذه الكيفيات الأربع منها كيفيتان فاعلتان؛ وهما: الحرارة والبرودة، وكيفيتان منفعلتان؛ وهما: الرطوبة واليبوسة، ويلزم من غلبة إحدى الكيفيتين الفاعلتين استصحاب كيفية منفعلة معها، وكذلك كان لكل واحد من الأخلاط الموجودة في البدن، وسائر المركبات كيفيتان: فاعلة ومنفعلة .

فحصل من ذلك أن أصل الأمراض المزاجية هي التابعة لأقوى كيفيات الأخلاط التي هي: الحرارة والبرودة، فجاء[1] كلام النبوة في أصل معالجة الأمراض التي هي الحارة والباردة على طريق التمثيل، فإن كان المرض حاراً؛ عالجناه بإخراج الدم؛ بالفصد كان أو بالحجامة؛ لأن في ذلك استفراغاً للمادة، وتبريداً للمزاج . وإن كان بارداً؛ عالجناه بالتسخين، وذلك موجود في العسل. فإن كان يحتاج مع ذلك إلى استفراغ المادة الباردة؛ فالعسل -أيضاً- يفعل في ذلك؛ لما فيه من الإنضاج، والتقطيع، والتلطيف، والجلاء، والتليين؛ فيحصل بذلك استفراغ تلك المادة برفق وأمن من نكاية المسهلات القوية .

وأما الكي: فلأن كل واحد من الأمراض المادية، إما أن يكون حاداً؛ فيكون سريع الإفضاء لأحد الطرفين، فلا يحتاج إليه فيه، وإما أن يكون مزمناً، وأفضل علاجه بعد الاستفراغ الكي في الأعضاء التي يجوز فيها الكي؛ لأنه لا يكون مزمناً إلا عن مادة باردة غليظة قد رسخت في العضو، وأفسدت مزاجه، وأحالت جميع ما يصل إليه إلى مشابهة جوهرها، فيشتعل

---

(١) وفي نسخة: «فحاصل» ، وكلاهما صحيح صريح.

في ذلك العضو، فيستخرج بالكي تلك المادة من ذلك المكان الذي هو فيه بإفناء الجزء الناري الموجود بالكي لتلك المادة .

فتعلمنا بهذا الحديث الشريف أخذ معالجة الأمراض المادية جميعها، كما استنبطنا معالجة الأمراض الساذجة من قوله ﷺ :«إن شدة الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» (١).

فصل

العلاج بالحجامة

وأما الحجامة؛ فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مررت ليلة أسري بي بملإ إلا قالوا: يا محمد! مر أمتك بالحجامة» (٢).

وروى الترمذي في «جامعه» (٣) -من حديث ابن عباس -هذا الحديث: وقال فيه: «عليك بالحجامة يا محمد!».

وفي «الصحيحين» (٤): عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام أجره».

وفي «الصحيحين» (٥) -أيضا- عن أنس: أن رسول الله ﷺ حجمه أبو طيبة، فأمر له بصاعين من طعام، وكلم مواليه، فخففوا عنه من ضريبته، وقال: «خير ما تداويتم به الحجامة».

---

(١) تقدم (ص ٦٦)

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٩).

قلت: سنده ضعيف؛ لكن للحديث شواهد يتقوى بها؛ كما بينه شيخنا أسد السنة العلامة الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٢٦٣).

(٣) برقم (٢٠٥٣)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٩١)، ومسلم (١٢٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

وقال ﷺ: «إن خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة، ويوم تسع عشرة، ويوم إحدى وعشرين»[١] .

فصل

منافع الحجامة

وأما منافع الحجامة: فإنها تنقي سطح البدن أكثر من الفصد، والفصد لأعماق البدن أفضل[٢]، والحجامة تستخرج الدم من نواحي الجلد[٣] .

قلت : والتحقيق في أمرها وأمر الفصد، أنهما يختلفان باختلاف الزمان، والمكان، والأسنان، والأمزجة؛ فالبلاد الحارة، والأزمنة الحارة والأمزجة الحارة التي دم أصحابها في غاية النضج: الحجامة فيها أنفع من الفصد بكثير؛ فإن الدم ينضج ويرق ويخرج إلى سطح الجسد الداخل، فتخرج الحجامة ما لا يخرجه الفصد؛ ولذلك كانت أنفع للصبيان من

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢٠٦٦).

(٢) الفصد هو شق العرق، والمراد: استنزاف الدم من الأوردة الكبيرة السطحية، ويتم الفصد في العصور الحديثة بواسطة إبرة واسعة القناة، ويؤخذ الدم مباشرة، وتتراوح كمية الدم المسحوب ما بين ٢٥٠- ٥٠٠ ملليتر.

ويستخدم في حالات مرضية خاصة مثل زيادة كريات الدم الحمراء، وهبوط القلب الشديد، وارتفاع ضغط الدم.

(٣) والحجامات على نوعين: حجامات جافة وحجامات رطبة،وتختلف الرطبة عن الجافة بالتشريط قبل وضع الحجامات؛ لامتصاص بعض الدم من مكان المرض، وتستعمل الحجامات الجافة -إلى الآن- لتخفيف الآلام في العضلات خصوصاً عضلات الظهر نتيجة إصابتها بالروماتيزم، وأما الحجامات الرطبة؛ فتستعمل في بعض حالات هبوط القلب المصحوبة بارتشاح في الرئتين، وتعمل على ظهر القفص الصدري.

أما الفصد فيستعمل -الآن- في حالات هبوط القلب الشديد المصحوب بزرقة في الشفتين وعسر شديد في التنفس، ويعمل الفصد بواسطة إبرة واسعة القناة تدخل في وريد ذراع المريض، ويأخذ من (٣٠٠سم³) إلى (٥٠٠سم³) وهذه العملية البسيطة أنقذت حياة كثير من مرضى هبوط القلب في الحالات الأخيرة. (ع) .

الفصد، ولمن لا يقوى على الفصد، وقد نص الأطباء على أن البلاد الحارة الحجامة فيها أنفع وأفضل من الفصد، وتُستحب في وسط الشهر، وبعد وسطه .

وبالجملة؛ في الربع الثالث من أرباع الشهر؛ لأن الدم في أول الشهر لم يكن بعد قد هاج وتبيغ، وفي آخره يكون قد سكن .

وأما في وسطه وبعيده، فيكون في نهاية التزيد .

قال صاحب « القانون »: «ويؤمر باستعمال الحجامة لا في أول الشهر؛ لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت، ولا في آخره؛ لأنها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها؛ لتزيد النور في جرم القمر»(١) .

---

(١) قلت: وهذا موافق لما ورد في قوله ﷺ: « **إن خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة، ويوم تسع عشرة، ويوم إحدى وعشرين**»، وذلك لارتباط هيجان الدم بجاذبية القمر؛كما هو مشاهد في حركة المد والجزر الناشئة عن تأثر البحر بجاذبية القمر.

قال الدكتور جودة حسين في «جغرافيا البحار والمحيطات» (ص١٩٩-٢٠٣):

«وتنشأ ظاهرة المد والجزر عن قوى جذب القمر والشمس للمياه. فالمياه بطبيعتها تستجيب لقوى جذب الأجرام السماوية البعيد منها والقريب. ولكن جذب النجوم- نظراً لبعدها الشاسع عن المسطحات المائية على الأرض- ضئيل جداً لا يكاد يتأثر به سطح البحر. وتأثير القمر في إحداث المد أقوى من تأثير الشمس؛ لأن الشمس بعيدة هي الأخرى عن الأرض، أما القمر فقريب منها نسبياً، ولهذا نجد أن تأثير الشمس يقتصر على تقوية تأثير القمر أو إضعافه.

وقد لاحظ القدماء العلاقة بين حركات المد والجزر، وبين مختلف أوجه القمر.

وتستجيب مياه البحار والمحيطات جميعاً للقوى التي تحدث المد والجزر، سواء منها العميق أو الضحل. فكل قطرة من ماء المحيط من قاعه إلى سطحه تتأثر بتلك القوى، وهي بهذا تختلف كل الاختلاف عن قوى الأمواج.

فالأمواج التي تحدثها الرياح رغم شدتها لا يتعدى تأثيرها المستويات المائية إلى عمق قد لا يزيد كثيرا عن مائة قامة بحرية.

=

وقوله ﷺ: «**خير ما تداويتم به الحجامة**» إشارة إلى أ هل الحجاز، والبلاد الحارة؛ لأن دماءهم رقيقة، وهي أميل إلى ظاهر أبدانهم لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح الجسد، واجتماعها في نواحي الجلد، ولأن

= والكتل المائية التي تحركها تيارات المد غاية في الضخامة ويحدث أعلى مد، وهو المعروف بالمد العالي(المتفخخ) «spring tide» مرتين كل شهر: مرة حينما يكون القمر في المحاق؛ أي: حينما يكون القمر مجرد خيط فضي في السماء، وحينئذ يكون جذب القمر والشمس للماء في اتجاه واحد.

والمرة الثانية حينما يكون القمر بدراً، وحينئذ يكون جذب القمر والشمس للماء في اتجاهين متقابلين. وفي كلتا الحالتين تكون الشمس والقمر والأرض على استقامة واحدة، وبذلك يتعاون جذب كلا الجرمين السماويين في رفع المياه عالياً على السواحل، ودفعها لترتطم بالصخور وتملأ المرافيء.

ويضعف المد مرتين في الشهر: الأولى في الأسبوع القادم، والثانية في الأسبوع الثالث من الشهر العربي، وذلك حينما يكون القمر والشمس في اتجاهين متعامدين. ويسمى المد في كلتا الحالتين بالمد المنخفض«neap tide» وهناك عدة عوامل تتدخل لتجعل حركة المد أكثر تعقيداً مما يظهر، فتأثير الشمس والقمر في تغير مستمر تبعاً لتباين أوجه القمر، ولاختلاف بعد القمر والشمس عن الأرض، وكذلك لإختلاف موقع كل منهما إلى الشمال أو إلى الجنوب من الدائرة الإستوائية»

قلت: وبذلك يتبين حكمة هدي الرسول ﷺ في اختيار اليوم السابع عشر أو التاسع عشر أو الحادي والعشرين من الشهر العربي لعملية الحجامة وذلك من وجوه:

أ- أن عملية المد والجزر تتأثر بأحوال القمر والذي هو ميقات الشهر العربي.

ب- الدم سائل ولذلك يتأثر بجاذبية القمر[1] كالمياه .

ت- أن هيجان الدم في الجسم سيكون في الفترة التي يشتد فيها المد.

ث- وفي هذه الفترة حرض النبي ﷺ أمته على الحجامة؛ لأن هيجان الدم قاتل، فقال ﷺ: «**إذا هاج بأحدكم الدم؛ فليحتجم ؛ فإن الدم إذا تبيغ بصاحبه يقتله**» صححه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٧٤٧).

(أ) وانظر - لزاماً- (ص ١٠١).

مسام أبدانهم واسعة، وقواهم متخلخلة، ففي الفصد لهم خطر، والحجامة تفرق اتصالي إرادي يتبعه استفراغ كلي من العروق، وخاصة العروق التي لا تفصد كثيراً، ولفصد كل واحد منها نفع خاص.

ففصد الباسليق[١] : ينفع من حرارة الكبد، والطحال، والأورام الكائنة فيهما من الدم، وينفع من أورام الرئة، وينفع من الشوصة[٢] ، وذات الجنب، وجميع الأمراض الدموية العارضة من أسفل الركبة إلى الورك.

وفصد الأكحل: ينفع من الامتلاء العارض في جميع البدن إذا كان دموياً، وكذلك إذا كان الدم قد فسد في جميع البدن .

وفصد القيقال[٣]: ينفع من العلل العارضة في الرأس والرقبة من كثرة الدم أو فساده.

وفصد الودجين[٤]: ينفع من وجع الطِّحال، والربو، والبهر، ووجع الجبين.

والحجامة على الكاهل[٥]: تنفع من وجع المَنْكِب والحلق.

والحجامة على الأخدعين[٦]: تنفع من أمراض الرأس، وأجزائه؛ كالوجه، والأسنان، والأذنين، والعينين، والأنف، والحلق إذا كان حدوث ذلك عن كثرة الدم أو فساده، أو عنهما جميعاً.

---

(١) وريد عند المرفق مما يلي الآباط يمتد في العضد على إنسية العضلة ذات الرأسين (معرب).

(٢) الشوصة: وجع في البطن بسبب ريح تأخذ الإنسان، تجول مرة هنا ومرة هناك.

(٣) القيقال: عرق في الذراع في الجانب الوحشي (معرب).

(٤) عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها.

(٥) ما بين الكتفين.

(٦) عرقان في جانبي العنق.

قال أنس -رضي الله تعالى عنه-: «كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين والكاهل»[١].

وعنه: «أنه احتجم وهو محرم في رأسه لصداع كان به»[٢].

وعن جابر: «أن النبي ﷺ احتجم في وركه من وثءٍ[٣] كان به»[٤].

فصل

واختلف الأطباء في الحجامة على نقرة القفا وهي القمحدوة[٥]:

فطائفة منهم استحسنته، وقالت: إنها تنفع من جحوظ العين، والنُّتوء العارض فيها، وكثير من أمراضها، ومن ثقل الحاجبين والجفن، وتنفع من جربه.

وروي أن أحمد بن حنبل احتاج إليها، فاحتجم في جانبي قفاه، ولم يحتجم في النُّقرة.

وممن كرهها صاحب «القانون» وقال: «إنها تورث النسيان حقاً؛ كما قال سيدنا ومولانا وصاحب شريعتنا محمد ﷺ؛ فإن مؤخر الدماغ موضع الحفظ، والحجامة تذهبه» انتهى كلامه .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥١)، وأبو داود(٣٨٦٠) وابن ماجه(٣٤٨٣)، وأحمد (٣/ ١١٩و١٩٢)، والحاكم (٤/ ٢١٠).

قلت: إسناده صحيح؛ وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٩٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٩٨) من حديث عبد الله بن بجينة- رضي الله عنه-.

(٣) وجع يصيب العضد من غير كسر، وفي نسخة: « وني»، وهو : التعب.

(٤) أخرجه أبو داود(٣٨٦٤)، وابن ماجه(٣٤٨٥)، وصححه شيخنا أسد السنة في «صحيح سنن أبي داود»، و«صحيح سنن ابن ماجه».

(٥) عظمة بارزة في مؤخرة الرأس فوق القفا.

ورد عليه آخرون، وقالوا : الحديث لا يثبت، وإن ثبت؛ فالحجامة إنما تضعف مؤخر الدماغ إذا استعملت لغير ضرورة، فأما إذا استعملت لغلبة الدم عليه؛ فإنها نافعة له طباً وشرعاً، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه احتجم في عدة أماكن من قفاه بحسب ما اقتضاه الحال في ذلك، واحتجم في غير القفا بحسب ما دعت إليه حاجته.

فصل

والحجامة تحت الذقن: تنفع من وجع الأسنان والوجه والحلقوم؛ إذا استعملت في وقتها، وتنقي الرأس والفكين.

والحجامة على ظهر القدم: تنوب عن فصد الصافن؛ وهو: عرق عظيم عند الكعب، وتنفع من قروح الفخذين والساقين، وانقطاع الطمث، والحكة العارضة في الأنثيين.

والحجامة في أسفل الصدر: نافعة من دماميل الفخذ، وجربه وبثوره، ومن النقرس، والبواسير، والفيل، وحكة الظهر.

فصل
في هديه في أوقات الحجامة

عن ابن عباس يرفعه: «إن خير ما تحتجمون في يوم سابع عشرة، أو تاسع عشرة، ويوم إحدى وعشرين»[١].

وفيه عن أنس: «كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين والكاهل، وكان يحتجم لسبعة عشر، وتسعة عشر، وفي إحدى وعشرين»[٢].

وعن أنس مرفوعاً : « من أراد الحجامة؛ فليتحر سبعة عشر، أو تسعة عشر، أو إحدى وعشرين، لا يتبيغ بأحدكم الدم؛ فيقتله»[٣]

---

(١) تقدم (ص ٩٦).
(٢) تقدم (ص ١٠٠).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٨٦)، وصححه شيخنا- رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٧٤٧).

=

ومن حديث أبي هريرة مرفوعاً: « من احتجم لسبع عشرة، أو تسع عشرة، أو إحدى وعشرين؛ كانت شفاء من كل داء»[١].

وهذا معناه: من كل داء سببه غلبة الدم .

وهذه الأحاديث موافقة لما أجمع عليه الأطباء: أن الحجامة في النصف الثاني وما يليه من الربع الثالث من أرباعه أنفع من أوله وآخره، وإذا استعملت عند الحاجة إليها نفعت أي وقت كان من أول الشهر وآخره .

عن حنبل قال: كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل يحتجم أيَّ وقت هاج به الدم، وأيَّ ساعة كانت.

وقال صاحب «القانون»: «أوقاتها في النهار: الساعة الثانية أو الثالثة، ويجب توقيها بعد الحمَّام إلا فيمن دمه غليظ، فيجب أن يستحمَّ، ثم يستجم ساعة، ثم يحتجم» انتهى .

وتكره عندهم الحجامة على الشبع؛ فإنها ربما أورثت سدداً وأمراضاً رديئة، لا سيما إذا كان الغذاء رديئاً غليظاً.

واختيار هذه الأوقات للحجامة، فيما إذا كانت على سبيل الاحتياط والتحرز من الأذى، وحفظاً للصحة . وأما في مداواة الأمراض؛ فحيثما وجد الاحتياج إليها وجب استعمالها .

وفي قوله: «لا يتبيغ بأحدكم الدم؛ فيقتله» دلالة على ذلك[٢]؛ يعني: لئلا يتبيغ، فحذف حرف الجر مع (أن)، ثم حذفت (أن). والتبيغ: الهَيْج،

= قال شيخنا : «(تبيغ): في «القاموس المحيط»: «(البيغ): ثوران الدم، وتبيغ الدم: هاج وغلب».

وفي «الهادي إلى لغة العرب»: «باغ الدم: ثار وهاج؛ كما يكون الحال عند من به ارتفاع في ضغط الدم»

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦١)، وصححه شيخنا- رحمه الله- في « الصحيحة» (٦٢٢).

(٢) قال الدكتور محمد علي البار في تعليقاته على «الطب النبوي» لعبد الملك ابن حبيب الأندلسي (ص٤٩-٥٣): « وتبيغ الدم: هاج وثار، والتبيغ: غلبة الدم على =

= الإنسان، وهو ما نعرفه اليوم بضغط الدم: « فرط التوتر الشرياني»؛ فإذا هاج الدم وارتفع الضغط؛ فإنه قد يسبب انفجار أحد الشرايين في الدماغ؛ فيقتل المصاب؛ فيصاب بالشلل« الفالج»، وضغط الدم يؤدي إلى هبوط القلب «احتشاء عضلة القلب» وإلى الفشل الكلوي، وكلاهما قاتل.

وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد: أنه إذا هاج الدم وارتفع ضغطه؛ فإنه يقتل الإنسان (وذكر بعضها).

يعتبر ضغط الدم« فرط التوتر الشرياني» من الأمراض الشائعة، والقاتلة إذا لم تعالج؛ وبسبب ارتفاع ضغط الدم إصابة الكلى ثم فشلها، وكلما أصيبت الكلى وزاد مرضها؛ كلما ارتفع ضغط الدم.

وهكذا يدخل الإنسان في حلقة مقفولة، كما أن ضغط الدم المرتفع يسبب أحياناً انفجار أحد شرايين الدماغ؛ فيسبب السكتة الدماغية التي قد تقتل المريض، أو تكون الإصابة جلطة في الأوعية الدموية في الدماغ؛ فتكون الإصابة شللاً (فالجاً).

ويسبب ارتفاع ضغط الدم تضخم عضلة القلب، ثم هبوط القلب، وخاصة الجانب الأيسر؛ فيسبب النهج(النهجان)، وضيق النفس الشديد وخاصة عند الاستلقاء والنوم وعند بذل أدنى مجهود.

ويسبب ارتفاع ضغط الدم زيادة في تصلب الشرايين، وبالتالي إصابة شرايين القلب وحدوث جلطة (خثرة) فيها، وبالتالي إصابة القلب وكثرة حدوث الذبحة الصدرية (Angine Pectoris).

ويعالج ضغط الدم بإقلال تناول الملح في الطعام، وباستخدام العقاقير التي تخفض ضغط الدم، وفي الماضي كانت الحجامة أحد أهم أنواع العلاج لزيادة ضغط الدم «فرط التوتر الشرياني»، والغريب حقاً أن الأبحاث الحديثة قد ذكرت أن أضرار الأدوية لعلاج الدم المرتفع ارتفاعاً معتدلاً قد تفوق فوائدها؛ ولذا فإن الوفيات الناتجة عن جلطات القلب وهبوط القلب لا تقل في هذه الحالات باستعمال العقاقير الخافضة للضغط.

وقد أوضحت الدراسات المتعددة أن الذين تلقوا علاجاً بمدرات البول لمعالجة ضغط الدم المرتفع زادت حوادث جلطات القلب بالنسبة لهم عن أولئك الذين لم يتلقوا أي علاج (بلغ عامل الخطورة ٣و٣ ضعف الذين لم يتلقوا أي علاج).

وهناك بعض الأبحاث التي تتهم العقاقير المضادة لارتفاع ضغط الدم مثل حاصرات **(B)** بيتا (BBlockers) بتسبيب زيادة في الكوليسترول في الدم، وبالتالي إيجاد

=

= عامل خطر جديد لتسبيب جلطات القلب، وأن الفائدة المرجوة عن خفض ضغط الدم قد تلغيها أو تقلل منها الأضرار الجانبية لهذه العقاقير.

وما يمكن أن نستنتجه، هو: أن ضغط الدم المرتفع ارتفاعاً بسيطاً (MILD) أو معتدلاً (Moderate) قد لا يستفيد المريض من معالجته بالعقاقير المستخدمة حالياً.

ولذا؛ فإن اللجوء إلى المعالجات الطبيعية والبسيطة بخفض الملح في الطعام واستخدام الثوم والحجامة تمثل وسيلة فعالة لمعالجة حالات ضغط الدم المرتفع ارتفاعاً بسيطاً أو معتدلاً، وتجنب أضرار العقاقير».

وقال -أيضاً-:

« وأما حكمة الحجامة عند تبيغ الدم وزيادته في وسط الشهر؛ فقد شرحه ابن سينا في «القانون» حيث قال: « ويؤمر باستعمال الحجامة، لا في أول الشهر؛ لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت، ولا في آخره؛ لأنها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها، لتزايد النور في جرم القمر، وتزيد الدماغ في الأقحاف، والمياه في الأنهار ذوات المد والجزر».

وهذه الملاحظة الجيدة التي لاحظها ابن سينا قد نبه إليها الباحثون في العصر الحديث، وهي: أن الإنسان يزداد هياجانه في الأيام و الليالي المقمرة(أي يوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر).

ويقول الدكتور ليبر عالم النفس بميامي في الولايات المتحدة: « إن هناك علاقة قوية بين العدوان البشري والدورة القمرية، وخاصة بين مدمني الكحول، والميالين إلى الحوادث، وذوي النزعات الإجرامية»

وشرح نظريته قائلاً: « إن جسم الإنسان مثل سطح الأرض يتكون من ٨٠ بالمائة من الماء، والباقي هو من المواد الصلبة».

ومن ثم فهو يعتقد بأن قوة الجاذبية القمرية التي تسبب المد والجزر في البحار والمحيطات؛ تسبب -أيضاً- هذا المد في أجسامنا عندما يبلغ القمر أوج اكتماله في الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وهو ما عبر عنه القدماء بقولهم: يتبيغ به الدم وتهيج به الأخلاط»[١].

وقال الدكتور محمود النسيمي: في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٩٦-٩٧): « التبيغ في اللغة: الزيادة من قولهم : بغى فلان على فلان؛ أي: زاد عليه، قال أبو

(أ) وانظر- لزاماً- ما تقدم (ص ٩٧).

=

وهو مقلوب البغي، وهو بمعناه، فإنه بغي الدم وهيجانه . وقد تقدم أن الإمام أحمد كان يحتجم أيَّ وقت احتاج من الشهر.

فصل

وأما اختيار أيام الأسبوع للحجامة[1]:

= عبيد عن الكسائي: التبيغ: التهيج، وفي « لسان العرب»: تبيغ به الدم: هاج به، وذلك حينما تظهر حمرته في البدن، وإلى لفظ التبيغ ترجم مؤلفو القاموس الطبي الموحد كلمة «Hypeshemie» .

فتبيغ الدم: بمعنى زيادته أو تهيجه يحدث أكثر ما يحدث في ارتفاع التوتر الشرياني، وخاصة الأحمر؛ أي: المترافق باحتقان الوجه والملتحمتين والشفتين واليدين والقدمين؛ كما يحدث في فرط الكريات الحمر الحقيقي الذي منه ما يكون ثانوياً لعلل مختلفة، ومنه ما يكون بدئياً؛ أي: أساساً نادراً. ومن أسباب الثانوي العلل القلبية الخلقية مع الزرقة، وارتفاق التأمور والتضيقات الرئوية التي تعيق التدمية، وتصلب الشريان الرئوي، والآفات الرئوية الليفية من منشأ إفرنجي، وفرط الكريات الحمر في الارتفاعات، وفرط الكريات الحمر السمي، وسل الطحال وكيسته المائية، ولم تشخص تلك الأمراض قديماً، ولم تفرق عن بعضها، وإنما أكتفى بذكر العلامة السريرية المشتركة وهي تبيغ الدم.

ومن الأعراض المشاهدة في فرط التوتر الشرياني، وفي الأمراض التي يحدث فيها فرط الكريات الحمر الحقيقي؛ يذكر الصداع وحس الامتلاء في الرأس والدوار وسرعة الإنفعال، وقد يحدث اضطرابات بصرية، ومن الأدوية المفيدة في تلك الأحوال: الفصادة والحجامة المبزغة (الدامية).

وردت كلمة تبيغ الدم وبعض أعراض ارتفاع التوتر الشرياني وفرط الكريات الحمر في أحاديث الرسول -عليه الصلاة والسلام-(وذكرها).

ولقد استمر تطبيق الحجامة الدامية بسبب تبيغ الدم في عهود الحضارة الإسلامية العربية، وأجريت بالشرط على الأخدعين والكاهل، وأشار ابن سينا في «قانونه» إلى بعض استطباباتها».

(١) ذكر المصنف-رحمه الله- أحاديث في الباب ليست على شرطنا؛ ويغني عنها: حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: =

عن حرب بن إسماعيل، قال: قلت لأحمد: تكره الحجامة في شيء من الأيام ؟ قال: «قد جاء في الأربعاء والسبت».

وفيه عن الحسين بن حسان: أنه سأل أبا عبد الله عن الحجامة: أي يوم تكره؟ فقال: «في يوم السبت، ويوم الأربعاء، ويقولون: يوم الجمعة».

وعن يعقوب بن بختان حدثهم، قال: سئل أحمد عن النُّورة والحجامة يوم السبت ويوم الأربعاء؟ فكرهها.

وقال: « بلغني عن رجل أنه تنوَّر، واحتجم؛ يعني: يوم الأربعاء؛ فأصابه البرص» .

قلت له: كأنه تهاون بالحديث ؟

قال: نعم.

فصل

وفي ضمن هذه الأحاديث المتقدمة:

استحباب التداوي.

واستحباب الحجامة، وأنها تكون في الموضع الذي يقتضيه الحال.

وجواز احتجام المحرم، وإن آل إلى قطع شيء من الشعر؛ فإن ذلك جائز.

وفي وجوب الفدية عليه نظر، ولا يقوى الوجوب.

= «الحجامة على الريق أمثل، وفيه شفاء وبركة، وتزيد في العقل وفي الحفظ، فاحتجموا على بركة الله يوم الخميس، واجتنبوا الحجامة يوم الأربعاء، والجمعة ، والسبت، ويوم الأحد تحرياً، واحتجموا يوم الإثنين والثلاثاء؛ فإنه اليوم الذي عافى الله فيه أيوب من البلاء، وضربه بالبلاء يوم الأربعاء؛ فإنه لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء أو ليلة الأربعاء» صححه شيخنا- رحمه الله- في «الصحيحة» (٧٦٦).

وجواز احتجام الصائم، فإن في «صحيح البخاري»: «أن رسول الله ﷺ، احتجم وهو صائم»[1].

ولكن هل يفطر بذلك، أم لا ؟ مسألة أخرى، الصواب: الفطر بالحجامة؛ لصحته عن رسول الله ﷺ من غير معارض، وأصح ما يعارض به حديث حجامته وهو صائم؛ولكن لا يدل على عدم الفطر إلا بعد أربعة أمور:

أحدها: أن الصوم كان فرضاً.

الثاني: أنه كان مقيماً.

الثالث: أنه لم يكن به مرض احتاج معه إلى الحجامة.

الرابع: أن هذا الحديث متأخر عن قوله: «أفطر الحاجم والمحجوم»[2].

فإذا ثبتت هذه المقدمات الأربع، أمكن الاستدلال بفعله ﷺ على بقاء الصوم مع الحجامة، وإلا؛ فما المانع أن يكون الصوم نفلاً يجوز الخروج منه بالحجامة وغيرها، أو مِن رمضان لكنه في السفر، أو مِن رمضان في الحضر، لكن دعت الحاجة إليها كما تدعو حاجة من به مرض إلى الفطر، أو يكون فرضاً من رمضان في الحضر من غير حاجة إليها، لكنه مُبقًّى على الأصل. وقوله: «أفطر الحاجم والمحجوم» ناقل ومتأخر، فيتعيَّن المصير إليه، ولا سبيل إلى إثبات واحدة من هذه المقدمات الأربع، فكيف بإثباتها كلها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٣٩) من حديث عبد الله بن عباس-رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٦٧)، وابن ماجه (١٦٨٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٧و٢٨٠ و٢٨٢و٢٨٣) وغيرهم من حديث ثوبان- رضي الله عنه- مولى رسول الله ﷺ، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٤/ ٦٥/ ٩٣١)، ورجح نسخه، وقد فصل القول فيه؛ فانظره لزاماً .

وفيها دليل على استئجار الطبيب وغيره من غير عقد إجارة، بل يعطيه أجرة المثل، أو ما يرضيه.

وفيها دليل على جواز التكسب بصناعة الحجامة، وإن كان لا يطيب للحر أكل أجرته من غير تحريم عليه؛ فإن النبي ﷺ أعطاه أجره، ولم يمنعه من أكله، وتسميته إياه: خبيثاً، كتسميته للثوم والبصل خبيثين، ولم يلزم من ذلك تحريمهما .

وفيها دليل على جواز ضرب الرجل الخراج على عبده كل يوم شيئاً معلوماً بقدر طاقته، وأن للعبد أن يتصرَّف فيما زاد على خراجه ولو منع من التصرف فيه؛ لكان كسبه كله خراجاً، ولم يكن لتقديره فائدة، بل ما زاد على خراجه، فهو تمليك من سيده له يتصرف فيه كما أراد، والله أعلم.

فصل
في هديه ﷺ في قطع العروق والكي

ثبت في «الصحيح»[(١)] من حديث جابر بن عبد الله: **«أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً، وكواه عليه»**.

ولما رُمِي سعد بن معاذ في أَكْحَلِهِ حسمه النَّبيُّ ﷺ، ثم ورمت؛ فحسمه الثانية[(٢)].

والحسم: هو الكي.

وفي طريق آخر: **«أن النّبيّ ﷺ كوى سعد بن معاذ في أكحله بمِشْقَصٍ[(٣)]، ثم حسمه سعد بن معاذ أو غيره من أصحابه»**.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٨).

(٣) السهم الطويل غير العريض.

وفي لفظ آخر: «أن رجلاً من الأنصار رمي في أكحله[١] بمشقص؛ فأمر النبي ﷺ به؛ فكوي».

وقال أبو عبيد: وقد أتي النبي ﷺ برجل نعت له الكي، فقال: «اكووه وارضفوه»[٢].

قال أبو عبيد: الرضف: الحجارة تسخن، ثم يكمد بها.

وفي «صحيح البخاري»[٣] من حديث أنس: «أنه كوي من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي».

وعن أنس: «أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة»[٤].

وقد تقدم الحديث المتفق عليه وفيه: «وما أحب أن أكتوي».

وفي لفظ آخر: «وأنا أنهى أمتي عنِ الكي»[٥].

وعن عِمران بن حصين: «أن النبي ﷺ نهى عن الكي»[٦].

قال: فابتلينا؛ فاكتوينا، فما أفلحنا، ولا أنجحنا.

وفي لفظ: «نهينا عن الكي»، وقال: فما أفلحن ولا أنجحن.

---

(١) عرق في وسط الذراع يفصد.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٠و٤٠٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٥١٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٠) والحاكم (٤/ ٤١٦).

من طرق عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً به.

قلت: إسناده صحيح على شرط مسلم.

والرَّضف: الحجارة المحماة على النار.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧١٩-٥٧٢١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٥٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٥) تقدم (ص ١٠٩).

(٦) أخرجه أبو داود (٣٨٦٥)، والترمذي(٢٠٤٩)،وابن ماجه (٣٤٩٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

قال الخطابي: «إنما كوى سعداً؛ ليرقأ الدم من جرحه، وخاف عليه أن ينزف؛ فيهلك. والكي مستعمل في هذا الباب، كما يكوى من تقطع يده أو رجله.

وأما النهي عن الكي؛ فهو أن يكتوي طلباً للشفاء، وكانوا يعتقدون: أنه متى لم يكتو؛ هلك؛ فنهاهم عنه؛ لأجل هذه النية .

وقيل: إنما نهى عنه عمران بن حصين خاصة؛ لأنه كان به ناصور، وكان موضعه خطراً، فنهاه عن كيِّه، فيشبه أن يكون النهي منصرفاً إلى الموضع المخوف منه، والله -تعالى- أعلم» .

وقال ابن قتيبة[1]: «الكي جنسان:

كي الصحيح؛ لئلا يعتلّ، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكل من اكتوى؛ لأنه يريد أن يدفع القدر عن نفسه.

والثاني: كي الجرح إذا نغل، والعضو إذا قطع؛ ففي هذا الشفاءُ»[2] .

---

(١) في « تأويل مختلف الحديث» (ص٦٠٠-٦٠٤- بتحقيقي)

(٢) وللكي فوائد منها:

١- علاج لمنع انتشار الفساد.

٢- تقوية العضو الذي برد مزاجه.

٣- تحليل المواد الفاسدة المتشبثة بالعضو.

٤- يساعد في وقف النزيف.

٥- يعالج فوضى الطاقة في الجسم، فهو يعمل على تدفئة خطوط الطاقة وطرد البرد، ويعمل على تسهيل سريان الطاقة من أعلى إلى أسفل، ويعمل على تقوية خطوط الطاقة وتعادلها ومنعها من الانهيار.

٦- ويساعد في تنشيط نظام المناعة .

٧- يزيد انتاج خلايا الدم البيضاء حيث تزيد فوراً بعد الكي وتصل إلى ذروتها بعد ثماني ساعات.

٨- يزيد في انتاج خلايا الدم الحمراء والهيموغلوبين.

وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجع، ويجوز أن لا ينجع؛ فإنه إلى الكراهة أقرب» انتهى .

وثبت في «الصحيح» في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم: «الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[١] .

فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله.

والثاني: عدمُ محبته له.

والثالث: الثناء على من تركه.

والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينها -بحمد الله تعالى-:

فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدلُّ على المنع منه.

وأما الثناء على تاركه؛ فيدل على أن تركه أولى وأفضل.

وأما النهي عنه؛ فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء، والله أعلم[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢و٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس -رضي الله عنه-، واللفظ للبخاري.

وانظر -لزاماً-:«مجموع الفتاوى» (١/ ٣٢٨)، و«زاد المعاد»، (١/ ٤٩٥)، و«مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ١٠٩): «جاء الإسلام والمغالاة في استعمال الكي شائعة، يعرضون به أجسامهم لآلام النار وتشويهها فيما لا جدوى منه، وما جاء من رسول إلا وكانت له القيادتان الدينية والدنيوية، ومن مهام الدولة نشر مناهج الطب الوقائي، وتقنين ممارسة المهن الطبية، ومكافحة الشعوذة والدجل في الطب وفي غيره. فأبى رسول الرحمة والإنسانية أن يعذبوا أنفسهم بأوهام لا تنفع؛ فنهاهم عن الكي وعن الأدوية الوهمية، ووضح لهم أن استعماله مشروط بموافقته للداء؛ أي: بوجود استطباب له.

=

= ورغب رسول الله ﷺ في أن تعيد أمته النظر في استعمال أدويتهم الشعبية، التي يمارسون تطبيقها دون استشارة طبيب، وأن يبعدوا عنها المغالاة، وأن يقتصروا في تطبيقها على مجالات معينة حيث تفيد، فنبههم إلى أن الدواء إنما يشفي بإذن -الله تعالى- إذا وافق الداء؛ أي: لا بد من تشخيص، ولا بد من اختيار دواء ملائم يستعمل بمقدار وبطريقة موافقين، فقال -عليه السلام-: «**لكل داء دواء؛ فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله -عز وجل-**» وأورد -عليه السلام- ذكر الأدوية الشعبية الشائعة في زمانه وهي: الحجامة المدماة، والكي، والعسل، فاعترف بأنها أدوية لها فوائدها، ولكنه نبه إلى أن استعمالها طبياً يجب أن يكون موافقاً للداء؛ أي: تابعاً لوجود استطباب؛ وكرر النهي عن الكي والرقى- وهي المعالجة الروحية بالقراءات- وذلك لشدة الشطط في استعمالها دون مبرر علمي.

ثم قال -بعد أن ساق عدة أحاديث-: إن النهي في الأحاديث ليس على عمومه وإطلاقه، فقد وردت أحاديث نبوية سنراها تفيد استعمال النبي ﷺ وأصحابه للكي، فالنهي منصب على الاستعمال الشعبي المغالى في تطبيقاته، دون وجود استطباب؛ ولذا قال ابن حجر في «فتح الباري»: «ويؤخذ من الجمع بين كراهيته ﷺ للكي وبين استعماله أنه لا يترك مطلقاً ولا يستعمل مطلقاً، بل يستعمل عند تعينه طريقاً إلى الشفاء مع مصاحبة اعتقاد أن الشفاء بإذن الله -تعالى-، وعلى هذا التفسير يحمل حديث المغيرة رفعه: «**من اكتوى أو استرقى؛ فقد برئ من التوكل**».

وفي التعقيب على عنوان عقد البخاري بقوله: «باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو» قال ابن حجر: «كأنه أراد أن الكي جائز للحاجة، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين، وأنه إذا جاز كان أعم من أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أو بغيره لنفسه أو لغيره، وعموم الجواز مأخوذ من نسبة الشفاء إليه في أول حديثي الباب وفضل تركه من قوله -عليه السلام-: «**ما أحب أن أكتوي**».

وقال المازري: «وقوله -عليه السلام-: «**وأنا أنهى أمتي عن الكي**»، وفي الحديث الآخر: «وما أحب أن أكتوي» إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه، ولا يوجد الشفاء إلا فيه؛ لما فيه من استعمال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي».

هذا، وإن الاكتواء من دون استطباب علمي يعد تعلقاً بالأوهام، والتعلق بالأوهام مناف للتوكل على الله -تعالى-».

فصل
في هديه ﷺ في علاج الصرع

في «الصحيحين»[1] من حديث عطاء بن أبي رباح، قال: قال ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أُصرع، وإني أتكَشَّفُ، فادع الله لي، فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنّة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك**»، فقالت: أصبر . قالت: فإني أتكشَّف، فادعُ الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

قلت: الصرع صرعان:

صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة.

والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجِه .

وأما صرع الأرواح؛ فأئمتهم وعقلاؤهم يعترفون به، ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخّيرة العلوية لتلك الأرواح الشّرِيرة الخبيثة، فتدافع آثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها، وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه، فذكر بعض علاج الصرع، وقال: هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح؛ فلا ينفع فيه هذا العلاج.

وأما جهلة الأطباء وسَقَطُهم وسِفْلَتُهم، ومن يعتقد بالزندقة فضيلة؛ فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهل، وإلا؛ فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك،

---

(١) البخاري (٥٦٥٢)،ومسلم (٢٢٦٥).

والحسُّ والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها[١] .

---

(١) مسألة دخول الجان بدن الإنسان ومس الشيطان وإيذائه للمؤمنين من مسائل الاعتقاد؛ كما نص عليه أهل التحقيق من العلماء؛ كالإمام أبي بكر الإسماعيلي في « اعتقاد أئمة الحديث» (ص٧٧-٧٨)، والإمام أبي الحسن الأشعري في « الإبانة عن أصول الديانة» (ص٦٣) وغيرهما.

وقد نقل أهل العلم اتفاق أهل السنة على إثبات هذه المسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٧٦): «ليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك، وادعى أن الشرع يكذب ذلك؛ فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك».

ثم قال -رحمه الله- : « دخول الجني ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة».

وقال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في «فتح الباري» (١٠/ ١١٩): «انحباس الريح قد يكون سبباً للصرع؛ وهي علة تمنع الأعضاء الرئيسية عن انفعالها منعاً غير تام، وقد يكون الصرع من الجن...

والأول هو الذي يثبته جميع الأطباء، ويذكرون علاجه.

والثاني يجحده كثير منهم، وبعضهم يثبته ، ولا يعرف له علاج إلا بمقاومة الأرواح الخيرة العلوية؛ لتندفع آثار الأرواح الشريرة السفلية وتبطل أفعالها.

وممن نص على ذلك أبقراط، فقال لما ذكر علاج المصروع: هذا إنما ينفع في الذي سببه أخلاط، وأما الذي يكون من الأرواح ؛ فلا» .

وقال القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٥٥): « في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع وأن الشيطان يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس».

وقال أبو حيان الأندلسي في «النهر الماد» (١/ ٢٧٥): « والظاهر أن الشيطان يتخبط الإنسان حقيقة».

وقد زعم بعض الجهلة الأغمار: أن المراد بالتخبط هو الوسوسة، وقد رد على هذا الجهل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (٣/ ٨٢): « والذي

=

= يتخبطه الشيطان هو المجنون الذي أصابه الصرع، فيضطـرب بـه اضطرابات ويسـقط على الأرض إذا أراد القيام... وإنما احتيج إلى زيـادة قولـه:﴿ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾؛ ليظـهر المـراد من تخبط الشيطان ؛ فلا يظن أنه تخبط مجازي بمعنى الوسوسة».

وقد انكرت المعتزلة الصرع؛ قال الزمخشري في «الكشاف»: «وتخبط الشيطان مـن زعمات العرب؛ يزعمون؛ أن الشيطان يخبط الإنسان ؛ فيصرع... ورأيتـهم لهـم في الجـن قصص وأخبار وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات».

وتعقبه أحمد بـن المنير في «الانتصـاف» (١/ ١٦٤-١٦٥- «حاشـية الكشـاف») فقال: «قوله:«وتخبط الشيطان مـن زعمـات العـرب؛ أي: كذباتـهم وزخارفـهم الـتي لا حقيقة لها كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك، وهذا القول علـى الحقيقـة مـن تخبـط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع؛ فقد ورد: « **ما مـن مولـود يولـد إلا يمسـه الشـيطان، فيسـتهل صارخـاً**»، وفي بعـض الطـرق: « **إلا طعــن الشـيطان في خاصرته**»، ومن ذلك يستهل صارخاً إلا مريم وابنــها؛ لقـول أمـها. ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمـران:٣٦]، وقولـه عليـه -الصـلاة والســلام-: «**التقطوا صبيانكم أول العشاء؛ فإنه وقت انتشار الشياطين**»...

واعتقاد السلف وأهل السنة: أن هذه أمور على حقائقها واقعة؛ كما أخبر الشرع عنها، وإنما القدرية خصماء العلانية؛ فلا جرم أنهم ينكـرون كثـيراً ممـا يزعمونـه مخالفـاً لقواعدهم؛ من ذلك: السحر، وخبطـة الشـيطان، ومعظـم أحـوال الجنـة، وإن اعـترفوا بشيء من ذلك ؛ فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة، وينبىء عنه بظاهر الشرع في خبط طويل لهم؛ فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون».

وأما عقلاء الأطباء؛ فكذلك أثبتوا حقيقة الصرع؛ فاجتمع العلم والشرع.

جاء في كتاب « الطبيب المسلم وأخلاقيات المهنـة» (ص٢١٢-٢١٥): « الصـرع عموماً هو: ارتباك وخلل مفاجىء في كهرباء المخ ووظيفته.

ونوباته تأتي على نوعين:

١- نوبات تشنج عضوية : تبدأ في مراكز الحركة بالمخ نتيجة تغيرات فسـيولوجية عضوية، يفقد معها المريض إحساسه وشعوره تماماً، وعلاجه يكون مع الأطباء البشـريين وعندهم.

٢- نوبات تشنج نفسية: تبدأ في مراكز الإحساس على شكل إحساسـات مختلفـة يكون مظهرها الأساسي تغييراً عقلياً لا يفقد معها المريض إحساسه وشعوره تماماً.

=

= وهذا النوع من النوبات الصرعية هو ما يمكن استشفاؤه بالدعوات والتوجه إلى الله -تعالى-، مما لا يستطيع علاجه الأطباء، ذلك أن الدعوات والصلوات أعظم من تأثير الأدوية.

وعقلاء الأطباء يعترفون بأن في فعل القوى النفسية وانفعالاتها في الشفاء عجائب كثيرة.

والإنسان قد يمسه أكثر من شيطان، ويمكن أن يستمر مس الشيطان للإنسان سنوات عديدة، وقد قال نبينا الكريم سيدنا محمد ﷺ عن سيدنا عيسى -عليه السلام-: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد؛ فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها».

وذلك تصديقاً لقول الله -سبحانه وتعالى- فيما حكاه عن أم مريم زوجة عمران:﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:٣٦].

فالمس الروحي هو : غزو روح مشاغب لهالة إنسان- أي: حلوله في مجموعة الاهتزازات الأثيرية التي تعلو الرأس والتي يوجد فيها العقل ومراكز الحس جميعها- فيسبب أمراضاً عصبية أو عضوية أو نفسية.

وبديهي أن الروح المشاغبة- أو الروح النجسة- يطلق على الشيطان ، وليس على روح الإنسان ، ذلك إن روح الإنسان الذي مات تنطلق إلى عالم آخر حيث تباشر حياة أخرى، وحيث تعيش حياة البرزخ فيه، ولا يمكن أن تعود هذا الروح الإنسانية لتعيش في جسد إنسان لتعذبه أو تصيبه بالضرر دون هدف أو قصد، بل وبلا إمكانية منها، حيث إن الروح بانتقالها من العالم أصبحت بذبذبة يستحيل معها العيش في جسد آدمي تختلف يقيناً ذبذبته عن ذبذبتها.

إن المس الروحي يعد عاملاً مسبباً للأمراض النفسية والعصبية، ولا تتألف الشخصية الماسة من نفس مخلوق غير مجسد، ولا من عقله وإرادته فقط، بل هما في الواقع شخصية مؤتلفة من أشياء كثيرة.

والشخصية الماسة المركزية هي التي اصطدمت أولاً بمجمع حواس الشخص الممسوس، وهي على وجه العموم قليلة المقاومة لإيحاءات الغير، ومن ثم تصبح هذه الشخصية مطية سهلة لأولئك الذين يرغبون في الاقتراب من أي إنسان بهذه الطريقة

=

= التي تبدو كأنها لا شأن لها إلا في الحصول على الترضية الخاصة لمجموع الأرواح الماسة كلها أو بعضها.

وبمضي الزمن يزداد التضام في هذه العملية حتى يتم في النهاية تلاشي الشخص الممسوس الذي يصل إلى مثل هذه الحالة تلاشياً تاماً.

ويظهر أن للأرواح الماسة ثلاث نقط اصطدام رئيسة هي:

- قاعدة المخ.
- منطقة الضفيرة الشمسية.
- المركز المهيمن على أعصاب التناسل.

ويقول الدكتور (جيمس هايسلوب) في كتابه عن «المس»:

«إنه تأثير خارق في العادة تؤثر به شخصية راعية خارجية في عقل شخص وجسمه، ولا يمكن إنكار كنه المس».

ويرى بعض الأطباء؛ كالدكتور (كارك ويكلاند): أن الجنون قد ينشأ من استحواذ روح خبيث على الشخص المريض فيحدث اضطراباً واختلالاً في اهتزازاته، وأنه بالكهرباء الاستاتيكية تنظم الاهتزازات، وتطرد الشخصية المستحوذة، ويعود العقل إلى حالته الطبيعية دون تأثير شخصية ماسة له.

ويعرف المس -أيضاً-؛ بأن الأرواح الخبيثة الشريرة المؤذية غير المتجسدة قد تحدث في ظروف خاصة اضطرابات جسمية أو عقلية خطيرة لبعض الناس.

أعراض المس:

يستطيع الشيطان أن يمس الإنسان بحيث يجعله يتخبط؛ والتخبط المطلق هو : التخبط في الحركة، فلا يستطيع الإنسان التحكم في سيره، فيسير وكأنه يترنح من دوار ودوخة، ويحس كأن الأرض تميد به، أو يفقد القدرة على تقدير الخطوة المتزنة لقدميه، أو حساب المسافة الصحيحة.

والتخبط -أيضاً- معناه: أنه لا يعي ما يقول، ولا يستطيع أن يربط بين ما قال وما يقوله ، وما يجب أن يقوله بعد ذلك، والتخبط في الفكر، والتخبط في العمل.

فالتخبط ما هو إلا فقدان الإدراك الصحيح من الإنسان؛ لأن شيئاً يهم به أو يفكر به، وبديهي أن هذه علامات الجنون.

=

وقدماء الأطباء كانوا يُسمون هذا الصرَع: المرض الإلهي، وقالوا : إنه من الأرواح، وأما جالينوس وغيرُه، فتأَوَّلوا عليهم هذه التسمية، وقالوا : إنما سموه: بالمرض الإلهي؛ لكون هذه العلة تحدثُ في الرأس، فتضر بالجزء الإلهي الطاهر الذي مسكنه الدماغ .

وهذا التأويل نشأ لهم مِن جهلهم بهذه الأرواح وأحكامها، وتأثيراتِها، وجاءت زنادقة الأطباء؛ فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده .

ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتِها يضحك مِن جهل هؤلاء وضعف عقولهم .

وعلاجُ هذا النوع يكون بأمرين:

= ويذكر لنا القرآن الكريم حكاية مس سيدنا أيوب -عليه السلام-، إذ قال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص:٤١].

إن مس الشيطان للإنسان في بدنه يكون بأمراض قد تتفق أعراضها مع أمراض أخرى، وقد تتميز فتختلف عن أعراض الأمراض الأخرى، وبذلك إذا عولجت على أنها أمراض مؤكدة أعراضها، فلا يستجيب ذلك المرض لأي علاج، وأما إذا اختلفت فإنها كذلك لا يجدي معها أي علاج».

وقال الدكتور علي محمد مطاوع -أول عميد لكلية الطب في جامعة الأزهر- في « مدخل إلى الطب الإسلامي» (ص٢٠١): «والمس في قوله -تعالى-: ﴿ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾، والأمراض التي تنشأ عن المس تشمل الهستيريا، والصرع، والأمراض النفسية، وخصوصاً القلق النفسي وغيره، وخصوصاً الشك.

والذي يقوم بإيذاء الإنسان هم شياطين الجن، وهم لا يفرقون بين الرجال والنساء.

والجن إذا تلبس إنساناً لا يظل متلبساً به طول الوقت ، ولكنه يفارقه بعض الوقت، فيبدو حينئذ سليماً خالياً من المرض، وإذا كان الجن شيطاناً؛ فإن الشخص يكره سماع القرآن، ولا يؤدي الصلوات إلا مكرهاً، ولا يركز فكره أثناء الصلاة، ولا يريد قراءة القرآن، ويطيل البقاء في دورة المياه، ويحب الانفراد بنفسه، والعزلة عن الناس...».

أمر من جهة المصروع.

وأمر من جهة المعالج.

فالذي من جهة المصروع: يكون بقوة نفسه، وصدِق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوّذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين:

أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً.

وأن يكون الساعد قوياً.

فمتى تخلَّف أحدهما؛ لم يغن السلاح كثيَر طائل، فكيف إذا عدم الأمران جميعاً؟! يكون القلب خراباً من التوحيد، والتوكل، والتقوى، والتوجه، ولا سلاح له.

والثاني: من جهة المعالج؛ بأن يكون فيه هذان الأمران -أيضاً-، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: «اخرج منه»، أو بقول: «بسم الله»، أو بقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

والنبي ﷺ كان يقول: «**اخرج عدو الله، أنا رسول الله**»[1].

وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ: اخرجي؛ فإن هذا لا يحلُّ لك؛ فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه وربما كانت الروح ماردة؛ فيخرجها بالضرب، فيفيق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٨) من حديث عثمان بن أبي العاص، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٦/ ١٠٠٢).

(٢) لم يصح في ضرب المصروع شيء عن النبي ﷺ، ولذلك؛ فالأسلم شرعاً وواقعاً عدم فعل الضرب، والله الموفق.

وكان كثيراً ما يقرأ في أذن المصروع: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥][1].

وحدثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت الروح: نعم -ومد بها صوته-. قال: فأخذت له عصا، وضربته بها في عروق عنقه؛حتى كلّت يداي من الضرب، ولم يَشُكَّ الحاضرون أنه يموت لذلك الضرب، ففي أثناء الضرب قالت: أنا أحبُّه[2]، فقلت لها : هو لا يحبك، قالت: أنا أريد أن أحُجَّ به، فقلت لها: هو لا يريد أن يحجَّ معك، فقالت: أنا أدعه كرامةً لك، قال: قلت: لا؛ ولكن طاعة لله ولرسوله، قالت: فأنا أخرج منه، قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ، قالوا له: وهذا الضرب كله؟ فقال: وعلى أي شيء يضربني الشيخ ولم أذنب؟! ولم يشعر بأنه وقع به ضرب ألبتة[3].

---

(١) عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أنه قرأ في أذن مبتلى؛ فأفاق، فقال له رسول الله ﷺ: «ما قرأت في أذنه؟»؛ فقال: قرأت ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ حتى فرغ من آخر السورة [المؤمنون:١١٥]، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً موقناً قرأ بها على جبل؛ لزال».

قلت: وهو حديث حسن؛ كما بينته في كتابي: « عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب«عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٦٣٢).

(٢) قال شيخ الإسلام في « مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٨٢): « وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة:

تارة يكون الجني يحب المصروع؛ فيصرعه؛ ليتمتع به، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل .

وتارة يكون الإنسي آذاهم، إذا بال عليهم، أو صب عليهم ماء حاراً أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى؛ هذا أشد الصرع وكثيراً ما يقتلون المصروع.

وتارة يكون بطريق العبث به؛ كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل».

قلت: وأورد الشبلي في « أحكام المرجان» (ص١٣٢)، والسيوطي «لقط المرجان» (ص٨١) كلام شيخ الإسلام وارتضياه.

(٣) الصرع: هو مرض عصبي ينتج من تهيج خلايا المخ، ويمتاز بحصول نوبات تشنجات في جميع أعضاء الجسم، وخروج ريح أحياناً ما يكون مدمماً؛ نتيجة قرص

=

وكان يعالج بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع ومن يُعالجه بها، وبقراءة المعوِّذتين .

وبالجملة؛ فهذا النوع من الصرع، وعلاجه لا يُنكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم، وخراب قلوبهم وألسنتهم مِن حقائق الذكر، والتعاويذ،

= اللسان بالأسنان، ويعقب التشنجات تقلص في جميع عضلات الجسم لمدة قصيرة يتبعها ارتخاء العضلات، ودخول المريض في نوم عميق.

ويكون المريض أثناء النوم غائباً تماماً عن وعيه: لا يدري إطلاقاً ما يحدث.

وعلاجه : إعطاء مهدئات.

ولكن بعض الحالات النفسية- المسماة بالهستريا العصبية- تشابه في أعراضها الظاهرة الصرع؛ مما لا يخفى على فطنة الأطباء، ففي هذه الحالات الأخيرة قد يفيد الضرب أو التعذيب أو العقاب؛ كعلاج لمثل هذه الحالات. (ع).

قال شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح» (٤/ ٣٦) : « الجني إذا دخل في الإنسي وصرعه وتكلم على لسانه؛ فإن الإنسي يتغير حتى يبقى الصوت والكلام الذي يسمع منه، ليس هو صوته وكلامه المعروف[أ]، وإذا ضرب بدن الإنسي، فإن الجني يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه ألم الضرب؛ كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه».

وانظر- غير مأمور-« مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٤٩و١١/ ٢٨٦و١٩/ ٥٠و٢٤/ ٢٧٧)، و«إيضاح الدلالة في عموم الرسالة» (١/ ١٤٤- منيرية).

قلت: اعلم -رحمك الله-أن هذا الأمر لا يدخل تحت التجربة ، ولم يثبت في الضرب شيء ؛ كما تقدم.

(أ) لا يوجد دليل شرعي يثبت وقوع كلام الجني على لسان الإنسي، وهو اختيار شيخنا الإمام الألباني- رحمه الله-.

فإن وقع شيء من ذلك؛ فلا يكون استنطاق واستفصال ومحاورات ومناظرات ولقاءات صحفية(!)

والتحصنات النبوية والإيمانية، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه، وربما كان عرياناً؛ فيؤثر فيه هذا .

ولو كشف الغطاء؛ لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها، وبها الصرع الأعظم الذي لا يفيق صاحبه إلا عند المفارقة والمعاينة، فهناك يتحقق أنه كان هو المصروع حقيقة، وبالله المستعان.

وعلاج هذا الصرع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل، وأن تكون الجنة والنار نصب عينيه وقبلة قلبه، ويستحضر أهل الدنيا، وحلول المَثُلات والآفات بهم، ووقوعَها خِلال ديارهم كمواقع القطر، وهم صرعى لا يفيقون، وما أشد داء هذا الصرع، ولكن لما عمت البلِّيةُ به بحيث لا يرى إلا مصروعاً؛ لم يصر مستغرباً ولا مستنكراً بل صار -لكثرة المصروعين- عين المستنكر المستغرب خلافه[١] .

---

(١) وهذا الكلام القيم من الإمام ابن القيم -رحمه الله- ردّ مفحم على شبهة محمد الغزالي في كتابه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» (ص٩٣-٩٥): «قلت- وأنا ضجر-: هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟! لِمَ لَمْ يَشْكُ ألماني أو ياباني من احتلال الجن لأجسامهم؟! إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم، وعندما تناقلت الصحف أن الشيخ عبد العزيز بن باز أخرج شيطاناً بوذياً من أحد الأعراب، وأن الشيطان هذا أسلم، كنت أرقب وجوه القراء وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين، إن قدر القرآن الكريم أعظم كثيراً من هذه القضايا».

قلت: الجواب من وجوه متعددة:

١- لم يأت الغزالي بما يؤيد كلامه ولم يذكر دليلاً لا نقلياً ولا عقلياً ولا علمياً، وإنما ضرب كلاماً جدلاً.

٢- إن مسألة التلبس مسألة واقع مشاهد؛ فإنكاره مماحكة.

=

فإذا أراد الله بعبد خيراً أفاق من هذه الصرعة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً على اختلاف طبقاتهم؛ فمنهم من أطبق به الجنون، ومنهم من يفيق أحياناً قليلة ويعود إلى جنونه، ومنهم من يفيق مرةً، ويجن أخرى، فإذا أفاق عمل عمل أهل الإفاقة والعقل، ثم يُعاودُه الصرع؛ فيقع في التخبط.

= ٣-من الذي قال بأن الجن متخصصون بالمسلمين ولا يتسلطون على الكفار...لو كان عند الغزالي أدنى معرفة ببلاد الكفر في الغرب أو الشرق لعلم أنها مليئة بما ينكره أو علمه ولم يذكره.

قال (كارنجتون)- عضو جمعية البحوث النفسية الأمريكية- عن حالة المس: «واضح أن حالة المس هي على الأقل حالة واقعية لا يستطيع العلم أن يهمل أمرها، ما دامت توجد حقائق كثيرة مدهشة تؤيدها..».

وقد أفرد رياض مصطفى أسماء عدد من المصروعين والملبوسين من الكفار الغربيين وذكر قصصهم في كتاب مفرد سماه: «المسكونون بالشياطين».

وانظر- لزاماً- لتمام رد هذه الشبهة: «مجموع فتاوى» الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- (٣/ ٢٩٩-٣٠٨)، و«فتح الحق المبين» (ص٨٢-٨٥) للدكتور عبد الله الطيار بمراجعة أستاذنا الوالد الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز- رحمه الله-.

فصل
صرع الأخلاط

وأما صرع الأخلاط، فهو علة تمنع الأعضاء النفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعاً غير تام، وسببه خلط غليظ لزج يسد منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة، فيمتنع نفوذ الحس والحركة فيه وفي الأعضاء نفوذاً تاماً من غير انقطاع بالكلية، وقد تكون لأسباب أخر كريح غليظ يحتبس في منافذ الروح، أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، أو كيفية لاذعة، فينقبض الدماغ لدفع المؤذي، فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء، ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً بل يسقط ويظهر في فيه الزبد غالباً .

وهذه العلة تعد من جملة الأمراض الحادة باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة، وقد تعد من جملة الأمراض المزمنة باعتبار طول مكثها، وعسر برئها، لا سيما إن تجاوز في السن خمساً وعشرين سنة، وهذه العلة في دماغه، وخاصة في جوهره، فإن صرع هؤلاء يكون لازماً .

قال ابقراط : إن الصرع يبقى في هؤلاء حتى يموتوا .

إذا عرف هذا، فهذه المرأة التي جاء الحديث: أنها كانت تصرع وتتكشف يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض، ودعا لها أن لا تتكشف، وخيرها بين الصبر والجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء من غير ضمان، فاختارت الصبر والجنة.

وفي ذلك دليل على جواز ترك المعالجة والتداوي، وأن علاج الأرواح بالدعوات والتوجه إلى الله يفعل ما لا يناله علاج الأطباء، وأن تأثيره وفعله، وتأثر الطبيعة عنه وانفعالها أعظم من تأثير الأدوية البدنية، وانفعال الطبيعة عنها، وقد جربنا هذا مراراً نحن وغيرنا، وعقلاء الأطباء معترفون بأن لفعل القوى النفسية، وانفعالاتها في شفاء الأمراض عجائب، وما على الصناعة الطبية أضر من زنادقة القوم، وسفلتهم، وجهالهم .

والظاهر: أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع، ويجوز أن يكون من جهة

الأرواح، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرها بين الصبر على ذلك مع الجنة، وبين الدعاء لها بالشفاء، فاختارت الصبر والستر، والله أعلم.

فصل
في هديه ﷺ في علاج عرق النسا[1]

عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء»[2].

عرق النساء: وجع يبتدئ من مفصل الورك، وينزل من خلف على الفخذ، وربما على امتداد الكعب، وكلما طالت مدته؛ زاد نزوله، وتهزل معه الرجل والفخذ[3].

وهذا الحديث فيه معنى لغوي، ومعنى طبي.

---

(١) وهو العصب الوركي، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٦٣)، والحاكم (٤/ ٢٠٦) وغيرهم من حديث أنس- رضي الله عنه-.

وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وشيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٨٩٩).

قال أنس بن مالك: لقد وصفته لأكثر من ثلاثمائة كلهم يبرأون منه.

(٣) عرق النسا: هو مرض يصيب النساء والرجال على السواء، وآلامه مفرطة تبتدىء غالباً في أسفل العمود الفقري، ويمتد الألم إلى إحدى الأليتين، ثم إلى الجزء الخلفي من الفخذ وأحياناً حتى الكعب.

وينتج غالباً من انفصال غضروفي بأسفل العمود الفقري، أو التهاب روماتزمي بالعصب الإنسي، وعلاجه الأساسي: الراحة التامة على الظهر لمدة خمسة عشر يوماً على الأقل، مع إعطاء مهدئات للألم مثل الإسبرين...إلخ والحجامات الجافة والكي أحياناً يساعدان على علاجه. (ع).

فأما المعنى اللغوي؛ فدليل على جواز تسمية هذا المرض بعرق النسا خلافاً لمن منع هذه التسمية، وقال: النسا هو العرق نفسه، فيكون من باب إضافة الشيء إلى نفسه، وهو ممتنع.

وجواب هذا القائل من وجهين:

أحدهما : أن العرق أعم من النسا، فهو من باب إضافة العام إلى الخاص نحو: كل الدراهم أو بعضها .

الثاني : أن النسا : هو المرض الحال بالعرق، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله وموضعه .

قيل: وسمي بذلك؛ لأن ألمه ينسي ما سواه، وهذا العرق ممتد من مفصل الورك، وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب من الجانب الوحشي فيما بين عظم الساق والوتر .

وأما المعنى الطبي: فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان:

أحدهما : عام بحسب الأزمان، والأماكن، والأشخاص، والأحوال .

والثاني : خاص بحسب هذه الأمور أو بعضها، وهذا من هذا القسم؛ فإن هذا خطاب للعرب، وأهل الحجاز، ومن جاورهم، ولا سيما أعراب البوادي، فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم، فإن هذا المرض يحدث من يبس، وقد يحدث من مادة غليظة لزجة، فعلاجها بالإسهال[1] .

والألية فيها الخاصيتان: الإنضاج، والتليين، ففيها الإنضاج، والإخراج.

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٨٩): « ولقد وصف النبي ﷺ لعرق النسا ألية شاة أعرابية بمناسبة إصابة أحدهم به، وربما كانت إصابته نتيجة الإنتان بالعصيات الكولونية فيحدث الإسهال بالدهن فتطرد تلك الجراثيم من الأمعاء التي تعد موئلا لها. هذا إلى جانب حكم أخرى الله أعلم بها لم يتوصل إليها العلم بعد».

وهذا المـرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين، وفي تعيين الشاة الأعرابية[١]؛ لقلة فضولها، وصغر مقدارها، ولطف جوهرها، وخاصية مرعاها؛ لأنها ترعى أعشاب البر الحارة؛ كالشيح، والقيصوم، ونحوهما، وهذه النباتات إذا تغذى بها الحيوان، صار في لحمه من طبعها بعد أن يلطفها تغذيه بها، ويكسبها مزاجاً ألطف منها، ولا سيما الألية، وظهور فعل هذه النباتات في اللبن أقوى منه في اللحم، ولكن الخاصية التي في الألية من الانضاج والتليين لا تُوجد في اللبن، وهذا كما تقدم أن أدوية غالب الأمم والبوادي هي الأدوية المفردة وعليه أطباء الهند.

وأما الروم واليونان؛ فيعتنون بالمركبة، وهم متفقون كلهم على أن مِن مهارة الطبيب أن يداوي بالغذاء، فإن عجز؛ فبالمفرد، فإن عجز؛ فبما كان أقل تركيباً.

وقد تقدم أن غالب عاداتِ العرب وأهل البوادي الأمراض البسيطة، فالأدوية البسيطة تناسبها، وهذا لبساطة أغذيتهم في الغالب . وأما الأمراض المركبة؛ فغالباً ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها؛ فاختيرت لها الأدوية المركبة، والله -تعالى- أعلم[٢] .

(١) عند أحمد (٣/ ٢١٩) بلفظ: «ألية كبش عربي أسود ، ليس بالعظيم ولا بالصغير».

وإسناده صحيح.

(٢) قال ابن طولون في «المنهل الروي» (ص٢٧٣): «وأكثر ما يضر عرق النسا -وجع المفاصل-: اللبن واللحم، وخاصة لحم الإبل والبقر.

وقال ابن سينا: يحرم على صاحب وجع المفاصل اللحم والخمر.

وإذا طالت مدة عرق النسا قد يحتاج إلى الكي ، وهل يكره الكي؟ على قولين، أظهرهما: جوازه».

فصل
في هديه ﷺ في علاج يبس الطبع واحتياجه إلى ما يمشيه ويلينه

عن أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله ﷺ: «بماذا كنت تستمشين»؟ قالت: بالشبرم، قال: «حار جار»، قالت: ثم استمشيتُ بالسَّنا، فقال: «لو كان شيء يشفي من الموت؛ لكان السنا[(١)]»[(٢)].

عن عبد الله بن أم حرام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسنا والسنوت؛ فإن فيهما شفاء من كل داء؛ إلا السام» قيل: يا رسول الله! وما السام؟ قال: «الموت»[(٣)].

قوله: «بماذا كنت تستمشين»؟؛ أي: تلينين[(٤)] الطبع حتى يمشي، ولا يصير بمنزلة الواقف، فيؤذي باحتباس النجو[(٥)]؛ ولهذا سمي الدواء المسهل: مشياً على وزن فعيل. وقيل: لأن المسهول يكثر المشي والاختلاف للحاجة.

---

(١) أو السلاميكا، وهي على أنواع كثيرة، أفضلها: السنا الهندي؛ لنقاوتها، وتستعمل السنا للآن كَمُلَيِّن في حالات الإمساك، وتستعمل أوراق النبات فقط بعد نقعها في الماء لمدة (١٢) ساعة، ويشرب المنقوع بدون الورق، أما إذا غليت فقد تسبب مغصاً شديداً بالأمعاء[(أ)]، وكمية الورق المنقوعة تختلف من شخص إلى آخر، وعلى قدر حالة الإمساك، وغالباً من (١٠إلى ١٥ ورقة) للنقع لمدة (١٢) ساعة. (ع).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٨١)، وابن ماجه (٣٤٦١)، وأحمد (٦/ ٣٦٩)، والحاكم (٤/ ٢٠٠)؛ انظر: «الصحيحة» (٤/ ٤٠٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٧)، والحاكم (٤/ ٢٠١)؛ انظر: «الصحيحة» (٤/ ٤٠٨/ ١٧٩٨).

(٤) في نسخة:« تليين».

(٥) ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

(أ) ولذلك لا يجوز استعماله للحوامل مطلقاً.
ويخفف المغص الذي يحدثه بطرق منها:
١- مزجه مع اللفاح والشمرة.
٢- فرك الأوراق وإخراج أعوادها.

وقد روي: «بماذا تستشفين»؟ فقالت: بالشبرم. وهو من جملة الأدوية اليَتوعية[١]، وهو قِشر عرق شجرة، وهو حارّ يابس في الدرجة الرابعة، وأجوده المائل إلى الحمرة، الخفيف الرقيق الذي يشبه الجلد الملفوف. وبالجملة؛ فهو من الأدوية التي أوصى الأطباء بترك استعمالها؛ لخطرها، وفرط إسهالها .

وقوله ﷺ: «حار جار»، ويروى: «حار يار». قال أبو عبيد: وأكثر كلامهم بالياء.

قلت: وفيه قولان:

أحدهما: أن الحار الجار بالجيم: الشديد الإسهال، فوصفه بالحرارة، وشدة الإسهال، وكذلك هو؛ قاله أبو حنيفة الدينوري .

والثاني - وهو الصواب -: أن هذا من الإتباع الذي يقصد به تأكيد الأول، ويكون بين التأكيد اللفظي والمعنوي، ولهذا يراعون فيه إتباعه في أكثر حروفه؛ كقولهم: حسن بسن؛ أي: كامل الحسن. وقولهم: حسن قسن بالقاف، ومنه شيطان ليطان، وحار جار، مع أن في الجار معنى آخر وهو الذي يجر الشيء الذي يصيبه من شدة حرارته وجذبه له، كأنه ينزعه ويسلخه . ويار: إما لغة في جار؛ كقولهم: صهري وصهريج، والصهاري والصهاريج، وإما إتباع مستقل .

وأما السنا[٢]؛ ففيه لغتان: المد والقصر، وهو نبت حجازي أفضله المكي، وهو دواء شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال، حار يابس في

(١) اليتوع: كل نبات له لبن دار، وهو جنس نبات من فصيلة الفريونيات أو اليتوعيات، منها الشبرم، واللاعية، والحلباب، والماهودانه والفربيون.

(٢) نبات كأنه الحناء من الفصيلة القرنية، زهره مصفر، وحبه مفلطح رقيق كلوي الشكل إلى الطول، يتداوى بورقه وثمره، وأجوده الحجازي، ويعرف بـ «السناالمكي».

الدرجة الأولى، يسهل الصفراء والسوداء، ويقوي جرم القلب، وهذه فضيلة شريفة فيه، وخاصيته النفع من الوسواس السوداوي، ومن الشقاق العارض في البدن، ويفتح العضل وينفع من انتشار الشعر، ومن القمل، والصداع العتيق، والجرب، والبثور، والحكة، والصرع، وشرب مائه مطبوخاً أصلح من شربه مدقوقاً، ومقدار الشربة منه ثلاثة دراهم، ومن مائه خمسة دراهم، وإن طبخ معه شيء من زهر البنفسج والزبيب الأحمر المنزوع العجم، كان أصلح .

قال الرازي: السناء والشاهترج[1] يسهلان الأخلاط المحترقة، وينفعان من الجرب والحكة، والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم[2].

وأما السنوت؛ ففيه ثمانية أقوال:

أحدها: أنه العسل.

والثاني: أنه رب عكة السمن يخرج خططاً سوداء على السمن؛ حكاهما عمرو بن بكر السكسكي.

---

(١) هو ملك البقول؛ ويسمى : كزبرة الحمار.

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٣٣):

«الاستعمال:

١- المقدار المسهل:

(١٠-١٥غم) من وريقات السنا، تسحق وترفع أعوادها، وتمزج مع غرامين من مسحوق بزر الشمرة أو اليانسون، وتسف ويشرب وراءها ماء.

أو تعجن تلك المقادير مع (١٠٠غم) من الماء المغلي، ثم بعد فتورها تشرب على الريق فتفيد مسهلة، ويمكن أن يكون هذا الماء مغلي بزور الشمرة أو اليانسون بنسبة ٢٪.

٢- المقدار الملين:

وهو ثلث المقدار المسهل وهو مقدار لا يسبب مغصاً».

الثالث: أنه حب يشبه الكمون، وليس به؛ قاله ابن الأعرابي.

الرابع: أنه الكمون الكرماني.

الخامس: أنه الرازيانج؛ حكاهما أبو حنيفة الدينوري عن بعض الأعراب.

السادس: أنه الشبت[١].

السابع: أنه التمر؛ حكاهما أبو بكر بن السني الحافظ.

الثامن: أنه العسل الذي يكون في زقاق السمن؛ حكاه عبد اللطيف البغدادي.

قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى، وأقرب إلى الصواب؛ أي: يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن، ثم يلعق؛ فيكون أصلح من استعماله مفرداً؛ لما في العسل والسمن من إصلاح السنا، وإعانته له على الإسهال . والله أعلم.

---

(١) نبات عشبي من الفصيلة الخيمية، تستعمل أوراقه وبذوره في إكساب الأطعمة نكهة طيبة.

فصل
في هديه ﷺ في علاج حكة الجسم وما يولد القمل

في «الصحيحين»[(١)] من حديث أنس بن مالك قال: «رخص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنهما- في لبس الحرير؛ لحكة كانت بِهما».

وفي رواية: «أن عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنهما-، شكوا القمل إلى النبي ﷺ في غزاة لهما، فرخص لهما في قمصِ الحريرِ، ورأيته عليهما».

هذا الحديث يتعلق به أمران:

أحدهما: فقهي.

والآخر: طبي.

فأما الفقهي: فالذي استقرت عليه سنته ﷺ إباحة الحرير للنساء مطلقاً وتحريمه على الرجال؛ إلا لحاجة ومصلحة راجحة، فالحاجة إما من شدة البرد، ولا يجد غيره، أو لا يجد سترة سواه. ومنها: إلباسه للجرب، والمرض، والحكة، وكثرة القمل؛ كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح.

والجواز: أصح الروايتين عن الإمام أحمد، وأصح قولي الشافعي؛ إذ الأصل عدمُ التخصيص، والرخصة إذا ثبتت في حق بعض الأمة -لمعنى- تعدت إلى كل من وجد فيه ذلك المعنى؛ إذ الحكم يعم بعموم سببه.

ومن منع منه؛ قال: أحاديث التَّحريم عامة، وأحاديث الرخصة يحتمل اختصاصها بعبد الرحمن بن عوف والزبير، ويحتمل تعديها إلى غيرهما، وإذا احتمل الأمران، كان الأخذ بالعموم أولى؛ ولهذا قال بعض الرواة في هذا الحديث: فلا أدري أبلغتِ الرُّخصةُ مَنْ بعدهما، أم لا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٩-٢٩٢٢)، ومسلم (٢٠٧٦).

والصحيح: عموم الرخصة؛ فإنه عرف خطاب الشرع في ذلك؛ ما لم يصرح بالتخصيص وعدم إلحاق غير من رخَّص له أوّلاً به؛ كقوله لأبي بردة في تضحيته بالجذعة من المعز: «تجزيك ولن تجزي عن أحد بعدك»[١].

وكقوله -تعالى- لنبيه ﷺ في نكاح من وهبت نفسها له: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وتحريم الحرير: إنما كان سداً للذريعة؛ ولهذا أُبيحَ للنساء، وللحاجة، والمصلحة الراجحة، وهذه قاعدةُ ما حُرِّم لسد الذرائع؛ فإنه يُباح عند الحاجةُ والمصلحةُ الراجحةُ، كما حَرُمَ النظر سداً لذريعة الفعل، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجةُ والمصلحةُ الراجحةُ، وكما حَرُمَ التنفلُ بالصلاة في أوقات النهي سداً لذريعة المشابهة الصورية بِعُبّادِ الشمس، وأبيحت للمصلحة الراجحة، وكما حرم ربا الفضل سداً لذريعة ربا النسيئة، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة مِن العرايا[٢]، وقد أشبعنا الكلام فيما يَحِلُّ ويَحرُمُ من لباس الحرير في كتاب: «التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير»[٣].

فصل

وأما الأمر الطبي: فهو أن الحرير من الأدوية المتخذة من الحيوان؛ ولذلك يعد في الأدوية الحيوانية؛ لأن مخرجه من الحيوان، وهو كثير المنافع، جليل الموقع، ومِن خاصيته تقوية القلب، وتفريحه، والنفع من كثير من أمراضه، ومن غلبة المرة السوداء، والأدواء الحادثة عنها، وهو مقو للبصر إذا اكتحل به، والخام منه – وهو المستعمل في صناعة الطب – حار يابس في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥٦)، ومسلم (١٩٦١).

(٢) جمع عرية، وهي: النخلة يعطيها صاحبها لفقير لينتفع بثمرتها إلى سنة، فتدفعه الحاجة إلى أن يأخذ بثمرتها تمراً قبل أن يحرز ثمرتها ، فلا يضر الفضل حينئذ.

(٣) هكذا سماه المصنف- رحمه الله- وهو عند عامة من ترجم له معروف بـ «التحرير فيما يحل ويحرم في لبس الحرير»؛ كما في « ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٥٠)، و« الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧١) و« طبقات المفسرين» (٢/ ٩٣) وغيرهم.

الدرجة الأولى، وقيل: حار رطب فيها: وقيل: معتدل في صناعة الطب. وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة في مزاجه، مسخناً للبدن، وربما برد البدن بتسمينه إياه .

قال الرازي: الإبريسم[1] أسخن من الكتان، وأبرد من القطن، يربي اللحم، وكل لباس خشن؛ فإنه يهزل ويصلب البشرة، وبالعكس».

قلت : والملابس ثلاثة أقسام:

قسم يسخن البدن ويدفئه.

وقسم يدفئه ولا يسخنه.

وقسم لا يسخنه ولا يدفئه.

وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئه؛ إذ ما يسخنه؛ فهو أولى بتدفئته، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ، وملابس الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تسخن؛ فثياب الكتان باردة يابسة، وثياب الصوف حارة يابسة، وثياب القطن معتدلة الحرارة، وثياب الحرير ألين من القطن وأقل حرارة منه .

قال صاحب «المنهاج»: «ولبسه لا يسخن كالقطن، بل هو معتدل، وكل لباس أملس صقيل، فإنه أقل إسخاناً للبدن، وأقل عوناً في تحلل ما يتحلل منه، وأحرى أن يلبس في الصيف، وفي البلاد الحارة».

ولما كانت ثياب الحرير كذلك، وليس فيها شيء من اليبس والخشونة الكائنين[2] في غيرها؛ صارت نافعة من الحكة؛ إذ الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة، فلذلك رخص رسول الله ﷺ للزبير وعبد الرحمن في لباس الحرير لمداواة الحكة، وثياب الحرير أبعد عن تولد القمل فيها؛ إذ كان مزاجها مخالفاً لمزاج ما يتولد منه القمل .

---

(١) الحرير.

(٢) في نسخة: «الكائنتين»، وكلاهما صحيح.

وأما القسم الذي لا يدفئ ولا يسخن؛ فالمتخذ من الحديد والرصاص والخشب والتراب، ونحوها، فإن قيل: فإذا كان لباس الحرير أعدل اللباس وأوفقه للبدن؛ فلماذا حرمته الشريعة الكاملة الفاضلة التي أباحت الطيبات، وحرمت الخبائث؟

قيل: هذا السؤال يجيب عنه كل طائفة من طوائف المسلمين بجواب:

فمنكرو الحكم والتعليل لما رفعت قاعدة التعليل من أصلها لم يحتاجوا إلى جواب عن هذا السؤال.

ومثبتو التعليل والحكم - وهم الأكثرون - منهم من يجيب عن هذا بأن الشريعة حرمته؛ لتصبر النفوس عنه، وتتركه لله، فتثاب على ذلك لا سيما ولها عوض عنه بغيره .

ومنهم من يجيب عنه: بأنه خلق في الأصل للنساء؛ كالحلية بالذهب، فحرم على الرجال؛ لما فيه من مفسدة تشبه الرجال بالنساء.

ومنهم من قال: حرم؛ لما يورثه من الفخر والخيلاء والعجب .

ومنهم من قال: حرم؛ لما يورثه بملامسته للبدن من الأنوثة والتخنث، وضد الشهامة والرجولة، فإن لبسه يكسب القلب صفة من صفات الإناث؛ ولهذا لا تكاد تجد من يلبسه في الأكثر إلا وعلى شمائله من التخنث والتأنث والرخاوة ما لا يخفى، حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحولية ورجولية، فلا بد أن ينقصه لبس الحرير منها، وإن لم يذهبها، ومن غلظت طباعه وكثفت عن فهم هذا؛ فليسلم للشارع الحكيم؛ ولهذا كان أصح القولين: أنه يحرم على الولي أن يلبسه الصبي؛ لما ينشأ عليه من صفات أهل التأنيث.

وعن أبى موسى الأشعري عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**إن الله أحل** لإناث أمتي الحرير والذهب، وحرمه على ذكورها».

وفي لفظ: «حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم»[(١)].

وفي «صحيح البخاري» عن حذيفة قال: نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج، وأن يجلس عليه، وقال: «هو لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»[(٢)].

فصل
في هديه ﷺ في علاج ذات الجنب

ذات الجنب عند الأطباء نوعان:

حقيقي.

وغير حقيقي.

فالحقيقي: ورم حار يعرض في نواحي الجنب في الغشاء المستبطن للأضلاع.

وغير الحقيقي: ألم يشبهه يعرض في نواحي الجنب عن رياح غليظة مؤذية تحتقن بين الصفاقات، فتحدث وجعا قريبا من وجع ذات الجنب الحقيقي؛ إلا أن الوجع في هذا القسم ممدود، وفي الحقيقي ناخس .

قال صاحب «القانون»: «قد يعرض في الجنب، والصفاقات، والعضل التي في الصدر، والأضلاع، ونواحيها أورام مؤذية جداً موجعة، تسمى: شوصة وبرساماً، وذات الجنب . وقد تكون -أيضاً- أوجاعاً في هذه الأعضاء ليست من ورم، ولكن من رياح غليظة، فيظن أنها من هذه العلة، ولا تكون منها .

---

(١) أخرجه النسائي (٨/ ١٦١)،والترمذي (١٧٢٠) وغيرهم، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٢) البخاري (٥٨٠١)، ومسلم (٢٠٧٥).

قال: واعلم أن كل وجع في الجنب قد يسمى: ذات الجنب اشتقاقاً من مكان الألم؛ لأن معنى ذات الجنب: صاحبة الجنب، والغرض به ها هنا: وجع الجنب، فإذا عرض في الجنب ألم عن أي سبب كان؛ نسب إليه، وعليه حمل كلام بقراط في قوله: إن أصحاب ذات الجنب ينتفعون بالحمام. وقيل: المراد به: كل من به وجع جنب، أو وجع رئة من سوء مزاج، أو من أخلاط غليظة، أو لذاعة من غير ورم ولا حمى».

قال بعض الأطباء: وأما معنى ذات الجنب في لغة اليونان: فهو ورم الجنب الحار، وكذلك ورم كل واحد من الأعضاء الباطنة، وإنما سمي ذات الجنب ورم ذلك العضو إذا كان ورماً حاراً فقط.

ويلزم ذات الجنب الحقيقي خمسة أعراض: وهي الحمى، والسعال، والوجع الناخس، وضيق النفس، والنبض المنشاري[1].

والعلاج الموجود في الحديث ليس هو لهذا القسم، لكن للقسم الثاني الكائن عن الريح الغليظة؛ فإن القسط البحري -وهو العود الهندي على ما جاء مفسراً في أحاديث أخر- صنف من القسط إذا دق دقاً ناعماً، وخلط بالزيت المسخن، ودلك به مكان الريح المذكور، أو لعق؛ كان دواء موافقاً لذلك، نافعاً له، محللاً لمادته، مذهباً لها، مقوياً للأعضاء الباطنة، مفتحاً للسدد، والعود المذكور في منافعه كذلك.

قال المسيحي[2]: «العود: حار يابس، قابض يحبس البطن، ويقوي الأعضاء الباطنة، ويطرد الريح، ويفتح السدد، نافع من ذات الجنب،

---

(١) هذا الوصف ينطبق على الوجع الصدري؛ نتيجة التهاب الرئة، ويعالج -الآن- بالأدوية المضادة للميكروبات؛ مثل: أقراص السلفا، وحقن البنسلين. (ع).

(٢) وقع في «الزاد»: المسبحي، وهو تطبيع قبيح.

وهو عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، أبو سهل، غلب عليه الطب، مات عن أربعين عاماً سنة(٣٩٠هـ)، وعنه أخذ ابن سينا صناعة الطب.

=

ويذهب فضل الرطوبة، والعود المذكور جيد للدماغ. قال: ويجوز أن ينفع القسط من ذات الجنب الحقيقية -أيضاً- إذا كان حدوثها عن مادة بلغمية لا سيما في وقت انحطاط العلة، والله أعلم» .

وذات الجنب: من الأمراض الخطرة، وفي الحديث الصحيح عن أم سلمة: أنها قالت: بدأ رسول الله ﷺ بمرضه في بيت ميمونة، وكان كلما خف عليه؛ خرج وصلى بالناس، وكان كلما وجد ثقلاً؛ قال: «**مروا أبا بكر؛ فليصل بالناس**»، واشتد شكواه حتى غمر عليه من شدة الوجع، فاجتمع عنده نساؤه، وعمه العباس، وأم الفضل بنت الحارث، وأسماء بنت عميس، فتشاوروا في لده؛ فلدوه وهو مغمور، فلما أفاق؛ قال: «**من فعل بي هذا؟ هذا من عمل نساء جئن من ها هنا**»-، وأشار بيده إلى أرض الحبشة. وكانت أم سلمة وأسماء لدتاه، فقالوا: يا رسول الله! خشينا أن يكون بك ذات الجنب، قال: «**فبم لددتموني**»؟ قالوا: بالعود الهندي، وشيء من ورس، وقطرات من زيت، فقال: «**ما كان الله ليقذفني بذلك الداء**»، ثم قال: «**عزمت عليكم أن لا يبقى في البيت أحد إلا لد ؛ إلا عمي العباس**»[(١)].

= من مؤلفاته: «إظهار حكمة الله -تعالى- في خلق الإنسان»، و«الطب الكلي»، و«المئة في الصناعة الطبية»، و«أصول الطب» وغيرها.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٣٥-٢٣٦) من طريق الواقدي عن سعيد بن عبد الله عن المقبري عن عبد الله بن رافع عنهما به.

قلت: إسناده ضعيف جداً: فيه محمد بن عمر الواقدي، وهو متروك؛ كما في «التقريب».

لكن للحديث شاهد من حديث أسماء بنت عميس- رضي الله عنها-:
أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٠٢).
قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
قلت: وهو كما قالا.

وفي «الصحيحين»[١] عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: لددنا رسول الله ﷺ، فأشار أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق؛ قال: «ألم أنهكم أن تلدوني؟ لا يبقى منكم أحد إلا لد؛ غير عمي العباس؛ فإنه لم يشهدكم».

قال أبو عبيد عن الأصمعي: «اللدود: ما يسقى الإنسان في أحد شقي الفم، أخذ من لديدي الوادي، وهما جانباه. وأما الوجور: فهو في وسط الفم».

قلت: واللدود -بالفتح-: هو الدواء الذي يلد به. والسعوط: ما أدخل من أنفه.

وفي هذا الحديث -من الفقه-: معاقبة الجاني بمثل ما فعل سواء، إذا لم يكن فعله محرماً؛ لحق الله. وهذا هو الصواب المقطوع به؛ لبضعة عشر دليلاً، قد ذكرناها في موضع آخر، وهو منصوص أحمد، وهو ثابت عن الخلفاء الراشدين. وترجمة المسألة بالقصاص في اللطمة والضربة، وفيها عدة أحاديث لا معارض لها ألبتة، فيتعين القول بها.

فصل
في هديه ﷺ في علاج الصداع[٢] والشقيقة

والصداع: ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله[٣]، فما كان منه في أحد شقي الرأس لازماً يسمى: شقيقة، وإن كان شاملاً لجميعه لازماً، يسمى:

---

(١) البخاري (٥٧١٢)، ومسلم (٢٢١٣).

(٢) الصداع: هو ألم بأي جزء من أجزاء الرأس، وأسبابه عديدة جداً لا يمكن حصرها، ويتميز كل مرض بصداع معين وفي مكان معين وفي أوقات معينة، وعلاج الصداع هو علاج المسبب له.(ع).

(٣) عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال لأعرابي: «هل أخذتك أم ملدم؟» قال: يا رسول الله! وما أم ملدم؟ قال: «حر يكون بين الجلد والدم». قال: ما وجدت هذا، قال: «يا أعرابي! هل أخذك الصداع؟» قال: يا رسول =

بيضة وخودة؛ تشبيهاً ببيضة السلاح التي تشتمل على الرأس كله، وربما كان في مؤخر الرأس أو في مقدمه.

وأنواعه كثيرة، وأسبابه مختلفة.

وحقيقة الصداع: سخونة الرأس، واحتماؤه لما دار فيه من البخار الذي يطلب النفوذ من الرأس، فلا يجد منفذاً؛ فيصدعه؛ كما يصدع الوعاء إذا حمي ما فيه وطلب النفوذ، فكل شيء رطب إذا حمي طلب مكاناً أوسع من مكانه الذي كان فيه، فإذا عرض هذا البخار في الرأس كله بحيث لا يمكنه التفشي والتحلل، وجال في الرأس؛ سمي: السدر .

والصداع يكون عن أسباب عديدة[1]:

أحدها: من غلبة واحد من الطبائع الأربعة .

والخامس[2]: يكون من قروح تكون في المعدة، فيألم الرأس لذلك الورم؛ لاتصال العصب المنحدر من الرأس بالمعدة .

= الله! وما الصداع؟ قال: «عرق يضرب على الإنسان في رأسه»، قال: ما وجدت هذا. فلما ولى؛ قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار؛ فلينظر إلى هذا» أخرجه البخاري في « الأدب المفرد» (٤٩٥)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وابن حبان (٢٩١٦)، والحاكم (١/ ٣٤٧)، والبزار (٧٧٨) بإسناد حسن، وله شاهد من حديث أنس: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٠٥) بإسناد يعتبر به.

وبالجملة ؛ فالحديث صحيح لغيره.

(١) من أسباب الصداع:

أ- حالات الحمى: يكون الصداع شاملاً الرأس بأكمله.

ب- التهاب الجيوب الأنفية: يكون الصداع في المقدمة، وغالباً في الصباح.

ج- ورم بالمخ: يكون الصداع داخلياً عميقاً، مستمراً ومتزايداً.

د- ضعف الإبصار:يكون الصداع في المقدمة: وغالباً بعد إجهاد البصر.

هـ - ارتفاع ضغط الدم: الصداع فيه خلفي.

و- الصداع العصبي: يكون الصداع فيه نصفياً، وفي الصباح، ومصحوباً بقيء.

وهناك أسباب أخرى عديدة. (ع).

(٢) كذا بـ «الأصل» و«الزاد»، وهو صحيح؛ لأنه اعتبر السابق أربعة أسباب باعتبار تنوع الطبائع. (ق).

والسادس: من ريح غليظة تكون في المعدة، فتصعد إلى الرأس؛ فتصدعه .

والسابع: يكون من ورم في عروق المعدة، فيألم الرأس بألم المعدة للاتصال الذي بينهما .

والثامن: صداع يحصل عن امتلاء المعدة من الطعام، ثم ينحدر ويبقى بعضه نيئاً، فيصدع الرأس ويثقله .

والتاسع: يعرض بعد الجماع؛ لتخلخل الجسم، فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره .

والعاشر: صداع يحصل بعد القيء والاستفراغ؛ إما لغلبة اليبس، وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه .

والحادي عشر: صداع يعرض عن شدة الحر وسخونة الهواء .

والثاني عشر: ما يعرض عن شدة البرد، وتكاثف الأبخرة في الرأس وعدم تحللها .

والثالث عشر: ما يحدث من السهر وعدم النوم .

والرابع عشر: ما يحدث من ضغط الرأس وحمل الشيء الثقيل عليه .

والخامس عشر: ما يحدث من كثرة الكلام، فتضعف قوة الدماغ لأجله .

والسادس عشر: ما يحدث من كثرة الحركة والرياضة المفرطة .

والسابع عشر: ما يحدث من الأعراض النفسانية؛ كالهموم، والغموم، والأحزان، والوساوس، والأفكار الرديئة .

والثامن عشر: ما يحدث من شدة الجوع؛ فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه، فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ؛ فتؤلمه .

والتاسع عشر: ما يحدث عن ورم في صفاق الدماغ، ويجد صاحبه كأنه يضرب بالمطارق على رأسه .

والعشرون: ما يحدث بسبب الحمى؛ لاشتعال حرارتها فيه؛ فيتألم، والله أعلم.

فصل

وسبب صداع الشقيقة مادة في شرايين الرأس وحدها حاصلة فيها، أو مرتقية إليها، فيقبلها الجانب الأضعف من جانبيه، وتلك المادة إما بخارية، وإما أخلاط حارة أو باردة، وعلامتها الخاصة بها ضربان الشرايين، وخاصة في الدموي. وإذا ضبطت بالعصائب، ومنعت من الضربان: سكن الوجع .

وفي «الصحيح» أنه قال في مرض موته: «وارأساه»[1] ، وكان يعصب رأسه في مرضه[2].

وعصب الرأس ينفع في وجع الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس .

فصل

وعلاجه يختلف باختلاف أنواعه وأسبابه:

فمنه ما علاجه بالاستفراغ.

ومنه ما علاجه بتناول الغذاء.

ومنه ما علاجه بالسكون والدعة.

ومنه ما علاجه بالضمادات.

ومنه ما علاجه بالتبريد.

ومنه ما علاجه بالتسخين.

ومنه ما علاجه بأن يجتنب سماع الأصوات والحركات.

وقد روى البخاري في «تاريخه» وأبو داود في «السنن»: أن رسول الله ﷺ ما شكى إليه أحد وجعا؛ في رأسه؛إلا قال له: «احتجم»، ولا شكى إليه وجعا في رجليه؛ إلا قال له: «اختضب بالحناء»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٧) من حديث ابن عباس- رضي الله عنها-.

(٣) أخرجه أبو داود(٣٨٥٨)، والترمذي (٢٠٥٤)، وأحمد (٦/ ٤٦٢)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٤١) من حديث سلمى خادمة النبي ﷺ. وحسنه شيخنا – رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٠٥٩).

وفي الترمذي: عن سلمى أم رافع –خادمة النبي ﷺ–، قالت: كان لا يصيب النبي ﷺ قرحةٌ ولا شَوكة إلا وضع عليها الحِناء[١] .

فصل

والحناء[٢] بارد في الأولى، يابس في الثانية، وقوة شجر الحناء وأغصانها مركّبة من قوة محللة اكتسبتها من جوهر فيها مائي، حار باعتدال، ومن قوة قابضة اكتسبتها مِن جوهر فيها أرضي بارد .

ومن منافعه: إنه محلّل نافع من حرق النار، وفيه قوة موافقة للعصب إذا ضُمِّدَ به، وينفع إذا مضغ من قروح الفم والسُّلاق[٣] العارض فيه، ويبرئ القُلاع[٤] الحادث في أفواه الصبيان، والضّماد به ينفع من الأورام الحارة الملهبة، ويفعل في الجراحات فعل دم الأخوين[٥] . وإذا خلط نوره مع الشمع المصفّى ودهن الورد: ينفع من أوجاع الجنب .

ومن خواصه: أنه إذا بدأ الجدريُّ يخرج بصبي، فخضبت أسافل رجليه بحناء؛ فإنه يؤمن على عينيه أن يخرج فيها شيء منه، وهذا صحيح مجرَّب لا

---

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) شجر ورقه كورق الرمان وعيدانه كعيدانه له زهر أبيض كالعناقيد، يتخذ من ورقه خضاب أحمر.

(٣) بَثْر يخرج في أصل اللسان وتقشر في أصول الأسنان.

(٤) مرض فطري يصيب الصغار، ونادراً الكبار، ومظهره: نقط بيض في الفم والحلق.

(٥) هو العندم، وهو شجر أحمر، وقيل: دم الغزال بلحاء الأرض يطبخان جميعاً حتى ينعقد، فتخضب به الجواري.

وفي «تذكرة داود» (١/ ١١٥) بعد أن تردد في بيان حقيقته قال: «والصحيح: أنا لا نعرف أصله، وإنما يجلب هكذا من بلاد الهند».

شك فيه . وإذا جعل نوره بين طي ثياب الصوف طيبها، ومنع السوس عنها، وإذا نقع ورقه في ماء يغمره ثم عصر وشرب من صفوه أربعين يوماً كل يوم عشرون درهماً مع عشرة دراهم سكر، ويغذى عليه بلحم الضأن الصغير؛ فإنه ينفع من ابتداء الجذام بخاصية فيه عجيبة .

وحكي: أن رجلاً تشققت أظافير أصابع يده، وإنه بذل لمن يبرئه مالاً؛ فلم يجد، فوصفت له امرأة: أن يشرب عشرة أيام حناء، فلم يقدم عليه، ثم نقعه بماء وشربه؛ فبرأ ورجعت أظافيره إلى حسنها .

والحناء إذا ألزمت به الأظفار معجوناً حسنها ونفعها، وإذا عجن بالسمن وضمد به بقايا الأورام الحارة التي ترشح ماء أصفر؛ نفعها ونفع من الجرب المتقرح المزمن منفعة بليغة، وهو ينبت الشعر ويقويه، ويحسنه، ويقوي الرأس، وينفع من النفاطات، والبثور العارضة في الساقين والرجلين وسائر البدن.

فصل
في هديه ﷺ في معالجة المرضى بترك إعطائهم ما يكرهونه من الطعام والشراب وأنهم لا يكرهون على تناولهما

عن عقبة بن عامر الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب؛ فإن الله -عز وجل- يطعمهم ويسقيهم»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٤٠)، وابن ماجه (٣٤٤٤).
وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٧٢٧).
ومعظم الأمراض يصحبها عدم رغبة المريض للطعام، وإطعام المريض قصداً في هذه الحالة؛ يعود عليه بالضرر؛ لعدم قيام الجهاز الهضمي بعمله كما يجب، مما يتعبه عسر هضم، وسوء حالة المريض.
وكل مريض له غذاء معين له، وغالباً ما يكون غذاء قليلاً سهل الهضم، ومن دلائل شفاء المريض؛ عودته إلى سابق رغبته في الطعام. فـ «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب». (ع).
وقال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٣٠٣): «لقد قضت حكمة الله -تعالى- أن يكون في الجسم الإنساني مدخرات كبيرة يستفيد منها في أوقات الحرمان أو نقص الوارد الغذائي. فلذلك لا ينبغي للمريض؛ ولا لذويه أن يغتموا بسبب الحمية المشددة أو بسبب القمه العارض خلال فترة المرض؛ فإن المعدة في كثير من الأمراض لا تحتمل الطعام الزائد أو لا تحتمله مطلقاً، فإذا أجبر على تناوله تقزز منه أو سبب له غثياناً أو قيئاً. والطبيب هو الذي يحدد طريقة التغذية بحسب نوع المرض، وهو الذي يدرك سبب القمه الحادث، ويعرف ما إذا كان يجب احترامه وتركه ريثما تمر المرحلة المرضية بسلام، أم يجب وضع تدابير دوائية وغذائية لتحريك الشهية إلى الطعام؟ ولذا لا يجوز لذوي المريض أن يجبروا مريضهم على الطعام وقد عافته نفسه، وخاصة إذا لم يعرفوا نوع الحمية الخاصة بمريضهم أو بمرضه. وإلى هذه الناحية التي أشار إليها الطب الحديث أشار سابقاً رسول الله ﷺ بقوله: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام؛ فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

قال بعض فضلاء الأطباء: ما أغزر فوائد هذه الكلمة النبوية المشتملة على حكم إلهية، لا سيما للأطباء، ولمن يعالج المرضى، وذلك أن المريض إذا عاف الطعام أو الشراب؛ فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدة المرض، أو لسقوط شهوته، أو نقصانها لضعف الحرارة الغريزية أو خمودها، وكيفما كان؛ فلا يجوز حينئذ إعطاء الغذاء في هذه الحالة .

واعلم أن الجوع إنما هو طلب الأعضاء للغذاء لتخلف الطبيعة به عليها عوض ما يتحلل منها، فتجذب الأعضاء القصوى من الأعضاء الدنيا حتى ينتهي الجذب إلى المعدة، فيحس الإنسان بالجوع، فيطلب الغذاء، وإذا وجد المرض، اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها عن طلب الغذاء، أو الشراب، فإذا أكره المريض، على استعمال شيء من ذلك؛ تعطلت به الطبيعة عن فعلها، واشتغلت بهضمه وتدبيره عن إنضاج مادة المرض ودفعه، فيكون ذلك سبباً لضرر المريض، ولا سيما في أوقات البحران[١] أو ضعف الحار الغريزي أو خموده؛ فيكون ذلك زيادة في البلية، وتعجيل النازلة المتوقعة، ولا ينبغي أن يستعمل في هذا الوقت والحال إلا ما يحفظ عليه قوته ويقويها من غير استعمال مزعج للطبيعة ألبتة، وذلك يكون بما لطف قوامه من الأشربة والأغذية، واعتدل مزاجه كشراب اللينوفر[٢]، والتفاح، والورد الطري، وما أشبه ذلك، ومن الأغذية مرق الفراريج المعتدلة الطيبة فقط،

---

(١) بضم فسكون؛ وهو حال من أحوال الأمراض إذا اشتدت. وفي نسخة: البحارين جمع « بحران».

(٢) في « تذكرة داود» (ص١/ ٣١٨): «الأشهر فيه تقديم النون، فارسي معناه: ذو الأجنحة.

وهو نبت مائي له أصل؛ كالجزر، أو ساق أملس، يطول سجفه عمق الماء؛ فإذا ساوى سطحه أورق وأزهر، وهو يعرف بمصر بعرائس النيل».

وإنعاش قواه بالأراييج[1] العطرة الموافقة، والأخبار السارة؛ فإن الطبيب خادم الطبيعة، ومعينها لا معيقها .

واعلم أن الدم الجيد هو المغذي للبدن، وأن البلغم دم فج قد نضج بعض النضج، فإذا كان بعض المرضى في بدنه بلغم كثير، وعدم الغذاء، عطفت الطبيعة عليه وطبخته، وأنضجته، وصيَّرته دماً وغذت به الأعضاء، واكتفت به عما سواه، والطبيعة: هي القوة التي وكلها الله -سبحانه- بتدبير البدن وحفظه وصحته، وحراسته مدة حياته.

واعلم أنه قد يحتاج في النَّدرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب، وذلك في الأمراض التي يكون معها اختلاط العقل، وعلى هذا؛ فيكون الحديث من العام المخصوص، أو من المطلق الذي قد دل على تقييده دليل، ومعنى الحديث: أن المريض قد يعيش بلا غذاء أياماً لا يعيش الصحيحُ في مثلها.

وفي قوله ﷺ: «**فإن الله يطعمهم ويسقيهم**»؛ معنى لطيف زائد على ما ذكره الأطباء لا يعرفه إلا مَن له عناية بأحكام القُلوب والأَرواح، وتأثيرها في طبيعة البدن، وانفعال الطبيعة عنها، كما تنفعل هي كثيراً عن الطبيعة، ونحن نشير إليه إشارة، فنقول: النفس إذا حصل لها ما يشغلها من محبوب أو مكروه أو مخوف، اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب؛ فلا تُحِسُّ بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم، فلا تحس به، وما من أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئاً منه، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها؛ لم تحس بألم الجوع، فإن كان الوارد مفرحاً قوي التفريح؛ قام لها مقام الغذاء، فشبعت به وانتعشت قواها، وتضاعفت، وجرت الدموية في الجسد حتى تظهر في

---

(١) جمع «أريج»؛ وهو توهج ريح الطيب، والمراد: الأشياء ذوات الأريج، وفي نسخة: «الأراييح»، وكلاهما صحيح.

سطحه، فيشرق وجهه، وتظهر دمويته؛ فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق، فتمتلئ به، فلا تطلب الأعضاء حظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها، وإلى الطبيعة منه، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب؛ آثرته على ما هو دونه .

وإن كان الوارد مؤلماً أو محزناً أو مخوفاً، اشتغلت بمحاربته ومقاومته ومدافعته عن طلب الغذاء، فهي - في حال حربها- في شغل عن طلب الطعام والشراب. فإن ظفرت في هذا الحرب؛ انتعشت قواها، وأخلفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب، وإن كانت مغلوبة مقهورة؛ انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سجالاً؛ فالقوة تظهر تارة وتختفي أخرى.

وبالجملة؛ فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين، والنصر للغالب، والمغلوب:إما قتيل، وإما جريح، وإما أسير .

فالمريض: له مدد من الله -تعالى- يغذيه به زائداً على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدي ربه -عز وجل-، فيحصل له من ذلك ما يوجب له قرباً من ربه، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه، فإن كان ولياً له؛ حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قوي إيمانه وحبه لربه، وأنسه به، وفرحه به وقوي يقينه بربه، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه؛ وجد في نفسه من هذه القوة ما لا يعبر عنه ولا يدركه وصف طبيب، ولا يناله علمه .

ومن غلظ طبعه، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به؛ فلينظر حال كثير من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من

صورة، أو جاه، أو مال، أو علم، وقد شاهد الناس من هذا عجائب في أنفسهم وفي غيرهم[(١)] .

وعن النبي ﷺ أنه كان يواصل في الصيام الأيام ذوات العدد، وينهى أصحابه عن الوصال، ويقول: «**لست كهيئتكم؛ إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**»[(٢)] .

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنسان بفمه، وإلا؛ لم يكن مواصلاً، ولم يتحقق الفرق، بل لم يكن صائماً؛ فإنه قال: «**أظل يطعمني ربي ويسقيني**».

-وأيضاً- فإنه فرق بينه وبينهم في نفس الوصال، وأنه يقدر منه على ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بفمه؛ لم يقل: «**لست كهيئتكم**»

---

(١) قال المصنف- رحمه الله- في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١- المنتقى):

«وهذا أمر يعلمه غالب الناس: أن القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيبه، أو ما يغمه ويسوؤه ويحزنه؛ شغل عن الطعام والشراب، حتى إن كثيراً من العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئاً، ولا تطلب نفسه أكلاً.

وقد أفصح القائل في هذا المعنى:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد».

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

وإنما فهم هذا من الحديث مَنْ قَلَّ نصيبُه من غذاء الأرواح والقلوب، وتأثيره في القوة وإنعاشها، واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسماني[١]، والله الموفق.

فصل
في هديه ﷺ في علاج العُذْرة وفي العلاج بالسّعوط

ثبت عنه في «الصحيحين» أنه قال: «**خير ما تداويتم به الحجامة، والقسط البحري**[٢]**، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة**»[٣].

وعن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة، وعندها صبي يسيل منخراه دماً، فقال: «ما هذا؟». فقالوا: به العُذرة، أو وجع في رأسه، فقال: «**ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع في رأسه، فلتأخذ قسطاً هندياً فلتحكه بماء، ثم تسعطه إياه**»[٤]، فأمرت عائشة -رضي الله عنها- فصنع ذلك بالصبي، فبرأ.

قال أبو عبيد عن أبي عُبَيْدة: العُذرة[٥]: «تهيج في الحلق من الدم، فإذا عولج منه، قيل: قد عُذِرَ به، فهو معذور» انتهى.

---

(١) وللمصنف كلام مفيد حول هذه المسألة في « مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٠-المنتقى).

(٢) القسط البحري:هو على نوعين: الهندي والصيني، وهو من الأدوية القديمة التي لا تزال تستعمل في الهند في حالات الصداع والزكام، وبعض حالات الربو بطريقة السعوط.(ق).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٩٦)، ومسلم (١٥٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٥)، والحاكم (٤/ ٢٠٥و٤٠٦).

قلت: اسناده صحيح على شرط مسلم؛ كما قال الحاكم.

(٥) قيل: سميت بذلك ؛ لأنها تخرج غالباً عند طلوع العذرة، وهي خمس كواكب تحت الشعرى العبور، وطلوعها يقع وسط الحر.

وقيل: العذرة: قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق، وتعرض للصبيان غالباً.

وأما نفع السعوط منها بالقسط المحكوك، فلأن العذرة مادتها دم يغلب عليه البلغم، لكن تولده في أبدان الصبيان أكثر، وفي القسط تجفيف يشد اللهاة ويرفعها إلى مكانها، وقد يكون نفعه في هذا الداء بالخاصية، وقد ينفع في الأدواء الحارة، والأدوية الحارة بالذات تارة، وبالعرض أخرى .

وقد ذكر صاحب: «القانون» في معالجة سقوط اللهاة: «القسط مع الشب[1] اليماني وبزر المرو[2]» .

والقسط[3] البحري المذكور في الحديث: هو العود الهندي، وهو الأبيض منه، وهو حلو، وفيه منافع عديدة[4]، وكانوا يعالجون أولادهم بغمز

---

(١) ملح متبلور، اسمه الكيماوي: كبريتات الألمنيوم والبوتاسيوم.

(٢) نبات عطري طبي من الفصيلة الشفوية، من أسمائه الخرنباش، وحبق الشيوخ.

(٣) قال السيوطي في « المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي» (ص٣١٠) : «القسط ضربان: أحدهما:الأبيض الذي يقال له: البحري، والآخر: الهندي، وهو أشدهما حرارة، والأبيض ألينهما، ومنافعه كثيرة جداً، وهما حاران يابسان في الثالثة».

(٤) ذكر الأطباء من منافعه:

١- مدر الطمث والبول.

٢- ينفع من ضعف الكبد والمعدة ومن بردهما.

٣- ينفع من الكزاز.

٤- وينفع من وجع الجنين.

٥- يقتل حب القرع.

٦- ينفع من حمى الورد والربع.

٧- ينشف البلغم ويقطع الزكام.

٨- يدفع السموم.

اللهاة، وبالعلاق، وهو شيء يعلقونه على الصبيان، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وأرشدهم إلى ما هو أنفع للأطفال، وأسهل عليهم .

والسعوط: ما يصب في الأنف، وقد يكون بأدوية مفردة ومركبة تدق وتنخل وتعجن وتجفف، ثم تحل عند الحاجة، ويسعط بها في أنف الإنسان، وهو مستلق على ظهره، وبين كتفيه ما يرفعهما لتنخفض رأسه، فيتمكن السعوط من الوصول إلى دماغه، ويستخرج ما فيه من الداء بالعطاس، وقد مدح النبي ﷺ التداوي بالسعوط فيما يحتاج إليه فيه .

وذكر أبو داود في« سننه» أن النبي ﷺ استعط[1] .

فصل

في هديه ﷺ في علاج المفئود

المفئود: الذي أصيب فؤاده، فهو يشتكيه؛ كالمبطون: الذي يشتكي بطنه.

= ٩- يذهب الكلف طلاء.

١٠- يحرك شهوة الجماع.

١١- ينفع من النزلات الباردة.

١٢- ويسكن آلام العضل والمفاصل.

١٣- ويفتت الحصاة المتولدة في الكلى.

وانظر:« المعتمد» (ص٣٨٦)

قلت: وقد ثبت أن فيه سبعة أشفية، والمراد:

١-أن هذه السبعة علمت بالوحي، وما زاد عليها بالتجربة؛ فاقتصر على ما هو بالوحي؛ لتحققه.

٢- أو أن هذه السبعة أصول صفة التداوي به؛ لأنها إما طلاء، أو شراب، أو تكميد، أو تنطيل، أو تبخير، أو سعوط، أو لدود، وتحت كل واحد من هذه السبعة منافع كثيرة.

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٧) من حديث ابن عباس- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود».

واللدود: ما يسقاه الإنسان من أحد جانبي الفم.

وفي التمر خاصية عجيبة لهذا الداء، ولا سيما تمر المدينة، ولا سيما العجوة منه . وفي كونها سبعاً خاصية أخرى، تدرك بالوحي.

وفي «الصحيحين»: حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصبح بسبع تمرات من تمر العالية؛ لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر».

وفي لفظ: «من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها[١] حين يصبح؛ لم يضره سم حتى يمسي»[٢] .

والتمر حار في الثانية، يابس في الأولى . وقيل: رطب فيها . وقيل: معتدل، وهو غذاء فاضل حافظ للصحة لا سيما لمن اعتاد الغذاء به؛ كأهل المدينة وغيرهم، وهو من أفضل الأغذية في البلاد الباردة والحارة التي حرارتها في الدرجة الثانية، وهو لهم أنفع منه لأهل البلاد الباردة، لبرودة بواطن سكانها، وحرارة بواطن سكان البلاد الباردة؛ ولذلك يكثر أهل الحجاز واليمن والطائف وما يليهم من البلاد المشابهة لها من الأغذية الحارة ما لا يتأتى لغيرهم؛ كالتمر والعسل، وشاهدناهم يضعون في أطعمتهم من الفلفل والزنجبيل فوق ما يضعه غيرهم نحو عشرة أضعاف أو أكثر، ويأكلون الزنجبيل كما يأكل غيرهم الحلوى، ولقد شاهدت من يتنقل به منهم كما يتنقل بالنقل[٣]، ويوافقهم ذلك ولا يضرهم لبرودة أجوافهم، وخروج الحرارة إلى ظاهر الجسد، كما تشاهد مياه الآبار تبرد في الصيف،

---

(١) لابتيها: ما يحيط بجانبها من الحجارة السود البركانية، تثنية لابة بزنة غابة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٨و٥٧٦٩)، ومسلم (٢٠٤٧).

(٣) ما ينتقل به على الشراب من فواكه وكوامخ وجوز ولوز وبندق ونحوها، وأكثر ما يكون ذلك في ليالي رمضان.

وتسخن في الشتاء، وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة في الشتاء ما لا تنضجه في الصيف .

وأما أهل المدينة؛ فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم، وهو قوتهم ومادتهم، وتمر العالية من أجود أصناف تمرهم؛ فإنه متين الجسم، لذيذ الطعم، صادق الحلاوة، والتمر يدخل في الأغذية والأدوية والفاكهة، وهو يوافق أكثر الأبدان، مقو للحار الغريزي، ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة، بل يمنع لمن اعتاده من تعفن الأخلاط وفسادها .

وهذا الحديث من الخطاب الذي أريد به الخاص؛ كأهل المدينة ومن جاورهم، ولا ريب أن للأمكنة اختصاصاً ينفع كثير من الأدوية في ذلك المكان دون غيره، فيكون الدواء الذي قد ينبت في هذا المكان نافعاً من الداء، ولا يوجد فيه ذلك النفع إذا نبت في مكان غيره لتأثير نفس التربة أو الهواء، أو هما جميعاً؛ فإن للأرض خواص وطبائع يقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان، وكثير من النبات يكون في بعض البلاد غذاء مأكولاً، وفي بعضها سماً قاتلاً، ورب أدوية لقوم أغذية لآخرين، وأدوية لقوم من أمراض هي أدوية لآخرين في أمراض سواها، وأدوية لأهل بلد لا تناسب غيرهم، ولا تنفعهم.

وأما خاصية السبع؛ فإنها قد وقعت قدراً وشرعاً، فخلق الله -عز وجل- السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والأيام سبعاً، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، وشرع الله -سبحانه- لعباده الطواف سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الجمار سبعاً سبعاً، وتكبيرات العيدين سبعاً في الأولى.

وقال ﷺ: «مروهم بالصلاة لسبع»[١]. «وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يصب عليه من سبع قرب»[٢]. وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال. ودعا النبي ﷺ أن يعينه الله على قومه بسبع كسبع يوسف[٣] ومثل الله -سبحانه- ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعاً، والسنين التي زرعوها دأباً سبعاً، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً[٤].

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره، والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه، فإن العدد شفع ووتر . والشفع: أول وثان . والوتر: كذلك، فهذه أربع مراتب: شفع أول وثان ، ووتر أول وثان، ولا تجتمع هذه المراتب في أقل من سبعة، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة؛ أعني: الشفع والوتر، والأوائل والثواني، ونعني بالوتر: الأول الثلاثة، وبالثاني: الخمسة، وبالشفع: الأول الاثنين، وبالثاني: الأربعة، وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة، ولا سيما في البحارين.

وقد قال بقراط: كل شيء من هذا العالم، فهو مقدر على سبعة أجزاء، والنجوم سبعة، والأيام سبعة، وأسنان الناس سبعة، أولها طفل إلى سبع، ثم صبي إلى أربع عشرة، ثم مراهق، ثم شاب، ثم كهل، ثم شيخ، ثم هرم إلى منتهى العمر. والله -تعالى- أعلم بحكمته وشرعه وقدره في تخصيص هذا العدد، هل هو لهذا المعنى أو لغيره؟

---

(١) أخرجه أبو داود(٤٩٤)، والترمذي(٤٠٧) من حديث سبرة- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٢) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠٦) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر، بحيث تمنع إصابته؛ من الخواص التي لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء؛ لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والانقياد، مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن، فمن كلامه كله يقين وقطع وبرهان ووحي أولى أن تتلقى أقواله بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض .

وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية، وتارة تكون بالخاصية؛ كخواص كثير من الأحجار والجواهر واليواقيت، والله أعلم.

فصل

من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقاد النفع به

ويجوز نفع التمر المذكور في بعض السموم، فيكون الحديث من العام المخصوص، ويجوز نفعه لخاصية تلك البلد، وتلك التربة الخاصة من كل سم، ولكن ها هنا أمر لا بد من بيانه، وهو أن من شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله، واعتقاد النفع به، فتقبله الطبيعة، فتستعين به على دفع العلة، حتى إن كثيراً من المعالجات ينفع بالاعتقاد ،وحسن القبول، وكمال التلقي، وقد شاهد الناس من ذلك عجائب؛ وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له، وتفرح النفس به، فتنتعش القوة، ويقوى سلطان الطبيعة، وينبعث الحار الغريزي، فيساعد على دفع المؤذي، وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعاً لتلك العلة، فيقطع عمله سوء اعتقاد العليل فيه، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول، فلا يجدي عليها شيئاً .

واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأشفية، وأنفعها للقلوب والأبدان، والمعاش والمعاد، والدنيا والآخرة، وهو القرآن الذي هو شفاء من كل داء؛ كيف لا ينفع القلوب التي لا تعتقد فيه الشفاء والنفع، بل لا يزيدها إلا مرضاً إلى مرضها، وليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن؛ فإنه

شفاؤها التام الكامل الذي لا يغادر فيها سقماً إلا أبرأه، ويحفظ عليها صحتها المطلقة، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر، ومع هذا؛ فإعراض أكثر القلوب عنه، وعدم اعتقادها الجازم الذي لا ريب فيه أنه كذلك، وعدم استعماله، والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به، وغلبت العوائد، واشتد الإعراض، وتمكنت العلل والأدواء المزمنة من القلوب، وتربى المرضى والأطباء على علاج بني جنسهم وما وضعه[١] لهم شيوخهم ومن يعظمونه ويحسنون به ظنونهم؛ فعظم المصاب، واستحكم الداء، وتركبت أمراض وعلل أعيا عليهم علاجها، وكلما عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقم أمرها وقويت، ولسان الحال ينادي عليهم:

ومن العجائب -والعجائب جمة- قرب الشفاء[٢] وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

فصل

في هديه ﷺ في دفع ضرر الأغذية والفاكهة وإصلاحها بما يدفع ضررها، ويقوي نفعها

ثبت في « الصحيحين »[٣] من حديث عبد الله بن جعفر، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثاء».

---

(١) في نسخة: « وصفه»، وكلاهما صحيح.

(٢) في الأصل: « الحبيب» ولكن المصنف غيره.

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣).

والرطب: حار رطب في الثانية، يقوي المعدة الباردة، ويوافقها، ويزيد في الباه، ولكنه سريع التعفن، معطش معكر للدم، مصدع مولد للسدد، ووجع المثانة، ومضر بالأسنان، والقثاء[١] بارد رطب في الثانية مسكن للعطش، منعش للقوى بشمه لما فيه من العطرية، مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة، وإذا جفف بزره، ودق واستحلب بالماء، وشرب، سكن العطش، وأدر البول، ونفع من وجع المثانة .

وإذا دق ونخل، ودلك به الأسنان، جلاها، وإذا دق ورقه وعمل منه ضماد مع الميخبخ[٢]، نفع من عضة الكلب الكلب .

وبالجملة: فهذا حار، وهذا بارد، وفي كل منهما صلاح الآخر، وإزالة لأكثر ضرره، ومقاومة كل كيفية بضدها، ودفع سورتها بالأخرى، وهذا أصل العلاج كله، وهو أصل في حفظ الصحة، بل علم الطب كله يستفاد من هذا .

وفي استعمال ذلك وأمثاله في الأغذية والأدوية إصلاح لها وتعديل، ودفع لما فيها من الكيفيات المضرة لما يقابلها، وفي ذلك عون على صحة البدن، وقوته وخصبه، قالت عائشة -رضي الله عنها- : سمنوني بكل شيء فلم أسمن، فسمنوني بالقثاء والرطب، فسمنت .

وبالجملة: فدفع ضرر البارد بالحار، والحار بالبارد، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وتعديل أحدهما بالآخر من أبلغ أنواع العلاجات، وحفظ الصحة، ونظير هذا ما تقدم من أمره بالسنا والسنوت، وهو العسل الذي فيه شيء من السمن يصلح به السنا، ويعدله؛ فصلوات الله وسلامه على من بعث بعمارة القلوب والأبدان، وبمصالح الدنيا والآخرة .

---

(١) نبات قريب من الخيار؛ لكنه أطول، ويسمى: الفقوس.

(٢) كلمة فارسية؛ معناها: مطبوخ العنب، وهو: الرب.

فصل
في هديه ﷺ في الحمية[1]

الدواء كله شيئان: حمية، وحفظ صحة . فإذا وقع التخليط، احتيج إلى الاستفراغ الموافق ،وكذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاثة .

والحمية : حميتان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده، فيقف على حاله، فالأول: حمية الأصحاء. والثانية: حمية المرضى. فإن المريض إذا احتمى، وقف مرُضه عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه.

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٩٩-٣٠٠):« الحمية:هي التدبير الغذائي الخاص بالمريض من إلزامه منهاجاً معيناً من التغذية لا يتعداه، أو منعه عن بعض أنواع من الأغذية والأشربة التي أضحت بسبب مرضه مؤذية له؛ لأنها تزيد في شدة المرض أو تؤخر برأه أو تساعد في حدوث الاختلاطات لديه أو تتنافر مع الأدوية الموصوفة أو تزيد آثارها الجانبية الضارة. ولذا؛ فإن الحمية تختلف باختلاف الأمراض التي تحتاج إلى حمية وباختلاف الحالة الصحية العامة لأجهزة الجسم عند المرضى وباختلاف أنواع الأدوية المستعملة وآثارها الجانبية المحتملة الوقوع.

وبناء على ذلك تعتبر الحمية جزءاً من المعالجة في كثير من الحالات. وهي من كثير من الظروف أصعب تطبيقاً على الإنسان من استعمال الدواء، لأن تعاطي العلاج إجراء خارجي، بينما تعديل الأطعمة كماً ونوعاً أمر يدخل في صميم حياة الشخص وسلوكه اليومي. ومن هنا يواجه الأطباء صعوبات في إقناع المرضى وذويهم بضرورة التمسك بالحمية.

ولقد كانت الشعوب القديمة على شيء من المعارف عن حميات المرضى نتيجة الملاحظات للحوادث المتشابهة، وخاصة من قبل من يتعاطون التطبيب. ولقد طبقها العرب قديماً على مرضاهم في الجاهلية وفي العهد النبوي فيما بعده.

وبمراعاة التدرج في ترك الحمية في دور النقاهة يوصي الطب في كثير من الأحوال. وتفصيل ذلك تابع لطبيعة المرض وبنية المريض ورأي الطبيب المعالج».

والأصل في الحمية قوله -تعالى-: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء:٤٣، والمائدة: ٦]، فحمى المريضَ من استعمال الماء؛ لأنه يضرُّه.

عن أمِّ المنذر بنت قيس الأنصارية، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ومعه علي، وعلي ناقه من مرض، ولنا دوالي معلَّقة فقام رسول الله ﷺ يأكل منها، وقام علي يأكل منها، فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلي: **«إنك ناقه»** حَتَّى كَفَّ . قالت: وصنعت شعيراً وسلقاً، فجئت به، فقال النبي ﷺ لعلي: **«من هذا أصب؛ فإنه أنفع لك»** وفي لفظ فقال: **«من هذا فأصب؛ فإنه أوفق لك»**[1].

و-أيضاً- عن صُهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر، فقال: **«ادْنُ فَكُلْ»**، فأخذت تمراً فأكلت، فقال: **«أتأكل تمراً وبك رمد»**؟ فقلت : يا رسول الله! أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.[2]

وفي حديث محفوظ عنه ﷺ: **«إنّ الله إذا أحبَّ عبداً، حماه من الدُّنيا؛ كما يحمي أحدكم مريضه عن الطَّعام والشَّراب»**[3]. وفي لفظ: **«إنَّ الله يحمي عبده المؤمن من الدّنيا»**.

---

(١) أخرجه أبو داود(٣٨٥٦)، والترمذي (٢٠٣٧)، وابن ماجه (٣٤٤٢)، وأحمد (٦/ ٣٦٤)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة»(٥٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٤٣)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) أخرجه الترمذي(٢٠٣٦)، والحاكم (٤/ ٢٠٧) **من حديث قتادة بن النعمان** مرفوعاً به.

قال شيخنا - رحمه الله- في « مشكاة المصابيح» (٥/ ٣٥-٣٦/ ٥١٧٨- هداية الرواة): «إسناده صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

=

وأما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس: «الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل جسم ما اعتاد»؛ فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ؛ قاله غير واحد من أئمة الحديث[1] .

وقال الحارث: رأس الطب الحمية.

والحمية عندهم للصحيح في المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقه، وأنفع ما تكون الحمية للناقه من المرض؛ فإن طبيعته لم ترجع بعد إلى قوتها، والقوة الهاضمة ضعيفة، والطبيعة قابلة، والأعضاء مستعدة، فتخليطه يوجب انتكاسها، وهو أصعب من ابتداء مرضه .

واعلم أن في منع النبي ﷺ لعلي من الأكل من الدوالي، وهو ناقه أحسن التدبير؛ فإن الدوالي أقناء من الرطب تعلق في البيت للأكل، بمنزلة

= وهو -في «المسند» (٥/ ٤٢٧-٤٢٨)- من حديث محمود بن لبيد؛ وليس من حديث قتادة بن النعمان.

وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٠٨) عن قتادة، وعن محمود بن لبيد- زاد في رواية- عن أبي سعيد الخدري...مرفوعاً، وقال:

«كذا قال: عن أبي سعيد! وفي حديث عمارة بن غزية: عن قتادة بن النعمان! والإسنادان- عندي- صحيحان» ، وأقره الذهبي.

ورجح ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٠٨)- عن أبيه- حديث محمود على حديث قتادة، والله أعلم».

وأخرجه عبد الله بن أحمد في « زوائد الزهد» (ص١١)، وابن حبان(٢٤٧٤) من حديث قتادة»

(١) لا أصل له؛ كما قال الحافظ العراقي في « المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار» رقم (٢٧٧٠)، وقال السخاوي في « المقاصد الحسنة» (١٠٣٥): « ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره».

وانظر- لزاماً- « كشف الخفاء» (٢/ ٢١٤)، و« المصنوع» (٣٠٦)، و« الفوائد المجموعة» (٢٦٢).

عناقيد العنب، والفاكهة تضر بالناقه من المرض؛ لسرعة استحالتها، وضعف الطبيعة عن دفعها، فإنها لم تتمكن بعد من قوتها، وهي مشغولة بدفع آثار العلة، وإزالتها من البدن .

وفي الرطب خاصة نوع ثقل على المعدة، فتشتغل بمعالجته وإصلاحه عما هي بصدده من إزالة بقية المرض وآثاره، فإما أن تقف تلك البقية، وإما أن تتزايد، فلما وضع بين يديه السلق والشعير، أمره: أن يصيب منه؛ فإنه من أنفع الأغذية للناقه، فإن في ماء الشعير من التبريد والتغذية، والتلطيف والتليين، وتقوية الطبيعة ما هو أصلح للناقه، ولا سيما إذا طبخ بأصول السلق، فهذا من أوفق الغذاء لمن في معدته ضعف، ولا يتولد عنه من الأخلاط ما يخاف منه .

وقال زيد بن أسلم : حمى عمر -رضي الله عنه- مريضاً له، حتى إنه من شدة ما حماه كان يمص النوى .

وبالجملة: فالحمية من أنفع الأدوية قبل الداء، فتمنع حصوله، وإذا حصل، فتمنع تزايده وانتشاره .

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن كثيراً مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح إذا اشتدت الشهوة إليه، ومالت إليه الطبيعة، فتناول منه الشيء اليسير الذي لا تعجز الطبيعة عن هضمه، لم يضره تناوله، بل ربما انتفع به، فإن الطبيعة والمعدة تتلقيانه بالقبول والمحبة، فيصلحان ما يخشى من ضرره، وقد يكون أنفع من تناول ما تكرهه الطبيعة، وتدفعه من الدواء، ولهذا أقر النبي ﷺ صهيباً -وهو أرمد- على تناول التمرات اليسيرة، وعلم أنها لا تضره.

ففي هذا الحديث سر طبي لطيف، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق طبيعي، وكان فيه ضرر ما، كان أنفع وأقل ضرراً مما لا يشتهيه، وإن كان نافعاً في نفسه، فإن صدق شهوته، ومحبة الطبيعة يدفع ضرره، وبغض الطبيعة وكراهتها للنافع، قد يجلب لها منه ضرراً .

وبالجملة: فاللذيذ المشتهى تقبل الطبيعة عليه بعناية، فتهضمه على أحمد الوجوه؛ سيما عند انبعاث النفس إليه بصدق الشهوة، وصحة القوة، والله أعلم[١] .

فصل
في هديه ﷺ في علاج الرمد
بالسكون والدعة وترك الحركة والحمية مما يهيج الرمد

وقد تقدَّم[٢] أن النبي ﷺ حمى صهيباً من التمر، وأنكر عليه أكله، وهو أرمد.

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٣٠٤): «لا مبالغة في الحمية:
لقد شدد الأقدمون في الحمية تشديداً مفرطاً؛ نظراً لضعف وسائل التشخيص والتفريق بين كثير من الأنواع المرضية التي كانت تحشر في زمر من التناذرات المرضية (المتلازمات)، ونظراً لندرة الأدوية النوعية؛ ولذا قال طبيب العرب الحارث بن كلدة: «المعدة بيت داء، والحمية رأس كل دواء».
وكقاعدة أغلبية: إن ابتداء العلاج بتجزئة الكمية المراد إعطاؤها من الغذاء أفضل من استعمال بعض وسائل الحمية؛ ولهذا يوصي بعدم الزيادة عن الحد والتشديد فيها كيفاً وكماً وزمناً. ولهذا ينبغي على الطبيب أن يحدد للمريض بشكل مفصل حميته فيقول: امتنع مطلقاً أولا تكثر من كذا، وأن يضرب له موعداً لرؤيته ثانية أو مرات حتى يتسنى له مراقبة تطور المرض نحو التحسن من ناحية ويخفف من شدة الحمية إن أمكن من ناحية ثانية؛ لأن الشدة في الحمية والإقلال من الوارد الغذائي يطيل مدة النقه في بعض الأمراض ويؤخر عودة الجسم إلى نشاطه السابق، بل قد يؤدي إلى عوارض نقص التغذية وإلى عوز الفيتامينات (وخاصة مجموعة الفيتامين ب) الناشىء عن الحمية المديدة مما يقود إلى وهن عضلات الأنبوب الهضمي.
وقد يتطوع أهل المريض وزواره بوصف حميات حسب معارفهم، دون أن تكون موصوفة من قبل الطبيب المعالج، وقد يبالغون في تطبيق الحمية؛ بدافع الحرص على صحة وسلامة المريض، فيمنعونه؛ حتى عن القليل من الغذاء الذي يشتهيه ولم يحظره الطبيب حظراً مطلقاً».
(٢) (ص ١٦٠).

الرمد: ورم حار يعرض في الطبقة الملتحمة من العين؛ وهو بياضها الظاهر، وسببه: انصباب أحد الأخلاط الأربعة، أو ريح حارة تكثر كميتها في الرأس والبدن، فينبعث منها قسط إلى جوهر العين، أو ضربة تصيب العين، فترسل الطبيعة إليها من الدم والروح مقداراً كثيراً، تروم بذلك شفاءها مما عرض لها؛ ولأجل ذلك يرم العضو المضروب، والقياس يوجب ضده .

واعلم أنه كما يرتفع من الأرض إلى الجو بخاران:

أحدهما : حار يابس. والآخر: حار رطب.

فينعقدان سحاباً متراكماً، ويمنعان أبصارنا من إدراك السماء، فكذلك يرتفع من قعر المعدة إلى منتهاها مثل ذلك، فيمنعان النظر، ويتولد عنهما علل شتى، فإن قويت الطبيعة على ذلك ودفعته إلى الخياشيم؛ أحدث الزكام، وإن دفعته إلى اللهاة والمنخرين؛ أحدث الخناق، وإن دفعته إلى الجنب؛ أحدث الشوصة، وإن دفعته إلى الصدر؛ أحدث النزلة، وإن انحدر إلى القلب؛ أحدث الخبطة، وإن دفعته إلى العين؛ أحدث رمداً، وإن انحدر إلى الجوف؛ أحدث السيلان، وإن دفعته إلى منازل الدماغ؛ أحدث النسيان، وإن ترطبت أوعية الدماغ منه، وامتلأت به عروقه؛ أحدث النوم الشديد، ولذلك كان النوم رطباً، والسهر يابساً . وإن طلب البخار النفوذ من الرأس، فلم يقدر عليه؛ أعقبه الصداع والسهر، وإن مال البخار إلى أحد شقي الرأس؛ أعقبه الشقيقة، وإن ملك قمة الرأس ووسط الهامة؛ أعقبه داء البيضة، وإن برد منه حجاب الدماغ، أو سخن، أو ترطب وهاجت منه أرياح؛ أحدث العطاس، وإن أهاج الرطوبة البلغمية فيه حتى غلب الحار الغريزي؛ أحدث الإغماء والسكات، وإن أهاج المرة السوداء حتى أظلم هواء الدماغ؛ أحدث الوسواس، وإن فاض ذلك إلى مجاري العصب؛ أحدث الصرع الطبيعي، وإن ترطبت مجامع عصب الرأس وفاض ذلك في مجاريه؛ أعقبه الفالج، وإن

كان البخار من مرة صفراء ملتهبة محمية للدماغ، أحدث البرسام[١]، فإن شركه الصدر في ذلك؛ كان سرساماً[٢]؛ فافهم هذا الفصل .

والمقصود: أن أخلاط البدن والرأس تكون متحركة هائجة في حال الرمد، والجماع مما يزيد حركتها وثورانها؛ فإنه حركة كلية للبدن والروح والطبيعة .

فأما البدن؛ فيسخن بالحركة لا محالة، والنفس تشتد حركتها طلباً للذة واستكمالها، والروح تتحرك تبعاً لحركة النفس والبدن، فإن أول تعلق الروح من البدن بالقلب، ومنه ينشأ الروح، وتنبث في الأعضاء .

وأما حركة الطبيعة فلأجل أن ترسل ما يجب إرساله من المني على المقدار الذي يجب إرساله .

وبالجملة: فالجماع حركة كلية عامة يتحرك فيها البدن وقواه، وطبيعته وأخلاطه، والروح والنفس، فكل حركة فهي مثيرة للأخلاط مرققة لها توجب دفعها وسيلانها إلى الأعضاء الضعيفة، والعين في حال رمدها أضعف ما تكون فأضر ما عليها حركة الجماع .

قال أبقراط في كتاب «الفصول»: «وقد يدل ركوب السفن أن الحركة تثور الأبدان».

هذا مع أن في الرمد منافع كثيرة، منها ما يستدعيه من الحمية والاستفراغ، وتنقية الرأس والبدن من فضلاتهما وعفوناتهما، والكف عما يؤذي النفس والبدن: من الغضب، والهم والحزن، والحركات العنيفة، والأعمال الشاقة. وفي أثر سلفي: «لا تكرهوا الرمد، فإنه يقطع عروق العمى».

---

(١) البرسام: التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

(٢) السرسام: ورم في حجاب الدماغ يحدث عنه حمى واختلاط في الذهن.

ومن أسباب علاجه: ملازمة السكون والراحة، وترك مس العين والاشتغال بها؛ فإن أضداد ذلك يوجب انصباب المواد إليها .

وقد قال بعض السلف: « مثل أصحاب محمد مثل العين، ودواء العين ترك مسها» .

والماء البارد من أنفع الأدوية للرمد الحار؛ فإن الماء دواء بارد يستعان به على إطفاء حرارة الرمد إذا كان حاراً؛ ولهذا قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه- لامرأته زينب وقد اشتكت عينها : لو فعلت كما فعل رسول الله ﷺ كان خيراً لك وأجدر أن تشفي؛ تنضحين في عينك الماء، ثم تقولين: **«أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»**[١].

وهذا مما تقدم مراراً أنه خاص ببعض البلاد، وبعض أوجاع العين؛ فلا يجعل[٢] كلام النبوة الجزئي الخاص كلياً عاماً، ولا الكلي العام جزئياً خاصاً، فيقع من الخطأ، وخلاف الصواب ما يقع، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داود(٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٣٣١).

(٢) في نسخة: « تجعل» وكلاهما صحيح.

فصل
في هديه ﷺ في إصلاح الطعام الذي يقع فيه الذباب وإرشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فامقلوه[1]؛ فإنَّ في أحد جناحيه داءً، وفي الآخر شفاءً»[2].

وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «أحد جناحي الذباب سم، والآخر شفاء، فإذا وقع في الطعام؛ فامقلوه؛ فإنه يقدم السم، ويؤخر الشفاء»[3]

هذا الحديث فيه أمران:

أمر فقهي.

وأمر طبي.

فأما الفقهي؛ فهو دليل ظاهر الدلالة جداً على أن الذباب إذا مات في ماء أو مائع، فإنه لا ينجسه، وهذا قول جمهور العلماء، ولا يعرف في السلف مخالف في ذلك .

ووجه الاستدلال به: أن النبي ﷺ أمر بمقله، وهو: غمسه في الطعام، ومعلوم أنه يموت من ذلك، ولا سيما إذا كان الطعام حاراً . فلو كان ينجسه؛ لكان أمراً بإفساد الطعام، وهو ﷺ إنما أمر بإصلاحه، ثم عدي هذا الحكم إلى كل ما لا نفس له سائلة؛ كالنحلة، والزنبور، والعنكبوت، وأشباه

---

(١) أي: اغمسوه.

(٢) أخرجه البخاري(٥٧٨٢) وعزاه المصنف لـ «الصحيحين»، ولكن مسلماً لم يخرجه، كما جزم بذلك الحافظ ابن حجر- رحمه الله-.

(٣) أخرج النسائي (٧/ ١٧٨و١٧٩)، وابن ماجه (٣٥٠٤)، وأحمد (٣/ ٢٤و٦٧) وغيرهم، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٣٩).

ذلك؛ إذ الحكم يعم بعموم علته، وينتفي لانتفاء سببه، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن في الحيوان بموته، وكان ذلك مفقوداً فيما لا دم له سائل؛ انتفى الحكم بالتنجيس؛ لانتفاء علته.

ثم قال من لم يحكم بنجاسة عظم الميتة: إذا كان هذا ثابتاً في الحيوان الكامل مع ما فيه من الرُّطوبات، والفضلات، وعدم الصلابة؛ فثبوته في العظم الذي هو أبعد عن الرطوبات والفضلات، واحتقان الدم أولى، وهذا في غاية القوة؛ فالمصير إليه أولى.

وأول من حفظ عنه في الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة، فقال: ما لا نفس له سائلة؛ إبراهيم النخعي، وعنه تلقاها الفقهاء - والنفس في اللغة: يعبر بها عن الدم، ومنه نَفست المرأة - بفتح النون - إذا حاضت، ونُفِست -بضمها- إذا ولدت.

وأما المعنى الطبي؛ فقال أبو عبيد: «معنى امقلوه: اغمسوه؛ ليخرج الشفاء منه، كما خرج الداء، يقال للرجلين: هما يتماقلان، إذا تغاطّا في الماء».

واعلم أن في الذباب عندهم قوةً سمّيّةً؛ يدل عليها الورم، والحكة العارضة عن لسعه، وهي بمنزلة السِّلاح، فإذا سقط فيما يؤذيه؛ اتقاه بسلاحه، فأمر النبيُّ ﷺ أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله -سبحانه- في جناحه الآخر من الشفاء، فيغمس كلُّه في الماء والطعام، فيقابل المادة السُّمية المادة النافعة؛ فيزول ضررها، وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارجٌ من مشكاة النبوة، ومع هذا؛ فالطبيب العالم العارف الموفَّق يخضع لهذا العلاج، ويُقِرُّ لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق، وأنه مؤيد بوحي إلهي خارج عن القوى البشرية.

وقد ذكر غير واحد من الأطباء: أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب نفع منه نفعاً بيناً، وسكنه؛ وما ذاك إلا للمادة التي فيه من

الشفاء، وإذا دلك به الورم الذي يخرج في شعر العين المسمى شعرة -بعد قطع رءوس الذباب-؛ أبرأه[1].

(١) وقد تكلم علماؤنا قديماً وحديثاً في دفع جهل هؤلاء المعترضين؛ منهم:

أبو سليمان الخطابي، فقال في «معالم السنن» (٤/ ٢٥٩): «وقد تكلم على هذا الحديث بعض من لا خلاق له، وقال: كيف يكون هذا؟ وكيف يجتمع الداء والشفاء في جناحي الذبابة؟ كيف تعلم ذلك من نفسها حتى تقدم جناح الداء وتؤخر جناح الشفاء؟ وما أربها إلى ذلك؟

قلت: هذا سؤال جاهل أو متجاهل، وإن الذي يجد نفسه ونفوس عامة الحيوان قد جمع فيها بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، وهي أشياء متضادة إذا تلاقت تفاسدت، ثم يرى أن الله قد ألّف بينها وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قوى الحيوان التي بها بقاؤها وصلاحها لجدير أن لا ينكر اجتماع الداء والشفاء في جزئين من حيوان واحد، وإن الذي ألهم النحلة أن تتخذ البيت العجيب الصنعة وأن تعسل فيه، وألهم الذرة أن تكتسب قوتها وتدخر لأوانِ حاجتها إليه هو الذي خلق الذبابة وجعل لها الهداية إلى أن تقدم جناحاً وتؤخر جناحاً؛ لما أراد من الابتلاء الذي هو مدرجة التعبد والامتحان الذي هو مضمار التكليف، وفي كل شيء عبرة وحكمة، وما يذّكر إلا أولو الألباب».

وقال أبو جعفر الطحاوي في « مشكل الآثار» (٤/ ٢٨٣-٢٨٤): « فقال قائل من أهل الجهال بآثار رسول الله ﷺ وبوجودها: وهل للذباب اختيار حتى يقدم أحد جناحيه لمعنى فيه، ويؤخر الآخر لمعنى فيه خلاف ذلك المعنى؟ فكان جوابنا في ذلك بتوفيق الله -عز وجل- وعونه: أنه لو قرأ كتاب الله -عز وجل- قراءة متفهم لما يقرأ منه؛ لوجد فيه ما يدل على صدق قول رسول الله ﷺ ، وهو قوله -عز وجل-: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل:٦٨و٦٩] إلا وكان وحي الله وإلهامه إياها أن تفعل ما أمرها به؛ كمثل قوله -عز وجل- في الأرض: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة:٤و٥] ووحيه لها: إلهامه إياها ما شاء أن يلهمها إياه حتى يكون منها ما أراد الله -عز وجل- أن يكون منها، فمثل ذلك الذباب؛ ألهمه -عز وجل- ما ألهمه مما يكون سبباً لاتيانه لما أراده منه من غمس أحد جناحيه فيما يقع فيه مما فيه الداء، والتوقي بجناحيه الآخر الذي فيه الشفاء...».

=

= وقال شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (١/ ١/ ٩٦-١٠١): «أما بعد: فقد ثبت الحديث بهذه الأسانيد الصحيحة عن هؤلاء الصحابة الثلاثة: أبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس؛ ثبوتاً لا مجال لرده، ولا للتشكيك فيه؛ كما ثبت صدق أبي هريرة -رضي الله عنه- في روايته إياه عن رسول الله ﷺ؛ خلافاً لبعض غلاة الشيعة من المعاصرين، ومن تبعهم من الزائغين؛ حيث طعنوا فيه -رضي الله عنه-لروايته إياه، واتهموه بأنه يكذب فيه على رسول الله ﷺ، وحاشاه من ذلك؛ فهذا هو التحقيق العلمي يثبت أنه بريء من كل ذلك، وأن الطاعن فيه هو الحقيق بالطعن فيه؛ لأنهم رموا صحابياً بالبهت، وردوا حديث رسول الله ﷺ لمجرد عدم انطباقه على عقولهم المريضة! وقد رواه عنه جماعة من الصحابة كما علمت.

وليت شعري! هل علم هؤلاء بعدم تفرد أبي هريرة بالحديث- وهو حجة ولو تفرد- أم جهلوا ذلك؟!

فإن كان الأول؛ فلماذا يتعللون برواية أبي هريرة إياه، ويوهمون الناس أنه لم يتابعه أحد من الأصحاب الكرام؟!

وإن كان الآخر؛ فهلا سألوا أهل الاختصاص والعلم بالحديث الشريف؟!

وما أحسن ما قيل:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ثم أن كثيراً من الناس يتوهمون: أن هذا الحديث يخالف ما يقرره الأطباء، وهو أن الذباب يحمل بأطرافه الجراثيم، فإذا وقع في الطعام أو في الشراب، علقت به تلك الجراثيم.

والحقيقة: أن الحديث لا يخالف الأطباء في ذلك، بل هو يؤيدهم؛ إذ يخبر أن في أحد جناحيه داء، ولكنه يزيد عليهم فيقول: «وفي الآخر شفاء»؛ فهذا مما لم يحيطوا بعلمه، فوجب عليهم الإيمان به إن كانوا مسلمين، وإلا؛ فالتوقف إذا كان من غيرهم إن كانوا عقلاء علماء! ذلك؛ لأن العلم الصحيح يشهد: أن عدم العلم بالشيء لا يستلزم العلم بعدمه.

نقول ذلك على افتراض أن الطب الحديث لم يشهد لهذا الحديث بالصحة، وقد اختلف آراء الأطباء حوله، وقرأت مقالات كثيرة في مجلات مختلفة؛ كل يؤيد ما ذهب إليه تأييداً أو رداً.

=

= ونحن؛ بصفتنا مؤمنين بصحة الحديث، وأن النبي ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم:٣] ؛ لا يهمنا كثيراً ثبوت الحديث من وجهة نظر الطب؛ لأن الحديث برهان قائم في نفسه، لا يحتاج إلا دعم خارجي.

ومع ذلك؛ فإن النفس تزداد إيماناً حين ترى الحديث الصحيح يوافقه العلم الصحيح؛ ولذلك فلا يخلو من فائدة أن أنقل إلى القراء خلاصة محاضرة ألقاها أحد الإطباء في جمعية الهداية الإسلامية في مصر حول هذا الحديث؛ قال:

«يقع الذباب على المواد القذرة المملوءة بالجراثيم التي تنشأ منها الأمراض المختلفة، فينقل بعضها بأطرافه، ويأكل بعضاً ، فيتكون في جسمه من ذلك مادة سامة. يسميها علماء الطب. (مبعد البكتيريا) ، وهي تقتل كثيراً من جراثيم الأمراض، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى حية، أو يكون لها تأثير في جسم الإنسان في حال وجود (مبعد البكتيريا).

وأن هناك خاصية في أحد جناحي الذباب؛ هي أنه يحول البكتيريا إلى ناحيته، وعلى هذا؛ فإذا سقط الذباب في شراب أو طعام، وألقى الجراثيم العالقة بأطرافه في ذلك الشراب؛ فإن أقرب مبيد لتلك الجراثيم، وأول واق منها هو (مبعد البكتيريا) الذي يحمله الذباب في جوفه قريبا من أخذ جناحيه، فإذا كان هناك داء؛ فدواؤه قريب منه، وغمس الذباب كله وطرحه كاف لقتل الجراثيم التي كانت عالقة، وكاف في إبطال عملها».

وقد قرأت قديما في هذه المجلة بحثاً ضافياً في هذا المعنى للطبيب الأستاذ سعيد السيوطي (مجلد العام الأول)، وقرأت في مجلد العام الفائت (ص٥٠٣) كلمة للطبيبين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين؛ نقلاً عن « مجلة الأزهر».

ثم وقفت على العدد (٨٢) من « مجلة العربي» الكويتية (ص١٤٤) تحت عنوان: «أنت تسأل ونحن نجيب» بقلم المدعو عبد الوارث كبير؛ جواباً له على سؤال عما لهذا الحديث من الصحة والضعف؟ فقال:

« أما حديث الذباب، وما في جناحيه من داء وشفاء؛ فحديث ضعيف، بل هو عقلاً حديث مفترى، فمن المسلم به أن الذباب يحمل من الجراثيم والأقذار...ولم يقل أحد قط: إن في جناحي الذبابة داء وفي الآخر شفاء؛ إلا من وضع هذا الحديث أو افتراه، ولو صح ذلك؛ لكشف عنه العلم الحديث الذي يقطع بمضار الذباب ويحض على مكافحته».

=

= وفي الكلام- على اختصاره- من الدس والجهل ما لا بد من الكشف عنه؛ دفاعاً عن حديث رسول الله ﷺ، وصيانة له من أن يكفر به من قد يغتر بزخرف القول!

فأقول:

أولاً: لقد زعم أن الحديث ضعيف؛ يعني: من الناحية العلمية الحديثية؛ بدليل قوله: « بل هو عقلاً حديث مفترى».

وهذا الزعم واضح البطلان، تعرف ذلك مما سبق من تخريج الحديث من طرق ثلاث عن رسول الله ﷺ وكلها صحيحة، وحسبك دليلاً على ذلك أن أحداً من أهل العلم لم يقل بضعف الحديث ؛ كما فعل هذا الكاتب الجريء!

ثانياً: لقد زعم أنه حديث مفترى عقلاً !

وهذا الزعم ليس وضوح بطلانه بأقل من سابقه؛ لأنه مجرد دعوى ، لم يسق دليلاً يؤيده به سوى الجهل بالعلم الذي لا يمكن الإحاطة به، ألست تراه يقول: «ولم يقل أحد...ولو صح؛ لكشف عنه العلم الحديث...»؟!

فهل العلم الحديث - أيها المسكين! - قد أحاط بكل شيء علماً، أم أن أهله الذين لم يصابوا بالغرور- كما أصيب من يقلدهم منا- يقولون: إننا كلما ازددنا علماً بما في الكون وأسراره؛ ازددنا معرفة بجهلنا، وأن الأمر -بحق- كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وأما قوله: « إن العلم يقطع بمضار الذباب ويحض على مكافحته»؛ فمغالطة مكشوفة؛ لأننا نقول : إن الحديث لم يقل نقيض هذا، وإنما تَحدَّث عن قضية أخرى لم يكن العلم يعرف معالجتها، فإذا قال الحديث: « إذا وقع الذباب...»، فلا أحد يفهم - لا من العرب ولا من العجم؛ اللهم إلا العجم في عقولهم وأفهامهم- أن الشرع يبارك في الذباب ولا يكافحه!

ثالثاً: قد نقلنا لك فيما سبق ما أثبته الطب اليوم؛ من أن الذباب يحمل في جوفه ما سموه: (مبعد البكتيريا) القاتل للجراثيم، وهذا وإن لم يكن موافقاً لما في الحديث على وجه التفصيل؛ فهو في الجملة موافق لما استنكره الكاتب المشار إليه وأمثاله من اجتماع الداء والدواء في الذباب، ولا يبعد أن يأتي يوم تنجلي فيه معجزة الرسول ﷺ في ثبوت التفاصيل المشار إليها علمياً، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۢ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص:٨٨].

=

= وإن من عجيب أمر هذا الكاتب وتناقضه؛ أنه في الوقت الذي ذهب فيه إلى تضعيف هذا الحديث؛ ذهب إلى تصحيح الحديث: «**طهور الإناء الذي يلغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات إحداهن بالتراب**»، فقال: «حديث صحيح متفق عليه».

فإنه إذا كانت صحته جاءت من اتفاق العلماء أو الشيخين على صحته؛ فالحديث الأول -أيضاً- صحيح عند العلماء بدون خلاف بينهم؛ فكيف جاز له تضعيف هذا وتصحيح ذاك؟!

ثم تأوله تأويلاً باطلاً يؤدي إلىأن الحديث غير صحيح عنده في معناه؛ لأنه ذكر أن المقصود من العدد مجرد الكثرة، وأن المقصود من التراب هو استعمال مادة مع الماء من شأنها إزالة ذلك الأثر!

وهذا تأويل باطل، بين البطلان، وإن كان عزاه للشيخ محمود شلتوت -عفا الله عنه-.

فلا أدري أي خطأيه أعظم؟! أهو تضعيفه للحديث الأول وهو صحيح؟! أم تأويله للحديث الآخر وهو تأويل باطل؟!

وبهذه المناسبة؛ فإني أنصح القراء الكرام بأن لا يثقوا بكل ما يكتب اليوم في بعض المجلات السائرة، أو الكتب الذائعة، من البحوث الإسلامية- وخصوصاً ما كان منها في علم الحديث- إلا إذا كانت بقلم من يوثق بدينه أولاً، ثم بعلمه واختصاصه فيه ثانياً؛ فقد غلب الغرور على كثير من كتاب العصر الحاضر، وخصوصاً من يحمل منهم لقب (الدكتور) ! فإنهم يكتبون فيما ليس من اختصاصهم ، وما لا علم لهم به، وإني لأعرف واحداً من هؤلاء أخرج حديثاً إلى الناس كتاباً جله في الحديث والسيرة، وزعم فيه أنه اعتمد فيه على ما صح من الأحاديث والأخبار في كتب السنة والسيرة! ثم هو أورد فيه من الروايات والأحاديث ما تفرد به الضعفاء والمتروكون والمتهمون بالكذب من الرواة؛ كالواقدي وغيره، بل أورد فيه حديث: « نحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر» ، وجزم بنسبته إلى النبي ﷺ ؛ مع أنه مما لا أصل له عنه بهذا اللفظ؛ كما نبه عليه حفاظ الحديث؛ كالسخاوي وغيره.

فاحذروا أيها القراء! أمثال هؤلاء. والله المستعان».

وقال الشيخ أحمد شاكر- رحمه الله- في «شرح المسند» (١٢/ ١٢٤-١٢٩): «وقد وهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ، فنسب في «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٩،٣٤٧) هذا الحديث لـ «الصحيحين». واليقين أن مسلماً لم يروه في «صحيحه»، بعد طول التتبع. =

= وقد صرح الحافظ بذلك في «الفتح» (٦/ ٢٥٧)، في خاتمة كتاب بدء الخلق. وإن سها أن ينص عليه في خاتمة كتاب الطب (١٠/ ٢١٥).

وهذا الحديث مما لعب به بعض معاصرينا، ممن علم وأخطأ، وممن علم وعمد إلى عداء السنة، وممن جهل وتجرأ:

فمنهم من حمل على أبي هريرة، وطعن في رواياته وحفظه. بل منهم من جرؤ على الطعن في صدقه فيما يروي! حتى غلا بعضهم؛ فزعم أن في «الصحيحين» أحاديث غير صحيحة، إن لم يزعم أنها لا أصل لها! بما رأو من شبهات في نقد بعض الأئمة لأسانيد قليلة فيهما، فلم يفهموا اعتراض أولئك المتقدمين، الذين أرادوا بنقدهم أن بعض أسانيدهما خارجة عن الدرجة العليا من الصحة، التي التزمها الشيخان، لم يريدوا أنها أحاديث ضعيفة قط.

ومن الغريب: أن هذا الحديث بعينه- حديث الذباب- لم يكن مما استدركه أحد من أئمة الحديث على البخاري. بل هو عندهم جميعا على شرطه في أعلى درجات الصحة.

ومن الغريب -أيضاً-: أن هؤلاء الذين حملوا على أبي هريرة -على علم كثير منهم بالسنة وسعة اطلاعهم رحمهم الله- غفلوا أو تغافلوا على أن أبا هريرة -رضي الله عنه- لم ينفرد بروايته.

بل رواه أبو سعيد الخدري -أيضاً- عن النبي ﷺ عند أحمد في «المسند» (١١٢٠٧،١١٦٦٦)، والنسائي (٢/ ١٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٨٥)، والبيهقي (١/ ٢٥٣)، بأسانيد صحاح.

ورواه أنس بن مالك -أيضا-؛ كما ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣٨)، وقال: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الأوسط» ، وذكره الحافظ في الفتح (١٠/ ٢١٣)، وقال: «أخرجه البزار، ورجاله ثقات».

فأبو هريرة لم ينفرد برواية هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ، ولكنه انفرد بالحمل عليه منهم ، بما غفلوا أنه رواه اثنان غيره من الصحابة.

والحق أنه لم يعجبهم هذا الحديث، لما وقر في نفوسهم من أنه ينافي المكتشفات الحديثة، من المكروبات ونحوها. وعصمهم إيمانهم عن أن يجرؤوا على المقام الأسمى؛ فاستضعفوا أبا هريرة.

=

= والحق -أيضاً- أنهم آمنوا بهذه المكتشفات الحديثة أكثر من إيمانهم بالغيب، ولكنهم لا يصرحون! ثم اختطوا لأنفسهم خطة عجيبة: أن يقدموها على كل شيء، وأن يؤولوا القرآن بما يخرجه عن معنى الكلام العربي، إذا ما خالف ما يسمونه: «الحقائق العلمية»! وأن يردوا من السنة الصحيحة ما يظنون أنه يخالف حقائقهم هذه! افتراء على الله، وحباً في التجديد!

بل إن منهم لمن يؤمن ببعض خرافات الأوربيين وينكر حقائق الإسلام أو يتأولها. فمنهم من يؤمن بخرافات استحضار الأرواح، وينكر وجود الملائكة، ويؤمن بالتأويل العصري الحديث. ومنهم من يؤمن بأساطير القدماء وما ينسب إلى «القدسيين والقديسات»! ثم ينكر معجزات رسول الله ﷺ كلها، ويتأول ما ورد في الكتاب والسنة من معجزات الأنبياء السابقين، يخرجونها عن معنى الإعجاز كله!! وهكذا وهكذا...

وفي عصرنا هذا صديق لنا، كاتب قدير، أديب جيد الأداء، واسع الاطلاع، كنا نعجب بقلمه وعلمه وإطلاعه. ثم بدت منه هنات وهنات، على صفحات الجرائد والمجلات، في الطعن على السنة، والإزراء برواتها، من الصحابة فمن بعدهم. يستمسك بكلمات للمتقدمين في أسانيد معينة، يجعلها- كما يصنع المستشرقون- قواعد عامة، يوسع من مداها، ويخرج بها عن حدها الذي أراده قائلوها. وكانت بيننا في ذلك مساجلات شفوية، ومكاتبات خاصة، حرصاً مني على دينه وعقيدته.

ثم كتب في إحدى المجلات- منذ أكثر من عامين- كلمة على طريقته التي ازداد فيها إمعاناً وغلواً. فكتبت له كتاباً طويلاً، في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٠، كان مما قلت له فيه، من غير أن أسميه هنا أو أسمي المجلة التي كتب فيها، قلت له:

« وقد قرأت لك -منذ أسبوعين تقريباً- كلمة في مجلة...لم تدع فيها ما وقر في قلبك من الطعن في روايات الحديث الصحيحة. ولست أزعم أني أستطيع إقناعك، أو أرضي إحراجك بالإقلاع عما أنت فيه.

وليتك- يا أخي- درست علوم الحديث وطرق روايته دراسة وافيه، غير متأثر بسخافات (فلان) -رحمه الله-، وأمثاله ممن قلدهم وممن قلدوه. فأنت تبحث وتنقب على ضوء شيء استقر في قلبك من قبل، لا بحثاً حراً خالياً من الهوى.

وثق أني لك ناصح مخلص أمين، لا يهمني ولا يغضبني أن تقول في السنة ما تشاء؛ فقد قرأت من مثل كلامك أضعاف ما قرأت، ولكنك تضرب الكلام بعضه ببعض.

=

= وثق- يا أخي- أن المستشرقين فعلوا مثل ذلك في السُّنة، فقلت مثل قولهم وأعجبك رأيهم؛ إذ صادف منك هوى، ولكنك نسيت أنهم فعلوا مثل ذلك وأكثر منه في القرآن نفسه؛ فما ضار القرآن ولا السنة شيء مما فعلوا !

وقبلهم قام المعتزلة وكثير من أهل الرأي والأهواء، ففعلوا بعض هذا أو كله، فما زادت السُّنة إلا ثبوتاً كثبوت الجبال، وأتعب هؤلاء رؤوسهم وحدها وأوهوها!

بل لم نر فيمن تقدمنا من أهل العلم من اجترأ على ادعاء أن في «الصحيحين» أحاديث موضوعة ، فضلاً عن الإيهام والتشنيع الذي يطويه كلامك، فيوهم الأغرار أن أكثر ما في السُّنة موضوع! هذا كلام المستشرقين.

غاية ما تكلم فيه العلماء نقد أحاديث فيهما بأعيانهم، لا بادعاء وضعها والعياذ بالله، ولا بادعاء ضعفها؛ إنما نقدوا عليهما أحاديث ظنوا أنها لا تبلغ في الصحة الذروة العليا التي التزمها كل منهما.

وهذا مما أخطأ فيه كثير من الناس. ومنهم أستاذنا السيد رشيد رضا - رحمه الله- على علمه بالسنة وفقهه، ولم يستطع قط أن يقيم حجته على ما يرى، وأفلتت منه كلمات يسمو على علمه أن يقع فيها. ولكنه كان متأثراً أشد الأثر بجمال الدين ومحمد عبده، وهما لا يعرفان في الحديث شيئاً. بل كان هو بعد ذلك أعلم منهما، وأعلى قدماً، وأثبت رأياً، لولا الأثر الباقي في دخيلة نفسه. والله يغفر لنا وله.

وما أفضت لك في هذا؛ إلا خشية عليك من حساب الله، أما الناس في هذا العصر؛ فلا حساب لهم، ولا يقدّمون في ذلك ولا يؤخرون؛ فإن التربية الإفرنجية الملعونة جعلتهم لا يرضون القرآن إلا على مضض؛ فمنهم من يصرح، ومنهم من يتأول القرآن أو السُّنة؛ ليرضي عقله الملتوي، لا ليحفظهما من طعن الطاعنين، فهم على الحقيقة لا يؤمنون، ويخشون أن يصرحوا؛ فيلتوون!! وهكذا هم حتى يأتي الله بأمره.

فاحذر لنفسك من حساب الله يوم القيامة. وقد نصحتك وما ألوت، والحمد لله».

وأما الجاهلون الأجرياء؛ فإنهم كثر في هذا العصر، ومن أعجب ما رأيت من سخافاتهم وجرأتهم: أن يكتب (طبيب!)، في إحدى المجلات الطبية، فلا يرى إلا أن هذا الحديث لم يعجبه، وأنه ينافي علمه! وأنه رواه مؤلف اسمه «البخاري»! فلا يجد مجالاً إلا الطعن في هذا«البخاري»، ورميه بالافتراء والكذب على رسول الله ﷺ!

=

= وهو لا يعرف عن «البخاري» هذا شيئاً، بل لا أظنه يعرف اسمه ولا عصره ولا كتابه! إلا أنه روى شيئًا يراه هو- بعلمه الواسع- غير صحيح! فافترى عليه ما شاء، مما سيحاسب عليه بين يدي الله حساباً عسيراً.

ولم يكن هؤلاء المعترضون المجترئون أول من تكلم في هذا، بل سبقهم من أمثالهم الأقدمون؛ ولكن أولئك كانوا أكثر أدبًا من هؤلاء!

فقال الخطابي في «معالم السنن» : (وذكر كلامه المتقدم).

وأقول- في شأن الطب الحديث-: إن الناس كانوا ولا يزالون تقذر أنفسهم الذباب، وتنفر مما وقع فيه من طعام أو شراب. ولا يكادون يرضون قربانه.

وفي هذا من الإسراف- إذا غلا الناس فيه- شيء كبير، ولا يزال الذباب يلح على الناس في طعامهم وشرابهم، وفي نومهم ويقظتهم ، وفي شأنهم كله. وقد كشف الأطباء والباحثون عن الميكروبات الضارة والنافعة، وغلوا غلواً شديداً في بيان ما يحمل الذباب من مكروبات ضارة؛ حتى لقد كادوا يفسدون على الناس حياتهم لو أطاعوهم طاعة حرفيه تامة. وإنا لنرى بالعيان أن أكثر الناس تأكل مما سقط عليه الذباب وتشرب، فلا يصيبهم شيء إلا في القليل النادر، ومن كابر في هذا؛ فإنما يخدع الناس ويخدع نفسه. وإنا لنرى -أيضًا- أن ضرر الذباب شديد حين يقع الوباء العام؛ لا يماري في ذلك أحد. فهناك إذن حالان ظاهرتان، بينهما فروق كبيرة. أما حال الوباء، فمما لا شك فيه أن الاحتياط فيها يدعو إلى التحرز، من الذباب وأضرابه مما ينقل المكروب أشد التحرز. وأما إذا عدم الوباء، وكانت الحياة تجري على سننها؛ فلا معنى لهذا التحرز. والمشاهدة تنفي ما غلا فيه الغلاة من إفساد كل طعام أو شراب وقع عليه الذباب. ومن كابر في هذا؛ فإنما يجادل بالقول لا بالعمل، ويطيع داعي الترف والتأنق، وما أظنه يطبق ما يدعو إليه تطبيقًا دقيقاً، وكثير منهم يقولون ما لا يفعلون».

لطيفة علمية:

قال الدكتور حامد أحمد حامد في كتابه: «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» (ص٧٧): « ومن العجائب: أن وباء الكوليرا الذي اجتاح الهند سنة (١٩٣٢م) توقف بعد أن انغمس الذباب في الآبار الملوثة... ويعود ذلك إلى أن جناح الذباب به خلايا مناعية من نوع البلعميات فقضت على عصيات البكتيريا »

قال مقيده أبو أسامة الهلالي- عفا الله عنه-: هذا الحديث النبوي العظيم يحمل الصدق في طياته، والحق على صفحاته، ويقيم الحجة على المعاند المرتاب بالدليل وآياته:

=

فصل
في هديه ﷺ في علاج البثرة

عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد خرج في أصبعي بثرة، فقال: «عندك ذريرة ؟»، قلت: نعم، قال: «ضعيها عليها، وقولي: اللهم مصغر الكبير، ومكبر الصغير، صغر ما بي»[١] .

الذريرة[٢]: دواء هندي يتخذ من قصب الذريرة، وهي حارة يابسة تنفع من أورام المعدة والكبد والاستسقاء، وتقوي القلب لطيبها، وفي

= أ- لقد أثبت الحديث أن الذباب ناقل ممتاز للداء.

ب- أن الذباب يقدم السم والداء، وهذا ما اصطلح عليه العلم المعاصر بـ «الجراثيم».

ت- هذه الحقائق العلمية -التي لا يرتاب فيها أحد- لم تكن معروفة في عصر النبوة، ولم تكن في مستوى علوم من عاصروا رسول الله ﷺ، وإنما اكتشفت بعد ذلك بمئات السنين.

ث- إذن أخبر الحديث عن حقيقتين علميتين:

الأولى: أن الذباب ناقل للأمراض ، وهذه تم اكتشافها وإثباتها علمياً.

الأخيرة: أن الذباب يحمل شفاء هذه الأمراض التي ينقلها، وهذا وإن لم يصبح معروفاً كالأول، فالتجارب العلمية تؤكده ولا تنفيه.

جـ- فإذا ثبت صدق الحديث في الأولى؛ فما الذي يمنع صدقه في الأخيرة؟!

ولقد بسطت القول في الحقائق العلمية والفقهية والتربوية التي تضمنها هذا الحديث النبوي العظيم في كتابي: « العجب العجاب بذكر فوائد حديث الذباب والرد على كل مبطل مرتاب»؛ يسر الله نشره على خير وبركة.

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٣١)، وأحمد (٥/ ٣٧٠)، والحاكم (٤/ ٢٠٧) وغيرهم، والحديث حسن؛ كما فصلت القول فيه في كتابي:«عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٢/ ٧٢٣/ ٦٣٦).

(٢) هي الذرور، وهو ما يرش على الجرح أو يذر في العين من دواء يابس.

«الصحيحين» عن عائشة أنها قالت: « طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريرة في حجة الوداع للحل والإحرام» [١].

والبثرة: خراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة، فتسترق مكانا من الجسد تخرج منه [٢]، فهي محتاجة إلى ما ينضجها ويخرجها، والذريرة أحد ما يفعل بها ذلك؛ فإن فيها إنضاجا وإخراجا مع طيب رائحتها، مع أن فيها تبريدا للنارية التي في تلك المادة، وكذلك قال صاحب «القانون»: «إنه لا أفضل لحرق النار من الذريرة بدهن الورد والخل».

فصل

في هديه ﷺ في علاج الأورام والخراجات التي تبرأ بالبط والبزل

عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ أمر طبيبا أن يبط بطن رجل أجوى البطن، فقيل: يا رسول الله! هل ينفع الطب ؟. قال :«الذي أنزل الداء، أنزل الشفاء، فيما شاء» [٣].

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣٠)، ومسلم (١١٨٩).

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٢٣): «وهو تعريف يقارب ما في الطب الحديث؛ فإن تعريف البثور في الأمراض الجلدية: هي مجامع قيمية صغيرة وسطحية تتشكل في البشرة أو في الأدمة السطحية حول فوهة جراب شعري دهني غالبا. وهي بالنسبة للبشرة والأدمة بمثابة الخراجات للأدمة العميقة وتحت الأدمة، وتحدث البثور من فعل الجراثيم المقيحة على سطح الجلد، أو من عامل آخر كعامل الجدري».

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ؛ ولكن في الباب نحوه؛ كما في «الصحيحة» (١٦٥٠): «إن الله لم ينزل داء - أو لم يخلق داء- إلا أنزل- أو خلق- له دواء؛ علمه من علمه، وجهله من جهله؛ إلا السام»، قالوا: يا رسول الله! وما السام؟ قال: «الموت».

الورم: مادة في حجم العضو، لفضل مادة غير طبيعيـة، تنصـب إليـه، ويوجد في أجناس الأمراض كلها، والمواد الـتي تكـون عنـها مـن الأخـلاط الأربعة والمائية والريح، وإذا اجتمع الـورم سمـي خراجـًا، وكـل ورم حـار يؤول أمره إلى أحد ثلاثة أشياء: إما تحلل، وإما جمع مدة، وإمـا اسـتحالة إلى الصلابة . فإن كانت القوة قوية؛ استولت على مـادة الـورم وحللتـه؛ وهـي أصلح الحالات التي يؤول حال الورم إليها، وإن كانت دون ذلك؛ أنضجت المادة، وأحالتها مدة بيضاء، وفتحت لها مكانا أسالتها منه، وإن نقصـت عـن ذلك؛ أحالت المادة مدة غير مستحكمة النضج، وعجزت عن فتح مكـان في العضو تدفعها منه؛ فيخاف على العضو الفسـاد بطـول لبثـها فيـه؛ فيحتـاج حينئذ إلى إعانة الطبيب بالبط- أو غيره- لإخراج تلك المادة الرديئة المفسدة للعضو .

وفي البط فائدتان:

إحداهما : إخراج المادة الرديئة المفسدة .

والثانية: منع اجتماع مادة أخرى إليها تقويها(١) .

وأما قوله :«إنه أمر طبيبًا أن يبط بطن رجل أجوى البطن»؛ فـالجوى يقـال علـى معـان، منـها : المـاء المنـتن الـذي يكـون في البطـن يحـدث عنـه الاستسقاء.

وقد اختلف الأطباء في بزله لخروج هذه المادة؛ فمنعتـه طائفـة منـهم؛ لخطره، وبعد السلامة معه، وجوزتـه طائفـة أخـرى، وقـالت: لا عـلاج لـه سواه، وهذا عندهم إنما هو في الاستسقاء الزقي، فإنه كما تقدم ثلاثة أنواع:

---

(١) هذا وصف دقيق للخراج، واحتمالات طرق تخلص الجسـم منـه،والخـراج: هو التهاب أي جزء من أجزاء الجسم من تكون مادة صديدية بداخله، وأهـم عـلاج لـه هو فتحه بعملية جراحية؛ لإخراج المادة الصديدية. (ع).

طبلي: وهو الذي ينتفخ معه البطن بمادة ريحية إذا ضربت عليه سمع له صوت كصوت الطبل.

ولحمي: وهو الذي يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية تفشو مع الدم في الأعضاء، وهو أصعب من الأول.

وزقي: وهو الذي يجتمع معه في البطن الأسفل مادة رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة كخضخضة الماء في الزق، وهو أردأ أنواعه عند الأكثرين من الأطباء .

وقالت طائفة: أردأ أنواعه اللحمي؛ لعموم الآفة به .

ومن جملة علاج الزقي: إخراج ذلك بالبزل، ويكون ذلك بمنزلة فصد العروق؛ لإخراج الدم الفاسد، لكنه خطر كما تقدم، وإن ثبت هذا الحديث؛ فهو دليل على جواز بزله، والله أعلم .

فصل
في هديه ﷺ في علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم

تفريح نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال ما يسره عليه، له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها؛ فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي، وقد شاهد الناس كثيرا من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه، ويعظمونه، ورؤيتهم لهم، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم؛ فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد:

نوع يرجع إلى المريض.

ونوع يعود على العائد.

ونوع يعود على أهل المريض.

ونوع يعود على العامة .

وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده؟ ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصبَّ على المريض من وضوئه، وربما كان يقول للمريض: «لا بأس طهور إن شاء الله»[(١)]، وهذا من كمال اللطف، وحسن العلاج والتدبير .

فصل

في هديه ﷺ في علاج الأبدان بما اعتادته من الأدوية والأغذية دون ما لم تعتده

هذا أصل عظيم من أصول العلاج، وأنفع شيء فيه. وإذا أخطأه الطبيب أضرَّ المريض من حيث يظن أنه ينفعه، ولايعدل عنه إلى ما يجده من الأدوية في كتب الطب إلا طبيب جاهل؛ فإن ملاءمة الأدوية والأغذية للأبدان بحسب استعدادها وقبولها، وهؤلاء أهل البوادي والأكارون[(٢)] وغيرهم لا ينجع فيهم شراب اللينوفر[(٣)] والورد الطري ولا المغلي، ولا يؤثر في طباعهم شيئاً، بل عامة أدوية أهل الحضر وأهل الرفاهية لا تجدي

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٢) من حديث عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-.

(٢) جمع: أكار، وهو: الحراث.

(٣) قال داود الأنطاكي في «تذكرته» (١/ ٢٧٦): «والأشهر فيه تقديم النون» وقال (١/ ٣١٨): «هو نبات مائي له أصل كالجزر، وساق أملس يطول بحسب عمق الماءن فإذا ساوى سطحه؛ أورق وأزهر زهراً أزرق، هو الأصل والأجود والمراد عند الإطلاق».

عليهم، والتجربة شاهدة بذلك، ومن تأمل ما ذكرناه من العلاج النبوي؛ رآه كله موافقاً لعادة العليل وأرضه، وما نشأ عليه[١] .

فهذا أصل عظيم من أصول العلاج يجب الاعتناء به، وقد صرح به أفاضل أهل الطب؛ حتى قال طبيب العرب، بل أطبُّهم، الحارث بن كلدة- وكان فيهم كأبقراط في قومه-: «الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل بدن ما اعتاد»، وفي لفظ عنه: «الأزم دواء»، والأزم: الإمساك عن الأكل؛ يعني به: الجوع، وهو من أكبر الأدوية في شفاء الأمراض الامتلائية كلها، بحيث إنه أفضل في علاجها من المستفرغات إذا لم يخف من كثرة الامتلاء، وهيجان الأخلاط، وحدَّتها أو غليانها .

وقوله: «المعدة بيت الداء»: المعدة: عضو عصبي مجوف كالقرعة في شكلها، مركب من ثلاث طبقات، مؤلفة من شظايا دقيقة عصبية تسمى الليف، ويحيط بها لحم، وليف إحدى الطبقات بالطول، والأخرى بالعرض، والثالثة بالورب، وفم المعدة أكثر عصباً، وقعرها أكثر لحماً، وفي باطنها خمل، وهي محصورة في وسط البطن، وأميل إلى الجانب الأيمن قليلاً، خلقت على هذه الصفة؛ لحكمة لطيفة من الخالق الحكيم -سبحانه-، وهي بيت الداء. وكانت محلاً للهضم الأول، وفيها ينضج الغذاء وينحدر منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء، ويتخلف منه فيها فضلات قد عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها؛ إما لكثرة الغذاء، أو لرداءته، أو لسوء ترتيبٍ في استعماله، أو لمجموع ذلك، وهذه الأشياء بعضها مما لا يتخلَّص الإنسان منه غالباً؛ فتكون المعدة بيت الداء لذلك، وكأنه يشير بذلك إلى الحثِّ على تقليل الغذاء، ومنع النفس من اتباع الشهوات، والتحرُّز عن الفضلات .

---

(١) ومن رأى فلاحي الصعيد المصري وهم يأكلون (المِش) علم ذلك يقيناً؛ فقد قامت هيئة علمية بدراسة هذه الظاهرة؛ فوجدت: أن (دود) المش يعطي أجسامهم مناعة!!

وأما العادة؛ فلأنها كالطبيعة للإنسان؛ ولذلك يقال: العادة طبع ثان، وهي قوة عظيمة في البدن، حتى إن أمراً واحداً إذا قيس إلى أبدان مختلفة العادات؛ كان مختلف النسبة إليها، وإن كانت تلك الأبدان متفقة في الوجوه الأخرى.

مثال ذلك: أبدان ثلاثة حارة المزاج في سن الشباب.

أحدها: عود تناول الأشياء الحارة.

والثاني: عود تناول الأشياء الباردة .

والثالث: عود تناول الأشياء المتوسطة .

فإن الأول متى تناول عسلاً؛ لم يضر به.

والثاني: متى تناوله؛ أضرَّ به.

والثالث: يضر به قليلاً.

فالعادة ركن عظيم في حفظ الصحة، ومعالجة الأمراض؛ ولذلك جاء العلاج النبوي بإجراء كل بدن على عادته في استعمال الأغذية والأدوية وغير ذلك.

فصل
في هديه ﷺ في تغذية المريض بألطف ما اعتاده من الأغذية

في «الصحيحين» عن عائشة: أنها كانت إذا مات الميت من أهلها، واجتمع لذلك النساء، ثم تفرقن إلى أهلهن؛ أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت، وصنعت ثريداً، ثم صبت التلبينة عليه، ثم قالت: كلوا منها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن»[١]

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٧)، ومسلم (٢٢١٦).

التلبين: هو الحساء الرقيق الذي هو في قوام اللبن، ومنه اشتق اسمه، قال الهروي: «سميت تلبينة؛ لشبهها باللبن لبياضها ورقتها».

وهذا الغذاء هو النافع للعليل؛ وهو الرقيق النضيح لا الغليظ النّيّء، وإذا شئت أن تعرِف فضل التلبينة، فاعرف فضل ماء الشعير، بل هي أفضل من ماء الشعير لهم؛ فإنها حساء متخذ من دقيق الشعير بنخالته، والفرق بينها وبين ماء الشعير: أنه يُطبخ صحاحاً، والتلبينة تطبخ منه مطحوناً، وهي أنفع منه لخروج خاصية الشعير بالطحن، وقد تقدم أن للعادات تأثيراً في الانتفاع بالأدوية والأغذية، وكانت عادة القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحوناً لا صحاحاً، وهو أكثر تغذية، وأقوى فعلاً، وأعظم جلاءً، وإنما اتخذه أطباء المدن منه صحاحاً؛ ليكون أرق وألطف؛ فلا يثقل على طبيعة المريض، وهذا بحسب طبائع أهل المدن ورخاوتها، وثقل ماء الشعير المطحون عليها .

والمقصود: أن ماء الشعير مطبوخاً صحاحاً ينفذ سريعاً، ويجلو جلاءً ظاهراً، ويغذي غذاءً لطيفاً . وإذا شرب حاراً؛ كان جلاؤه أقوى، ونفوذه أسرع، وإنماؤه للحرارة الغريزية أكثر، وتلميسه لسطوح المعدة أوفق.

وقوله ﷺ فيها: «مجمة لفؤاد المريض» يروى بوجهين:

بفتح الميم والجيم.

وبضم الميم، وكسر الجيم.

والأول: أشهر، ومعناه: أنها مريحة له؛ أي: تريحه وتسكنه من الإجمام، وهو: الراحة .

وقوله: « تذهب ببعض الحزن »؛ هذا – والله أعلم –؛ لأن الغم والحزن يبردان المزاج، ويضعفان الحرارة الغريزية؛ لميل الروح الحامل لها إلى جهة القلب الذي هو منشؤها، وهذا الحساء يقوي الحرارة الغريزية بزيادته في مادتها؛ فتزيل أكثر ما عرض له من الغم والحزن.

وقد يقال – وهو أقرب –: إنها تذهب ببعض الحزن بخاصية فيها من جنس خواص الأغذية المفرحة؛ فإن من الأغذية ما يفرح بالخاصية، والله أعلم .

وقد يقال: إن قوى الحزين تضعف باستيلاء اليبس على أعضائه، وعلى معدته خاصة لتقليل الغذاء، وهذا الحِساء يرطبها، ويقويها، ويغذّيها، ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض، لكن المريض كثيراً ما يجتمع في معدته خلط مراريٍ، أو بلغمي، أو صديدي، وهذا الحساء يجلو ذلك عن المعدة ويسروه، ويحدره، ويميعه، ويعدّل كيفيته، ويكسر سورته، فيريحها ولا سيما لمن عادته الاغتذاء بخبز الشعير، وهي عادة أهل المدينة إذ ذاك، وكان هو غالب قوتهم، وكانت الحنطة عزيزة عندهم . والله أعلم[1].

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٣٠٢–٣٠٣): « وبما أن الحساء والتلبينة سهلا الهضم لطيفا التغذية؛ ولذا وصف رسول الله ﷺ كلاً منهما بما معناه: أنه يريح المعدة، ويقوي هضمها، ويزيل يأسها، ويخفف من آثار الحزن. ولا شك أن الحساء إذا صنع من غير دسم أو بقليل من الدسم كان أخف تغذية وأسهل هضماً. وإذا قدّم هو أو التلبينة للحزين، فيحسن أن يكون زهيد الملح؛ لأن الحزن من الانفعالات الرافعة للضغط الدموي، وزيادة ملح الطعام يساعد على زيادة ارتفاع الضغط. كما إن الطعام الثقيل في ظروف الانفعال قد يعرض لعسرة الهضم أو لألم لدى المصابين بالقرحة الهضمية أو بالتهاب لمعدة المزمن أو بفرط تنبه العصب الحائر.

حساء الشعير في الطب الحديث:

كان الشعير غالب غذاء أهل المدينة والحجاز، وكانت الحنطة عزيزة عندهم؛ ولذا كان الحساء والتلبينة يتخذان من دقيق الشعير، ولذا قال الكحال ابن طرخان: «وإذا شئت أن تحصي فوائد التلبينة فأحص منافع ماء الشعير»، ونقل عنه ذلك ابن القيم في «الطب النبوي»، ثم قال: «وإنما اتخذ أطباء المدن ماء الشعير من صحاحه؛ ليكون أرق وألطف، فلا يثقل على طبيعة المرض».

=

فصل
في هديه ﷺ في علاج السمّ
الذي أصابه بخيبر من اليهود

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: أن امرأة يهودية أهدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية بخيبر، فقال: «ما هذا؟» قالت: هدية. وحذرت أن تقول: من الصدقة؛ فلا يأكل منها. فأكل منها النبي ﷺ، وأكل الصحابة. ثم قال: «أمسكوا». ثم قال للمرأة: «هل سممت هذه الشاة؟»، قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «هذا العظم- لساقها وهو في يده-»،قالت: نعم، قال: «لِمَ؟»

قالت: أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم النبي ﷺ ثلاثة على الكاهل، وأمر أصحابه أن يحتجموا، فاحتجموا. فمات بعضهم[1].

= أما الطب الحديث؛ فإنه يصف حساء الشعير في الحميات وكغذاء لطيف سهل الهضم. ولقد ورد ذكر ماء الشعير في كتاب (فن التمريض) للأستاذ الدكتور مرشد الخاطر، فذكر صنعه كما يلي: «يؤخذ (٥٠غ) من جريش الشعير ويغسل جيداً بالماء ويضاف إليه لتر ونصف اللتر من الماء البارد، ويسخن رويداً حتى الغليان، ويثابر على ذلك ساعة ونصف الساعة في وعاء مغلق حتى يعود الماء لتراً واحداً، ويملح أو لا يملح، ويجوز أن يحلى بالسكر، ويعطر بعصير الليمون؛ ليعود حسن الطعم».

وفي علم الأدوية للأستاذ الدكتور عزة مريدن أفاد في «أبحاث الأغذية وخصائصها الدوائية»: «يستعمل مهروس الشعير بعد نزع قشوره مطبوخاً بالحليب أو الماء للمسعورين والأطفال».

إن حساء الشعير أو التلبينة من الأغذية اللطيفة، يتغذى بها الحزين أو المتوعك أو المصاب بالحمى أو بقلة الشهية أو بعسر الهضم مالم يحدد الطبيب غيرها من الحميات».

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٨١٤) بإسناد رجاله ثقات؛ لكنه مرسل، وأصله في صحيح البخاري (٣١٦٩و٤٢٤٩و٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

معالجة السم تكون بالاستفراغات وبالأدوية التي تعارض فعل السم وتبطله: إما بكيفياتها، وإما بخواصها.

فمن عدم الدواء؛ فليبادر إلى الاستفراغ الكلي[١]، وأنفعه الحجامة؛ لا سيما إذا كان البلد حاراً، والزمان حاراً؛ فإن القوة السمّية تسري إلى الدم، فتنبعث في العروق والمجاري حتى تصل إلى القلب، فيكون الهلاك. فالدم هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم ، وأخرج الدم؛ خرجت تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضره السم، بل إما إن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة، فتبطل فعله أو تضعفه.

ولما احتجم النبي ﷺ: احتجم في الكاهل[٢]، وهو: أقرب المواضع التي تمكن فيها الحجامة إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجاً كلياً؛ بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله - سبحانه- من تكميل مراتب الفضل كلها له.

---

(١) التسمم الغذائي أو بالسموم أهم أعراضه: القيء المتكرر. وأهم طرق علاجه: هو غسيل المعدة من المادة السمية، ومن السهل القيام بذلك: بتناول كميات كبيرة من الماء الدافىء المذاب به بعض ملح الطعام واستفراغه ثانياً، وهذه العملية تتكرر عدة مرات حتى يعود الماء كما هو، وبذلك تكون المعدة أصبحت خالية من المادة السمية، ويعطى بعد ذلك مسهلاً؛ لإخراج ما تسرب من المادة السمية من الشرج. (ع).

(٢) ثبت احتجام النبي ﷺ في الكاهل من عدة أحاديث صحيحة منها:

١- حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-: **«أن النبي ﷺ احتجم ثلاثاً في الأخدعين والكاهل»**.

٢- حديث ابن عباس- رضي الله عنها- : **«أن النبي ﷺ احتجم على الأخدعين وبين الكتفين...»**.

٣-حديث أبي كبشة الأنماري- رضي الله عنه-: **أن رسول الله ﷺ** كان يحتجم على كاهله وبين كتفيه، ويقول: **«من أهرق من هذه الدماء؛ فلا يضره أن يتداوى بشيء لشيء»**.

فلما أراد الله إكرامه بالشهادة؛ ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن في السم؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر سر قوله -تعالى- لأعدائه من اليهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة:٨٧]؛ فجاء بلفظ ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ بالماضي الذي قد وقع منه وتحقق، وجاء بلفظ ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ بالمستقبل الذي يتوقعونه وينتظرونه، والله أعلم(١).

---

(١) قال الإمام ابن مفلح -رحمه الله- في «الآداب الشرعية» (٣/ ٨١-٨٢) متعقباً الإمام ابن قيم الجوزية: «...كذا قال. وقال أبو البقاء وغيره: إنما قال ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ ؛ لتوافق رؤوس الآي. وقال المهدوي وغيره: ليدلك على أن ذلك من شأنهم أبداً، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]؛ والمراد: من القتل؛ فلا يرد كونه أوذي، أو أن الأذى كان قبل نزول الآية. ذكر ابن الجوزي وغيره هذين الجوابين.

وهذه الآية توافق قوله -عليه الصلاة والسلام- لليهودية: **«ما كان الله ليسلطك على ذلك- أو علي-»** كذا قالت اليهودية واليهود: إن كنت نبياً لم يضرك، وعلى هذا فيكون ما روي من وجود الألم وانقطاع الأبهر من السم مرسلاً أو منقطعاً ، أو يقال: أنه خلاف الأشهر، فالقول بالأشهر المتفق على صحته أولى مع موافقته للكتاب العزيز.

وصاحب القول الآخر يقول: هذه مرتبة كمال قد صحت بها الرواية ولا مانع من القول بها، والمراد بالعصمة من القتل بالآية والخبر على وجه القهر والغلبة والتسليط، وهذا لم يقع، وأن المراد بذلك: أنه -عليه الصلاة والسلام- محفوظ آمن مما لم يحفظ منه غيره ولم يأمن؛ ولهذا في «الصحيحين» من حديث جابر: أنه لما نام وجاء أعرابي فاخترط سيفه، فاستيقظ -عليه السلام- والسيف في يد الأعرابي، فقال: تخافني؟ فقال: «لا» ، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: **«الله»**(أ).

ولهذا مات بعض من أكل معه من الشاة، وقصدت اليهودية أنه لم يكن نبياً أنه يموت، وعاش هو -عليه الصلاة والسلام- سنين على حاله قبل الأكل يتصرف كما كان، فلم تقتله اليهودية بفعلتها كما قتلت غيره، وأحسن الله -سبحانه- صنيعه إليه ﷺ على جاري عادته -تعالى-، فأظهر أثراً بعد سنين إكراماً له بالشهادة، ولا تعارض بين الأدلة في ذلك، والتوفيق بينهما أولى، والله أعلم».

(أ) أخرجه البخاري (٤١٣٩)، ومسلم (٢١٨٩).

فصل
في هديه ﷺ في علاج السِّحر الذي سحرته اليهُود به

قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا : لا يجوز هذا عليه، وظنوه نقصاً وعيباً، وليس الأمر كما زعموا؛ بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسُّم لا فرق بينهما[١].

وقد ثبت في« الصحيحين» عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: سُحِرَ رسول الله ﷺ حتَّى إن كان ليخَّيل إليه أنَّه يأتي نساءه، ولم يأتهنّ، وذلك أشدّ ما يكون من السحر[٢] .

قال القاضي عياض : « والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ؛ كأنواع الأمراض مما لا ينكر، ولا يقدح في نبوته، وأما كونه يُخَّيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله؛ فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنّما هذا فيما يجوز طروّه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها، ولا فُضِّل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أنه يُخيَّلَ إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان» .

والمقصود: ذكر هديه في علاج هذا المرض، وقد روي عنه فيه نوعان:

---

(١) وقد بسطت الرد على هذه الطائفة الزائغة في كتابي: « الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد في الأحكام والعقائد» (ص١٩٤-٢٠٩).

وانظر - غير مأمور- ما كتبه علامة اليمن الأخ الكبير الشيخ مقبل بن هادي الوادعي- رحمه الله تعالى- ، ورفع درجته في الصالحين في كتابه: « ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر».

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٦٥)، ومسلم (٢١٨٩).

أحدهما - وهو أبلغهما -:استخراجه وإبطاله؛ كما صح عنه ﷺ: أنه سأل ربه -سبحانه- في ذلك؛ فدل عليه، فاستخرجه من بئر، فكان في مشط ومشاطة[1]، وجف[2] طلعة ذكر ، فلما استخرجه، ذهب ما بـه، حتـى كأنما أنشط من عقال[3]، فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبـوب، وهـذا بمنزلـة إزالـة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ .

والنوع الثاني : الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السِّـحر؛ فـإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشـويش مزاجـها، فـإذا ظـهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو؛ نفع جداً .

وقد أشكل هذا على من قلّ علمه، وقال: ما للحجامة والسحر؟ وما الرابطة بين هذا الداء وهذا الدواء؟ ولو وجد هـذا القـائل أبقـراط، أو ابـن سينا، أو غيرهما قد نص على هذا العلاج؛ لتلقاه بالقبول والتسليم!! وقال: قد نصَّ عليه من لا يشك في معرفته وفضله .

فاعلم أن مادة السحر الذي أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحـدى قواه التي فيه، بحيث كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، وهذا تصرف من الساحر في الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلـك المـادة علـى البطـن المقدم منه، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية.

والسحر: هو مركب مـن تأثـيرات الأرواح الخبيثـة، وانفعـال القُـوى الطبيعية عنها، وهو أشدَّ ما يكون من السحر، ولا سـيما في الموضـع الـذي انتهى السِحرُ إليه، واستعمالُ الحجامـة علـى ذلـك المكـان الـذي تضـررت أفعالُه بالسحر مِن أنفع المعالجة إذا استُعْمِلَتْ على القانُونِ الذي ينبغي .

---

(١) المشاطة: هي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه.

(٢) الجف: وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكـر والأنثى؛ ولذا قيده في الحديث بقوله:« طلعة ذكر» .

(٣) هو تمام حديث عائشة- رضي الله عنها- المتقدم.

قال أبقراط: « الأشياء التي ينبغي أن تستفرغ يجب أن تستفرغ من المواضع التي هي إليها أميل بالأشياء التي تصلح لاستفراغها».

وقالت طائفة من الناس: إن رسول الله ﷺ لما أصيب بهذا الداء، وكان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله: ظن أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها، مالت إلى جهة الدماغ، وغلبت على البطن المقدم منه، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له. وكان استعمال الحجامة- إذ ذاك- من أبلغ الأدوية، وأنفع المعالجة؛ فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه: أن ذلك من السحر. فلما جاءه الوحي من الله -تعالى-، وأخبره أنه قد سحر؛ عدل إلى العلاج الحقيقي وهو استخراج السحر وإبطاله، فسأل الله -سبحانه-؛ فدله على مكانه، فاستخرجه. فقام كأنما نشط من عقال، وكان غاية هذا السحر فيه إنما هو في جسده وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه. ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيل إليه من إتيان النساء، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض، والله أعلم .

فصل

ومن أنفع علاجات السحر: الأدوية الإلهية، بل هي أدويته النافعة بالذات؛ فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار والآيات والدعوات التي تبطل فعلها وتأثيرها. وكلما كانت أقوى وأشد: كانت أبلغ في النشرة[1]، وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحد منهما عدته وسلاحه، فأيهما غلب الآخر؛ قهره، وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره- وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه

(١) نوع من العلاج بالرقى؛ يعالج به من كان به مس من الشيطان.

لسانه- كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه .

وعند السحرة: أن سحِرهم إنما يتمُّ تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة، والنفوس الشهوانية التي هِي معلقة بالسُّفليات؛ ولهذا فإن غالب ما يؤثر في النساء، والصبيان، والجهال، وأهل البوادي، ومن ضعف حظه من الدين والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذُّات النبوية .

وبالجملة: فسلطان تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة التي يكون ميلها إلى السُّفليات.

قالوا : والمسحور هو الذي يعين على نفسه، فإنا نجد قلبه متعلقاً بشيء كثير الالتفات إليه؛ فيتسلط على قلبه بما فيه: من الميل والالتفات. والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدَّة لتسلُّطها عليها؛ بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، وبفراغها من القوة الإلهية، وعدم أخذها للعدة التي تحاربها بها؛ فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يناسبها؛ فتتسلط عليها، ويتمكَّن تأثيرها فيها بالسحر وغيره، والله أعلم .

فصل
في هديه ﷺ في الاستفراغ بالقيء

عن أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قاء؛ فتوضَّأ، فلقيت ثوبان في مسجد دمشق، فذكرت له ذلك، فقال: صدق، أنا صببت له وضوءه[1] .

قال الترمذي: وهذا أصح شيء في الباب .

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٧)، وأحمد (٦/ ٤٤٣)، والحاكم (١/ ٤٢٦) وغيرهم، وصححه شيخنا العلامة الألباني- رحمه الله- في « إرواء الغليل» (١/ ١٤٧/ ١١١).

القيء: أحد الاستفراغات الخمسة التي هي أصول الاستفراغ، وهي الإسهال، والقيء، وإخراج الدم، وخروج الأبخرة والعرق، وقد جاءت بها السنة .

فأما الإسهال: فقد مرَّ في حديث «خير ما تداويتم به المشيُّ[١] »، وفي حديث «السنا»[٢].

وأما إخراج الدم: فقد تقدم في أحاديث الحجامة[٣] .

وأما استفراغ الأبخرة: فنذكره عقيب هذا الفصل -إن شاء الله-[٤] .

وأما الاستفراغ بالعرق، فلا يكون غالبا بالقصد بل بدفع الطبيعة له إلى ظاهر الجسد، فيصادف المسام مفتحة، فيخرج منها .

والقيء[٥] : استفراغ من أعلى المعدة والحقنة من أسفلها، والدواء من أعلاها وأسفلها.

والقيء: نوعان:

نوع بالغلبة والهيجان.

ونوع بالاستدعاء والطلب .

فأما الأول: فلا يسوغ حبسه ودفعه إلا إذا أفرط وخيف منه التلف، فيقطع بالأشياء التي تمسكه.

وأما الثاني: فأنفعه عند الحاجة إذا روعي زمانه وشروطه التي تذكر.

وأسباب القيء عشرة:

---

(١) مضى (ص ٩٥).

(٢) مضى (ص ١٢٨).

(٣) مضى (ص ٩٣).

(٤) (ص ١٩٦).

(٥) القيء: هو استخراج محتويات المعدة؛ وهي صفة طبيعية للجسم السليم عندوجود أحد الأسباب المرضية التي ذكرت في هذا الباب. (ع).

أحدها: غلبة المرة الصفراء، وطفوها على رأس المعدة، فتطلب الصعود.

الثاني: من غلبة بلغم لزج قد تحرك في المعدة، واحتاج إلى الخروج.

الثالث: أن يكون من ضعف المعدة في ذاتها، فلا تهضم الطعام؛ فتقذفه إلى جهة فوق.

الرابع: أن يخالطها خلط رديء ينصب إليها، فيسيء هضمها، ويضعف فعلها.

الخامس: أن يكون من زيادة المأكول أو المشروب على القدر الذي تحتمله المعدة، فتعجز عن إمساكه؛ فتطلب دفعه وقذفه.

السادس: أن يكون من عدم موافقة المأكول والمشروب لها، وكراهتها له؛ فتطلب دفعه وقذفه.

السابع: أن يحصل فيها ما يثور الطعام بكيفيته وطبيعته، فتقذف به.

الثامن: القرف، وهو موجب غثيان النفس وتهوعها.

التاسع: من الأعراض النفسيانية؛ كالهم الشديد، والغم، والحزن، وغبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به، واهتمامها بوروده عن تدبير البدن، وإصلاح الغذاء، وإنضاجه، وهضمه، فتقذفه المعدة، وقد يكون لأجل تحرك الأخلاط عند تخبط النفس؛ فإن كل واحد من النفس والبدن ينفعل عن صاحبه، ويؤثر في كيفيته.

العاشر: نقل الطبيعة بأن يرى من يتقيأ، فيغلبه هو القيء من غير استدعاء؛ فإن الطبيعة نقالة.

وأخبرني بعض حذاق الأطباء، قال: كان لي ابن أخت حذق في الكحل، فجلس كحالاً، فكان إذا فتح عين الرجل، ورأى الرمد وكحله: رمد هو. وتكرر ذلك منه، فترك الجلوس . قلت له: فما سبب ذلك ؟ قال: نقل الطبيعة؛ فإنها نقالة.

قال: وأعرف آخر كان رأى خراجاً في موضع من جسم رجل يحكه، فحك هو ذلك الموضع، فخرجت فيه خراجة .

قلت: وكل هذا لا بد فيه من استعداد الطبيعة، وتكون المادة ساكنة فيها غير متحركة، فتتحرك لسبب من هذه الأسباب، فهذه أسباب لتحرك المادة لا أنها هي الموجبة لهذا العارض.

فصل

ولما كانت الأخلاط في البلاد الحارة والأزمنة الحارة ترق وتنجذب إلى فوق: كان القيء فيها أنفع. ولما كانت في الأزمنة الباردة والبلاد الباردة تغلظ، ويصعب جذبها إلى فوق؛ كان استفراغها بالإسهال أنفع.

وإزالة الأخلاط ودفعها تكون بالجذب والاستفراغ، والجذب يكون من أبعد الطرق، والاستفراغ من أقربها.

والفرق بينهما: أن المادة إذا كانت عاملة في الانصباب أو الترقي لم تستقر بعد، فهي محتاجة إلى الجذب. فإن كانت متصاعدة؛ جذبت من أسفل، وإن كانت منصبة؛ جذبت من فوق، وأما إذا استقرت في موضعها؛ استفرغت من أقرب الطرق إليها.

فمتى أضرت المادة بالأعضاء العليا: اجتذبت من أسفل، ومتى أضرت بالأعضاء السفلى: اجتذبت من فوق، ومتى استقرت: استفرغت من أقرب مكان إليها.

ولهذا احتجم النبي ﷺ على كاهله تارة، وفي رأسه أخرى، وعلى ظهر قدمه تارة، فكان يستفرغ مادة الدم المؤذي من أقرب مكان إليه. والله أعلم.

فصل

والقيء ينقي المعدة ويقويها، ويحد البصر، ويزيل ثقل الرأس، وينفع قروح الكلى، والمثانة، والأمراض المزمنة؛ كالجذام، والاستسقاء، والفالج، والرعشة، وينفع اليرقان .

وينبغي أن يستعمله الصحيح في الشهر مرتين متواليتين، من غير حفظ دور، ليتدارك الثاني ما قصر عنه الأول، وينقي الفضلات التي انصبت بسببه، والإكثار منه يضر المعدة، ويجعلها قابلة للفضول، ويضر بالأسنان والبصر والسمع، وربما صدع عرقاً، ويجب أن يجتنبه من به ورم في الحلق، أو ضعف في الصدر، أو دقيق الرقبة، أو مستعد لنفث الدم، أو عسر الإجابة له.

وأما ما يفعله كثير ممن يسيء التدبير، وهو أن يمتلئ من الطعام، ثم يقذفه، ففيه آفات عديدة منها :

أنه يعجل الهرم.

ويوقع في أمراض رديئة.

ويجعل القيء له عادة .

والقيء مع اليبوسة، وضعف الأحشاء، وهزال المراق [١]، أو ضعف المستقيء خطر .

وأحمد أوقاته الصيف والربيع دون الشتاء والخريف، وينبغي عند القيء أن يعصب العينين، ويقمط البطن، ويغسل الوجه بماء بارد عند الفراغ، وأن يشرب عقيبه شراب التفاح مع يسير من مصطكى [٢]، وماء الورد ينفعه نفعاً بيناً .

والقيء يستفرغ من أعلى المعدة، ويجذب من أسفل، والإسهال بالعكس، قال أبقراط: وينبغي أن يكون الاستفراغ في الصيف من فوق أكثر من الاستفراغ بالدواء، وفي الشتاء من أسفل.

---

(١) ما لان من البطن

(٢) هو العلك الرومي، ويراد به عند الإطلاق: الصمغ، ويستخرج من شجر له ثمر يميل طعمه إلى المرارة.

فصل
في هديه ﷺ في الإرشاد إلى معالجة أحذق الطبيبين

ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق؛ فإنه إلى الإصابة أقرب .

وهكذا يجب على المستفتي أن يستعين على ما نزل به بالأعلم فالأعلم؛ لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه .

وكذلك من خفيت عليه القبلة؛ فإنه يقلد أعلم من يجده، وعلى هذا فطر الله عباده، كما أن المسافر في البر والبحر إنما سكون نفسه وطمأنينته إلى أحذق الدليلين وأخبرهما، وله يقصد، وعليه يعتمد؛ فقد اتفقت على هذا الشريعة والفطرة والعقل .

وقوله ﷺ: «أنزل الدواء الذي أنزل الداء[1]»، قد جاء مثله عنه في أحاديث كثيرة؛ فمنها:

حديث أبي هريرة -يرفعه-: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»[2].

واختلف في معنى «أنزل الداء والدواء»:

فقالت طائفة: إنزاله إعلام العباد به، وليس بشيء؛ فإن النبي ﷺ أخبر بعموم الإنزال لكل داء ودوائه، وأكثر الخلق لا يعلمون ذلك؛ ولهذا قال: «علمه من علمه وجهله من جهله».

---

(١) ذكر المصنف- رحمه الله- في هذا الفصل حديثا ضعيفا؛ لكن هذا الجزء صح معناه من حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٦٧٨)، وحديث جابر عند مسلم (٢٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).

وقالت طائفة: إنزالهما : خلقهما ووضعهما في الأرض؛ كما في الحديث الآخر:« إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء»، وهذا وإن كان أقربَ من الذي قبله؛ فلفظة الإنزال أخصُّ من لفظة الخلق والوضع، فلا ينبغي إسقاط خصوصية اللفظة بلا موجب .

وقالت طائفة: إنزالهما بواسطة الملائكة الموكلين بمباشرة الخلق من داء ودواء وغير ذلك؛ فإن الملائكة موكَّلة بأمر هذا العالم، وأمر النوع الإنساني من حين سقوطه في رحم أمه إلى حين موته، فإنزال الداء والدواء مع الملائكة، وهذا أقرب من الوجهين قبله .

وقالت طائفة: إن عامة الأدواء والأدوية هي بواسطة إنزال الغيث من السماء الذي تتولد به الأغذية، والأقوات، والأدوية، والأدواء، وآلات ذلك كله، وأسبابه ومكملاته، وما كان منها مِن المعادن العلوية، فهي تنزل مِن الجبال، وما كان منها من الأودية والأنهار والثمار؛ فداخل في اللفظ على طريق التغليب والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنهما، وهو معروف من لغة العرب، بل وغيرها من الأمم؛ كقول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً

حتى غدت همالة عيناها[1]

وقول الآخر:

ورأيت زوجك قد غدا

متقلداً سيفاً ورمحاً[2]

---

(١) هو لذي الرمة؛ كما في «المقتضب» (٤/ ٢٢٣)، و «الخصائص» (٢/ ٤٣١)، و«آمالي المرتضى» (٢/ ٢٥٩)، و «أمالي الشجري» (٢/ ٣٢١)، و«الانصاف» (ص٦١٣)، « وشرح المفصل» (٢/ ٨)، و«خزانة الأدب» (١/ ٤٩٩).

(٢) هو لعبد الله بن الزبعري؛ كمافي «الكامل» (ص١٨٩و٢٠٩)، «والمقتضب» (٢/ ٥١)، و«أمالي الشجري» (٢/ ٣٢١).

وقول الآخر:

إذا مـــــا الغانيـــــات بـــــرزن يومـــــاً

وزججـــــن الحواجـــــب والعيونـــــا[١]

وهذا أحسنُ مما قبله من الوجوه، والله أعلم .

وهذا من تمام حكمة الربِّ -عز وجـل-، وتمـام ربوبيتـه؛ فإنـه كمـا ابتلى عباده بالأدواء؛ أعانهم عليها بما يسره لهم من الأدوية، وكمـا ابتلاهـم بالذنوب؛ أعانهم عليها بالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وكمـا ابتلاهم بالأرواح الخبيثة مـن الشـياطين؛ أعانـهم عليـها بجنـد مـن الأرواح الطيبة؛ وهم: الملائكة، وكما ابتلاهم بالشهوات؛ أعانـــهم علـى قضائـها بمـا يسره لهم شرعاً وقدراً من المشتهيات اللذيذة النافعة؛ فما ابتلاهم -سُبحانه- بشيء إلا أعطاهم ما يستعينُون به على ذلك البـلاء، ويدفعُونـه بـه، ويبقـى التفاوتُ بينهم في العلم بذلك، والعلم بطريق حصوله والتوصل إليه، وبـالله المستعان.

فصل

في هديه ﷺ في تضمين من طبِّ الناس وهو جاهل بالطب

قال رسول الله ﷺ: «من تطبب ولم يعلم منه الطب قبـل ذلـك؛ فـهو ضامن»[٢].

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور:

أمر لغوي.

---

(١) هو للراعي النميري في «ديوانه» (ص١٥٦).

(٢) أخرجـه أبـو داود (٤٥٨٦)، والنسـائي(٨/ ٥٣)، وابـن ماجـه (٣٤٦٦)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٦٣٥).

قلت: وانظر- لزاماً-: «تحفة المودود» (ص٣٢٣-٣٢٤- بتحقيقي).

وأمر فقهي.
وأمر طبي.
فأما اللغوي: فالطِّب -بكسر الطاء- في لغة العرب يقال على معان:
منها: الإصلاح.
يقال: طببته: إذا أصلحته، ويقال: له طب بالأمور؛ أي: لطف وسياسة.
قال الشاعر:

وإذا تغير من تميم أمرها
كنت الطبيب لها برأي ثاقب

ومنها: الحذق.
قال الجوهري : « كل حاذق طبيب عند العرب». قال أبو عبيد: «أصل الطبِّ : الحذق بالأشياء والمهارة بها . يقال للرجل: طب وطبيب: إذا كان كذلك، وإن كان في غيرِ علاج المريض» .
وقال غيره: « رجل طبيب؛ أي: حاذق، سمي طبيباً؛ لحذقه وفطنته».
قال علقمة:

فإنْ تسألوني بالنساء فإنني
خبير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من ودهن نصيب[1]

---

(١) هو علقمة بن عبدة، شاعر جاهلي، عاصر امرأ القيس، والبيتان من قصيدته المفضلية الرائعة التي قالها في مدح الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني، ومطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

وانظر: «ديوانه» (ص١٣١)، و«المفضليات» (ص٢٩٠).

وقال عنترة:

إن تغدفي دوني القناع فإنني ... طب بأخذ الفارس المستلئم[١]

أي: إن ترخي عني قناعك، وتستري وجهك رغبة عني؛ فإني خبير حاذق بأخذ الفارس الذي قد لبس لأمة حربه .

ومنها : العادة.

يقال: ليس ذاكَ بطبي؛ أي: عادتي.

قال فروة بن مسيك[٢]:

فما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

وقال أحمد بن الحسين المتنبي:

وما التيه طبي فيهم غير أنني ... بغيض إلى الجاهل المتعاقل[٣]

ومنها : السِّحر.

يقال: رجل مطبوب؛ أي: مسحور، وفي «الصحيحين» في حديث عائشة: لما سحرت يهود رسول الله ﷺ، وجلس الملكان عند رأسه وعند

---

(١) البيت من معلقته؛ كما في «شرح القصائد السبع الطوال» (ص٣٣٥).

(٢) هو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة المرادي الغطيفي، وفد على النبي ﷺ سنة تسع أو عشر ، وأسلم، ونزل على سعد بن عبادة، وتعلم القرآن، وفرائض الإسلام وشرائعه، وأجازه النبي ﷺ، واستعمله على مراد ومذحج وزبيد، وقاتل أهل الردة بعد وفاة النبي ﷺ، وبقي إلى خلافة عمر- رضي الله عنه-.

وبيته هذا أورده المبرد في «الكامل» (ص٢٩٥).

(٣) ديوانه(٣/ ٢٣٧) بشرح البرقوقي.

رجليه، فقال أحدهما: ما بال الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: من طبه؟ قال: فلان اليهودي[1] .

قال أبو عبيد : « إنما قالوا للمسحور: مطبوب؛ لأنهم كنوا بالطب عن السحر، كما كنوا عن اللديغ، فقالوا : سليم تفاؤلاً بالسلامة، وكما كنوا بالمفازة عن الفلاة المهلكة التي لا ماء فيها، فقالوا : مفازة تفاؤلاً بالفوز من الهلاك» .

ويقال: الطب لنفس الداء .

قال ابن أبي الأسلت:

ألا من مبلغ حسان عني
أسحر كان طيك أم جنون

وأما قول الحماسي:

فإن كنت مطبوباً فلا زلت هكذا
وإن كنت مسحوراً فلا برئ السحر[2]

فإنه أراد بالمطبوب: الذي قد سحر، وأراد بالمسحور: العليل بالمرض.

قال الجوهري: «ويقال للعليل:مسحور»؛ وأنشد البيت.

ومعناه: إن كان هذا الذي قد عراني منك ومن حبك أسأل الله دوامه، ولا أريد زواله، سواء كان سحراً أو مرضاً.

---

(١) تقدم (ص ١٩٠).

(٢) انظر «الحماسة» (٣/ ١٢٦٧) بشرح المرزوقي.

والطب : مثلث الطاء:

فالمفتوح الطاء: هو العالم بالأمور، وكذلك الطبيب يقال له: طب - أيضا- .

والطب : بكسر الطاء: فعل الطبيب، والطب بضم الطاء: اسم موضع؛ قاله ابن السيد، وأنشد:

فقلت هل انهلتم بطب ركابكم

بجائزة الماء التى طاب طينها

وقوله ﷺ: «من تطبب» -ولم يقل: من طب-؛ لأن لفظ التفعل يدل على تكلف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة، وأنه ليس من أهله؛ كتحلم وتشجع وتصبر ونظائرها، وكذلك بنوا تكلف على هذا الوزن، قال الشاعر[1]:

....

وقيس عيلان ومن تقيسا

وأما الأمر الشرعي؛ فإيجاب الضمان على الطبيب الجاهل، فإذا تعاطى علم الطب وعمله، ولم يتقدم له به معرفة؛ فقد هجم بجهله على

---

(١) هذ الرجز للعجاج.

إتلاف الأنفس، وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه، فيكون قد غرر بالعليل؛ فيلزمه الضمان لذلك، وهذا إجماع من أهل العلم[١] .

قال الخطابي : « لا أعلم خلافاً في أن المعالج إذا تعدى، فتلف المريض؛ كان ضامنا، والمتعاطي علماً أو عملاً لا يعرفه متعد، فإذا تولد من فعله التلف؛ ضمن الدية، وسقط عنه القود؛ لأنه لا يستبد بذلك بدون إذن المريض، وجناية المتطبب في قول عامة الفقهاء على عاقلته»[٢] .

قلت : الأقسام خمسة:

أحدها : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها، ولم تجن يده؛ فتولد من فعله- المأذون فيه من جهة الشارع، ومن جهة من يطبه- تلف العضو أو النفس، أو ذهاب صفة؛ فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً؛ فإنها سراية مأذون فيه. وهذا كما إذا ختن الصبي في وقت، وسنه قابل للختان، وأعطى الصنعة حقها، فتلف العضو أو الصبي؛ لم يضمن، وكذلك إذا بط من عاقل أو غيره ما ينبغي بطه في وقته على الوجه الذي ينبغي فتلف به؛ لم يضمن. وهكذا سراية كل مأذون فيه لم يتعد الفاعل في سببها؛ كسراية الحد بالاتفاق، وسراية القصاص عند الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة في إيجابه الضمان بها، وسراية التعزير، وضرب الرجل امرأته، والمعلم الصبي، والمستأجر الدابة، خلافا لأبي حنيفة والشافعي في إيجابهما الضمان في ذلك، واستثنى الشافعي ضرب الدابة .

وقاعدة الباب -إجماعاً ونزاعاً-: أن سراية الجناية مضمونة بالاتفاق، وسراية الواجب مهدرة بالاتفاق، وما بينهما؛ ففيه النزاع:

---

(١) وانظر- غير مأمور- بيان ذلك بتفصيل كتاب المصنف- رحمه الله-: « تحفة المودود بأحكام المولود» (ص٣٢٣-٣٢٦ - بتحقيقي).

(٢) «معالم السنن» (٦/ ٣٧٨-٣٧٩ -حاشية «مختصر سنن أبي داود»)

فأبو حنيفة أوجب ضمانه مطلقاً، وأحمد ومالك أهدرا ضمانه، وفرق الشافعي بين المقدر؛ فأهدر ضمانه، وبين غير المقدر؛ فأوجب ضمانه .

فأبو حنيفة نظر إلى أن الإذن في الفعل إنما وقع مشروطاً بالسلامة، وأحمد ومالك نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمان، والشافعي نظر إلى أن المقدر لا يمكن النقصان منه، فهو بمنزلة النص، وأما غير المقدر؛ كالتعزيرات، والتأديبات؛ فاجتهادية، فإذا تلف بها، ضمن؛ لأنه في مظنة العدوان.

فصل

القسم الثاني: متطبب جاهل باشرت يده من يطبه، فتلف به؛ فهذا إن علم المجني عليه أنه جاهل لا علم له، وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث؛ فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غر العليل، وأوهمه أنه طبيب؛ وليس كذلك.

وإن ظن المريض أنه طبيب، وأذن له في طبه لأجل معرفته؛ ضمن الطبيب ما جنت يده، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به؛ ضمنه، والحديث ظاهر فيه أو صريح.

فصل

القسم الثالث: طبيب حاذق، أذن له، وأعطى الصنعة حقها؛ لكنه أخطأت يده، وتعدت إلى عضو صحيح؛ فأتلفه، مثل: أن سبقت يد الخاتن إلى الكمرة، فهذا يضمن؛ لأنها جناية خطأ، ثم إن كانت الثلث فما زاد؛ فهو على عاقلته، فإن لم تكن عاقلة فهل تكون الدية في ماله، أو في بيت المال؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد . وقيل: إن كان الطبيب ذمياً؛ ففي ماله، وإن كان مسلماً؛ ففيه الروايتان، فإن لم يكن بيت مال، أو تعذر تحميله؛ فهل تسقط الدية، أو تجب في مال الجاني؟ فيه وجهان:أشهرهما: سقوطها.

فصل

القسم الرابع: الطبيب الحاذق الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواء، فأخطأ في اجتهاده، فقتله، فهذا يخرج على روايتين:

إحداهما : أن دية المريض في بيت المال .

والثانية: أنها على عاقلة الطبيب.

وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطأ الإمام والحاكم .

فصل

القسم الخامس: طبيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، فقطع سلعة[1] من رجل أو صبي، أو مجنون بغير إذنه، أو إذن وليه، أو ختن صبياً بغير إذن وليه؛ فتلف. فقال أصحابنا : يضمن؛ لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه.

وإن أذن له البالغ، أو ولي الصبي والمجنون لم يضمن.

ويحتمل أن لا يضمن مطلقاً؛ لأنه محسن، وما على المحسنين من سبيل.

و-أيضاً- فإنه إن كان متعدياً؛ فلا أثر لإذن الولي في إسقاط الضمان؛ وإن لم يكن متعدياً؛ فلا وجه لضمانه.

فإن قلت : هو متعد عند عدم الإذن، غير متعد عند الإذن.

قلت : العدوان وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو؛ فلا أثر للإذن وعدمه فيه، وهذا موضع نظر.

---

(١) السلعة : زيادة تحدث في البدن؛ كالغدة تتحرك إذا حركت.

فصل

والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطب بوصفه وقوله:
وهو الذي يخص: باسم الطبائعي.
وبمروده، وهو: الكحال.
وبمبضعه ومراهمه، وهو: الجرائحي.
وبموساه، وهو: الخاتن.
وبريشته، وهو: الفاصد.
وبمحاجمه ومشرطه، وهو: الحجام.
وبخلعه ووصله ورباطه، وهو: المجبر.
وبمكواته وناره، وهو: الكواء.
وبقربته، وهو: الحاقن.
وسواء كان طبه لحيوان بهيم، أو إنسان؛ فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم، كما تقدم، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصها به كل قوم .

فصل

والطبيب الحاذق هو الذي يراعي في علاجه عشرين أمراً :
أحدها : النظر في نوع المرض: من أي الأمراض هو ؟
الثاني : النظر في سببه: من أي شيء حدث، والعلة الفاعلة التي كانت سبب حدوثه ما هي؟.
الثالث: قوة المريض، وهل هي مقاومة للمرض، أو أضعف منه ؟ فإن كانت مقاومة للمرض، مستظهرة عليه؛ تركها والمرض، ولم يحرك بالدواء ساكناً .
الرابع: مزاج البدن الطبيعي ما هو ؟
الخامس: المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعي .
السادس: سن المريض .

السابع: عادته .

الثامن: الوقت الحاضر من فصول السنة وما يليق به .

التاسع: بلد المريض وتربته .

العاشر: حال الهواء في وقت المرض .

الحادي عشر: النظر في الدواء المضاد لتلك العلة .

الثاني عشر: النظر في قوة الدواء ودرجته، والموازنة بينها وبين قوة المريض .

الثالث عشر: ألا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط، بل إزالتها على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها، فمتى كان إزالتها لا يأمن معها حدوث علة أخرى أصعب منها؛ أبقاها على حالها، وتلطيفها هو الواجب، وهذا كمرض أفواه العروق؛ فإنه متى عولج بقطعه وحبسه خيف حدوث ما هو أصعب منه .

الرابع عشر: أن يعالج بالأسهل فالأسهل، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط؛ فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية[1] بدل الأدوية، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة.

الخامس عشر: أن ينظر في العلة، هل هي مما يمكن علاجها أو لا ؟ فإن لم يمكن علاجها؛ حفظ صناعته وحرمته، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئاً.

وإن أمكن علاجها؛ نظر هل يمكن زوالها أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها؛ نظر هل يمكن تخفيفها وتقليلها أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها،

---

(١) لقد أكد هذا المبدأ الطبي أكابر الأطباء قديماً وحديثاً؛ فهذا أبقراط يقول: «طعامكم دواؤكم، ودواؤكم في طعامكم»، وقال ابن سينا: «أعدل عن الدواء إلى الغذاء». وقد ألف الدكتور صبري القباني كتاباً نافعاً سماه: «الغذاء لا الدواء».

ورأى أن غاية الإمكان إيقافها وقطع زيادتها؛ قصد بالعلاج ذلك، وأعان القوة، وأضعف المادة .

السادس عشر: ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ، بل يقصد إنضاجه، فإذا تم نضجه؛ بادر إلى استفراغه .

السابع عشر: أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان؛ فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما؛ كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك -وإن كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن- نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوي العليل بتفقد قلبه وصلاحه، وتقوية روحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والإحسان والإقبال على الله والدار الآخرة؛ فليس بطبيب، بل متطبب قاصر . ومن أعظم علاجات المرض: فعل الخير والإحسان، والذكر والدعاء، والتضرع والابتهال إلى الله، والتوبة؛ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها في ذلك ونفعه .

الثامن عشر: التلطف بالمريض، والرفق به؛ كالتلطف بالصبي .

التاسع عشر: أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية، والعلاج بالتخييل؛ فإن لحذاق الأطباء في التخييل أموراً عجيبة لا يصل إليها الدواء، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون: - وهو ملاك أمر الطبيب -، أن يجعل علاجه وتدبيره دائراً على ستة أركان:

- حفظ الصحة الموجودة.
- ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان.
- وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان.
- واحتمال أدنى المفسدتين؛ لإزالة أعظمهما.

-وتفويت أدنى المصلحتين؛ لتحصيل أعظمهما، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج، وكل طبيب لا تكون هذه أخيته[1] التي يرجع إليها؛ فليس بطبيب، والله أعلم .

فصل

ولما كان للمرض أربعة أحوال: ابتداء، وصعود، وانتهاء، وانحطاط؛ تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها، ويستعمل في كل حال ما يجب استعماله فيها . فإذا رأى في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها؛ بادر إليه، فإن فاته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض لعائق منع من ذلك، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ، أو لبرودة الفصل، أو لتفريط وقع؛ فينبغي أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك في صعود المرض؛ لأنه إن فعله تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية، ومثاله: أن يجيء إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه، فيشغله عنه بأمر آخر، ولكن الواجب في هذه الحال أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن؛ أخذ في استفراغه، واستئصال أسبابه، فإذا أخذ في الانحطاط، كان أولى بذلك . ومثال هذا:مثال العدو إذا انتهت قوته، وفرغ سلاحه، كان أخذه سهلاً، فإذا ولى وأخذ في الهرب؛ كان أسهل أخذاً، وحدته وشوكته إنما هي في ابتدائه، وحال استفراغه، وسعة قوته، فهكذا الداء والدواء سواء .

فصل

ومن حذق الطبيب: أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل، فلا يعدل إلى الأصعب، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى،إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ،

---

(١) الحرمة والذمة، وهي: عروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض، والمعنى الأول هو المراد والمتعين.

فيجب أن يبتدئ بالأقوى، ولا يقيم في المعالجة على حال واحدة؛ فتألفها الطبيعة، ويقل انفعالها عنه، ولا تجسر على الأدوية القوية في الفصول القوية، وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاج بالغذاء، فلا يعالج بالدواء، وإذا أشكل عليه المرض أحار هو أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له، ولا يجربه بما يخاف عاقبته، ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره.

إذا اجتمعت أمراض، بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال:

إحداها: أن يكون برء الآخر موقوفاً على برئه؛ كالورم والقرحة، فإنه يبدأ بالورم.

الثانية: أن يكون أحدها سبباً للآخر؛ كالسدة[1] والحمى العفنة، فإنه يبدأ بإزالة السبب.

الثالثة: أن يكون أحدهما أهم من الآخر؛ كالحاد والمزمن، فيبدأ بالحاد، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر.

وإذا اجتمع المرض والعرض، بدأ بالمرض؛ إلا أن يكون العرض أقوى؛ كالقولنج[2]، فيسكن الوجع أولاً، ثم يعالج السدة. وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ بالجوع أو الصوم أو النوم، لم يستفرغه، وكل صحة أراد حفظها، حفظها بالمثل أو الشبه. وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها، نقلها بالضد.

---

(١) هي ما يسد وعاء دموياً.

(٢) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح.

فصل
في هديه ﷺ في التحرز من الأدواء المعدية بطبعها وإرشاده الأصحاء إلى مجانبة أهلها

عن جابر بن عبد الله: أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ: «ارجع؛ فقد بايعناك»(١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ أنه قال: « فر من المجذوم؛ كما تفر من الأسد»(٢).

وعن عبد الله بن عباس: أن النبي ﷺ قال: «لا تديموا النظر إلى المجذومين»(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح»(٤).

الجذام: علة رديئة تحدث من انتشار المرة السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها، وربما فسد في آخره اتصالها حتى تتأكل الأعضاء وتسقط، ويسمى: داء الأسد(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣١).

(٢) قال شيخنا في «الصحيحة» (٧٨٣): «أخرجه البخاري معلقاً (١٠/ ١٢٩) ... وقد وصله أبو نعيم من طريق أبي داود الطيالسي وسلم بن قتيبة، كلاهما عن سليم بن حيان شيخ عفان به.

فالسند صحيح، ووصله ابن خزيمة- أيضاً-؛ كما في «الفتح»» ا.هـ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٣)، وأحمد (١/ ٢٣٣) وغيرهم، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٠٦٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).

(٥) هذا المرض سمي: بداء الأسد؛ لإنه يحول وجه المريض بما يجعله يشبه الأسد؛ لكثرة وجود أورام صغيرة وتجعدات في الوجه.

=

وفي هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء:

أحدها: أنها لكثرة ما تعتري الأسد .

والثاني: لأن هذه العلة تُجهِّم وجه صاحبها، وتجعله في سحنة الأسد.

والثالث: أنه يفترس من يقربه، أو يدنو منه بدائه افتراس الأسد.

وهذه العلة -عند الأطباء- من العلل المعدية المتوارثة، ومقارب المجذوم، وصاحب السل؛ يسقم برائحته، فالنبيُّ ﷺ -لكمال شفقته على الأمة، ونصحه لهم- نهاهم عن الأسباب التي تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم، ولا ريب أنه قد يكون في البدن تهيُّؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء، وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال قابلة للاكتساب من أبدان من تجاوره وتخالطه؛ فإنها نقالة، وقد يكون خوفها من ذلك ووهمها من أكبر أسباب إصابة تلك العلة لها، فإن الوهم فعَّال مستول على القوى والطبائع، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح؛ فتُسقمه. وهذا معاين في بعض الأمراض، والرائحة أحد أسباب العدوى، ومع هذا كله؛ فلا بد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء.

وقد ظن طائفة من الناس: أن هذه الأحاديث معارضَة بأحاديث أخر تبطلها وتُناقضها، فمنها :

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة»[1].

ونحن نقول: لا تعارض بحمد الله بين أحاديثه الصحيحة؛ فإذا وقع التعارض:

= وخطورة هذا المرض: في إتلاف الأعصاب المتطرفة، فيفقد المريض حساسية الأطراف أولاً، ثم تتساقط الأصابع تدريجيا، وهو من الأمراض المعدية التي تجيء عدواها من التنفس مع المخالطة الطويلة، ويُعزل -الآن- جميع مرض الجذام في مستعمرات خاصة لهم؛ لمنع انتشار المرض. (ع).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٣)، ومسلم (٢٢٢٠) (١٠٢).

فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ، وقد غلط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة ثبتاً؛ فالثقة يغلط.

أو يكون أحد الحديثين ناسخاً للآخر؛ إذا كان مما يقبل النسخ.

أو يكون التعارض في فهم السامع، لا في نفس كلامه ﷺ.

فلا بد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة .

وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه، ليس أحدهما ناسخاً للآخر؛ فهذا لا يوجد أصلاً. ومعاذ الله أن يوجد في كلام الصادق المصدوق الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحقُّ، والآفة من التقصير في معرفة المنقول، والتمييز بين صحيحه ومعلوله، أو من القصور في فهم مراده ﷺ، وحمل كلامه على غير ما عناه به، أو منهما معاً، ومن ها هنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع، وبالله التوفيق .

قال ابن قتيبة في كتاب «اختلاف الحديث»[١] له -حكاية عن أعداء الحديث وأهله-: «قالوا: حديثان متناقضان: رويتم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة»[٢].

وقيل له: إن النُّقبة[٣] تقع بمشفر[٤] البّعير؛ فتجرب لذلك الإبل، قال: «فما أعدى الأول؟!»[٥] .

---

(١) المسمى: « تأويل مختلف الحديث»، قمت- بعون الله وتوفيقه- بتحقيقه على عدة نسخ خطية نفيسة، وخرجت أحاديثه وآثاره.

والنص فيه (ص٢١٩-٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٦) ، ومسلم (٢٢٢٤) من حديث أنس- رضي الله عنه-.

(٣) أول شيء يظهر من الجرب.

(٤) شفة البعير الغليظة.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٧٠و٥٧٧٥)، ومسلم (٢٢٢٠) (١٠١) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

ثم رويتم: «لا يورد ذو عاهة على مصح»[١].

«وفر من المجذوم فرارك من الأسد»[٢].

وأتاه رجل مجذوم؛ ليبايعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه البيعة، وأمره بالانصراف، ولم يأذن له[٣].

وقال: «الشؤم في المرأة والدار والدابة»[٤]

قالوا : وهذا كله مختلف لا يشبه بعضه بعضاً .

قال أبو محمد: ونحن نقول: إنه ليس في هذا اختلاف، ولكل معنى منها وقت وموضع، فإذا وضع موضعه زال الاختلاف .

والعدوى جنسان:

أحدهما: عدوى الجذام؛ فإن المجذوم تشتدُّ رائحته حتى يُسْقِمَ من أطال مجالسته ومحادثته، وكذلك المرأة تكون تحت المجذوم، فتضاجعه في شعار واحد، فيوصل إليها الأذى، وربما جذمت، وكذلك ولده ينزعون في الكبر إليه، وكذلك من كان به سل ودق[٥] ونقب[٦]. والأطباء تأمر أن لا يجالس المسلول ولا المجذوم، ولا يريدون بذلك معنى العدوى، وإنما يريدون به معنى تغير الرائحة، وأنها قد تُسْقِمُ من أطال اشتمامها، والأطباء أبعد الناس عن الإيمان بيمن وشؤم، وكذلك النُّقبة تكون بالبعير - وهو جرب رطب - فإذا خالط الإبل أو حاكّها، وأوى في مباركها؛ وصل إليها بالماء

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣١) من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٧٢)، ومسلم (٢٢٢٥) من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-.

(٥) حمى معاودة يومياً يتجاوز تعلقها إلى الأعضاء حتى يصير فيها من الرطوبات للحرارة المشتعلة في هذه الحمى؛ كالزيت للسراج وكثيراً ما تفضي إلى الموت والهلاك.

(٦) خرق في الجلد أو جرب.

الذي يسيل منه، وبالنطف نحو ما به، فهذا هو المعنى الذي قال فيه النبي ﷺ:« لا يورد ذو عاهة على مصح» كره أن يخالط المعيوه الصحيح؛ لئلا يناله من نطفه وحكته نحو مما به.

قال: وأما الجنس الآخر من العدوى؛ فهو: الطاعون ينزل ببلد، فيخرج منه خوف العدوى، وقد قال ﷺ: «**إذا وقع ببلد وأنتم به؛ فلا تخرجوا منه، وإذا كان ببلد؛ فلا تدخلوه**»[1] . يريد بقوله: **لا تخرجوا** من البلد إذا كان فيه كأنكم تظنون أن الفرار من قدر الله ينجيكم من الله، ويريد إذا كان ببلد، فلا تدخلوه؛ أي :مقامكم في الموضع الذي لا طاعون فيه أسكن لقلوبكم، وأطيب لعيشكم، ومن ذلك المرأة تعرف بالشؤم أو الدار، فينال الرجل مكروه أو جائحة، فيقول: أعدتني بشؤمها؛ فهذا هو العدوى الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا عدوى».

وقالت فرقة أخرى : بل الأمر باجتناب المجذوم والفرار منه على الاستحباب والاختيار والإرشاد، وأما الأكل معه؛ ففعله لبيان الجواز، وأن هذا ليس بحرام .

وقالت فرقة أخرى : بل الخطاب بهذين الخطابين جزئي لا كلي، فكل واحد خاطبه النبي ﷺ بما يليق بحاله، فبعض الناس يكون قوي الإيمان، قوي التوكل تدفع قوة توكله قوة العدوى؛ كما تدفع قوة الطبيعة قوة العلة فتبطلها، وبعض الناس لا يقوى على ذلك، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ، وكذلك هو ﷺ فعل الحالتين معاً؛ لتقتدي به الأمة فيهما، فيأخذ من قوي من أمته بطريقة التوكل والقوة والثقة بالله، ويأخذ من ضعف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط، وهما طريقان صحيحان.

أحدهما : للمؤمن القوي.

والآخر: للمؤمن الضعيف.

---

(١) تقدم.

فتكون لكل واحد من الطائفتين حجة وقدوة بحسب حالهم وما يناسبهم، وهذا كما أنه ﷺ كوى، وأثنى على تارك الكي، وقرن تركه بالتوكل، وترك الطيرة. ولهذا نظائر كثيرة، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً، من أعطاها حقها، ورزق فقه نفسه فيها؛ أزالت عنه تعارضا كثيرا يظنه بالسنة الصحيحة.

وذهبت فرقة أخرى: إلى أن الأمر بالفرار منه ومجانبته لأمر طبيعي، وهو انتقال الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة إلى الصحيح، وهذا يكون مع تكرير المخالطة والملامسة له، وأما أكله معه مقدارا يسيرا من الزمان لمصلحة راجحة؛ فلا بأس به، ولا تحصل العدوى من مرة واحدة ولحظة واحدة؛ فنهى سدا للذريعة، وحماية للصحة، وخالطه مخالطة ما للحاجة والمصلحة، فلا تعارض بين الأمرين .

وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يكون هذا المجذوم الذي أكل معه به من الجذام أمر يسير لا يعدي مثله، وليس الجذمى كلهم سواء، ولا العدوى حاصلة من جميعهم، بل منهم من لا تضر مخالطته ولا تعدي؛ وهو من أصابه من ذلك شيء يسير، ثم وقف واستمر على حاله، ولم يعد بقية جسمه، فهو أن لا يعدي غيره أولى وأحرى .

وقالت فرقة أخرى : إن الجاهلية كانت تعتقد: أن الأمراض المعدية تعدي بطبعها من غير إضافة إلى الله -سبحانه-؛ فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك، وأكل مع المجذوم؛ ليبين لهم أن الله -سبحانه- هو الذي يمرض ويشفي، ونهى عن القرب منه؛ ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التي جعلها الله مفضية إلى مسبباتها؛ ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله بيان أنها لا تستقل بشيء، بل الرب -سبحانه- إن شاء سلبها قواها؛ فلا تؤثر شيئا، وإن شاء أبقى عليها قواها؛ فأثرت .

وقالت فرقة أخرى : بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ، فينظر في تاريخها، فإن علم المتأخر منها؛ حكم بأنه الناسخ، وإلا؛ توقفنا فيها .

وقالت فرقة أخرى: بل بعضها محفوظ، وبعضها غير محفوظ وتكلمت في حديث «لا عدوى»، وقالت: قد كان أبو هريرة يرويه أولا، ثم شك فيه؛ فتركه، وراجعوه فيه، وقالوا : سمعناك تحدث به؛ فأبى أن يحدث به .

قال أبو سلمة: فلا أدري: أنسي أبو هريرة، أم نسخ أحد الحديثين الآخر ؟

وأما حديث جابر: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم، فأدخلها معه في القصعة؛ فحديث لا يثبت ولا يصح[1]، وغاية ما قال فيه الترمذي : إنه غريب؛ لم يصححه ولم يحسنه . وقد قال شعبة وغيره: اتقوا هذه الغرائب .

قال الترمذي : ويروى هذا من فعل عمر، وهو أثبت، فهذا شأن هذين الحديثين اللذين عورض بهما أحاديث النهي:

أحدهما : رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره. والثاني : لا يصح عن رسول الله ﷺ، والله أعلم.

وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في كتاب «المفتاح»[2] بأطول من هذا، وبالله التوفيق.

فصل
في هديه ﷺ في المنع من التداوي بالمحرمات

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء؛ فتداووا، ولا تداووا بالمحرم»[3].

---

(١) كما فصلته في «عجالة الراغب المتمني» (٤٦٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٦٤-٢٧٣)، وا نظر- لزاماً-: «الصحيحة» (٢/ ٦٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، وهو حسن؛ كما بينته في كتابي «موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ١٧٩).

وذكر البخاري في «صحيحه»[١] عن ابن مسعود : «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم».

وعن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث.[٢]

وعن طارق بن سويد الجعفي: أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر، فنهاه- أو كره أن يصنعها-، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنه ليس بدواء؛ ولكنه داء»[٣].

وأنه ﷺ سئل عن الخمر يجعل في الدواء، فقال: «إنها داء وليست بالدواء»[٤].

وعن طارق بن سويد الحضرمي، قال: قلت: يا رسول الله! إن بأرضنا أعنابا نعتصرها؛ فنشرب منها، قال: «لا»، فراجعته، قلت: إنا نستشفي للمريض، قال: «إن ذلك ليس بشفاء؛ ولكنه داء»[٥].

وفي «سنن النسائي»: أن طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ؛ فنهاه عن قتلها[٦] .

---

(١) (١٠/ ٧٨) معلقاً، ووصله عبد الرزاق (٩/ ٢٥٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٢٣/ ٣٥٤٣) وغيرهما بسند صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال الحافظ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٧٠)، والترمذي (٢٠٤٥)، وابن ماجه (٣٤٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٥و٤٤٦و٤٧٨)، وهو صحيح؛ كما بينته في كتابي «موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٨٧٣)، والترمذي (٢٠٤٧) من حديث طارق بن سويد، وهو صحيح؛ كما قال شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٥٠٠)، وأحمد (٤/ ٣١١)، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٦) أخرجه النسائي (٧/ ٢١٠)، وأحمد (٣/ ٤٥٣)، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في « صحيح الجامع الصغير» (٦٩٧١).

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً:

أما الشرع؛ فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها.

وأما العقل؛ فهو أن الله -سبحانه- إنما حرمه؛ لخبثه، فإنه لم يحرم على هذه الأمة طيباً عقوبة لها؛ كما حرمه على بني إسرائيل بقوله: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٦٠]؛ وإنما حرم على هذه الأمة ما حرم؛ لخبثه، وتحريمه له حمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل؛ فإنه وإن أثر في إزالتها، لكنه يعقب سقماً أعظم منه في القلب بقوة الخبث الذي فيه؛ فيكون المداوى به قد سعى في إزالة سقم البدن بسقم القلب.

و-أيضاً-؛ فإن تحريمه يقتضي تجنبه والبعد عنه بكل طريق، وفي اتخاذه دواء حض على الترغيب فيه وملابسته، وهذا ضد مقصود الشارع.

و-أيضاً-؛ فإنه داء؛ كما نص عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء .

و-أيضاً-؛ فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخبث؛ لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بيناً، فإذا كانت كيفيته خبيثة؛ اكتسبت الطبيعة منه خبثاً، فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته؛ ولهذا حرم الله -سبحانه- على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة؛ لما تكسب النفس من هيئة الخبث وصفته.

و-أيضاً-؛ فإن في إباحة التداوي به، ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة، لا سيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مزيل لأسقامها جالب لشفائها، فهذا أحب شيء إليها، والشارع سد الذريعة إلى تناوله بكل ممكن، ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً و تعارضاً .

و-أيضاً-؛ فإن في هذا الدواء المحرم من الأدواء ما يزيد على ما يُظن فيه من الشِّفاء، ولنفرض[1] الكلام في أمِّ الخبائث التي ما جعل الله لنا فيها شفاءً قطُّ، فإنها شديدة المضرة بالدماغ الذي هو مركز العقل عند الأطباء وكثير من الفقهاء والمتكلمين .

قال أبقراط -في أثناء كلامه في الأمراض الحادة-: « ضرر الخمرة بالرأس شديد؛ لأنه يسرع الارتفاع إليه، ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التي تعلو في البدن، وهو كذلك يضر بالذهن» .

وقال صاحب «الكامل»: «إن خاصية الشّراب الإضرار بالدماغ والعصب».

وأما غيره من الأدوية المحرمة؛فنوعان:

أحدهما : تعافه النفس، ولا تنبعث لمساعدته الطبيعة على دفع المرض به؛ كالسموم، ولحوم الأفاعي وغيرها من المستقذرات، فيبقى كلاً على الطبيعة مثقلاً لها، فيصير حينئذ داء لا دواء .

والثاني : ما لا تعافه النفس؛ كالشراب الذي تستعمله الحوامل مثلاً، فهذا ضرره أكثر من نفعه، والعقل يقضي بتحريم ذلك، فالعقل والفطرة مطابق للشرع في ذلك .

وها هنا سِر لطيف في كون المحرمات لا يستشفى بها؛ فإن شرط الشفاء بالدواء تلّقيه بالقبول، واعتقاد منفعته، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء، فإن النافع هو المبارك، وأنفع الأشياء أبركها، والمبارك من الناس أينما كان هو الذي ينتفع به حيثٍ حلَّ، ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها، وبين حسن ظنه بها، وتلقي طبعه لها بالقبول، بل كلما كان العبد أعظم إيماناً؛ كان أكره لها وأسوأ اعتقاداً فيها، وطبعه أكره شيء لها، فإذا تناولها في هذه الحال؛ كانت داء له

(١) في نسخة: «وليفرض»، وكلاهما صحيح.

لا دواء إلا أن يزول اعتقاد الخبث فيها، وسوء الظن والكراهة لها بالمحبة، وهذا ينافي الإيمان، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء، والله أعلم[١].

فصل
في هديه ﷺ في علاج القمل الذي في الرأس وإزالته

عن كعب بن عجرة، قال: كان بي أذى من رأسي، فحملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى»، وفي رواية: «فأمره أن يحلق رأسه، وأن يطعم فرقاً[٢] بين ستة، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام»[٣].

القمل يتولد في الرأس والبدن من شيئين:

خارج عن البدن وداخل فيه.

فالخارج: الوسخ والدنس المتراكم في سطح الجسد.

والثاني: من خلط رديء عفن تدفعه الطبيعة بين الجلد واللحم، فيتعفَّن بالرُّطوبة الدموية في البشرة بعد خروجها من المسام، فيكون منه القمل[٤]، وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام، وبسبب الأوساخ، وإنما

---

(١) وقد فصّل مضار التداوي بالمحرمات من الناحية الطبية الدكتور محمد علي البار في كتابه النافع: «التداوي بالمحرمات»؛ فانظره غير مأمور.

(٢) الفَرَق: ثلاثة آصع.

(٣) أخرجه البخاري (١٨١٦)، ومسلم (١٢٠١).

(٤) لا يفيد كلام المصنف -رحمه الله- ما ظنه بعض المتعالمين من الغربيين في هذه الأزمنة من القول بنظرية «الخلق التلقائي»، والتي يعبر عنها العوام في بلادنا بقولهم: «دوده من عوده»؛ فهي نظرية باطلة أصلاً ورأساً.

وإنما مراده: الوسط والبيئة التي يعيش فيها القمل، وهي بيئة الأوساخ والرطوبات.

كان في رؤوس الصبيان أكثر؛ لكثرة رطوباتهم وتعاطيهم الأسباب التي تولد القمل، ولذلك حلق النبي ﷺ رؤوس بني جعفر .

ومن أكبر علاجه: حلق الرأس؛ لتنفتح مسام الأبخرة، فتتصاعد الأبخرة الرديئة، فتضعف مادة الخلط.

وينبغي أن يطلى الرأس بعد ذلك بالأدوية التي تقتل القمل، وتمنع تولده .

وحلق الرأس ثلاثة أنواع:

أحدها: نسك وقربة.

والثاني: بدعة وشرك.

والثالث: حاجة ودواء.

فالأول: الحلق في أحد النسكين: الحج أو العمرة .

والثاني: حلق الرأس لغير الله -سبحانه-؛ كما يحلقها المريدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدت لفلان، فإن حلق الرأس خضوع وعبودية وذل، ولهذا كان من تمام الحج؛ حتى إنه عند الشافعي ركن من أركانه لا يتم إلا به، فإنه وضع النواصي بين يدي ربها خضوعاً لعظمته، وتذللاً لعزته، وهو من أبلغ أنواع العبودية، ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه، فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية -الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة- فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رءوسهم لهم؛ كما زينوا لهم السجود لهم، وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله: إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه -سبحانه-، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أرباباً وآلهة من دون الله، قال -تعالى-: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ

أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩و٨٠].

وأشرف العبودية: عبودية الصلاة. وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو: السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضا؛ ركع له؛ كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام؛ فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم، وهم جلوس.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها؛ مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله، وقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد**»، وأنكر على معاذ لما سجد له وقال: «مه»[1].

وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر؛ فقد جوز العبودية لغير الله، وقد صح أنه قيل له: الرجل يلقى أخاه أينحني له؟ قال: «لا»، قيل: أيلتزمه ويقبله؟ قال: «لا»، قيل: أيصافحه؟ قال: «نعم»[2].

و-أيضا- ؛ فالانحناء عند التحية سجود، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ [البقرة:٥٨]؛ أي: منحنين، وإلا؛ فلا يمكن الدخول على الجباه، وصح عنه النهي عن القيام وهو جالس؛ كما تعظم

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن أبي أوفى- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٣/ ٢٠١).

وفي الباب عن معاذ بن جبل وأبي هريرة وعائشة وأنس- رضي الله عنهم-.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٢٨)، وابن ماجه (٣٧٠٢)، وأحمد (٣/ ١٩٨) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله-في «الصحيحة» (١٦٠).

الأعاجم بعضها بعضاً؛ حتى منع من ذلك في الصلاة، وأمرهم إذا صلى جالساً أن يصلوا جلوساً [(١)] وهم أصحاء لا عذر لهم؛ لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس، مع أن قيامهم لله؛ فكيف إذا كان القيام تعظيماً وعبودية لغيره -سبحانه-؟!

والمقصود: أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله -سبحانه-، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق؛ فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة، وحلفت بغيره، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت لغير بيته، وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة؛ كما يعظم الخالق، بل أشد، وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون، وهم الذين يقولون -وهم في النار مع آلهتهم يختصمون-: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء:٩٨]. وهم الذين قال فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وهذا كُلُّه من الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به.

فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس، ولعله أهم مما قصد الكلام فيه، والله الموفق.

(١) أخرجه أبو داود (٦٠٢)، وأحمد (٣/ ٣٠٠) من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٢/ ١٢٢)، وقال: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

فصول

في هديه ﷺ في العلاج بالأدوية الروحانية الإلهية المفردة والمركبة منها ومن الأدوية الطبيعية

فصل
في هديه ﷺ في علاج المصاب بالعين

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر؛ لسبقته العين»(١).

وعن أنس: «أن النبي ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق»(٣).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: « كان يؤمر العائن؛ فيتوضأ، ثم يغتسل منه المعين»(٤).

وعن عائشة قالت: « أمرني النبي ﷺ -أو أمر- أن نسترقي من العين»(٥).

وعن عبيد بن رفاعة الزرقي: أن أسماء بنت عميس، قالت: يا رسول الله! إن بني جعفر تصيبهم العين؛ أفأسترقي لهم ؟ فقال: « نعم؛ فلو كان شيء يسبق القضاء؛ لسبقته العين»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٩٦).

والحمة -بالتخفيف-: اسم، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة؛ لأن السم يخرج منها.

والنملة: قروح تخرج في الجنب.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود(٣٨٨٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠)، وأحمد (٦/ ٤٣٨)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٢٥٢).

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبَّأة[١]! قال: فلبط[٢] سهلٌ، فأتى رسول الله ﷺ عامراً، فتغيَّظ عليه، وقال: **«علام يقتل أحدكم أخاه؟! ألا بركت؟ اغتسل له»**؛ فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم صبَّ عليه؛ فراح مع الناس.[٣]

قال الزهري : يؤمر الرجل العائن بقدح، فيدخل كفَّه فيه، فيتمضمض، ثم يمجّه في القدح، ويغسل وجهه في القدح، ثم يدخل يده اليُسرى، فيصبُّ على ركبته اليمنى في القدح، ثم يدخل يده اليمنى، فيصبُّ على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره، ولا يوضع القدح في الأرض، ثم يصبُّ على رأس الرجل الذي تصيبه العين من خلفه صبة واحدة.

والعين: عينان:

عين إنسية.

وعين جنية.

فقد صح عن أم سلمة: أن النبي ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سفعة، فقال: **«استرقوا لها؛ فإن بها النظرة[٤]»**[٥]

---

(١) المخدرة من الجواري التي لم تتزوج بعد.

(٢) سقوط على الأرض من قيام.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٠٩)، وأحمد (٣/ ٤٨٦-٤٨٧)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٣٩)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٤/ ٢٨٢/ ٤٤٨٧-« هداية الرواة»).

(٤) لون مخالف للون الوجه.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧).

قال الحسين بن مسعود الفراء[١]: وقوله: «سفعة»؛ أي: نظرة؛ يعني: من الجن، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجن، [وقيل: عيون الجن][٢] أنفذ من أسنة الرماح».

وعن جابر- يرفعه-: «إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر»[٣].

وعن أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان، ومن عين الإنسان»[٤].

فأبطلت طائفة -ممن قل نصيبهم من السمع والعقل- أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة له، وهؤلاء من أجهل الناس بالسّمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً، وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها، وأفعالها وتأثيراتها.

وعقلاء الأمم -على اختلاف مللهم ونحلهم- لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سبب وجهة تأثير العين.

فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيَّفت نفسه بالكيفية الرديئة؛ انبعث من عينه قوَّة سمِّيَّة تتصل بالمعين؛ فيتضرر .

قالوا: ولا يستنكر هذا، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمِّيَّة من الأفعى تتصل بالإنسان، فيهلك. وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي: أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك، فكذلك العائن.

---

(١) هو البغوي، مصنف« شرح السنة»، والنص فيه (١٢/ ١٦٣).

(٢) زيادة من «شرح السنة».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٤٤) بسند حسن ؛ كما قال شيخنا- رحمه الله-في «الصحيحة» (١٢٤٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، وابن ماجه (٣٥١١)، والنسائي (٨/ ٢٧١)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٤/ ٢٨٢/ ٤٤٨٨- «هداية الرواة»).

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية، فتتصل بالمعين، وتتخلل مسام جسمه؛ فيحصل له الضرر.

وقالت فرقة أخرى: قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه، من غير أن يكون منه قوة، ولا سبب، ولا تأثير أصلا.

وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين .

ولا ريب أن الله -سبحانه- خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام؛ فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة: إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه؛ ويصفر صفرة شديدة: عند نظر من يخافه إليه. وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه. وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها؛ وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح. والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها، وكيفياتها وخواصها. فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا، ولهذا أمر الله -سبحانه- رسوله أن يستعيذ به من شره.

وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود، فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى، فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثر في طمس البصر؛

كما قال النبيُّ ﷺ في الأبـتر وذي الطُّفيتـين مِـن الحيـات: «إنـهما يلتمسـان البصر، ويسقطان الحبل»(١).

ومنها: ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية، من غـير اتصـال بـه؛ لشدة خُبْث تلك النفس وكيفيتها الخبيثة المؤثرة.

والتأثير غير موقوف على الاتصـالات الجسـمية؛ كمـا يظنُّـه مـن قـلَّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة؛ بل التأثـير يكـون تـارة بالاتصـال، وتـارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعيـة والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل.

ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية؛ بـل قـد يكـون أعمـى، فيُوصف له الشيء؛ فتؤثِّر نفسه فيه، وإن لم يره. وكثير من العـائنين يؤثـر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقـد قـال -تعـالى- لنبيـه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝ ﴾ [القلـم:٥١] .وقـال: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق:١-٥]؛ فكل عائن حاسدٌ، وليس كلُّ حاسـد عائناً، فلما كان الحاسد أعمَّ من العائن؛ كانت الاسـتعاذة منـه اسـتعاذةً مـن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) من حديث ابن عمـر- رضـي الله عنهما-.

والطفيتان: هما الخطان الأبيضان على ظهر الحية.

والأبتر: قصير الذنب.

وقوله: يلتمسان البصر: قال الخطابي: «تأويلان:

أحدهما: معناه يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه بخاصيـة جعلـها الله -تعالى- في بصريهما إذا وقع على بصر الإنسان.

والثاني: أنهما يقصدان البصر باللسع والنهش.

والأول أصح وأشهر».

العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة؛ فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه: أثَّرت فيه، ولا بُد، وإن صادفته حَذِراً شاكيَ السِّلاح لا منفذ فيه للسهام؛ لم تُؤثر فيه، وربما رُدَّت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء: فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح .

وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمِّها بنظره إلى المعين، وقد يَعينُ الرجل نفسه، وقد يَعينُ بغير إرادته؛ بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكونُ من النوع الإنساني، وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء: «إن من عرف بذلك؛ حبسه الإمام، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت».

وهذا هو الصواب قطعاً.

فصل

المقصود: العلاج النبوي لهذه العلة، وهو أنواع:

فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوِّذتين، وفاتحة الكتاب، وآية الكرسي. ومنها: التعوذات النبوية:

نحو: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[1].

ونحو: «**أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كلِ عينٍ لامة**»[2].

ونحو: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج**

---

(١) سيأتي (ص ٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٩) من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما-.

فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»[١].

ومنها : «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[٢].

ومنها : أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه، وبكلماته التامَّات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبَرأ، ومن شر كلِّ ذي شر لا أطيق شرَّه، ومن شر كلِّ ذي شر أنت آخذ بناصيته، إنّ ربي على صراط مستقيم.

وإن شاء قال: تحصنت بالله الذي لا إله إلا هو، إلهي وإله كل شيء، واعتصمت بربي وربِّ كلِّ شيء، وتوكلت على الحي الذي لا يموت، واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الربُّ من العباد، حسبي الخالق من المخلوق، حسبي الرازق من المرزوق، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله مرمى، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو ربُّ العرش العظيم.

ومن جرَّب هذه الدعوات والعوذ: عرف مقدار منفعتها، وشدة الحاجة إليها، وهي تمنع وصول أثر العائن، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوة نفسه، واستعداده، وقوة توكله وثبات قلبه؛ فإنها سلاح، والسلاح بضاربه.

---

(١) إسناده حسن؛ كما بينته في كتابي «عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٢/ ٧٢٧-٧٢٩/ ٦٣٩).

(٢) اسناده حسن؛ كما بينته في كتابي «عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٢/ ٨٥٥/ ٧٤٤).

فصل

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين؛ فليدفع شرَّها بقوله: اللهمَّ بارك عليه؛ كما قال النبي ﷺ لِعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: « ألا برَّكت»[1]؛ أي: قلت: اللهمَّ بارك عليه.

ومما يدفع به إصابة العين قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

روى هشام بن عروة عن أبيه: أنه كان إذا رأى شيئاً يعجبه، أو دخل حائطاً من حيطانه؛ قال: ما شاء الله، لا قوَّة إلا بالله .

ومنها: رقية جبريل –عليه السَّلام– للنبيِّ ﷺ: «**باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفسٍ أو عينٍ حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك**»[2].

ورأى جماعة من السلف أن تكتب له الآيات من القرآن، ثم يشربها[3]. قال مجاهد : لاَ بأس أن يكتب القرآن، ويغسله، ويسقيه المريض.

ومثله عن أبي قلابة .

ويذكر عن ابن عباس : أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسَّر عليها ولادها أثر من القرآن، ثم يغسل وتسقى.

وقال أيوب: رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن، ثم غسله بماء، وسقاه رجلاً كان به وجع.

---

(١) تقدم (ص٢٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٥).

(٣) ولا يصح في ذلك شيء عن خير البرية محمد ﷺ، فلم يفعله ﷺ لنفسه ولا لغيره ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ.

فصل

ومنها : أن يؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره، وفيه قولان :

أحدهما : أنه فرجه .

والثاني : أنه طرف إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن.

ثم يصب على رأس المعين من خلفه بغتة، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء، ولا ينتفع به من أنكره، أو سخر منه، أو شك فيه، أو فعله مجرباً لا يعتقد أن ذلك ينفعه .

وإذا كان في الطبيعة خواص لا تعرف الأطباء عللها ألبتة، بل هي عندهم خارجة عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصية، فما الذي ينكره زنادقتهم وجهلتهم من الخواص الشرعية، هذا مع أن في المعالجة بهذا الاستغسال ما تشهد له العقول الصحيحة، وتقر لمناسبته، فاعلم أن ترياق سم الحية في لحمها، وأن علاج تأثير النفس الغضبية في تسكين غضبها، وإطفاء ناره بوضع يدك عليه، والمسح عليه، وتسكين غضبه، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار، وقد أراد أن يقذفك بها، فصببت عليها الماء، وهي في يده حتى طفئت، ولذلك أمر العائن أن يقول: «اللهم بارك عليه»؛ ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذي هو إحسان إلى المعين، فإن دواء الشيء بضده .

ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد؛ لأنها تطلب النفوذ، فلا تجد أرق من المغابن، وداخلة الإزار، ولا سيما إن كان كناية عن الفرج، فإذا غسلت بالماء؛ بطل تأثيرها وعملها، و-أيضا-؛ فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص .

والمقصود: أن غسلها بالماء يطفئ تلك النارية، ويذهب بتلك السمية .

وفيه أمر آخر، وهو: وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق المواضع وأسرعها تنفيذاً، فيطفئ تلك النارية والسمية بالماء؛ فيشفى المعين، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها؛ خف أثر اللسعة عن الملسوع،

ووجد راحة، فإن أنفسها تمد أذاها بعد لسعها، وتوصله إلى الملسوع . فإذا قتلت خف الألم. وهذا مشاهد، وإن كان من أسبابه فرح الملسوع، واشتفاء نفسه بقتل عدوه، فتقوى الطبيعة على الألم، فتدفعه .

وبالجملة: غسل العائن يذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية.

فإن قيل: فقد ظهرت مناسبة الغسل، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين؟

قيل: هو في غاية المناسبة؛ فإن ذلك الماء ماء طفىء به تلك النارية، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل؛ فكما طفئت به النارية القائمة بالفاعل طفئت به وأبطلت عن المحل المتأثر، بعد ملابسته للمؤثر العائن. والماء الذي يطفأ به الحديد، يدخل في أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء، فهذا الذي طفىء به نارية العائن، لا يستنكر أن يدخل في دواء يناسب هذا الداء .

وبالجملة: فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي؛ كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم، بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطرقية بما لا يدرك الإنسان مقداره، فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابغة، والحجة البالغة.

فصل

ومن علاج ذلك -أيضاً- والاحتراز منه: ستر محاسن من يخاف عليه العين بما يردها عنه.

فصل
في هديه ﷺ في العلاج العام لكل شكوى بالرقية[(١)] الإلهية

عن أبي سعيد الخدري: أن جبريل - عليه السلام - أتى النبيَّ ﷺ فقال: « يا محمد! اشتكيت؟ فقال: نعم»، فقال جبريل -عليه السلام-: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شرِ كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(٢)] .

فإن قيل: فما تقولون في الحديث الذي رواه أبو داود: «لا رقية إلا من عين، أو حمة».

والحمة: ذوات السموم كلها .

فالجواب: أنه ﷺ لم يرد به نفي جواز الرقية في غيرها؛ بل المراد به: لا رقية أولى وأنفع منها في العين والحمة، ويدل عليه سياق الحديث؛ فإن سهل ابن حنيف قال له- لما أصابته العين-: أوَ في الرُّقى خير؟ فقال: «لا رقية إلا في نفس أو حمة»، ويدل عليه سائر أحاديث الرقى العامة والخاصة[(٣)].

ومن حديث أنس، قال:« رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين، والحمة، والنملة»[(٤)].

---

(١) الرقى لها آثار عظيمة وفوائد عجيبة تتضاءل الأفهام وتتقاعد العقول عن الوصول إلى كنهها.

والرقى الإلهية كلام مأثور يستشفى به من كل عارض.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٨٦).

(٣) وانظر -لزاماً- ما حرره الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في «فتح الباري» (١٠/ ٩٦/ ٥٧٣٥).

(٤) تقدم (ص ٢٢٩).

فصل
في هديه ﷺ في رقية اللديغ بالفاتحة

عن أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا : يا أيها الرهط! إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه؛ فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن استضفناكم، فلم تضيفونا؛ فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾؛ فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة[1] ، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى : لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال:«وما يدريك أنها رقية؟». ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً**»[2].

---

(١) أي ما به ألم يقلب لأجله على الفراش.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

أفاد هذا الحديث جواز أخذ الأجرة على الرقية، لكن كثيراً من (المعالجين) أو (الراقين) توسعوا في ذلك توسعاً مذموماً وفساده أضحى معلوماً حيث اتخذوا الرقية رقية لأكل أموال الناس بالباطل.

لقد بات الإنسان يسمع في هذا الباب كثيراً من الغرائب والعجائب:

فهناك من انقطع لهذا العمل.

وآخر دائم التجوال في البلدان في رحلات علاجية.

=

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌ ومنافع مجربة؛ فما الظنُّ بكلام ربِّ العالمين، الذي فضله على كل كلام؛ كفضلِ الله على خلقه؛ الذي هو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنـزل علـى جبل لتصدَّع من عظمته وجلالتـه، قـال -تعـالى-: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا

= وثالث افتتح عيادات بل مشافي لاستقبال المرضى: فتح الملف بكذا....والمقابلة بكـذا...والقـراءة بكـذا...والمراجعـة بكـذا...والجلسـة الخاصـة بكـذا...والجلسـة العامـة بكذا.....إلى آخر سلسة الصيد الخبيث باسم الرقية الشرعية، وبخاصة أن كثيراً من هؤلاء المعالجين يتغنون بالانتصارات الخارقة على ملوك الجن وقادتهم الكبار وهزيمـة جنودهـم ودحر عساكرهم...كل ذلك يجري في حملة دعائية منظمة وحفلة تجارية مفبركة.

وإليك صور من توسعهم الذي يدل على عدم تقواهم وورعهم:

أ- بعضهم يقوم بالقراءة على (برميل) مملوء بـ(الماء) أو (الزيت)، ثـم يحركـه بـ(عصاه)، ثم يوزعه على (مرضاه)؛ بل (ضحاياه).

ب- آخر يقوم بالقراءة على زجاجات المياه المعدنية دون فتحها؛ لأن وقته ضيـق وثمين.

ت- ثـالث يجمـع مرضـاه في سـاحة عامـة، ثـم يقـرأ عليـهم مـرة واحـدة في (الميكروفون)!

ث- ورابع يقرأ على مرضاه بالهاتف العابر للقارات!

د- وأخير يأخذ مرضاه إلى المقابر وفي الليل؛ ليخيف الجن...!!

ومن مفاسدهم الدينية والدنيوية:

أ- صار كثير من الناس يعتقدون أن لهذا القارىء أو الراقـي خصوصيـة وبركـة، ولم تعد ثقتهم بكلام الله، والأصل في الرقية كلام الله وليس الراقي.

ب- توهم كثير من المعالجين؛ لازدحام الناس علـى أبوابـهم أنـهم مـن الأوليـاء الأبرار! وهم -في الحقيقة- من الأغرار، بل بعضهم من الضالين الفجار!!

ت- نتيجة لرواج هذه القضية: قام كثير من المشعوذين والدجالين بـالتخفي وراء الرقية؛ لممارسة الموبقات بكل أشكالها وألوانـها، وارتكـاب الكبـائر بـاختلاف صورهـا، واتخذوها وسيلة لاصطياد النساء، والعياذ بالله.

ولقد سمعت من بعض المعالجين التائبين قصصاً يندى لها الجبين...فالله المستعان.

للتبعيض، هذا أصح القولين؛ كقوله -تعالى-: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح:٢٩]، وكلهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - ومجامعها، و هي: الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب -سبحانه- في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه -سبحانه- بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى منعم عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له .

وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر والشرع، والأسماء والصفات، والمعاد، والنبوات وتزكية النفوس وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل؛ كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدارج السالكين» في شرحها . وحقيق بسورة هذا بعض شأنها: أن يستشفى بها من الأدواء، ويرقى بها اللديغ .

وبالجملة: فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم؛ من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرقية منها: إياك نعبد وإياك نستعين. ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء؛ فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى

الغايات ،وهي عبادة الرَّب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها.

ولقد مَّر بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها: آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع؛ فأنتفع بها غاية الانتفاع[1].

---

(١) قال المصنف - رحمه الله- في « مدارج السالكين» (١/ ٥٧-٥٨) « ...وأما شهادة التجارب بذلك؛ فهي أكثر من أن تذكر. وذلك في كل زمان وقد جرّبت أنا ذلك بنفسي وفي غيري أمور عجيبة، ولا سيما مدة المقام بمكة. فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني.

وذلك أثناء الطواف وغيره. فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم؛ فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مرات عديدة. وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم، فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه؛ فأجد به من النفع والقوة مالم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك. ولكن بحسب قوة الإيمان ، وصحة اليقين. والله المستعان» .

وعلق الشيخ حامد الفقي- رحمه الله- على ذلك فقال: «... وهل ثبت عن رسول الله ﷺ، أو عن خلفائه الراشدين، فعل شيء من ذلك؟ وقد جاعوا يوم الخندق، حتى ربط رسول الله ﷺ الحجر على بطنه، ومرت به صعاب أشد من ذلك»

قلت: فتح باب التجارب في الشرع يؤدي إلى شر مستطير ونشر الشعوذة والدجل ورواج الأوهام.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله- في « اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٣٢٠): «وقد يحكى من الحكايات التي فيها تأثير، مثل: أن رجلاً دعا عندها فاستجيب له، أو نذر لها إن قضى الله حاجته فقضيت حاجته. ونحو ذلك، وبمثل هذه الأمور كانت تعبد الأصنام.

فإن القوم كانوا أحياناً يخاطبون من الأوثان، وربما تقضي حوائجهم إذا قصدوها. ولذلك يجري لهم مثل ما يجري لأهل الأبداد من أهل الهند وغيرهم.

وربما قيست على ما شرع الله تعظيمه من بيته المحجوج والحجر الأسود الذي شرع الله استلامه وتقبيله، كأنه يمينه، والمساجد التي هي بيوته.

=

فصل

وفي تأثير الرُّقى بالفاتحة وغيرها في علاج ذوات السُّموم سِر بديع؛ فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الخبيثة؛ كما تقدم، وسلاحها حُماتها التي تلدَغُ بها، وهي لا تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت: ثار فيها السُّمُّ؛ فتقذفه بآلتها، وقد جعل الله -سبحانه- لكل داء دواء، ولكل شيء ضِداً، ونفس الراقي تفعل في نفس المرقي، فيقع بين نفسيهما فعل وانفعال؛ كما يقع بين الداء والدواء، فتقوى نفس الراقي وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدار تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين؛ يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني والطبيعي. وفي النفث والتّفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء؛ فإن الرقية تخرج من قلب الراقي وفمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس؛ كانت أتمَّ تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصُل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية .

وبالجملة: فنفس الراقي تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيد بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقي أقوى؛ كانت الرقية أتم، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها .

= وإنما عبدت الشمس والقمر بالمقاييس، وبمثل هذه الشبهات حدث الشرك في أهل الأرض».

وقد أشبع شيخ الإسلام هذه المسألة في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٢٤٨-٣٥٦و٣٥٩-٣٦٥)؛ فانظره -لزاماً- تعلم أن باب التجارب في الأمور الشرعية ليس له عين ولا أثر.

وفي النفث سر آخر: فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة؛ ولهذا تفعله السحرة، كما يفعله أهل الإيمان.

قال -تعالى-: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾، وذلك لأن النفس تتكيف بكيفية الغضب والمحاربة، وترسل أنفاسها سهاماً لها، وتمدها بالنفث والتفل الذي معه شيء من الريق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحر تستعين بالنفث استعانة بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدها، وتتكلم بالسحر، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعين بالنفث فأيهما قوي كان الحكم له. ومقابلة الأرواح بعضها لبعض ومحاربتها وآلتها من جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصل في المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن من غلب عليه الحس لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها لاستيلاء سلطان الحس عليه، وبعده من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود: أن الروح إذا كانت قوية وتكيفت بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل؛ قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته، والله أعلم.

فصل
في هديه ﷺ في علاج لدغة العقرب بالرقية

عن عبد الله بن مسعود، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي؛ إذ سجد، فلدغته عقرب في أصبعه، فانصرف رسول الله ﷺ وقال: «لعن الله العقرب؛ ما تدع نبياً ولا غيره»، قال: ثم دعا بإناء فيه ماء وملح؛ فجعل

يضع موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ حتى سكنت[١].

ففي هذا الحديث: العلاج بالدواء المركب من الأمرين: الطبيعي والإلهي.

فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي، وإثبات الأحدية لله؛ المستلزمة نفي كل شركة عنه، وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات كل كمال له مع كون الخلائق تصمد إليه في حوائجها؛ أي: تقصده الخليقة، وتتوجه إليه، علويها وسفليها، ونفي الوالد والولد، والكفء عنه؛ المتضمن لنفي الأصل، والفرع والنظير، والمماثل، ما اختصت به، وصارت تعدل ثلث القرآن، ففي اسمه الصمد: إثبات كل الكمال، وفي نفي الكفء: التنزيه عن الشبيه والمثال، وفي الأحد: نفي كل شريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد.

وفي المعوذتين:الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً؛ فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه، سواء كان في الأجسام أو الأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر انتشرت وعاثت.

والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن.

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن. فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأن عظيم في الاحتراس

(١) انظر:«الصحيحة» (٥٤٨).

والتحصن من الشرور قبل وقوعها؛ ولهذا أوصى النَّبيُّ ﷺ عقبة بن عامر بقراءتهما عقب كل صلاة[١]، وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما»[٢].

وقد ذكر أنه ﷺ سحر، وأن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كلما قرأ آية منهما؛ انحلت عقدة؛ حتى انحلت العقد كلها، وكأنما أنشط من عقال[٣].

وأما العلاج الطبيعي فيه: فإن في الملح نفعا لكثير من السموم، ولا سيما لدغة العقرب.

قال صاحب «القانون»[٤]: «يضمد به مع بزر الكتان للسع العقرب».

وذكره غيره -أيضاً- .

وفي الملح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب وإخراج؛ جمع بين الماء المبرد لنار اللسعة، والملح الذي فيه جذب وإخراج، وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج، والله أعلم.

وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة، فقال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم تضرك»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٢)، وأبو داود (١٥٢٣)، والنسائي (٣/ ٦٨)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥١و٢٥١-٢٥٢و٢٥٣-٢٥٤)، و«الكبرى» (٧٧٨٩و٧٧٩٢و٧٧٩٦و٧٧٩٧و٧٨٠٣)، وأحمد في «المسند» (١٧٢٩٧و١٧٢٩٩) وسنده صحيح.

(٣) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢-١١٣)، وأحمد (٤/ ٣٦٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٢٩-٣٠/ ٣٥٦٩) وغيرهم من حديث زيد بن أرقم.

قلت: وهو صحيح.

(٤) (ص ١٩٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

واعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع؛ لم يقع وقوعاً مضراً- وإن كان مؤذياً- والأدوية الطبيعية إنما تنفع، بعد حصول الداء، فالتُّعوذات والأذكار؛ إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها؛ بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرُّقى والعوذ تستعمل لحفظ الصحة، ولإزالة المرض، أما الأول؛ فكما في «الصحيحين» من حديث عائشة: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يده من جسده»[١].

وكما في «الصحيحين»: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة؛ كفتاه».[٢]

وعن النبي ﷺ: «من نزل منزلاً؛ فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[٣].

وأما الثاني؛ فكما تقدَّم من الرُّقية بالفاتحة، والرقية للعقرب وغيرها مما يأتي.

فصل

في هديه ﷺ في رقية النملة

قد تقدم[٤] من حديث أنس: «أنه ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنَّملة».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٩)، ومسلم(٢١٩٢) - وهذا لفظ البخاري-.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨) من حديث أبي مسعود- رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٤) (ص٢٢٩).

وعن الشفاء بنت عبد الله: دخل عليّ رسول الله ﷺ -وأنا عند حفصة-، فقال: «ألا تعلمين هذه رقية النملة؛ كما علمتيها الكتابة؟»[١].

النملة: قروح تخرج في الجنبين، وهو داء معروف، وسمي نملة؛ لأن صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضُّه.

وأصنافها ثلاثة: قال ابن قتيبة وغيره: «كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته إذا خطَّ[٢] على النملة، شفى صاحبها، ومنه قول الشاعر:

ولا عيب فينا غير عرفٍ لمعشر
كرام وأنّا لا نخطُّ[٣] على النَّمل

وروى الخلال: أن الشِّفاء بنت عبد الله كانت ترقي في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبيِّ ﷺ - وكانت قد بايعته بمكة-؛ قالت: يا رسول الله! إني كنت أرقي في الجاهلية من النملة، وإني أريد أن أعرضها عليك، فعرضت عليه، فقالت: بسم الله ضَلَّت حتى تعود من أفواهها، ولا تضُرُّ أحداً، اللهم اكشف البأس ربَّ الناس، قال: «**ترقي بها على عود سبع مرات، وتقصد مكاناً نظيفاً، وتدلكه على حجر بخل خمر حاذق، وتطليه على النملة**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٧)، وأحمد (٦/ ٣٧٢)، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٧٨).

(٢) أي: خط بريقه على النملة .

(٣) ومعنى البيت: لسنا بمجوس ننكح الأخوات.

وروي: نحط على النمل؛ أي: إنا كرام، ولا نأتي بيوت النمل في الجدب؛ لنحفر على ما جمع؛ لنأكله.

(٤) وهذا لا يصح، وورد حديث في صفة رقية النملة عند الحاكم (٤/ ٥٧) عن عثمان بن سليمان عن أبيه عن أمه الشفاء بنت عبد الله: أنها كانت ترقي برقى الجاهلية، وأنها لما هاجرت إلى النبي ﷺ ؛ قدمت عليه، فقالت: يا رسول الله! إني كنت أرقي برقى الجاهلية، فقد رأيت أن أعرضها عليك؛ فقال: «اعرضيها»، فعرضتها عليه، وكانت منها =

وفي الحديث: دليل على جواز تعليم النساء الكتابة .

فصل
في هديه ﷺ في رقية الحيّة

قد تقدم[١] قوله: «لا رقية إلا في عين، أو حمة».

الحمة: بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها .

ومن حديث عائشة: « رخص رسول الله ﷺ في الرقية من الحيَّة والعقرب»[٢].

لدغ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حية، فقال النبي ﷺ: «هل من راق؟»،فقالوا: يا رسول الله! إن آل حزم كانوا يرقون رقية الحية، فلما نهيت

= رقية النملة، فقال: «ارقي بها، وعلميها حفصة: بسم الله، صلوب، حين يعود من أفواهها، ولا تضر أحداً. اللهم اكشف البأس رب الناس. قال: ترقي بها على عود كركم سبع مرات، وتضعه مكاناً نظيفاً، ثم تدلكه على حجر وتطليه على النورة».

قلت: ضعفه الإمام الذهبي بقوله: سئل ابن معين عن عثمان فلم يعرفه، وقال ابن عدي: مجهول؛ يعني: عثمان بن عمر.

وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٨/ ٢١٣) -عن رقية النملة-: « هي كلام كانت نساء العرب تستعمله، يعلم كل من سمعه أنه لا يضر ولا ينفع، ورقية النملة التي كانت تعرف بينهن أن يقال للعروس: تحتفل وتختضب، وكل شيء يفتعل، غير أن لا تعصي الرجل...»

قلت: وهذا الكلام بتمامه في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ١٢٠) لكن دون سند.

وبالجملة؛ فلا يصح في صفة رقية النملة شيء، وما ورد- على الرغم من ضعفه وسقوطه- فيه كلام غامض وأشياء لا تعقل لا معنى ولا قصَدَاً.

(١) (ص ٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤١)، ومسلم (٢١٩٣).

عن الرُّقى تركوها، فقال: «ادعوا عمارة بن حزم» فدعوه، فعرض عليه رقاه، فقال: «لا بأس بها»؛ فأذن له فيها فرقاه[1].

فصل
في هديه ﷺ في رقية القرحة والجرح

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى الإنسان -أو كانت به قرحة أو جرح-؛ قال بأصبعه هكذا -ووضع سفيان سبابته بالأرض-، ثم رفعها، وقال: «بسم الله تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا»[2].

هذا من العلاج الميسر النافع المركَّب ؛ وهي معالجة لطيفة، يعالج بها القروح والجراحات الطرية؛ لا سيما عند عدم غيرها من الأدوية؛ إذ كانت موجودة بكل أرض، وقد علم أن طبيعة التراب الخالص باردة يابسة مجفِّفة لرطوبات القروح والجراحات التي تمنع الطبيعة من جودة فعلها، وسرعة اندمالها؛ لا سيما في البلاد الحارة، وأصحاب الأمزجة الحارة؛ فإن القروح والجراحات يتبعها في أكثر الأمر سوء مزاج حار، فيجتمع حرارة البلد والمزاج والجراح، وطبيعة التراب الخالص باردة يابسة أشدُّ من برودة جميع الأدوية المفردة الباردة؛ فتقابل برودة التراب حرارة المرض، لا سيما إن كان التراب قد غسل وجفِّف، ويتبعها -أيضاً- كثرة الرطوبات الرديئة، والسيلان، والتراب مجفف لها، مزيل -لشدة يبسه وتجفيفه- للرطوبة الرديئة المانعة من برئها، ويحصل به -مع ذلك- تعديل مزاج العضو العليل، ومتى اعتدل مزاج العضو؛ قويت قواه المدبرة، ودفعت عنه الألم بإذن الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٩) (٦٣) من حديث جابر- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٥)، ومسلم (٢١٩٤).

ومعنى الحديث: أنه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة، ثم يضعها على التراب، فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الجرح، ويقول هذا الكلام لما فيه من بركة ذكر اسم الله، وتفويض الأمر إليه، والتوكل عليه، فينضم أحد العلاجين إلى الآخر، فيقوى التأثير.

هل المراد بقوله: «تربة أرضنا» جميع الأرض أو أرض المدينة خاصة؟ فيه قولان. ولا ريب أن من التربة ما تكون فيه خاصية ينفع بخاصيته من أدواء كثيرة، ويشفي به أسقاماً رديئة .

قال جالينوس : « رأيت بالإسكندرية مطحولين، ومستسقين، كثيراً يستعملون طين مصر، ويطلون به على سوقهم، وأفخاذهم، وسواعدهم، وظهورهم، وأضلاعهم؛ فينتفعون به منفعة بينة .

قال: وعلى هذا النحو فقد ينفع هذا الطلاء للأورام العفنة والمترهلة الرخوة. قال: وإني لأعرف قوما ترهلت أبدانهم كلها من كثرة استفراغ الدم من أسفل، انتفعوا بهذا الطين نفعاً بيناً، وقوماً آخرين شفوا به أوجاعاً مزمنة كانت متمكنة في بعض الأعضاء تمكناً شديداً، فبرأت وذهبت أصلاً».

وقال صاحب الكتاب المسيحي: «قوة الطين المجلوب من كنوس - وهي جزيرة المصطكى - قوة تجلو وتغسل، وتنبت اللحم في القروح، وتختم القروح» انتهى .

وإذا كان هذا في هذه التربات، فما الظن بأطيب تربة على وجه الأرض وأبركها، وقد خالطت ريق رسول الله ﷺ، وقارنت رقيته باسم ربه، وتفويض الأمر إليه؟! وقد تقدم: أن قوى الرقية وتأثيرها بحسب الراقي، وانفعال المرقي عن رقيته، وهذا أمر لا ينكره طبيب فاضل عاقل مسلم، فإن انتفى أحد الأوصاف؛ فليقل ما شاء.

فصل

في هديه ﷺ في علاج الوجع بالرقية

عن عثمان بن أبي العاص: أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك**

وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[١].

ففي هذا العلاج من ذكر الله، والتفويض إليه، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر الألم ما يذهب به. وتكراره ليكون أنجع وأبلغ؛ كتكرار الدواء لاخراج المادة، وفي السبع خاصية لا توجد في غيرها،وفي «الصحيحين» :أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: « اللهم رب الناس، أذهب الباس، واشف أنت الشافي؛ لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»[٢] .

ففي هذه الرقية توسل إلى الله بكمال ربوبيته، وكمال رحمته بالشفاء، وأنه وحده الشافي، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته.

فصل

في هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها

قال -تعالى-: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥].

وعن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا أجاره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها»**[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٩١٨) (٤) من حديث أم سلمة- رضي الله عنها-.

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه لـه في عاجلتـه وآجلتـه؛ فإنـها تتضمـن أصلـين عظيمـين -إذا تحقـق العبـد بمعرفتـهما تسـلى عـن مصيبته-:

أحدهما : أن العبد وأهله وماله ملك لله -عـز وجـل- حقيقـة، وقـد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه؛ فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

و-أيضاً-؛ فإنه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبـد له متعة معارة في زمن يسير.

و-أيضاً-؛ فإنه ليس هو الذي أوجده عن عدمه؛ حتى يكـون ملكـه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقي عليه وجوده؛ فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي.

و-أيضاً-؛ فإنه متصرف فيه بالأمر تصـرف العبـد المأمور المنـهي، لا تصرف الملاك؛ ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا مـا وافـق أمـر مالكـه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردا -كما خلقه أول مرة- بلا أهـل ولا مـال ولا عشيرة؛ ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كـانت هـذه بدايـة العبـد ومـا خوله ونهايته؛ فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود؟! ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه: أن يعلم علم اليقين أن مـا أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ومن علاجه: أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربه قد أبقى عليه مثلـه، أو أفضل منه، وادخر له -إن صبر ورضي- ما هو أعظـم مـن فـوات تلـك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي .

ومن علاجه: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنه في كل واد بنو سعد، ولينظر يمنة؛ فهل يرى إلا محنة ؟ ثم ليعطف يسـرة؛ فهل يرى إلا حسرة ؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى؛ إمـا بفـوات محبوب، أو حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم أو كظـل زائـل، إن

أضحكت قليلاً؛ أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً؛ ساءت دهراً، وإن متعت قليلاً؛ منعت طويلاً، وما ملأت داراً خيرةً إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور إلا خبأت له يوم شرور.

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: لكل فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً.

وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قطُّ إلا كان من بعده بكاء.

وقالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعزِّ الناس وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقلُّ الناس، وأنه حقٌّ على الله ألاَّ يملأ داراً خيرة إلا ملأها عبرة .

وسألها رجلٌ أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا.

وبكت أختها حُرْقة بنت النعمان يوماً- وهي في عزها- فقيل لها : ما يبكيك؛ لعل أحداً آذاك ؟ قالت: لا؛ ولكن رأيت غضارة[1] في أهلي، وقلما امتلأت دار سروراً إلا امتلأت حزناً .

قال إسحاق بن طلحة : دخلت عليها يوماً، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فبينا نسوس النَّاس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

(١) الغضارة: طيب العيش.

فــأفٍّ لدنيــا لا يــدوم نعيمــها
تقلَّــب تــاراتٍ بنــا وتصــرَّف[١]

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع لا يردها، بل يضاعفها، وهو في الحقيقة من تزايد المرض.

ومن علاجها: أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم- وهو الصلاة، والرحمة، والهداية التي ضمنها الله على الصبر، والاسترجاع- أعظم من المصيبة في الحقيقة .

ومن علاجها: أن يعلم أن الجزع يشمت عدوه، ويسيء صديقه، ويغضب ربه، ويسرُّ شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وإذا صبر واحتسب؛ أقصى[٢] شيطانه، ورده خاسئاً، وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزَّاهم هو قبل أن يعزُّوه؛ فهذا هو الثبات والكمال الأعظم؛ لا لطم الخدود، وشقُّ الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور .

ومن علاجها : أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب - من اللذة والمسرة- أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به، لو بقي عليه. ويكفيه من ذلك بيت الحمد[٣] الذي يبنى له في الجنة؛ على حمده لربه واسترجاعه.

---

(١) انظر:«المؤتلف والمختلف» (ص١٤٥)، و«الحماسة» (ص١٢٠٣- بشرح المرزوقي)، و «خزانة الأدب» (٣/ ١٧٨).

(٢) في نسخة : « أنضى» ، وكلاهما صحيح.

(٣) كما في حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبض ولد المسلم؛ قال الله - عز وجل- للملائكة: قبضتم ولد عبدي؟ قالوا : نعم، قال: فماذا قال؟ قالوا: استرجع وحمد، قال: ابنو له بيتاً في الجنة، وسموه: بيت الحمد».

قلت: وهو حسن لغيره؛ كما بينته في كتابي: «عجالة الراغب المتمني» (٥٨٢).

فلينظر: أي المصيبتين أعظم : مصيبة العاجلة؟ أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد؟ .

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا؛ لوردنا القيامة مفاليس .

ومن **علاجها** : أن يروح قلبه بروح رجاء الخلف من الله؛ فإنه من كل شيء عوض؛ إلا الله؛ فما منه عوض.

كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوض
وما من الله -إن ضيعته- عوض

ومن **علاجها**: أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له، فمن رضي؛ فله الرضى، ومن سخط؛ فله السخط، فحظك منها ما أحدثته لك؛ فاختر خير الحظوظ، أو شرها:

فإن أحدثت له سخطا وكفراً؛ كتب في ديوان الهالكين.

وإن أحدثت له جزعاً وتفريطاً في ترك واجب، أو فعل محرم؛ كتب في ديوان المفرطين.

وإن أحدثت له شكاية، وعدم صبر؛ كتب في ديوان المغبونين.

وإن أحدثت له اعتراضا على الله، وقدحا في حكمته؛ فقد قرع باب الزندقة أو ولجه.

وإن أحدثت له صبراً وثباتا لله؛ كتب في ديوان الصابرين.

وإن أحدثت له الرضى عن الله؛ كتب في ديوان الراضين.

وإن أحدثت له الحمد والشكر؛ كتب في ديوان الشاكرين، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين.

وإن أحدثت له محبة واشتياقاً إلى لقاء ربه؛ كتب في ديوان المحبين المخلصين .

عن محمود بن لبيد يرفعه: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي؛ فله الرضى، ومن سخط؛ فله السخط». زاد أحمد: «ومن جزع؛ فله الجزع»[١].

ومن علاجها: أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته؛ فآخر أمره إلى صبر الاضطرار، وهو غير محمود ولا مثاب.

قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام؛ سلا سلو البهائم.

وفي «الصحيح» مرفوعاً: «الصبر عند الصدمة الأولى»[٢].

وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً؛ وإلا سلوت سلو البهائم».

ومن علاجها: أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب؛ فمن ادعى محبة محبوب، ثم سخط ما يحبه، وأحب ما يسخطه؛ فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمقت إلى محبوبه.

وقال أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاء، أحب أن يرضى به.

وكان عمران بن حصين يقول -في علته-: أحبه إلي؛ أحبه إليه.

وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس - رضي الله عنه-.

ومن علاجها : أن يوازن بين أعظم اللذتين والمتعتين، وأدومهما : لذة تمتعه بما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له، فإن ظهر له الرجحان، فآثر الراجح؛ فليحمد الله على توفيقه، وإن آثر المرجوح من كل وجه؛ فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه .

ومن علاجها: أن يعلم أن الذي ابتلاه بها؛ أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه – سبحانه- لم يرسل إليه البلاء؛ ليهلكه، ولا ليعذبه به، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به؛ ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحاً ببابه، لائذاً بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً قصص الشكوى إليه .

قال الشيخ عبد القادر[1] : يا بني! إن المصيبة ما جاءت؛ لتهلكك، وإنما جاءت؛ لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القدر سبع، والسبع لا يأكل الميتة .

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يسبك به حاصله؛ فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبثًا كله- كما قيل:

---

(١) هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست، الحنبلي مذهبا، الجيلي نسبة إلى جيل: فقد ولد فيها سنة(٤٧١هـ)، وقدم بغداد شاباً، وتفقه على الشيوخ، وسمع الحديث، وقرأ الأدب والشعر، واشتهر ، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس سنة (٥٢٨هـ).

وإليه تنسب الطريقة الصوفية القادرية، وغلا فيه أتباعها؛ فخرجوا عن الاعتدال ونسبوا إليه أقوالاً وأحوالاً غالبها مكذوب عليه، له كتب منها : « الغنية لطالب طريق الحق»، و«الفتح الرباني»، و« فتوح الغيب» ، و«الفيوضات الربانية».

من أبناء التسعين، وتوفي سنة(٥٦١هـ)، ودفن ببغداد.

وجملة القول فيه: ما قاله الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٣٩): «الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه».

وقال الإمام ابن كثير في « البداية والنهاية» (١٢/ ٢٥٢): « وبالجملة؛ كان من سادات المشايخ».

سبكناه ونحسبه لجيناً
فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا؛ فبين يديه الكير الأعظم.

فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين؛ فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل .

ومن علاجها : أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها؛ لأصاب العبد - من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب - ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً. فمن رحمة أرحم الراحمين: أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب؛ تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظاً لصحة عبوديته، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه؛ فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه!! كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه - سبحانه - يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء؛ لطغوا وبغوا وعتوا، والله - سبحانه - إذا أراد بعبد خيراً: سقاه دواء -من الابتلاء والامتحان- على قدر حاله؛ يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه؛ أهله لأشرف مراتب الدنيا؛ وهي عبوديته وأرفع ثواب الآخرة؛ وهو رؤيته وقربه .

ومن علاجها : أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة، يقلبها الله -سبحانه- كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة. ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة؛ خير له من عكس ذلك، فإن خفي

عليك هذا؛ فانظر إلى قول الصادق المصدوق: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[1].

وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال؛ فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول؛ ولم يحتمل مرارة ساعة بحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد؛ فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم؛ فتولد من ذلك إيثار العاجلة، ورفض الآخرة.

وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات؛ فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته: من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر. وما أعد لأهل البطالة والإضاعة: من الخزي والعقاب، والحسرات الدائمة. ثم اختر: أي القسمين أليق بك؟! و﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء:٨٤]، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه، وما هو الأولى به. ولا تستطل هذا العلاج؛ فشدة الحاجة إليه -من الطبيب والعليل- دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس- رضي الله عنه-.
وأخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٨٢٣) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بلفظ: «حجبت».

فصل
في هديه ﷺ في علاج الكرب والهم والغم والحزن

في «الصحيحين» من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات السبع، ورب الأرض، رب العرش الكريم»(١).

وعن أبي بكرة-: أن رسول الله ﷺ قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو؛ فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»(٢).

وعن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك كلمات تقوليهن عند الكرب- أو: في الكرب-؟ الله ربي لا أشرك به شيئاً»(٣).

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: « ما أصاب عبداً هم ولا حزن؛ فقال : اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

وقع في « الأصل» : أبي بكر الصديق، وهو وهم من المصنف - رحمه الله-.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٥/ ٤٢)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٧٥٥).

عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي؛ إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدله مكانه فرحا»[(١)].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال: رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون؛ إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط؛ إلا استجيب له».

وفي رواية: «إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب؛ إلا فرج الله عنه: كلمة أخي يونس»[(٢)].

وفي «المسند»: «أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر؛ فزع إلى الصلاة»[(٣)].

وقد قال -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥].

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ:« عليكم بالجهاد؛ فإنه باب من أبواب الجنة، يدفع الله به عن النفوس الهم والغم»[(٤)].

ويذكر عن ابن عباس، عن النبي ﷺ:« من كثرت همومه وغمومه؛ فليكثر من قول:لا حول ولا قوة إلا بالله».

وثبت في« الصحيحين»:«أنها كنز من كنوز الجنة»[(٥)].

وفي الترمذي: «أنها باب من أبواب الجنة»[(٦)].

---

(١) صحيح؛ كما بينته في كتابي «عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب«عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٣٤١).

(٢) «المصدر السابق» (٣٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٤و٣١٦و٣٢٦و٣٣٠)، والحاكم (٢/ ٧٤)، وابن أبي عاصم في «كتاب الجهاد» (٥-٨) وغيرهم.

قلت:وهو بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٠٩)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى- رضي الله عنه-.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٨١)، وأحمد (٣/ ٤٢٢)، والحاكم (٤/ ٢٩٠) وغيرهم، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٧٤٦).

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعاً من الدواء، فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن؛ فهو داء قد استحكم، وتمكنت أسبابه، ويحتاج إلى استفراغ كلي :

الأول: توحيد الربوبية .

الثاني : توحيد الإلهية .

الثالث: التوحيد العلمي الاعتقادي .

الرابع: تنزيه الرب -تعالى- عن أن يظلم عبده، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك .

الخامس: اعتراف العبد بأنه هو الظالم .

السادس: التوسل إلى الرب -تعالى- بأحب الأشياء؛ وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحي القيوم .

السابع: الاستعانة به وحده .

الثامن: إقرار العبد له بالرجاء .

التاسع: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له: بأن ناصيته في يده؛ يصرفه كيف يشاء، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه .

العاشر: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه؛ كالربيع للحيوان، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره؛ فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه .

الحادي عشر: الاستغفار .

الثاني عشر: التوبة .

الثالث عشر: الجهاد .

الرابع عشر: الصلاة .

الخامس عشر: البراءة من الحول والقوة، وتفويضهما إلى من هما بيده.

فصل
في بيان جهة تأثير هذه الأدوية في هذه الأمراض

خلق الله - سبحانه - ابن آدم وأعضاءه، وجعل لكل عضو منها كمالاً، إذا فقده؛ أحسَّ بالألم، وجعل لملكها -وهو القلب- كمالاً، إذا فقده؛ حضرته أسقامه وآلامه من الهموم والغموم والأحزان .

فإذا فقدت العين ما خلقت له من قوة الإبصار، وفقدت الأذن ما خلقت له من قوة السمع، واللسان ما خلق له من قوة الكلام؛ فقدت كمالها.

والقلب خُلِقَ لمعرفة فاطره ومحبته وتوحيده، والسرور به، والابتهاج بحبه، والرضى عنه، والتوكل عليه، والحب فيه، والبغض فيه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون أحبَّ إليه من كل ما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، وأجلَّ في قلبه من كل ما سواه، ولا نعيمَ له ولا سرور ولا لذَّة؛ بل ولا حياة إلا بذلك.

وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة؛ فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته؛ فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صوب إليه، ورهن مقيم عليه.

ومن أعظم أدوائه: الشرك والذنوب والغفلة، والاستهانة بِمحابِّه ومراضيه، وترك التفويض إليه، وقلة الاعتماد عليه، والركون إلى ما سواه، والسخط بمقدوره، والشكُّ في وعده ووعيده .

وإذا تأملت أمراض القلب؛ وجدت هذه الأمور وأمثالها هي أسبابها، لا سبب لها سواها. فدواؤه الذي لا دواء له سواه؛ ما تضمنته هذه العلاجات النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء؛ فإن المرض يزال بالضد، والصِّحة تحفظ بالمثل. فصحته تحفظ بهذه الأمور النبوية، وأمراضه بأضدادها .

فالتوحيد يفتح للعبد باب الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج. والتوبة استفراغ للأخلاط والموادِّ الفاسدة التي هي سبب أسقامه، وحمية له من التخليط؛ فهي تُغلق عنه باب الشرور، فيُفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد، ويغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار .

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب: «من أراد عافية الجسم؛ فليقلِّلْ من الطعام والشراب، ومن أراد عافية القلب؛ فليترُك الآثام».

وقال ثابت بن قرّة: «راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة الرُّوح في قلة الآثام، وراحةُ اللسان في قلة الكلام».

والذنوب للقلب بمنزلة السُّموم: إن لم تُهلكه؛ أضعفته ولا بُدَّ. وإذا ضعُفت قوته؛ لم يقدر على مقاومة الأمراض.

قال طبيب القلوب عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب
وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب
وخير لنفسك عصيانها

فالهوى أكبر أدوائها، ومخالفته أعظم أدويتها. والنفس في الأصل خلقت جاهلة ظالمة، فهي ـ لجهلها ـ تظن شفاءها في اتباع هواها؛ وإنما فيه تلفها وعطبها، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح. بل يضع الداء موضع الدواء؛ فتعتمده، ويضع الدواء موضع الداء؛ فتجتنبه؛ فيتولَّد من بين إيثارها للداء، واجتنابها للدواء؛ أنواع من الأسقام والعلل التي تعيي الأطباء، ويتعذَّر معها الشفاء .

والمصيبة العظمى: أنها تُرَكِّبُ ذلك على القدر؛ فتُبَرِّئُ نفسها، وتلوم ربها بلسان الحال دائماً، ويقوى اللوم حتى يصرح به اللسان .

وإذا وصل العليل إلى هذه الحال: فلا يطمع في برئه؛ إلا أن تتداركه رحمة من ربه؛ فيحييه حياة جديدة، ويرزقه طريقة حميدة؛ فلهذا كان حديث ابن عباس في دعاء الكرب مشتملاً على توحيد الإلهية والربوبية، ووصف الرب -سبحانه- بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العلوي والسُّفلي والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها.

والرّبوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحبُّ والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له، وسلب كل نقص وتمثيل عنه، وحلمه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه .

فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده؛ فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم. وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسرُّه ويفرحه ويقوي نفسه؛ كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسّي، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى .

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف -التي تضمنَّتها دعاء الكرب- وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخروج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور، وهذه الأمور إنما يصدّق بها من أشرقت فيه أنوارها، وباشر قلبه حقائقها .

وفي تأثيرصفتي الحياة والقيومية- في دفع هذا الداء- مناسبة بديعة؛ فإن صفة الحياة متضمّنة لجميع صفات الكمال، مستلزمة لها، وصفة القيُّومية متضمّنة لجميع صفات الأفعال.

ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؛ هو: اسم الحيّ القيوم، والحياة التامة تضادُّ جميع الأسقام والآلام؛ ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة؛ لم يلحقهم همّ ولا غمّ ولا حزن ولا شيء من الآفات ، ونقصان الحياة يضر بالأفعال، وينافي القيومية؛ فكمال القيومية لكمال الحياة، فالحيُّ: المطلق التام الحياة لا يفوته صفة الكمال ألبتة، والقيوم

لا يتعذر عليه فعل ممكن ألبتة؛ فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة، ويضر بالأفعال .

ونظير هذا؛ توسل النبي ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل: أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ فإن حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله -سبحانه- هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة: فجبريل موكل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو حياة الأبدان والحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها؛ فالتوسل إليه -سبحانه- بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير في حصول المطلوب.

والمقصود: أن لاسم الحي القيوم تأثيرا خاصا في إجابة الدعوات، وكشف الكربات. وفي الحديث: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾»[1]

ومن حديث أنس: أن رجلا دعا، فقال: اللهم؛ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض؛ يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسمه الأعظم: الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٤٦١) من حديث أسماء بنت يزيد- رضي الله عنها- .

قال شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٢/ ٤٣١/ ٢٣١- «هداية الرواة»): « فيه- عندهم جميعا- شهر بن حوشب، وهو سيىء الحفظ...، لكن له شاهد من حديث أبي أمامة مرفوعا مختصرا..، وهو مخرج في «الصحيحة» (٧٤٦)».

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في « مشكاة المصابيح» (٢/ ٤٣٠-٤٣١/ ٢٢٣٠-«هداية الرواة»).

وفي قوله: « اللهم رحمتك أرجو؛ فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت» من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيديه، والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه: أن يتولى إصلاح شأنه، ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده مما له تأثير قوي في دفع هذا الداء. وكذلك قوله: «الله ربي لا أشرك به شيئاً».

وأما حديث ابن مسعود: «اللهم إني عبدك ابن عبدك»؛ ففيه من المعارف الإلهية، وأسرار العبودية؛ ما لا يتسع له كتاب؛ فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء، فلا يملك العبد دونه لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً؛ لأن من ناصيته بيد غيره، فليس إليه شيء من أمره، بل هو عان في قبضته، ذليل تحت سلطان قهره .

وقوله: «ماض في حكمك، عدل في قضاؤك»: متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد:

أحدهما: إثبات القدر، وأن أحكام الرب -تعالى- نافذة في عبده، ماضية فيه؛ لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها .

والثاني: أنه -سبحانه- عدل في هذه الأحكام غير ظالم لعبده؛ بل لا يخرج فيها عن موجب العدل والإحسان؛ فإن الظلم سببه: حاجة الظالم، أو جهله، أو سفهه؛ فيستحيل صدوره ممن هو بكل شيء عليم، ومن هو غني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، ومن هو أحكم الحاكمين، فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حكمته وحمده، كما لم تخرج عن قدرته ومشيئته. فحكمته نافذة حيث نفذت مشيئته وقدرته؛ ولهذا قال نبي الله هود -صلى الله على نبينا وعليه وسلم- وقد خوفه قومه بآلهتهم: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٤-٥٦]؛ أي: مع كونه -سبحانه- آخذاً بنواصي خلقه وتصريفهم كما يشاء؛ فهو على صراط

مستقيم لا يتصرَّف فيهم إلا بالعدل والحكمة والإحسان والرحمة . فقوله: «ماض في حكمك»؛ مطابق لقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾، وقوله: «عدل في قضاؤك»؛ مطابق لقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ ﴾.

ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سّمى بها نفسه، ما علم العباد منها وما لم يعلموا . ومنها : ما استأثره في علم الغيب عنده؛ فلم يطلع عليه ملكاً مقرّباً، ولا نبيّاً مرسلاً، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل، وأحبُّها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب .

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه؛ كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآنُ ربيعُ القلوب، وأن يجعله شفاء همِّه وغمِّه؛ فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله. وأن يجعله لحزنه؛ كالجلاء الذي يجلو الطُّبوع والأصدية وغيرها. فأحرى بهذا العلاج -إذا صدق العليل في استعماله- أن يزيل عنه داءه، ويعقبه شفاءً تاماً، وصحة وعافية، والله الموفق[١] .

وأما دعوة ذي النون: فإنّ فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربِّ -تعالى-، واعتراف العبد بظلمه وذنبه؛ ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمِّ والغمِّ، وأبلغ الوسائل إلى الله - سبحانه - في قضاء الحوائج؛ فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كلِّ نقص وعيب وتمثيل عنه . والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله، واستقالة عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه. فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها : التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف .

---

(١) وانظر- لزاماً- ما ذكره المصنف- رحمه الله- حول حديث الكرب في «الفوائد» (ص٤٤-٥٣و١٤٥-١٤٨- بتحقيقي).

وأما حديث أبي أمامة[1]: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»؛ فقد تضمن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان مزدوجان، فالهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضلع الدين وغلبة الرجال أخوان؛ فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب: فإما أن يكون سببه أمراً ماضياً؛ فيوجب له الحزن، وإن كان أمراً متوقعاً في المستقبل؛ أوجب الهم. وتخلف العبد عن مصالحه وتفويتها عليه: إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجز، أو من عدم الإرادة وهو الكسل. وحبس

---

(١) المراد الحديث الذي فيه قصة أبي أمامة الأنصاري، وهو من مسند أبي سعيد الخدري؛ قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد؛ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: « يا أبا أمامة! مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟»، قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله! قال: « أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته؛ أذهب الله - عز وجل- همك وقضى عنك دينك؟»، قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: « قل : إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني عوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»، قال : ففعلت ذلك؛ فأذهب الله - عز وجل- همي وقضى ديني.

قلت: أخرجه أبو داود (١٥٥٥) بإسناد ضعيف؛ كما قال شيخنا- رحمه الله- في « غاية المرام» (٣٤٧) .

ثم قال: «وإنما صح عن النبي ﷺ من استعاذته: ما أخرجه البخاري (٤/ ١٩٨) وغيره من حديث أنس، قال: كنت أسمعه ﷺ كثيراً أن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال».

قلت: إنما يثبت من حديث أبي سعيد الخدري التعوذ من هذه الأشياء دون تقييد لها في صباح أو مساء، والله أعلم.

ولقد وقع الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله- في أوهام، منها:

الأول: أنه جعل حديث أبي سعيد الخدري من مسند أبي أمامة!

الثاني: أنه أطلق، فقال: أبو أمامة؛ وحينئذ يراد به: «الباهلي».

والذي في الحديث أنصاري.

الثالث: أنه ذكر لفظ حديث أنس، وجعله لفظ حديث قصة أبي أمامة!

خيره ونفعه عن نفسه وعن بني جنسه: إما أن يكون منع نفعه ببدنه؛ فهو الجبن، أو بماله؛ فهو البخل. وقهر الناس له: إما بحق؛ فهو ضلع الدَّين، أو بباطل؛ فهو غلبة الرجال. فقد تضمَّن الحديث الاستعاذة من كل شر.

وأما تأثير الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق؛ فلما اشترك في العلم به أهل الملل وعقلاء كلِّ أمة: أن المعاصي والفساد توجب الهمَّ والغم، والخوف والحزن، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها أوطارهم، وسئمتها نفوسهم؛ ارتكبوها دفعاً لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم؛ كما قال شيخ الفسوق:

وكأس شربت على لذَّة
وأخرى تداويت منها بها[1]

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب؛ فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار .

وأما الصلاة؛ فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجه ولذته؛ أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغالِه عن التعلق بالخلق

---

(١) هو الأعشى: ميمون بن قيس، وهو في ديوانه (ص١٢١).
وقلده أبو نواس: الحسن بن هانيء في قوله:
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء.

وملابستهم ومحاورتهم، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة؛ ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرِّحات، والأغذية التي لا تلائم إلا القلوبَ الصحيحة . وأما القلوب العليلة؛ فهي كالأبدان العليلة لا تناسبها الأغذية الفاضلة .

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنِّورة للقلب، ومبيِّضة للوجه، ومنشِّطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمَّة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن .

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج؛ فيخاطب بصناعة الطب، ويقال له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعاً [1]؛ إذ كانت تشتمل

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٢٣٢-٢٣٦): «الصلاة عبادة ورياضة للنفس والبدن:

تعتبر صلاة المسلم في الدرجة الأولى عبادة روحية بدنية، وهي صلة بين العبد وربه، وسبب في رقيه في مدار الإيمان والإحسان بمقدار حضور قلبه وفكره وخشوعه، وسبب في تمكنه في مكارم الأخلاق وبعده عن الفحشاء والمنكر.

ويجني المصلي إلى جانب تلك الثمرة الروحية التعبدية ثمرات شتى اجتماعية وصحية؛ من طهارة، وعمل عضلي بطيء رتيب، وتربية على النظام والطاعة والائتلاف.

الفوائد البدنية:

إن الالتزام بأداء الصلوات دافع إلى النظافة والطهارة؛ لأن من شروط الصلاة طهارة المصلي من الحدث وطهارة بدنه وثيابه ومكان صلاته من الخبث.

وفي الصلاة عمل عضلي معتدل، والعمل العضلي ينشط العضلات العاملة نفسها، وينشط البدن كله لدعوته العمل في جهازي الدوران والتنفس وتنشيطه التغذية والإفراغ؛ فتستفيد من ذلك جميع أعضاء البدن، أضف إلى ذلك: أن حركات الركوع والسجود والنهوض فيها تزيد في نشاط الدورة الدموية في الدماغ أكثر من مجرد العمل

=

= العضلي كما أنها تنبه الحركات الحوية المعوية مما يساعد على نشاطها ومكافحة الإمساك، وفي القراءة أثناء الصلاة وفي الانتقال من ركن إلى ركن: رياضة مقوية لعضلات التنفس والبطن، كما أنها تزيد في سعة الصدر.

ويستفيد المصلي من حركات الصلاة وفي اتخاذ الأوضاع القويمة أثناء أداء أركان الصلاة والانتقال من ركن إلى ركن، يستفيد فائدة التمرين الرياضي وتقوية العضلات الباسطة للعمود الفقري، وفائدة إصلاح الأوضاع المعيبة من جهة ثانية.

وبناء على ذلك تعتبر الحركات والأوضاع الخاصة في الصلاة من الرياضة الغريزية، يجني ثمرتها المصلي مع أنه يؤدي تلك العبادة بنية تنفيذ أمر الله -تعالى- طلباً لمرضاته وتقرباً إليه. وبما أن الرياضة الغريزية والسويدية تصلح للصغير والكبير والرجال والنساء؛ فقد دمجها الله -تعالى- الحكيم الخبير مع التكبير والدعاء والتسبيح والتحميد في صورة صلاة المسلمين،يؤديها المسلم خمس مرات يومياً موزعة على النهار والليل، ويعتادها من صغره، فتكون رياضة صالحة لعضلات جسمه ومفاصله، ومقومة ومنشطة لبدنه، وأفضل مهذب لروحه ونفسه.

وإذا كان الشاعر (لينغ) السويدي قد نشر الرياضة الغريزية في أوائل القرن التاسع عشر، وإلى وطنه تنسب تلك الرياضة التي انتشرت في أوروبة، ثم في العالم، وتدعى بالرياضة السويدية؛ فإن الإسلام قد سبقه في نشرها وتطبيقها على أتباعه باثني عشر قرناً؛ حيث أدرجها في صلب أكثر فرائضه تكراراً؛ ألا وهي الصلاة.

وإذا كان الجسم بحاجة إلى المزيد من الرياضة الغريزية؛ فإن باب التنفل في الصلوات مفتوح، بل ومستحب في أكثر الأوقات؛ أي: فيما عدا أوقات الكراهة المحدودة التي تذكرها كتب الفقه ويوضحها الفقهاء. قال رسول الله ﷺ: «الصلاة خير موضوع؛ فمن شاء استقل، ومن شاء استكثر»[1].

وللمصلي حسب بنيته ووصايا طبيبه .. أن يمارس السرعة والطاقة في تنفله ضمن حدود الشرع. وأنبه في هذه المناسبة إلى أن السرعة في إجراء الحركات المؤدية إلى الركوع والسجود والنهوض هي غير سرعة زمن أداء الركوع والسجود، بحيث لا يطمئن راكعاً أو ساجداً فيؤديهما كنقر الديك؛ فالسرعة في إجراء الحركة جائزة، أما السرعة المخلة

(أ) حسن لغيره؛ كما قال شيخنا الألباني -رحمه الله- في «ضعيف موارد الظمآن» (١٢/ ١٠).

=

= بالاطمئنان المطلوب؛ فغير جائزة، كما أن تقصير القراءة بحيث لا تخل بالمقدار المفروض جائز، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يصلي بعد استيقاظه ركعتين خفيفتين، وفي عمله تشريع للمسلمين؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- لا يعتريه كسل ولا ينام قلبه، ولكن المرء قد ينهض من نومه وفي بدنه خمول أو نعاس؛ فالوضوء ثم صلاة ركعتين خفيفتين يؤديهما بقراءة قصيرة وحركات انتقال سريعة، إن ذلك مما ينشط الجسم ويدفع النعاس.

إن تخفيف القراءة وعدم الإطالة في أركان الصلاة مستحب للإمام؛ فإن في المقتدين الضعيف والمسن وذا الحاجة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أم أحدكم الناس؛ فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة، وإذا صلى لنفسه؛ فليطول ما شاء»[1]. ومن هذا الحديث نستنتج أن للضعيف وللكبير وذي الحاجة أن يخفف من صلاته طالما من أجله استحب للإمام أن يخفف، ولكن ضمن حدود الشريعة.

هذا؛ وكما تعتبر الصلاة من الوجهة الحركية رياضة غريزية خاصة إذا كانت عديدة الركعات؛ كما في صلاة الظهر والعشاء وقيام رمضان(صلاة التروبح)؛ فإن الصلاة بعد التعب الذهني أو الجسمي تعد وسيلة للراحة وخاصة الراحة الفكرية والنفسية، فصلاة المسلم المتدين وما يسبقها من نظافة ووضوء وما يتخللها من حركات وما يجب فيها من تخلية الذهن عن مشاغله الدنيوية؛ ليتم له الصفاء والحضور والوعي لما يقول في صلاته، وليتسنى له إقامة الصلاة على الوجه الأكمل، فصلاته خير أنواع الراحة الإلزامية. فمن كان له من طبيعة عمله أو دينه هذا التناوب من العمل والراحة؛ كان بعيدا عن الإعياء.

هذا؛ وإن الانتقال من الإجهاد البدني في العمل المهني إلى الصلاة قبل الراحة الكاملة يفيد البدن؛ حيث يكون الوضوء واسطة لإزالة غبار العمل عن الحواس والجوارح، ويكون التدليك فيه والصلاة بعده بما فيها من حركات بطيئة غريزية كتدليك (مساج) عام للعضلات يساعد في نشاط دوران الدم فيها، وفي الجسم لإيصال الغذاء إليها، ونقل الفضلات من الأعضاء العاملة لطرحها بواسطة الأجهزة المختصة.

الفوائد النفسية والاجتماعية:

تعد الطمأنينة النفسية من فوائد الصلاة المؤداة بآدابها الفكرية والنفسية المتقدمة

(أ) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

=

علـى حركـات وأوضـاع مختلفـة: مِـن الانتصـاب، والركــوع، والســجود،

= عليها؛ من استغفار، ورهبة، ورغبة، والمرافقة لها من حضور وتدبر.

وتسـاعد هـذه الطمأنينـة - مـع الالـتزام بتعــاليم الإســلام- في الوقايــة مــن الاضطرابات النفسية التي قد تؤول إلى أمراض نفسية..

إن المصلي في محاولته طرد الخواطر الدنيوية عن ذهنه، وفي محاولته تركـيز انتباهـه إلى تدبر معاني ما يتلو من سور وآيات وتعقلـها وتعقـل موقفـه بـين يـدي الله -تعـالى- واتجاهه إليه بالتكبير والتسبيح والحمد والثناء عليـه -سـبحانه-؛ إنـه بذلـك يبتعـد عـن المشاغل والهموم الدنيوية، وعن الانفعال بما رضه نفسياً في خضم حياته اليومية، فيتقرب بذلك من الطمأنينة النفسية بمقدار ما يتدبر ويعقل ويخشع؛ ولذا «**كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى**»، وكان يقول: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»، ولقد كـانت الصـلاة قـرة عين النبي -عليه الصلاة والسلام-؛ فقد قال: «**حبب إلي مــن دنيـاكم النسـاء والطيـب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، فالصلاة سكن وطمأنينية وراحة نفسية، وقـرة عـين كـل مؤمن بمقدار ما يعقل من صلاته وما يتدبر فيها من آيات وأذكار ودعاء. وبعد أن يحظـى المسلم بالفائدة النفسية للصلاة ويحس بالصلة الروحيـة مـع الله -تبـارك وتعـالى-؛ فإنـه ترق مشاعره، وتتلطف عواطفه، وتسمو نفسه، فيميل إلى التوبة والاستغفار والعزم على ترك الفواحـش والمنكـرات؛ ومنـها إيـذاء النـاس، وعلـى التمسـك بالفضيلـة ومكـارم الأخلاق، وعلى الأمانة والاستقامة كما أمر الله؛ فسلوك المصلي شاهد وكاشف لحقيقـة صلاته. فإن رأيناه بعيداً عـن جـادة الصـواب والتقـوى في أخلاقـه وتعاملـه؛ علمنـا أن صلاته لم تكن صلة قرب مع الله -عز وجل-.

ولفوائد الصلاة التي ذكرتــها فوائـد أخـرى الله أعلـم بـها، قـال -عـز وجـل-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦]. ومن أجل ذلك يدعو الإســلام المريـض إلى أداء الصلاة قائماً أو قاعداً أو مضجعاً حسب اسـتطاعته، فعـن عمـران بـن حصـين -رضي الله عنه- قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عــن الصـلاة، فقـال: «**صـل قائماً، فإن لم تستطع؛ فقاعداً، فإن لم تستطع؛ فعلى جنب**»[1].ا.هـ.

---

(1) أخرجه البخاري (١١١٧).

والتورك، والانتقالات؛ وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة؛ كالمعدة، والأمعاء، وسائر آلات النفس والغذاء، فما ينكر أن يكون في هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد- ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها في الصلاة- فتقوى الطبيعة؛ فيندفع الألم. ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل، والتعوض عنه بالإلحاد؛ داء ليس له دواء إلا نار تلظى ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [الليل:١٤-١٦].

وأما تأثير الجهاد في دفع الهم والغم؛ فأمر معلوم بالوجدان؛ فإن النفس متى تركت صائل الباطل وصولته واستيلاءه؛ اشتد همها وغمها، وكربها وخوفها، فإذا جاهدته لله – تعالى- أبدل الله ذلك الهم والحزن فرحاً ونشاطاً وقوة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة:١٤-١٥] ؛ فلا شيء أذهب لجوى القلب وغمه وهمه وحزنه من الجهاد، والله المستعان.

وأما تأثير « لا حول ولا قوة إلا بالله» في دفع هذا الداء؛ فلما فيها من كمال التفويض، والتبرىء من الحول والقوة إلا به، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي، والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء .

وفي بعض الآثار: « إنه ما ينزل ملك من السماء، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله». ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان، والله المستعان .

فصل
في هديه ﷺ في علاج الفزع والأرق المانع من النوم

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع: «أعوذ بكلمات الله التامة: من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون»[1].

ولا يخفى مناسبة هذه العوذة لعلاج هذا الداء[2].

---

(١) حسن؛ كما بينته في كتابي «عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب«عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٧٥٠).

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ١٦٠): «قد يكون الفزع في النوم نادر الحدوث متسبباً عن منام موحش، وقد يتكرر دالاً على الراحة النفسية؛ إما لشعور بالذنب،أو خوف من عداوة آخرين، أو الإصابة بالقلق النفسي، فعلّم رسول الله ﷺ في هذا المجال دعاء يكسب طمأنينة نفسية بالاستعاذة بالله».

وقال (٣/ ١٦١): «يشاهد الأرق في حالات كثيرة:

منها: ما يرافق الأرق بداية أو سير بعض الأمراض البدنية.

ومنها: ما ينشأ عن انشغال الذهن بمتطلبات الأعمال اليومية وهمومها وانفعالاتها، أو ينشأ عن مخاوف.

ومنها: ما يحدث في الوهن العصبي وفي الشواشات العصبية وبدء العلل العقلية.

إن تحويل الذهن عما يشغل ساحته من التفكير بالمكدرات إلى التفكير بعظمة خالق السماوات والأرض والاستعانة به والاستجارة به من كل شر، إن ذلك يكسب المصاب بالأرق الملتجيء إلى الله اطمئناناً وهدوءاً نفسياً، يساعده على النوم ودفع الأرق».

فصل
في هديه ﷺ في حفظ الصحة

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة؛ فالرطوبة مادته، والحرارة تنضجها، وتدفع فضلاتها، وتصلحها وتلطفها، وإلا؛ أفسدت البدن ولم يمكن قيامه. وكذلك الرطوبة: هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة ؛ لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته، فقوام كلٍّ واحدة منهما بصاحبتها، وقوام البدن بهما جميعاً، وكلٌّ منهما مادة للأخرى، فالحرارة مادة للرطوبة: تحفظها،وتمنعها من الفساد والاستحالة. والرطوبة مادة للحرارة: تغذُوها وتحملها، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى؛ حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائماً تحلّل الرطوبة، فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حلَّلته الحرارة - لضرورة بقائِه - وهو الطعام والشراب. ومتى زاد على مقدار التحلل؛ ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته؛ فاستحالت موادّ رديئة: فعاثت في البدن وأفسدت؛ فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع موادِّها، وقبول الأعضاء واستعدادها.

وهذا كلُّه مستفاد من قوله -تعالى-: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١]، فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلَّل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك؛ كان إسرافاً. وكلاهما مانع من الصحة، جالب للمرض؛ أعني: عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه .

فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين. ولا ريب أن البدن دائماً في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلُّل؛ ضعفت الحرارة لفناء مادتها؛ فإن كثرة التحلل تفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة؛ ضعف الهضم، ولا يزال كذلك حتى تفنى الرطوبة وتنطفئ الحرارة جملة؛ فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه .

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره: حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار. وإنما غاية الطبيب: أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها، ويحمي الحرارة عن مضعفاتها، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السماوات والأرض. وسائر المخلوقات إنما قوامها بالعدل. ومن تأمل هدي النبي ﷺ وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن والهواء، والنوم واليقظة، والحركة والسكون، والمنكح والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة والعافية أو غلبتها إلى انقضاء الأجل .

ولما كانت الصحة والعافية من أجلّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظاً من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضادها.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ**»[1] .

وعن عبيد الله بن محصن الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا**»[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١) وغيرهم، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٣١٨).

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ أنّه قال: «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم؛ أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونروك من الماء البارد؟!»[(١)].

ومن ها هنا، قال من قال من السلف في قوله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر:٨]؛ قال: عن الصحة.

وفي«مسند الإمام أحمد»: أن النبي ﷺ قال للعباس: «يا عباس! يا عم رسول الله! سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[(٢)].

وفيه: عن أبي بكر الصّديق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة؛ فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية»[(٣)].

فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية؛ فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه .

ومن حديث أبي هريرة -يرفعه-: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة؛ فما أوتي أحد بعد يقين خيراً من معافاة»[(٤)] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان(٢٥٨٥)، والحاكم (٤/ ١٣٨)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٥٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٤)، وأحمد (١/ ٢٠٩)، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٥٢٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٧٩-٨٨٥)، وابن حبان (٢٤٢٠-موارد)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في « صحيح سنن ابن ماجه» و«صحيح موارد الظمآن» (٢٠٥٣).

(٤) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٨٦).

وأخرجه ابن حبان(٢٤٢١) عن أبي هريرة ، قال: سمعت أبا بكر- رضي الله عنه- على هذا المنبر يقول: ..فذكره.

وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية: بالعفو، والحاضرة: بالعافية، والمستقبلة: بالمعافاة؛ فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية.

وإذا كان هذا شأن العافية والصحة: فنذكر من هديه ﷺ في مراعاة هذه الأمور، ما يتبين لمن نظر فيه أنه أكمل هدي على الإطلاق؛ ينال به حفظ صحة البدن والقلب، وحياة الدنيا والآخرة. والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فصل

فأما المطعم والمشرب؛ فلم يكن من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى ما سواه؛ فإنَّ ذلك يضر بالطبيعة جداً، وقد يتعذَّر عليها أحياناً، فإن لم يتناول غيره؛ ضعف أو هلك، وإن تناول غيره؛ لم تقبله الطبيعة، واستضَرَّ به، فقصرها على نوع واحد دائماً - ولو أنه أفضل الأغذية - خطر مضر.

بل كان يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله؛ من اللحم، والفاكهة، والخبز، والتمر، وغيره مما ذكرناه في هديه في المأكول؛ فعليك بمراجعته هناك.

وإذا كان في أحد الطعامين كيفية تحتاج إلى كسر وتعديل: كسرها وعدّلها بضدها إن أمكن ؛ كتعديل حرارة الرُّطب بالبطيخ [1]، وإن لم يجد

= وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- بشاهده من حديث أبي بكر في «صحيح موارد الظمآن» (٢٠٥٤).

(١) سيأتي (ص ٣٧٢).

ذلك، تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف؛ فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان إذا عافت نفسه الطعام؛ لم يأكله، ولم يحمِّلها إياه على كره، وهذا أصل عظيم في حفظ الصحة. فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه، ولا يشتهيه؛ كان تضرُّره به أكثر من انتفاعه . قال أبو هريرة : « ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله؛ وإلا تركه، ولم يأكل منه»[1]. ولّما قُدِّمَ إليه الضَّبُّ المشويُّ: لم يأكل منه، فقيل له: أهو حرام ؟ قال: «لا؛ ولكن لم يكن بِأرض قومي؛ فأجِدني أعافه»[2] فراعى عادته وشهوته، فلما لم يكن يعتاد أكله بأرضه، وكانت نفسه لا تشتهيه؛ أمسك عنه، ولم يمنع من أكله من يشتهيه، ومَن عادته أكله .

وكان يحب اللحم، وأحبُّه إليه: الذراع، ومقدّم الشاة؛ ولذلك سُمَّ فيه. وفي «الصحيحين»: «أتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تُعجُبه»[3].

ولا ريب أن أخفَّ لحم الشاة: لحم الرقبة، ولحم الذراع والعضد، وهو أخفُّ على المعدة، وأسرع انهضاماً، وفي هذا مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاثة أوصاف:

أحدها : كثرة نفعها وتأثيرها في القوى .

الثاني : خفتها على المعدة، وعدم ثقلها عليها .

الثالث: سرعة هضمها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٠٩)، ومسلم (٢٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٩١)، ومسلم (١٩٤٦) من حديث خالد بن الوليد- رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه-.

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها، وهذا – أيضاً- من أكبر أسباب حفظ الصحة؛ فإن الله –سبحانه- بحكمته جعل في كل بلدةٍ من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته؛ فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويغني عن كثير من الأدوية، وقلَّ من احتمى عن فاكهة بلده خشية السُّقم؛ إلا وهو مِن أسقم الناس جسماً، وأبعدهم من الصحة والقوة.

وما في تلك الفاكهة من الرطوبات، فحرارة الفصل والأرض، وحرارة المعدة تنضجها، وتدفع شرها؛ إذا لم يسرف في تناولها، ولم يحمِّل منها الطبيعة فوق ما تحتمله، ولم يفسد بها الغذاء قبل هضمه، ولا أفسدها بشرب الماء عليها، وتناول الغذاء بعد التحلي منها. فإن القولنج[1] كثيراً ما يحدث عند ذلك، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ كانت له دواءً نافعاً[2].

---

(١) من أمراض الأمعاء.

(٢) قال الدكتور صبري القباني في «الغذاء لا الدواء» ص٢٣-٢٩): «لا نأتي بجديد إذا قلنا: إن الفواكه غذاء مثالي؛ فهي هاضمة وقابلة للتمثل وحالة ومنعشة ومضادة للتسمم، ومهيأة لكي يفيد منها الجسم مباشرة، من غير حاجة بها إلى التحول إلى مواد أخرى قابلة للهضم؛ كما هو الحال في المواد النشوية مثلاً، فهذه المواد لا بد للجسم من أن يحولها إلى مواد سكرية قبل أن يمتصها ويتمثلها ويفيد منها. أما الفواكه فهي على العكس من ذلك قد هيأ الله الطبيعة، وخاصة أشعة الشمس، لأن تكون طعاماً طبيعياً للإنسان.

ولا بد للآباء الذين يريدون أن يروا أولادهم في صحة جيدة، من أن يجعلوا من الفواكه لوناً أساسياً في وجبات أولادهم؛ فهي أجدى عليهم من السكاكر والشكولاته والمعجنات التجارية التي تسيء كثرتها إلى أولادهم؛ فإن ثمرة واحدة من الفواكه ذات القيمة الغذائية العالية تؤمن لهم من الفائدة والغذاء ما لا يستطيعه أي غذاء يصطنعه الإنسان بيدية وذوقه.

=

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها، وهذا -أيضاً- من أكبر أسباب حفظ الصحة، فإن الله -سبحانه- بحكمته جعل في كل بلدةٍ مِن الفاكهة ما ينتفِعُ به أهلُها في وقتِهِ؛ فيكونُ تناولُه من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويُغني عن كثير من الأدوية، وقلَّ من احتمى عن فاكهة بلده خشية السُّقم؛ إلا وهو مِن أسقم الناس جسماً، وأبعدِهم من الصحة والقوة.

وما في تلك الفاكهة: مِن الرطوبات، فحرارةُ الفصلِ والأرض، وحرارةُ المعدةُ تُنضِجُهَا، وتدفع شرها؛ إذا لم يُسْرِفْ في تناولها، ولم يُحَمِّل منها الطبيعةَ فوق ما تحتمله، ولم يُفسد بها الغذاء قبل هضمه؛ ولا أفسدها بشرب الماء عليها، وتناول الغذاء بعد التحلي منها. فإن القُولَنْج[١] كثيراً ما يحدث عند ذلك، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ كانت له دواءً نافعاً[٢].

---

(١) من أمراض الأمعاء.

(٢) قال الدكتور صبري القباني في «الغذاء لا الدواء» ص٢٣-٢٩): «لا نأتي بجديد إذا قلنا: إن الفواكه غذاء مثالي، فهي هاضمة وقابلة للتمثل وحالة ومنعشة ومضادة للتسمم، ومهيأة لكي يفيد منها الجسم مباشرة، من غير حاجة بها إلى التحول إلى مواد أخرى قابلة للهضم؛ كما هو الحال في المواد النشوية مثلاً، فهذه المواد لا بد للجسم من أن يحولها إلى مواد سكرية قبل أن يمتصها ويتمثلها ويفيد منها. أما الفواكه فهي على العكس من ذلك قد هيأ الله الطبيعة، وخاصة أشعة الشمس، لأن تكون طعاماً طبيعياً للإنسان.

ولا بد للآباء الذين يريدون أن يروا أولادهم في صحة جيدة، من أن يجعلوا من الفواكه لوناً أساسياً في وجبات أولادهم، فهي أجدى عليهم من السكاكر والشكولاته والمعجنات التجارية التي تسيء كثرتها إلى أولادهم، فإن ثمرة واحدة من الفواكه ذات القيمة الغذائية العالية تؤمن لهم من الفائدة والغذاء ما لا يستطيعه أي غذاء يصطنعه الإنسان بيدية وذوقه.

=

= فالفواكه- كأي غذاء طبيعي- هي غذاء ودواء في آن واحد، وضع فيها الخالق كل الإمكانات التي لا تقتصر على التغذية وحدها، وإنما تساعد على شفاء كثير من الأمراض، وعلى الوقاية منها، وإكساب الجسم مناعة ضدها، فكيف- إذن- نرضى بأن نترك الأغذية والأدوية التي منّ بها الله علينا بما أودعه في الفواكه من فوائد، لنقبل على تناول المغذيات الصناعية التي تفقد كثيراً من خواصها الطبيعية ليمكن إعدادها على شكل أدوية ومستحضرات طبية؟

يقول الأستاذ (بارانديل) مدير مخابز (فيتري):

«لقد تمكنت من إعادة القوة إلى شخص منهوك جداً فأوقفته على قدميه بإعطائه مزيجاً من مسحوق اللوز وسكر التين.. وهذا ليس شيئاً عجيباً! فأنا قد عالجت نفسي باللوز والتين حينما كنت مصاباً بالسل، وأنا في الحادية والعشرين من عمري، فقد أدخلني أهلي عنوة إلى مصحة للأمراض الصدرية كنت فيها مثالاً للمريض المشاكس، فقد كنت ألقي فيها كل قطعة لحم تقدم لي إلى كلب في المصحة. ورغم هذا فقد شفيت بطريقتي الخاصة، وليس بطريقة أطباء المصحة».

ويتساءل الدكتور (آلندي) قائلاً:

«متى يكف الأطباء عن قتل مرضاهم المسلولين بما يقدمونه لهم من أطعمة قليلة التغذية؟ فهل جربوا طريقة أخرى غير هذه الطريقة؟!»

وكان الطبيب (آلندي) يقصد بالطريقة الأخرى التغذية بالفواكه.

وفي المصحات الألمانية، نجد اثنتين مشهورتين جداً، وهما مصحتا (إيدن) و(جونفبورن)، اللتان ما زالتا تقبلان مرضاهما منذ ثلاثين سنة. ويروي سجلهما الذهبي مدى ما حققتاه من نجاح، بعبارات الامتنان والشكر التي كتبها نزلاؤهما الذين كتب لهم الشفاء.

إن مصحة (جونفبورن) المذكورة تقبل حتى المرضى الذين يئس أطباؤهم من شفائهم ، وهي تتبع أسلوب العلاج بالفواكه وبعض الأغذية الطبيعية؛ كالخضار والقمح غير المقشور والخبز.. فالمريض يعيش وينام في حرج صنوبري كثيف ملتحفاً أغطية مناسبة، ويتغذى بالجوز المهروس والتفاح والخبز الأسمر، وهناك بعض المرضى الذين يأكلون مقادير من الجوز قد تصل إلى مائة وخمسين جوزة في اليوم الواحد. أما المصابون في قلوبهم أو أكبادهم أو كليهم،فإنهم يشفون بهذه الطريقة خلال مدة =

= لا تتجاوز الشهرين أو الثلاثة، حتى في أشد حالات مرضهم؛ كالتهاب شغاف القلب، والتشمع الكبدي، أو التهاب الكلية الحاد أو المزمن، أو اليرقان.

وتروي سجلات المؤسسة قصصاً رائعة عن مرضى حكم عليهم أطباؤهم بالموت خلال أشهر معدودة، فكان تطبيق العلاج بالفواكه سبباً في شفائهم تماماً، وفي امتداد العمر بهم سنوات طويلة.

ولم يقتصر النجاح الذي حققته هذه الطريقة في العلاج على الأمراض المذكورة فقط، بل تقدمتها إلى أمراض كثيرة أخرى، فالوذمة تزول بسرعة، وبولة الدم تذهب خلال وقت وجيز، والسرطان تضاءلت أخطاره إلى حد بعيد؛ لأن المؤسسة ترى أن: تشويه الأغذية الطبيعية بطرق التحضير العصرية سبب رئيسي من أسباب الإصابة بالسرطان، ولذا فهي لا تعطي مرضاها سوى الأغذية الطبيعية كما هيأتها الطبيعة، كما أنها تمتنع عن إعطاء اللحوم للمرضى امتناعا كلياً؛ لأن اللحوم -في رأيها- تزيد في تطور السرطان، وتعتمد على الجوز والجويدار اعتمادا رئيسياً؛ لأنهما غنيان بالنحاس النباتي، وهو المادة التي توقف تطور السرطان، وفوق هذا لا تستعمل المؤسسة أية مواد دوائية ولا تسمح بدخولها إليها بل ليس بين المشرفين عليها أي طبيب!.

إذن.. فالعلاج بالفواكه يصلح لكل أنواع الأمراض ، وليس هناك أي محذور من تطبيقه بالنسبة لأي مرض كان فقد قيل: إن حرمان الإنسان من الفواكه كحرمان الخراف من الحشائش كلاهما مخالف لشروط الطبيعة، وقد اكتشف الأطباء أن الرضع المعرضين لخطر الموت بسبب الإسهالات الطفلية يمكن شفاؤهم بإعطائهم التفاح الفج المقطع ذلك أن التفاح يحتوي على حوامض متعددة؛ كحامض الفحم وحامض المر وغيرهما، ومع أن هذه الحوامض غير شافية للإسهالات الطفلية، فإن وجودها في التفاح يشفي تلك الإسهالات.

إن الفاكهة -والحالة هذه- هي الغذاء الأساسي والمثالي للإنسان، فهي تحتوي على الفيتامينات والأملاح المعدنية بمقادير أكثر مما هو موجود في الخضار، وبعض الفواكه يحتوي على إمكانات خارقة في الشفاء، إذا أخذت وفق خطة مدروسة تعتمد على الاستفادة من خصائصه ومواده.

لقد قيل: إن احتواء بعض الفواكه على الحوامض يؤدي إلى حدوث بعض الإسهالات والاضطرابات الهضمية، وهذا غير صحيح؛ لأن الفواكه لا يمكن أن تكون - أبداً- خطرة على الصحة؛ لأن الله أعدها لكي تكون غذاء مثاليا، والطبيعة لا تعطي =

= أبناءها إلا الخير...فالحوامض الموجودة في الفواكه ليست هي كل ما تحتوي عليه الفواكه من مواد؛ أي: أنها ليست معزولة، ولو كانت كذلك؛ لكان الخطر مؤكداً، ولأدى استعمال الفواكه ذات الحوامض إلى احتراق الجهاز الهضمي، وبما أن الطبيعة لا يمكن أن تخطىء؛ فقد أوجد الله فيها - إلى جانب الحوامض- مواد قلوية تعدل من تأثير الحوامض، وبهذا تقضي على أضرارها، وتجعلها مواد غذائية ممتازة؛ تحد من نمو الجراثيم الكامنة في الأمعاء، وتدفعها مع الفضلات، وهي تفعل ذلك من غير أن تتلف جدران الأمعاء السريعة العطب، والتي تلامس ملايين الجراثيم بصورة دائمة.

إذن؛ فعمل الفواكه المحتوية على الحوامض: هوالقيام مقام الأدوية الملينة والمفرغة للأمعاء، بينما نرى أن الإفراط في استعمال المستحضرات الطبية المماثلة، يضر بالأمعاء أبلغ الضرر، ويعجزها- مع مرور الزمن- عن القيام بوظائفها على الوجه الأكمل.

ويقول الأستاذ (مارسيل لابيه): إن تناول الفواكه أو عصيرها يؤدي إلى تشكل أملاح عضوية تحارب فرط زيادة الحموضة، وقد أثبتت التجارب السريرية صحة هذا القول، شريطة أن تؤكل الفواكه ناضجة، وقد أثبت علماء الجراثيم أن الحوامض العضوية الطبيعية تقتل الجراثيم وتقف عاملاً واقياً ضد التخمرات المعوية ؛ فإن حامض الليمون الموجود في أكثر الفواكه يمنع تطور عصيات الحمى التيفية الموجودة في الماء.. وغني عن البيان أن نشير إلى الأثر الحاسم الذي يحدثه اللجوء إلى الفواكه المحتوية على الحوامض في الوقاية من الحميات وعلاجها ودرء أخطارها عن الجسم؛ فهذه الحوامض تسهل إفرازات الغدد؛ كالغدة اللعابية والمعدية والكبدية والمعوية، وتشفي في الوقت ذاته نزلات جهاز التنفس والغشاء المخاطي للمعدة والأمعاء، والفواكه غير خطرة أبداً ولا تصيب العضوية بأدنى ضرر، بل هي تغذيها تغذية صحية كما تشفيها، وتعليل ذلك سهل وواضح: فجهاز الهضم هو منشأ كل الأمراض، وأكثرالتسممات التي يصاب بها الجسم ناجم عن الطعام السيئ؛ ولذا فالعلاج المعتمد على الفواكه يؤدي إلى تنقية الدم، وإلى ضبط عمل جهاز الهضم، وإلى إذابة السموم؛ بل والقضاء على آثارها، وقد كان اكتشاف الفيتامينات سبباً في اعتماد الطب الحديث عليها في الشفاء بصورة نهائية بعد أن تبين ما تستطيع الفيتامينات أن تفعله في مجال الوقاية والعلاج على السواء.

إن استعمال الفواكه كعلاج ليس وقفاً على المرضى وحدهم، بل إن الأصحاء هم - أيضا- بحاجة إليها. وينصح كثير من الأطباء الذين ينادون بالاعتماد على الفواكه باللجوء إلىالحمية بالفاكهة ولو مرة في السنة بالنسبة للأصحاء، وإذا ما طبقت هذه =

= الطريقة في منطقة خلوية طبيعية، كانت فائدتها أجدى وأقوى، فهناك يستطيع الإنسان الخلاص من ضجيج المدن وسمومها المختلفة، واختيار الفواكه الطازجة المناسبة، وممارسة الحمية في جو مناسب.

وما على الإنسان إلا أن يختار الفاكهة الغضة التي تناسبه، وأن يتناولها منذ الصباح على الريق- بعد أن يغسلها، وللمحافظة على رائحة الفاكهة الزكية يفضل أن تغسل دون أن تفرك، ثم تجفف وتوضع على قطعة قماش نظيفة وتعرض للهواء؛ لأن أشعة الشمس تهيج الخمائر الكامنة في القشرة فتعيد للفاكهة رائحتها الزكية، وما على الإنسان- بعد هذا إلا أن يتناولها كما هي: بقشرتها ولبها.

وقد ذكر الأستاذ (بوسنبل) أن قشرة الفاكهة هي القسم المواجه للهواء والنور، وأن هذه الأجزاء من الفاكهة ذات حساسية سريعة تجاه الذرات الشعاعية؛ لأن القشرة تحتوي على فيتامينات وخمائر تسهل هضم بقية أجزاء الثمرة.

يجب أن يتم تناول الفاكهة ببطء، مع تذوق طعمها ، فإذا ما شعرنا بعدم الميل إلى تناولها فمن الأفضل التوقف عن أكلها حتى ولو كنا نشعر بالجوع؛ لأن شعور الإنسان بالإقبال على الطعام عامل ضروري في تحقيق الفائدة منه، على ألا يتعدى ذلك إلى الإفراط والتخمة بصورة تعطي عكس المردود المأمول. ومن المناسب اللجوء إلى الراحة بين مراحل الوجبة الواحدة؛ توخياً لعدم إزعاج المعدة. وعندما نصل إلى نهاية الوقت الذي حددناه لأداء هذه الطريقة في التغذية، نبدأ بتخفيف المقادير الني نتناولها من الفاكهة بصورة تدريجية.

إن طريقة الحمية بالفاكهة- هذه- تفيد الأصحاء، كما ذكرنا، مثلما تفيد المصابين بالأمراض، أو السمنة، وقد أثبتت نجاحها في كل الحالات التي طبقت بها، واستطاعت أن تشفي العديد من الأمراض، مثلما استطاعت أن تزيل كميات الشحوم الزائدة، والمتراكمة في أجسام البدينين.

ولا بد من القول:إن إتباع هذه الطريقة يصبح ضرورة قصوى لمن بلغ سناً معينة؛ أي:لمن تجاوزوا سن الكهولة،وأصبحوا عرضة لتصلب الشرايين والأنسجة.واحتقانات الكبد وحصيات الصفراء والتهابات الكلى والسكري وربما السرطان. إن تناول الفواكه- وفق الخطة العلاجية التي ذكرناها- ينشط الأعضاء، ويؤمن توازنها الوظيفي ويخزن الفيتامينات والأملاح المعدنية الضرورية في الأنسجة.

=

= وقد اعتاد بعض الناس اعتبار الخشافات والمرملاد والمناقيع وعصير الفواكه بديلاً عن الفواكه نفسها، وهذا خطأ، فمع الاعتراف بالقيم الغذائية العالية لتلك العناصر، إلا أنها لا تغني عن الفواكه نفسها؛ لما يتوفر فيها من مميزات تفقدها عندما تحول إلى خشاف أو مرملاد أو عصير.. وإذا كانت هناك حاجة لإرفاق الفواكه بغذاء آخر؛ فليكن العسل الطبيعي الخالص، فهو يساعد على الهضم، ويساعد الفواكه على عملها، ولا بأس في إضافة الخبز الكامل أو المحمص. ويجب الامتناع عن تناول المشروبات الروحية، والاقتصار على شرب الماء مضافاً إليه عصير الليمون، أو العسل. أما وجبات الطعام الأخرى؛فيجب الاقتصار فيها على الخضار فقط دون اللحوم والكحول.

وأخيراً.. هناك رأي معقول وبالغ الأهمية ، يستحسن أن نضعه موضع التأمل، فلقد اعتدنا- في الحالات العادية - على تناول الفواكه في آخر وجبات الطعام ، كلون ثانوي من ألوان الطعام، وكثيراً ما نصرف النظر عن تناولها إذا ما شعرنا بالامتلاء، ولو كنا أكثر رغبة في تحقيق الفائدة المرجوة من الغذاء؛ لحذفنا اللحوم من وجباتنا ولاحتفظ بالفاكهة، أو لبدأنا طعامنا بالفواكه بدل اختتامه بها كغذاء ثانوي. وإذا كان في ذلك ما يخالف العرف الذي اعتاده المجتمع الحديث؛ فإنه يتفق تمام الاتفاق مع ما أعدت لنا الطبيعة من إمكانية للاستفادة من الفاكهة كغذاء أساسي لنا، غير المعقول أن نتنكر لحقيقة أساسية خلقها الله ، لنخضع لعرف اصطناعي أقامه الانسان، والفاكهة ليست نوعاً من الترف الغذائي الذي يجوز الاستغناء عنه، وإنما العكس هو الصحيح.

شيء آخر اعتدنا عليه مع ما فيه من إهدار أكيد لما حبا الله به الطبيعة من نعم، وأعني له عادة تقشير الفواكه قبل تناولها؛ كنوع من «التأنق» الكاذب، الذي تعارف المجتمع عليه. فلقد ذكرنا من قبل، ونذكر الآن، وسنظل نذكر: أن قشور الفاكهة تحتوي على غذاء لا يجوز التفريط فيه، وأن ما احتوى عليه اللب لا يغني عن القشرة، التي تحتوي على الفيتامينات والخمائر (الدياستار) التي من شأنها أن تسهل الهضم وتساعد المعدة في وظيفتها، فالقشرة قد صافحتها أشعة الشمس أشهراً طوالاً، وأودعتها غير قليل من فوائدها التي تلعب دوراً هاماً في بناء العظام وتثبيتها.

ولا حاجة بنا إلى القول:إن المناداة بتناول الفواكه دون تقشير، لا يشمل الموز والبرتقال والبطيخ؛ فالحس السليم يدلنا على أن تناول هذه القشور متعذر، فضلاً عن أن ما فيها من فوائد لا يتحقق إلا بعمليات التحوير والتبديل ليمكن الاستفادة منها.

=

فصل
في هديه ﷺ في هيئة الجلوس للأكل

صح عنه أنه قال: «لا آكل متكئاً»(١).

وقال: «إنما أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد»(٢).

«وأنه نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه»(٣).

وقد فسر الاتكاء: بالتربع.

وفسر: بالاتكاء على الشيء، وهو الاعتماد عليه.

وفسر: بالاتكاء على الجنب .

= ولا صحة- ألبتة- لما يقال من أن تناول قشور الفاكهة يسبب الاصابة بالتهاب الزائدة الدودية؛ لأن الالتهاب معناه وجود الجراثيم التي تفتك وتلهب، بينما ليس في القشور ما يسبب شيئاً؛ لما تحويه من الآلياف السللوزية التي تثير حركة الأمعاء فتنشطها وتساعدها في أداء حركاتها الاستدارية.

ومن الضروري- أخيراً- أن نشير إلى ناحية هامة؛ هي أفضلية تناول الفاكهة دون استخدام السكين؛ لأن عملية القضم تقوي الأسنان وتنظفها أكثر مما يفعل أي مقو أو منظف ابتدعته المدنية الحديثة.

خلاصة القول إذن: إن تناول الفواكه ليس فرضاً قد يأخذ به الإنسان أو لا يأخذ، وإنما هو واجب غذائي رئيسي، أوجده الله في الطبيعة شافياً وواقياً لبنيها. ومن واجبهم أن يضعوه في المقام الأول من اعتبارهم واهتمامهم .. وأن يعرفوا خصائص كل من الفواكه؛ ليكونوا على بصيرة مما يختارون ومما يأكلون، وليفيدوا من معرفتهم هذه في علاج كثير من الحالات المرضية التي تستطيع الفواكه- باختلاف خصائصها وميزاتها- شفاءها والقضاء عليها، وإضفاء الحيوية والنشاط على أجسام آكليها».

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه-.

(٢) انظر: «الصحيحة» (٥٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٣٧٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٣٩٤).

والأنواع الثلاثة من الاتكاء، فنوع منها يضر بـالآكل، وهـو: الاتكـاء على الجنب؛ فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته، ويعوقـه عـن سـرعة نفوذه إلى المعدة، ويضغط المعدة؛ فلا يستحكم فتحها للغذاء.

و-أيضاً- فإنها تميل ولا تبقى منتصبة، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة.

وأما النوعان الآخران: فمن جلوس الجبـابرة المنـافي للعبوديـة، ولهـذا قال: «**آكل كما يأكل العبد**» وكان يأكل وهو مقع[1]، ويذكر عنه: أنه كـان يجلس للأكل متوركاً على ركبتيه، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنـى؛ تواضعـاً لربـه -عـز وجـل-، وأدبـاً بـين يديـه، واحترامـاً للطعـام وللمؤاكل. فهذه الهيئة أنفـع هيئـات الأكـل وأفضلـها؛ لأن الأعضـاء كلـها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله -سبحانه- عليه، مـع مـا فيـها من الهيئة الأدبية.

وأجود ما اغتذى الإنسان: إذا كانت أعضاؤه على وضعـها الطبيعـي؛ ولا يكون كذلك إلا إذا كـان الإنسـان منتصبـاً الانتصـاب الطبيعـي. وأردأ الجلسات للأكل الاتكاء علـى الجنـب؛ لما تقـدم: مـن أن المريء وأعضـاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي؛ لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بـين آلات الغذاء وآلات التنفس.

وإن كان المراد بالاتكاء: الاعتماد على الوسائد والوطـاء الـذي تحت الجالس، فيكون المعنى: أني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوطية والوسائد؛ كفعل الجبابرة، ومن يريد الإكثار من الطعام؛ لكـني آكـل بلغـة؛ كمـا يـأكل العبد.

---

(١) الأقعاء: أن يجلس على آليتيه ناصباً ساقيه.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٠٤٤) من حديث أنس بن مـالك - رضـي الله عنه- قال: «رأيت النبي ﷺ مقعياً يأكل تمراً».

فصل

وكان يأكل بأصابعه الثَّلاث[1]؛ وهذا أنفع ما يكون من الأكلات: فإن الأكل بأصبع أو أصبعين لا يستلذُّ به الآكل ولا يمريه، ولا يشبعه إلا بعد طول، ولا تفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة، فتأخذها على إغماض، كما يأخذ الرجل حقَّه حبة أو حبتين أو نحو ذلك؛ فلا يلتذّ بأخذه، ولا يسرّ به، والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته وعلى المعدة- وربما انسدت الآلات فمات- وتُغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمراء. فأنفع الأكل: أكلُه ﷺ، وأكلُ من اقتدى به بالأصابع الثلاث.

فصل

ومن تدبّر أغذيته ﷺ، وما كان يأكله: وجده لم يجمع قط بين لبن وسمك، ولا بين لبن وحامض، ولا بين غذاءين حارَّين، ولا باردين، ولا لزجين، ولا قابضين، ولا مسهلين، ولا غليظين، ولا مرخيين، ولا مستحيلين إلى خلط واحد، ولا بين مختلفين؛ كقابض ومسهل، وسريع الهضم وبطيئه، ولا بين شويٍّ وطبيخ، ولا بين طريّ وقديد، ولا بين لبن وبيض، ولا بين لحم ولبن. ولم يكن يأكل طعاماً في وقت شدة حرارته، ولا طبيخاً بائتاً يُسخَّن له بالغد، ولا شيئاً من الأطعمة العَفِنَةِ والمالحة؛ كالكوامخ والمخلَّلات والملوحات. وكلّ هذه الأنواع ضار مولِّدٌ لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال .

وكان يصلح ضرر بعض الأغذية ببعض إذا وجد إليه سبيلاً؛ فيكسر حرارة هذا ببرودة هذا، ويبوسة هذا برطوبة هذا؛ كما فعل في القثاء

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٢) (١٣٢) من حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه-.

والرطب، وكما كان يأكل التمر بالسَّمن- وهو: الحَيْسُ-، ويشرب نقيع التمر يلطِّف به كَيْمُوسات الأغذية الشديدة .

ولم يكن من هديه: النوم على الأكل،وفي وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة: أن يمشي بعد العشاء خُطواتٍ ولو مائة خطوة، ولا ينام عقبه؛ فإنه مضر جداً، وقال مسلموهم: أو يصلي عقيبه؛ ليستقر الغذاء بقعر المعدة، فيسهل هضمه ويجود بذلك.

ولم يكن من هديه: أن يشرب على طعامه فيفسده، ولا سيما إن كان الماء حاراً أو بارداً؛ فإنه رديء جداً.

قال الشاعر:

لا تكن عند أكل سخنٍ وبردٍ
ودخول الحمام تشرب ماء
فإذا ما اجتنبت ذلك حقاً
لم تخف ما حييت في الجوف داء

ويكره شرب الماء عقيب الرياضة والتعب، وعقيب الجماع، وعقيب الطعام وقبله، وعقيب أكل الفاكهة- وإن كان الشرب عقيب بعضها أسهل من بعض- وعقب الحمام، وعند الانتباه من النوم؛ فهذا كله مناف لحفظ الصحة، ولا اعتبار بالعوائد؛ فإنها طبائع ثوان.

فصل

وأما هديه في الشراب؛ فمن أكمل هدي يحفظ به الصحة: فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد. وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء؛ فإن شربه ولعقه على الريق: يذيب البلغم،

ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها، ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال، ويدفع سددها، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها. وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء؛ لحدته وحدة الصفراء[1]، فربما هيجها. ودفع مضرته لهم بالخل، فيعود حينئذ لهم نافعاً جداً. وشربه أنفع من كثير من الأشربة المتخذة من السكر أو أكثرها، ولا سيما لمن لم يعتد هذه الأشربة، ولا ألفها طبعه. فإنه إذا شربها: لا تلائمه ملاءمة العسل، ولا قريباً منه. والمحكم في ذلك العادة: فإنها تهدم أصولاً، وتبني أصولاً .

وأما الشراب إذا جمع وصفي الحلاوة والبرودة: فمن أنفع شيء للبدن، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة؛ وللأرواح والقوى والكبد والقلب عشق شديد له، واستمداد منه، وإذا كان فيه الوصفان: حصلت به التغذية، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء، وإيصاله إليها أتم تنفيذ .

والماء البارد:رطب، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية، ويردّ عليه بدل ما تحلل منها، ويرقق الغذاء، وينفذه في العروق .

واختلف الأطباء: هل يغذي البدن ؟ على قولين: فأثبتت طائفة التغذية به؛ بناء على ما يشاهدونه: من النمو والزيادة والقوة في البدن به، ولا سيما عند شدة الحاجة إليه .

قالوا: وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة:

منها: النمو والاغتذاء والاعتدال. وفي النبات قوة حس وحركة تناسبه؛ ولهذا كان غذاء النبات بالماء، فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء، وأن يكون جزءاً من غذائه التام؟

قالوا: ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام؛ وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية البتة.

---

(١) سائل شديد المرارة يختزن في كيس المرارة، لونه أصفر يضرب للحمرة.

قالوا: و-أيضاً- الطعام إنما يغذي بما فيه من المائية؛ ولولاها لما حصلت به التغذية.

قالوا: ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات، ولا ريب أن ما كان أقرب إلىمادة الشيء؛ حصلت به التغذية؛ فكيف إذا كانت مادته الأصلية؟! قال الله -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠]، فكيف ننكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟.

قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد: تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته، وصبر عن الطعام، وانتفع بالقدر اليسير منه، ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام، ولا يجد به القوة والاغتذاء، ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن، وإلى جميع الأعضاء، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية .

وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به، واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقوم مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية؛ فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره، ولطافته ورقته، وتغذية كل شيء بحسبه. وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ: يغذّي بحسبه، والرائحة الطيبة: تغذي نوعاً من الغذاء. فتغذية الماء أظهر وأظهر.

والمقصود: أنه إذا كان بارداً، وخالطه ما يحليه؛ كالعسل أو الزبيب، أو التمر أو السكر؛ كان مِن أنفع ما يدخل البدن، وحفظ عليه صحته؛ فلهذا كان أحبُّ الشراب إلى رسول الله ﷺ البارد الحلو.

والماء الفاتر ينفخ، ويفعل ضد هذه الأشياء.

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يشرب وقت استقائه؛ قال النبي ﷺ - وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان -: «هل من ماء بات في

شنة؟»؛ فأتاه به، فشرب منه. رواه البخاري -ولفظه-: «إن كان عندكم ماء بات في شنة؛ وإلا كرعنا»[١].

والماء البائت بمنزلة العجين الخمير، والذي شرب لوقته بمنزلة الفطير. وأيضاً: فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات، وقد ذكر: أن النبي ﷺ كان يستعذب له الماء، ويختار البائت منه.

وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يستقى له الماء العذب من بئر السُّقيا»[٢].

والماء الذي في القرب والشنّان ألذُّ من الذي يكون في آنية الفخّار والأحجار وغيرهما، ولا سيّما أسقية الأدم؛ ولهذا التمس النبيُّ ﷺ ماء بات في شنّة دون غيرها من الأواني. وفي الماء إذا وضع في الشّنان، وقرب الأدم -خاصة- لطيفة؛ لما فيها من المسامّ المنفتحة التي يرشح منها الماء؛ ولهذا كان الماء في الفخّار الذي يرشح ألذّ منه وأبرد في الذي لا يرشَح. فصلاة الله وسلامه على أكمل الخلق، وأشرفهم نفساً، وأفضلهم هدياً في كل شيء، لقد دلّ أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم: في القلوب والأبدان، والدنيا والآخرة.

قالت عائشة: «كان أحبُّ الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد[٣]».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٢١) من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٣٥)، والحاكم (٤/ ١٣٨)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٤/ ١٨/ ٤٢١٤- «هداية الرواة»).

السقيا: مكان من طرف الحرّة، والحرّة: أرض بضواحي المدينة ذات حجارة سوداء.

(٣) حسن؛ كما بينه شيخنا في «مشكاة المصابيح» (٤/ ١٨٣/ ٤٢١٢- «هداية الرواة»).

وهذا يحتمل أن يريد به الماء العذب؛ كمياه العيون والآبار الحلوة؛ فإنه كان يستعذب له الماء.

ويحتمل أن يريد به الماء الممزوج بالعسل، أو الذي نقع فيه التمر أو الزبيب.

وقد يقال -وهو الأظهر-: يعمهما جميعاً.

وقوله في الحديث الصحيح: «إن كان عندك ماء بات في شن،وإلا كرعنا»[1]؛ فيه دليل على جواز الكرع، وهو الشرب بالفم من الحوض والمقراة ونحوها، وهذه – والله أعلم – واقعة عين دعت الحاجة فيها إلى الكرع بالفم، أو قاله مبيِّناً لجوازه؛ فإن من الناس من يكرهه، والأطباء تكاد تحرِّمه، ويقولون: إنه يضر بالمعدة.

وحديث البخاري أصح من هذا، وإن صحَّ؛ فلا تعارض بينهما؛ إذ لعل الشرب باليد لم يكن يمكن حينئذ، فقال: «وإلا كرعنا»، والشرب بالفم إنما يضر إذا انكبَّ الشارب على وجهه وبطنه؛ كالذي يشرب من النهر والغدير، فأما إذا شرب منتصباً بفمه من حوض مرتفع ونحوه؛ فلا فرق بين أن يشرب بيده أو بفمه.

فصل

وكان من هديه الشرب قاعداً؛ هذا كان هديه المعتاد.

وصحَّ عنه: أنه نهى عن الشُّرب قائماً.

وصح عنه: أنه أمر الذي شرب قائماً يستقيء.

وصح عنه: أنه شرب قائماً .

قالت طائفة: هذا ناسخ للنهي.

---

(١) تقدم (ص ٢٩٧)

وقالت طائفة: بل مبيِّن أن النهي ليس للتحريم؛ بل للإرشاد وترك الأولى.

وقالت طائفة: لا تعارض بينهما أصلاً؛ فإنه إنما شرب قائماً للحاجة، فإنه جاء إلى زمزم، وهم يستقون منها، فاستقى، فناولوه الدلو، فشرب وهو قائم، وهذا كان موضع حاجة[١].

وللشرب قائماً آفات عديدة:

منها : أنه لا يحصل به الرِّيُّ التام، ولا يستَقِرُّ في المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء، وينزل بسرعة وحدَّة إلى المعدة؛ فيخشى منه أن يبرد حرارتها -ويشوشها-، ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج، وكل هذا يضر بالشارب، وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة؛ لم يضره، ولا يعترض بالعوائد على هذا؛ فإن العوائد طبائع ثوان، ولها أحكام أخرى، وهي بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء .

فصل

عن حديث أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ يتنفَّس في الشَّراب ثلاثاً، ويقول: «**إنه أروى وأمرأ وأبرأ**»[٢].

الشراب في لسان الشارع وحملة الشرع: هو الماء، ومعنى تنفسه في الشراب: إبانته القدح عن فيه، وتنفُّسه خارجه، ثم يعود إلى الشراب؛ كما

---

(١) وقد فصلت هذه المسألة وبينتها بياناً حسناً في كتابي: « موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ١٤٩-١٥٢)، و« بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين» (٢/ ٧٣-٧٤).

(٢) أخرجه مسلم(٢٠٢٨).

جاء مصرحا بـه في الحديث الآخر : «إذا شرب أحدكم؛ فلا يتنفس في القدح، ولكن ليبن الإناء عن فيه»[١].

وفي هذا الشرب حكم جمة، وفوائد مهمة، وقد نبه ﷺ على مجامعها بقوله: « إنه أروى وأمرأ وأبرأ».

فـ «أروى»: أشد رياً وأبلغه وأنفعه.

«وأبرأ»: أفعل من البرء- وهو الشفاء-؛ أي: يبرئ من شدة العطش ودائه؛ لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ما عجزت الثانية عنه.

و-أيضاً-؛ فإنه أسلم لحرارة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة، ونهلة واحدة .

و-أيضاً-؛ فإنه لا يروي لمصادفته لحرارة العطش لحظة، ثم يقلع عنها، ولما تكسر سورتها وحدتها، وإن انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التمهل والتدريج .

و-أيضاً-؛ فإنه أسلم عاقبة، وآمن غائلة من تناول جميع ما يروي دفعة واحدة؛ فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية بشدة برده، وكثرة كميته، أو يضعفها؛ فيؤدي ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة؛ كالحجاز واليمن ونحوهما، أو في الأزمنة الحارة؛ كشدة الصيف؛ فإن الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جداً، فإن الحار الغريزي ضعيف في بواطن أهلها، وفي تلك الأزمنة الحارة .

وقوله: «وأمرأ»: هو أفعل من مريء الطعام والشراب في بدنه: إذا دخله، وخالطه بسهولة ولذة ونفع. ومنه: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء:٤]: هنيئاً في عاقبته، مريئاً في مذاقه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٢٧)، والحاكم (٤/ ١٣٩) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٣٨٦).

وقيل: معناه: أنه أسرع انحداراً عن المريء؛ لسهولته وخفته عليه، بخلاف الكثير، فإنه لا يسهل على المريء انحداره.

ومن آفات الشرب نهلة واحدة: أنه يخاف منه الشَّرَق، بأن ينسدَّ مجرى الشراب -لكثرة الوارد عليه- فيغص به. فإذا تنفَّس رويداً، ثم شرب؛ أمن من ذلك.

ومن فوائده: أن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانيُّ الحارُّ- الذي كان على القلب والكبد- لورود الماء البارد عليه، فأخرجته الطبيعة عنها، فإذا شرب مرة واحدة: اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار، فيتدافعان ويتعالجان؛ ومن ذلك يحدث الشَّرق والغصَّة، ولا يتهنأ الشارب بالماء، ولا يمرئه، ولا يتم ريُّه .

وقد علم بالتجربة: أن ورود الماء جملة واحدة على الكبد يؤلمها، ويضعف حرارتها. وسبب ذلك: المضادة التي بين حرارتها، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته. ولو ورد بالتدريج شيئاً فشيئاً؛ لم يضاد حرارتها، ولم يضعفها. وهذا مثاله: صبُّ الماء البارد على القدر وهي تفور؛ لا يضرها صبُّه قليلاً قليلاً .

وللتسمية في أول الطعام والشراب، وحمد الله في آخره؛ تأثير عجيب في نفعه واستمرائه، ودفع مضرته .

قال الإمام أحمد: إذا جمع الطعام أربعاً، فقد كمل: إذا ذُكر اسم الله في أوله، وحمد الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حل.

فصل

عن جابر بن عبد الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء؛ فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء: لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء؛ إلا وقع فيه من ذلك الداء»[١].

وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة.

قال الليث بن سعد -أحد رواة الحديث-: الأعاجم عندنا يتقون تلك الليلة في السنة في كانون الأول منها.

وصح عنه: أنه أمر بتخمير الإناء، ولو أن يعرض عليه عوداً[٢].

وفي عرض العود عليه من الحكمة؛ أنه لا ينسى تخميره، بل يعتاده حتى بالعود.

وفيه: أنه ربما أراد الدُّبَيِّب أن يسقط فيه، فيمر على العود؛ فيكون العود جسراً له يمنعه من السقوط فيه.

وصح عنه: أنه أمر عند إيكاء الإناء، بذكر اسم الله؛ فإن ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشيطان، وإيكاؤه يطرد عنه الهوامَّ؛ ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضعين؛ لهذين المعنيين.

وعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من في السقاء»[٣].

وفي هذا آداب عديدة:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٢٤)، ومسلم (٢٠١٢) (٩٧) من حديث جابر بن عبد الله-رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٢٩).

وأخرجه- أيضاً- (٥٦٢٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه-.

منها : أن تردد أنفاس الشارب فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة؛ يعاف لأجلها.

ومنها : أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء؛ فتضرر به .

ومنها : أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به؛ فيؤذيه .

ومنها : أن الماء ربما كان فيه قذاة أو غيرها، لا يراها عند الشرب؛ فتلج جوفه .

ومنها : أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء؛ فيضيق عن أخذ حظه من الماء، أو يزاحمه، أو يؤذيه، ولغير ذلك من الحكم .

فصل

عن أبي سعيد الخدري قال: « **نهى رسول الله ﷺ عن الشرب في ثلمة القدح، وأن ينفخ في الشراب**»[١] .

وهذا من الآداب التي تتم بها مصلحة الشارب؛ فإن الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد:

أحدها : أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثلمة؛ بخلاف الجانب الصحيح .

---

(١) حسن- أخرجه أبو داود (٣٧٢٢)، وأحمد وابنه (٣/ ٨٠)، وابن حبان (٥٣١٥).

قلت: إسناده حسن؛ رجاله ثقات غير قرة بن عبد الرحمن، ففيه كلام يدل على أن حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن.

وفي الباب عن أبي هريرة، وعبد الله بن عباس- رضي الله عنهم-، وانظرها- غير مأمور- مع شيء من فقهها في كتابي:« موسوعة المناهي الشرعية» (٣/ ١٤٨- ١٤٩).

الثاني : أنه ربما شوَّش على الشارب، ولم يتمكن من حسن الشرب من الثُّلمة.

الثالث: أن الوسخ والزُّهومة تجتمع في الثُّلمة، ولا يصل إليها الغسل، كما يصل إلى الجانب الصحيح .

الرابع: أن الثُّلمة محلُّ العيب في القدح، وهي أردأ مكان فيه؛ فينبغي تجنُّبه، وقصد الجانبِ الصحيح؛ فإن الرديء من كل شيء لا خير فيه. ورأى بعض السلف رجلاً يشتري حاجة رديئة، فقال: لا تفعل؛ أما علمت أن الله نزع البركة من كل رديء .

الخامس: أنه ربما كان في الثُّلمة شقٌّ أو تحديدٌ يجرح فم الشارب، ولغير هذه من المفاسد .

وأما النفخ في الشراب: فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة، يعاف لأجلها؛ ولا سيّما إن كان متغيَّ الفم .

وبالجملة: فأنفاس النافخ تخالطه؛ ولهذا جمع رسول الله ﷺ بين النهي عن التنفس في الإناء، والنفخ فيه؛ في الحديث عن ابن عباس -رضي الله عنه-، قال: « **نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء، أو ينفخ فيه**»[1] .

فإن قيل: فما تصنعون بما في « الصحيحين» من حديث أنس: « **أن رسول الله ﷺ كان يتنَّفس في الإناء ثلاثاً**»[2]؟.

قيل: نقابله بالقبول والتسليم، ولا معارضة بينه وبين الأول؛ فإن معناه: أنه كان يتنفس في شربه ثلاثاً، وذكر الإناء: لأنه آلة الشرب، وهذا

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٨٨)، وأبو داود (٣٨٢٨)، وابن ماجه (٣٤٢٨و٣٤٢٩)، وأحمد (١٩٠٧)، وصححه شيخنا- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (١٩٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨).

كما جاء في الحديث الصحيح: «أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ مات في الثدي»[١] ؛ أي: في مدة الرّضاع .

فصل

وكان ﷺ يشرب اللبن: خالصاً تارةً، ومشوباً بالماء أخرى .

وفي شرب اللبن الحلو في تلك البلاد الحارة -خالصاً ومشوباً- نفع عظيم: في حفظ الصحة، وترطيب البدن، وريِّ الكبد؛ ولا سيما اللبن الذي ترعى دوابُّه الشيح، والقيصوم، والخزامى، وما أشبهها؛ فإن لبنها غذاء مع الأغذية، وشراب مع الأشربة، ودواء مع الأدوية.

وعنه ﷺ : «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا سقي لبناً؛ فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه؛ فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب؛ إلا اللبن»[٢] .

فصل

وثبت في «صحيح مسلم»: «أنه ﷺ كان ينبذ له أول الليل، ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء، والغد، والليلة الأخرى، والغد إلى العصر، فإن بقي منه شيء؛ سقاه الخادم، أو أمر به فصب»[٣] .

وهذا النبيذ: هو ما يطرح فيه تمر يحليه، وهو يدخل في الغذاء والشراب، وله نفع عظيم: في زيادة القوة، وحفظ الصحة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث؛ خوفاً من تغيره إلى الإسكار .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٥٥)، وأبو داود (٣٧٣٠)، وأحمد (١/ ٢٢٥و٢٨٤) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-، وحسنه شيخنا الألباني - رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٣٢٠).

قلت: وفيه ضعف، وانظر- غير مأمور- كتابي: «عجالة الراغب المتمني» (٤٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٤).

فصل
في تدبيره لأمر الملبس

وكان من أتم الهدي، وأنفعه للبدن، وأخفِّه عليه، وأيسره لبساً وخلعاً. وكان أكثر لبسه الأردية والأزر، وهي أخفّ على البدن من غيرها، وكان يلبس القميص؛ بل كان أحبَّ الثياب إليه .

وكان هديه في لبسه لما يلبسه أنفع شيء للبدن؛ فإنه لم يكن يطيل أكمامه ويوسعها، بل كانت كمُّ قميصه إلى الرّسغ: لا يجاوز اليد، فتشق على لابسها، وتمنعه خفة الحركة والبطش. ولا تقصر عن هذه، فتبرز للحر والبرد. وكان ذيل قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين: لم يتجاوز الكعبين، فيؤذي الماشي ويؤوده، ويجعله كالمقيد. ولم يقصر عن عضلة ساقيه، فتنكشف؛ ويتأذى بالحر والبرد. ولم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي الرأس حملها ويضعفه، ويجعله عرضة للضعف والآفات؛ كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد؛ بل وسطاً بين ذلك. وكان يدخلها تحت حنكه.

وفي ذلك فوائد عديدة: فإنها تقي العنق الحر والبرد، وهو أثبت لها، ولا سيّما عند ركوب الخيل والإبل، والكرِّ والفرِّ، وكثير من الناس اتخذ الكلاليب عوضاً عن الحنك، ويا بعد ما بينهما في النفع والزينة! وأنت إذا تأملت هذه اللبسة: وجدتها من أنفع اللبسات وأبلغها في حفظ صحة البدن وقوته، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن .

وكان يلبس الخفاف في السفر دائماً، أو أغلب أحواله؛ لحاجة الرِّجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد، وفي الحضر أحياناً .

وكان أحبّ ألوان الثياب إليه البياض، والحِبَرَة؛ وهي: البرود المحبَّرة. ولم يكن من هديه لبس الأحمر، ولا الأسود، ولا المصبَّغ، ولا المصقول .

وأما الحلة الحمراء التي لبسها؛ فهي الرداء اليماني الذي فيه سواد وحمرة وبياض؛ كالحُلَّة الخضراء. فقد لبس هذه وهذه، وقد تقدم تقرير ذلك وتغليط من زعم أنه لبس الأحمر القاني بما فيه كفاية.

فصل
في تدبيره لأمر المسكن

لما علم ﷺ أنه على ظهر سير، وأن الدنيا مرحلة مسافرٍ - ينزل فيها مُدَّة عمره، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة-؛ لم يكن من هديه وهدي أصحابه، ومن تبعه؛ الاعتناء بالمساكن وتشييدها، وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر: تقي الحر والبرد، وتستر عن العيون، وتمنع من ولوج الدوابِّ، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها، ولا تعتورِ عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض؛ فتؤذي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها؛ بل وسط. وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلُّها حراً وبرداً، ولا تضيق عن ساكنها؛ فينحصر، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة؛ فتأوي الهوامُّ في خلوها. ولم يكن فيها كنف[1] تُؤذي ساكنها برائحتها، بل رائحتها من أطيب الروائح؛ لأنه كان يحب الطيب، ولا يزال عنده، وريحه هو من أطيب الرائحة، وعرقه من أطيب الطيب. ولم يكن في الدار كنيف تظهر رائحته، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن وحفظ صحته.

---

(١) جمع كنف، وهو : المرحاض.

فصل
في تدبيره لأمر النوم واليقظة

من تدبَّر نومه ويقظته ﷺ، وجده أعدل نوم، وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى؛ فإنه كان ينام أوَّل الليل، ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم ويستاك ويتوضأ ويصلي ما كتب الله له، فيأخذ البدن والأعضاء والقوى حظَّها من النوم والراحة، وحظها من الرياضة؛ مع وفور الأجر. وهذا غاية صلاح القلب والبدن، والدنيا والآخرة.

ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان يفعله على أكمل الوجوه، فينام -إذا دعته الحاجة إلى النوم- على شقه الأيمن؛ ذاكراً الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب، ولا مباشر بجنبه الأرض، ولا متخذ للفرش المرتفعة؛ بل له ضجاع(١) من أدم(٢) حشوه ليف. وكان يضطجع على الوسادة، ويضع يده تحت خده أحياناً.

ونحن نذكر فصلاً في النوم النافع منه والضار، فنقول:

النوم: حالة للبدن يتبعها غور الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن؛ لطلب الراحة.

وهو نوعان: طبيعي.

وغير طبيعي.

فالطبيعي: إمساك القوى النفسانية عن أفعالها؛ وهي قوى الحسّ والحركة الإرادية. ومتى أمسكت هذه القوى عن تحريك البدن: استرخى، واجتمعت الرطوبات والأبخرة -التي كانت تتحلل وتتفرق بالحركات

(١) الفراش.

(٢) جمع أديم، وهو الجلد.

واليقظة- في الدماغ الذي هو مبدأ هذه القوى، فيتخدَّرُ ويسترخي، وذلك النوم الطبيعي .

وأمّا النوم غير الطبيعي: فيكون لعرض أو مرض، وذلك بأن تستولي الرطوبات على الدماغ استيلاء لا تقدر اليقظة على تفريقها، أو تصعد أبخرة رطبة كثيرة -كما يكون عقيب الامتلاء من الطعام والشراب- فتثقل الدماغ وترخيه، فيتخدَّر، ويقع إمساك القوى النفسانية عن أفعالها؛ فيكون النوم .

وللنوم فائدتان جليلتان:

إحداهما : سكون الجوارح وراحتها مما يعرض لها من التعب؛ فيريح الحواس من نصب اليقظة، ويزيل الإعياء والكلال .

والثانية: هضم الغذاء، ونضج الأخلاط؛ لأن الحرارة الغريزية في وقت النوم تغور إلى باطن البدن، فتعين على ذلك؛ ولهذا يبرد ظاهره، ويحتاج النائم إلى فضل دثار[١] .

وأنفع النوم: أن ينام على الشق الأيمن؛ ليستقر الطعام بهذه الهيئة في المعدة استقراراً حسناً؛ فإن المعدة أميل إلى الجانب الأيسر قليلاً، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً؛ ليسرع الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد، ثم يستقرّ نومه، على الجانب الأيمن؛ ليكون الغذاء أسرع انحداراً عن المعدة، فيكون النوم على الجانب الأيمن بداءة نومه ونهايته. وكثرة النوم على الجانب الأيسر مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه؛ فتنصب إليه المواد[٢].

---

(١) الغطاء.

(٢) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٣٩١):«والفائدة الحسنى من النوم: أن يكون على الجانب الأيمن ولا سيما بعد الطعام؛ لأن ذلك أسهل لإفراغ ما في المعدة من الطعام بعد هضمه، وبذلك تتفرغ أسرع مما لو نام على شقه الأيسر. وللنائم أثناء نومه أن يتقلب بحسب راحته، وإن كان أكثر هذه الأوضاع راحة هو الجانب الأيمن - أيضاً-؛ لأن الكبد التي هي أثقل الأحشاء

=

وأردأ النوم:النوم على الظهر[١]، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم. وأردأ منه أن ينام منبطحاً على وجهه[٢] .

قال أبقراط في كتاب «التقدمة» : « وأما نوم المريض على بطنه، من غير أن يكون عادته في صحته جرت بذلك، فذلك يدل على اختلاط عقل، وعلى ألم في نواحي البطن».

قال الشراح لكتابه: لأنه خالف العادة الجيدة، إلى هيئة رديئة، من غير سبب ظاهر ولا باطن .

والنوم المعتدل ممكّن للقوى الطبيعية من أفعالها، مريح للقوة النفسانية، مكثر من جوهر حاملها؛ حتى إنه ربما عاد بإرخائه مانعاً من تحلل الأرواح .

ونوم النهار رديء[٣] يورث الأمراض الرطوبية والنوازل، ويفسد اللون، ويورث الطّحال، ويرخي العصب، ويكسل، ويضعف الشهوة؛ إلا

= تكون مستقرة لا معلقة، وكذلك القلب يكون في هذا الوضع أخف حملاً إذ لا يكون فوقه إلا قليل من الرئة فيكون أنشط فعلاً».

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٣٩٢): « أما النوم على الظهر؛ فكثير الضرر؛ لأن شراع الحنك واللهاة فيه يعارضان فرجة الخيشوم الداخلية، ويعوقان مجرى التنفس؛ فيكثر لذلك في المستلقين الغطيط والشخير؛ ولأن المفرزات الأنفية تسيل الى الحلق (البلعوم) وتخرشه. وكثيراً ما تضغط فيه المثانة الممتلئة على الحويصلات المنوية في الذكور؛ فتكون سبباً في الاحتلام».

(٢) ذكر المصنف في الباب حديثاً ضعيفاً عن أبي أمامة؛ ويغني عنه: ما أخرجه أبو داود (٥٠٤٠)، وابن ماجه (٧٥٢و٣٧٢٣) عن قيس بن طخفة الغفاري عن أبيه، قال: أصابني رسول الله ﷺ نائماً في المسجد، على بطني، فركضني برجله، وقال: « مالك ولهذا النوم! هذه نومة يكرهها الله، أو يبغضها الله»، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٣) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٣٨٩-٣٩٠): « إن النهار وما فيه من ضوء وأصوات وضوضاء وضجيج وغيرها =

في الصيف وقت الهاجرة. وأردؤه: نوم أول النهار. وأردأ منه: النوم آخره بعد العصر.

ورأى عبد الله بن عباس ابناً له نائماً نومة الصبحة، فقال له: قم؛ أتنام في الساعة التي تقسم فيها الأرزاق ؟

وقيل[١]: نوم النهار ثلاثة: خلق، وخرق، وحمق .

فالخلق: نومة الهاجرة، وهي خلق رسول الله ﷺ .

والخرق: نومة الضحى تشغل عن أمر الدنيا والآخرة .

والحمق: نومة العصر .

قال بعض السلف[٢]: من نام بعد العصر، فاختلس عقله؛ فلا يلومن إلا نفسه.

وقال الشاعر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
خبالاً ونومات العصير جنون

= من المنبهات الحسية لا يساعد على نوم عميق هنيء كالذي يهبه الليل إذا كان النائم بعيداً عن ضجة المعامل؛ ولذلك من الله - تعالى- على الإنسان بنعمة النوم وبخلق الليل والنهار مسخرين له ودالين على عظيم قدرة الله، وأنه عليم حكيم خبير.

قال -عز وجل-: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝ ﴾ [النبأ:٩-١١]. والسبات في اللغة: النوم والراحة، والسبت: الراحة والرجل الكثير النوم. ومعنى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾؛ أي: ساتراً لكم بظلمته، وساترا لكم يحجز عنكم ضوضاء النهار؛ كما يستر الثوب صاحبه ويقيه من المؤثرات السطحية.

أما النهار؛ فهو مجال اليقظة والانبعاث للعمل والرزق ابتغاء من فضل الله -تعالى- القائل: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ [القصص:٧٣]؛ فالهدوء والراحة وتمامهما بالنوم في الليل والسعي وطلب الرزق وقضاء المصالح في النهار».

(١) القائل هو خوات بن جبير ثبت هذا عنه، انظر «صحيح الأدب المفرد» (٩٤٢).

(٢) يروى مرفوعاً عن النبي ﷺ ولا يصح فتنبه!.

ونوم الصُّبحة يمنع الرزق؛ لأن ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلا لعارض أو ضرورة، وهو مضر جداً بالبدن؛ لإرخائه البدن، وإفساده للفضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة؛ فيحدث تكسُّراً وعيّاً وضعفاً . وإن كان قبل التبُّرز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولد لأنواع من الأدواء .

والنوم في الشمس: يثير الداء الدَّفين. ونوم الإنسان بعضه في الشمس وبعضه في الظل رديء؛ فمن حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ :« **إذا كان أحدكم في الشمس، فقلص عنه الظل؛ فصار بعضه في الشمس، وبعضه في الظل؛ فليقم**»[١] .

ومن حديث بريدة بن الحصيب:« **أن رسول الله ﷺ نهى أن يقعد الرجل بين الظل والشمس**»[٢] .

وهذا تنبيه على منع النوم بينهما .

وعن البراء بن عازب: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتيت مضجعك؛** فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إنّي أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك؛ آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت. واجعلهن آخر كلامك؛ فإن مت من ليلتك؛ مت على الفطرة»[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٢٢) وغيره ، وصححه لشواهده شيخنا - رحمه الله- في «الصحيحة» (٨٣٧).

(٢) « الصحيحة» (٢/ ٤٨٧/ ٨٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠).

وعن عائشة:« أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى ركعتي الفجر – يعني: سنتها – اضطجع على شقِّه الأيمن».[١]

وقد قيل: إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن: أن لا يستغرق النائم في نومه؛ لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام على جنبه الأيمن: طلب القلبُ مستقرّه من الجانب الأيسر؛ وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله في نومه بخلاف قراره في النوم على الجانب اليسار: فإنه مستقرُّه؛ فيحصل بذلك الدعة التامة؛ فيستغرق الإنسان في نومه، ويستثقل: فيفوته مصالح دينه ودنياه .

ولما كان النائم بمنزلة الميت، والنوم أخو الموت - ولهذا يستحيل على الحيِّ الذي لا يموت، وأهل الجنة لا ينامون فيها - وكان النائم محتاجاً إلى من يحرس نفسه، ويحفظها مما يعرض لها من الآفات، ويحرس بدنه –أيضاً– من طوارق الآفات، وكان ربُّه وفاطره –تعالى– هو المتولي لذلك وحدَه ؛ علَّم النبيُّ ﷺ النائم أن يقول كلمات التفويضِ والالتجاء، والرغبة والرهبة؛ ليستدعي بها كمال حفظ الله له، وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلى أن يستذكر الإيمان، وينام عليه، ويجعل التكلّم به آخر كلامه؛ فإنه ربما توفاه الله في منامه، فإذا كان الإيمان آخر كلامه؛ دخل الجنة. فتضمّن هذا الهدي في المنام: مصال القلب والبدن والروح؛ في النومِ واليقظة، والدنيا والآخرة. فصلوات الله وسلامه على من نالت به أمَّته كلَّ خير .

وقوله: «أسلمت نفسي إليك»؛ أي: جعلتها مسلمة لك تسليم العبد المملوك نفسه إلى سيده ومالكه .

وتوجيه وجهه إليه: يتضمَّن إقباله بالكلّية على ربه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد، قال –تعالى–: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٠).

وذكر الوجه؛إذ هو أشرف ما في الإنسان، ومجمع الحواس.
و-أيضاً-؛ ففيه معنى التوجّه والقصد؛ من قوله:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه

رب العباد إليه الوجه والعمل[1]

وتفويض الأمر إليه: ردُّه إلى الله -سبحانه-؛ وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرضى بما يقضيه ويختاره له مما يحبه ويرضاه.

والتفويض من أشرف مقامات العبودية، ولا علة فيه، وهو من مقامات الخاصة؛ خلافاً لزاعمي خلاف ذلك .

وإلجاء الظهر إليه – سبحانه-: يتّضمَّن قوة الاعتماد عليه، والثقة به، والسكون إليه، والتوكل عليه، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق؛ لم يخف السقوط.

ولما كان للقلب قوّتان: قوة الطلب؛ وهي الرغبة، وقوة الهرب؛ وهي الرهبة، وكان العبد طالباً لمصالحه، هارباً من مضارّه؛ جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجه، فقال: «رغبة ورهبة إليك».

ثم أثنى على ربه: بأنه لا ملجأ للعبد سواه، ولا منجا له منه غيره، فهو الذي يلجأ إليه العبد؛ ليُنْجِيه من نفسه؛ كما في الحديث الآخر: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»؛[2] فهو – سبحانه- الذي يعيذ عبده، وينجيه من بأسه الذي هو بمشيئته وقدرته، فمنه البلاء، ومنه الإعانة، ومنه ما يطلب النجاة منه، وإليه الالتجاء في النجاة،

---

(١) هو من أبيات «الكتاب» (١/ ١٧)، وأورده البغدادي في «خزانة الأدب» (١/ ٤٨٦)، وذكر أنه من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة – رضي الله عنها-.

فهو الذي يلجأ إليه في أن ينجي مما منه، ويستعاذ به مما منه، فهو رب كل شيء، ولا يكون شيء إلا بمشيئته: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام:١٧]،﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب:١٧].

ثم ختم الدعاء بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله، الذي هو ملاك النجاة، والفوز في الدنيا والآخرة، فهذا هديه في نومه.

لو لم يقل: إني رسول
لكان شاهد في هديه ينطق

فصل

وأما هديه في يقظته: فكان يستيقظ إذا صاح الصارخ -وهو الديك- فيحمد الله -تعالى- ويكبره، ويهلله ويدعوه، ثم يستاك، ثم يقوم إلى وضوئه، ثم يقف للصلاة بين يدي ربه: مناجياً له بكلامه، مثنياً عليه، راجياً له، راغباً راهباً، فأي حفظ لصحة القلب والبدن، والروح والقوى، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا[1]؟

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٣٩٣-٣٩٤): « إن في اليقظة باكراً لصلاة الفجر، ثم الانتشار إلى العمل فائدة جلى؛ فإنها تعيد الدورة الدموية والتنفس إلى نشاطهما كما كان قبل النوم؛ أي: قبل تباطئهما. وذلك بحركة الوضوء وما فيه من غسل وتدليك، وبحركات الصلاة من وقوف وركوع وسجود وقعود ونهوض، وبالتلاوة والتسبيح والحمد والدعاء.

وإن نشاط التنفس هذا يجعل المستيقظ باكراً يكتسب من هواء الفجر النقي الغني بغاز الأوزون، هذا الغاز الناتج عن تكاثف ثلاث ذرات من الأوكسجين، ويعتبر من =

فصل

وأمّا تدبير الحركة والسكون- وهو الرياضة-؛ فنذكر منها فصلاً يعلم منه مطابقة هديه في ذلك لأكمل أنواعه وأحمدها وأصوبها. فنقول:

من المعلوم افتقار البدن -في بقائه- إلى الغذاء والشراب، ولا يصير الغذاء بجملته جزءاً من البدن، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية، ما إذا كثرت على ممر الزمان؛ اجتمع منها شيء له كمية وكيفية، فيضرُّ بكميته؛

= المطهرات؛ إذ يعقم الجو وما لامسه. ومن المعلوم أن إحدى طرق تعقيم المياه في مصافيها هو غاز الأوزون، وأكثر ما يكون جو الأرض غنياً بهذا الغاز هو وقت الفجر، ثم يقل حتى يغيب لدى طلوع الشمس، وللأوزون -أيضاً- تأثير مفيد للجهاز العصبي والمشاعر النفسية العميقة والنشاط العضلي الفكري، أضف إلى ذلك الأثر النفسي الطيب الذي يحظى به المتوجه إلى الله -تعالى- في دعائه وصلاته. ولقد مر دعاء الاستيقاظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور».

ولقد أثنى الله على صلاة الفجر والمصلين بأن صلاتهم وما يتلونه من قرآن فيها تشهده الملائكة ، قال -عز وجل-: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨]. والمؤمنون يأملون أن تكون صلاتهم مقبولة ومشهودة، وينهضون بنشاط لدى سماعهم مؤذن الفجر ينادي: «الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم».

إن وقت صلاة الفجر يمتد من طلوع الفجر حتى طلوع الشمس، وكان الرسول- عليه الصلاة والسلام- يصلي مع صحابته الفجر في الغلس؛ حتى إن النساء إذا خرجن من المسجد بعد صلاة الصبح لا يعرفن من الغلس.

إن بدء العمل باكراً أكثر ما يحتاج إليه في البلاد الحارة وفي فصل الصيف في البلاد المعتدلة؛ وذلك لنشاط الجسم في العمل صباحاً وملاءمة الجو لذلك، وصعوبة العمل في الظهيرة بسبب شدة الحر؛ ولذا ندب الإسلام إلى نوم القيلولة بعد ذلك الاستيقاظ والعمل الباكرين؛ ليكتسب الجسم راحة وعوناً على قيام الليل والاستيقاظ باكراً في فجر اليوم الثاني» .

بأن يسد ويثقل البدن، ويوجب أمراض الاحتباس. وإن استفرغ تأذى البدن بالأدوية؛ لأن أكثرها سميَّة، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع بـه. ويضـر بكيفيته: بأن يسخن بنفسه، أو بالعفن، أو يـبرد بنفسـه، أو يضعـف الحرارة الغريزية عن إنضاجه .

وسدد الفضلات -لا محالة- ضـارة: تركـت أو اسـتفرغت. والحركـة أقوى الأسباب في منع تولُّدها؛ فإنها تسخِّن الأعضاء، وتسيل فضلاتها؛ فلا تجتمع على طول الزمان، وتعوِّد البدن الخفة والنشاط، وتجعله قابلاً للغـذاء، وتصلِّب المفاصل، وتقوّي الأوتار والرباطات، وتؤمن جميع الأمراض الماديـة وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها في وقته، وكان بـاقي التدبير صواباً .

ووقت الرياضة: بعد انحدار الغذاء، وكمال الهضم. والرياضة المعتدلـة هي: التي تحمرُّ فيها البشرة وتربو، ويتندّى بها البدن، وأما التي يلزمها سيلان العرق؛ فمفرطة. وأيُّ عضو كثرت رياضته قوي، وخصوصاً على نوع تلـك الرياضة. بل كل قوة فهذا شأنها: فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته، ومن استكثر من الفكر قويت قوَّتـه المفكِّـرة، ولكـل عضـو رياضـة تخصُّـه: فللصدر القراءة؛ فليبتدئ فيها مِن الخفية إلى الجهر بتدريج، ورياضة السمع: بسمع الأصوات، والكلام بالتدريج، فينتقل من الأخف إلى الأثقل، وكذلك رياضة اللسان في الكلام، وكذلـك رياضـة البصـر، وكذلـك رياضـة المشـي بالتدريج شيئاً فشيئاً .

وأما ركوب الخيل، ورمي النُّشّاب، والصراع، والمسابقة على الأقـدام؛ فرياضة للبدن كله، وهــي قالعـة لأمـراض مزمنـة؛ كـالجذام، والاستسـقاء، والقولنج .

ورياضـة النفـوس: بـالتعلّم والتـأدّب، والفـرح والسـرور، والصــبر والثبات والإقـدام، والسـماحة وفعـل الخـير، ونحـو ذلـك؛ ممـا ترتـاض بـه النفوس.

ومن أعظم رياضتها : الصبر، والحب، والشجاعة، والإحسان؛ فلا تزال ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً؛ حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة، وملكات ثابتة .

وأنت إذا تأملت هديه ﷺ في ذلك؛ وجدته أكمل هدي حافظ للصحة والقوى، ونافع في المعاش والمعاد .

ولا ريب أن الصلاة[١] نفسها فيها من حفظ صحة البدن، وإذابة أخلاطه وفضلاته؛ ما هو من أنفع شيء له؛ سوى ما فيها: من حفظ صحة الإيمان، وسعادة الدنيا والآخرة. وكذلك قيام الليل: من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب؛ كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم -إذا هو نام -ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل، فارقد. فإن هو استيقظ، فذكر الله؛ انحلت عقدة، فإن توضأ؛ انحلت عقدة ثانية، فإن صلى؛ انحلت عقده كلها؛ فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا؛ أصبح خبث النفس كسلان»[٢] .

وفي الصوم الشرعي من أسباب حفظ الصحة، ورياضة البدن والنفس؛ ما لا يدفعه صحيح الفطرة[٣] .

---

(١) وقد بسطنا فوائد الصلاة الطبية (ص ٢٧٣-٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري(١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٣) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (١/ ٢٧٤-٢٨٥): « فوائد الصوم الطبية:

لقد أوضحت في « مبحث الاعتدال في الطعام والشراب» فوائد الاعتدال ومضار الإسراف.

=

= فإذا خرج المسلم عن ذلك الاعتدال في معظم أيامه؛ فإنه بصيامه- إذا التزم الاعتدال في طعامه وشرابه- يخفف عنه مضار السرف السابق، ويحقق له الفوائد الصحية الجسمية التالية:

١- أنه يخفف العبء عن جهاز الدوران- وخاصة في فترة الصيام- بعض أمراض هذا الجهاز.

٢- إنه يخفف العبء عن جهاز الدوران- وخاصة في فترة الصيام- بعد هضم طعام السحور؛ حيث تهبط في الدم نسبة الدسم وحمض البول، فيساعد ذلك في الوقاية من ارتفاعهما، وارتفاع دسم الدم عامل يساعد على تصلب الشرايين، وارتفاع حمض البول(أسيد أوريك) قد يسبب مرض النقرس الذي يتظاهر بألم في بعض المفاصل وخاصة في إبهام القدم؛ لترسب ذلك الحمض عليها، وقد يسبب حصيات بولية.

٣- إنه يريح الكليتين وجهاز البول بإقلاله فضلات استقلاب الأغذية المنطرحة عن طريق الجهاز.

٤- إنه يقي السليم من البدانة، ومما تساعد عليه من أمراض والوقاية من البدانة أسهل من علاجها.

يقول الدكتور العالمي (اليكسيس كاريل)- الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة في كلامه على الصيام في الأديان-: «إن سكر الكبد سيتحرك ويتحرك معه - أيضاً- الدهن المخزون تحت الجلد وبروتينات العضل والغدد وخلايا الكبد وتضحي جميع الأعضاء بمادتها الخاصة للإبقاء على كمال الوسط الداخلي وسلامة القلب، وإن الصوم لينظف ويبدل أنسجتنا».

تلك الفوائد التي عددتها للصيام هي للسليم وللمريض بأمراض تستفيد من الصيام. وسيأتي ذكر الأمراض والحالات التي تبيح الفطر حفاظاً على صحة الإنسان ووقايته من المرض أو من اشتداده أو تأخر برئه.

الصيام والصحة النفسية:

إن العلاقات المتبادلة بين الجسم والنفس أمر مسلم به طبياً، وكما أن للصيام فوائد صحية جسمية؛ فإن له فوائد صحية نفسية، إليكم أهمها:

=

= ١- تنمية الإخلاص في النفس لله -تعالى-، فجميع العبادات المفروضة علنية ظاهرة للعيان؛ إلا الصيام؛ فإنه سر بين العبد وربه، لا رقيب على الصائم في صدق تنفيذه إلا الضمير الحي والرغبة الصادقة في رضاء الله -تعالى-.

قال رسول الله ﷺ: « **قال الله -تعالى-: كل عمل ابن آدم له؛ إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به...**».

٢- زوال البطر عند الجوع وكسر حدة شهوة المعاصي:

إن البطر والفرح والأشر هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله -عز وجل-، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له. أضف إلى ذلك أن الصوم يخفف من توتر الجهاز العصبي الودي ويهدئه.

وبما أن المادة الأساسية للقوى والشهوات هي الأطعمة؛ فتقليلها والصيام عنها يضعف كل شهوة وقدرة، ويساعد الصائم على السيطرة على نفسه إذا أمرته بسوء، وإلزامها حدود الإسلام. ويدعم الجوع في كسر حدة الشهوات مراقبة الصائم لله -تعالى-، واستشعاره أنه في عبادة له -سبحانه-؛ فإن ذلك يصرفه عن التفكير في المعاصي والجنس والفواحش ويلزمه بغض النظر. فإن تأمل الجنس والتفكير فيه بسبب زيادة إفرازات الهرمونات الجنسية ، وبالتالي زيادة الرغبة (الشهوة) الجنسية، ولأن الرغبة الجنسية عند الشباب أقوى وأشد؛ أوصى رسول الله ﷺ الشباب بالصوم في غير رمضان -أيضاً- فقال: « **يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»؛ أي: فمن لم يكن قادراً على المهر والنفقة والقيام بالحقوق الزوجية؛ فإن الصوم له وقاية تشبه الإخصاء، حيث يخفف من شهوته، كما يحول دون ارتكابه الفاحشة بآثاره الروحية.

٣- صفاء الذهن؛ لأن كثرة الأكل والشرب يعقبها كسل في الجسم، وبلادة في الفكر، وميل إلى النوم، وقد يحدث في بدء الصوم تهيج عصبي ولكن يعقب ذلك شعور بالضعف.

٤-تقوية الارادة وترويض النفس على الصبر، والتكيف على قلة الطعام، والتخلي عن سيطرة العادات؛ حيث يترك الصائم كثيراً مما اعتاده من منوال الحياة =

= اليومية؛ مثل: أوقات الاستيقاظ، والنوم، والأكل، والشرب، والعمل، والراحة، فلا تسيطر عليه عادة. ويصبر على الجوع والعطش، والصبر عنصر ضروري لنجاح الفرد والأمة في بلوغ الغايات.

٥- إيقاظ الشعور المشترك في صفوف الأمة؛ حيث يذوق الغني والفقير معاً آلام الجوع ومرارة العطش؛ فيتحرك العمل في المجتمع على مكافحة الجوع، وعلى مد يد المعونة للمعوزين، وقديماً قيل: إن الشبعان ينسى الجوع والجائعين.

فن المداومة والصيام:

قد تلجىء ضرورة المعالجة إلى حرمان المريض من الطعام فقط، أو من الطعام والشراب معاً، فإذا حرم منهما : سمي ذلك حمية مطلقة أو صياماً مطلقاً، وتوصف في الأمراض التالية مثلاً:

١- التهاب المعدة الحاد: وتستمر الحمية المطلقة ١٢-٢٤ ساعة بعد إسعاف المريض.

٢- اقياء الحمل العنيدة: تبدأ المعالجة بحمية مطلقة تهدئة لمنعكس القيء لمدة ٢٤ ساعة على الأقل.

٣- بعد العمليات المجراة على المعدة والأمعاء، وتمتد الحمية المطلقة لمدة ٢٤-٤٨ ساعة.

غير أن هذه الظروف الثلاثة توجب بإفطار المريض بعد فترة الحمية المطلقة لأيام يحددها الطبيب المعالج.

أما الأمراض التي تستفيد من الصيام؛ فهي:

١- البدانة:

يستفيد السمين من الصيام كثيراً؛ لأن بدن الصائم بعد حرقه الغذاء الوارد في السحر يستمد ٨٣ بالمئة من القدرة الضرورية من استهلاك المدخرات الدهنية، وتزيد فائدته: إن لم يسرف في الطعام، وقلل من الأغذية الدهنية والنشوية وباقي السكريات.

=

= وللبدانة أنواع، أكثرها استفادة من الصيام: هي البدانة البسيطة المتأتية عن النهم ونقص الحركة؛ خاصة إذا ترافقت بارتفاع الضغط الشرياني، أو بالداء السكري، أو بقصور كلوي مزمن، أو كان صاحبها تنتابه نوبات خناق الصدر.

ولبلوغ استفادة كبرى من الصيام في معالجة البدانة؛ أذكر بالوصايا التي تقدمها كتب الطب للبدينين، وهي:

١-إنقاص الأغذية السكرية كثيراً، فتخفض إلى غرام ونصف لكل كيلو غرام من الوزن، وذلك بالإقلال إلى أدنى حد من الخبز والمعجنات والسكاكر والرز والبقول الجافة (فاصولياء يابسة، حمص).

٢- إنقاص الدسم كثيراً، وألا يزيد عن غرام واحد لكل (كغ) من الوزن.

٣-أن يرتكز الغذاء على المقدار المعتدل من الأغذية البروتينية من لحوم غير دسمة وجبن ولبن وعلى الخضراوات الغضة والفواكه.

٤- أن تكون الحياة نشيطة بالقيام بالتمارين الرياضية الخفيفة(على أن يكون القلب سليماً)، ويمكن التدرج بزيادة هذه الحركات دون عنف، وأفضلها رياضة المشي، ومن المفيد -أيضاً- التدليك والحمامات المائية.

٥-ويدعم ذلك التدبير بإنقاص السوائل، وألا يكون الماء الشريب مثلجاً.ويجب أن تكون الحمية تدريجية تؤدي إلى سقوط الوزن بشكل تدريجي، ويراقب وزن المريض مرة كل أسبوع.

هذا وتوصي كتب الطب الإنسان البدين في حياته العادية أن يصوم بضعة أيام من كل أسبوع صياماً جزئياً باقتصاره، على اللب (الحليب) والفواكه والماء.

ولقد وصف من قبل بعض الأطباء في العالم طريقة الصيام التام عن الطعام لمدة تختلف بين يوم واحد وخمسة عشر يوماً في معالجة بعض الأمراض تحت إشراف طبي. ويعطى المرضى طريقة المعالجة بالجوع المياه المعدنية والسوائل المزودة بالأملاح والشوارد المعدنية.

أما البدانة المترافقة باحتباس الماء؛ فيجب فيها الإقلال من الماء والملح، والإكثار من البروتينات (كاللحوم غير الدسمة).

=

= أما أنواع البدانات الأخرى المتعممة أو الموضعة؛ فتستفيد من الصيام -أيضا-، ولكن التدابير الغذائية والدوائية توصف بإرشاد الطبيب المعالج.

٢- الداء السكري السمين:

كثيرا ما تكفي الحمية في معالجة الشكل الخفيف من الداء السكري البادي عند البدينين بعد سن الخمسين أو الأربعين؛ لإنقاص الوزن وإزالة البيلة السكرية، وإقلال سكر الدم؛ دون اللجوء إلى حقن الأنسولين، أو ابتلاع أقراص الأدوية الخاصة بذلك الداء.

أما الداء السكري النحيل أو الشديد؛ فسأذكره في بحث الأمراض التي تبيح الفطر. ومن المهم أن أذكر هنا: أن المصاب بالداء السكري يباح له الإفطار؛ إذا كانت الحمية لا تكفي بمعالجته، ووصف له طبيبه حقن الأنسولين، أو تناول الأدوية التي تنبه المعثكلة لصنع الأنسولين؛ لأنه إذا صام مع المعالجة بها فقد يتعرض لعوارض نقص سكر الدم، ويتجلى ذلك في الحوادث الخفيفة بالدوار وبالشعور بالجوع وبالعرق البارد وبالحصر والشحوب، فعليه- إن شعر بذلك- أن يتناول إحدى المواد السكرية خشية أن يقع في عوارض الحوادث الشديدة، حيث يظهر الاختلاج الصرعي والسبات؛ فإذا لم يسعف المصاب بحقنة بالأدرينالين أو بإعطائه إحدى المواد السكرية- ولو بطريق الوريد-؛ فإنه ربما يقضي نحبه.

٣-ارتفاع التوتر الشرياني:

سواء كان أساسيا أو ثانويا؛ لقصور كلوي، حيث يفيد فيه إنقاص الغذاء، والإقلال من ملح الطعام ومن المواد الحاوية على الصودا؛ كالغازوز (الكازوز)، والامتناع عما يساعد على زيادة الضغط الدموي؛ كالسوس واليانسون وقشرة البرتقال البيضاء.

٤- القصور الكلوي الحابس لكلور الصوديوم:

مع الصيام يمتنع عن الملح ما دام في المريض وذمة (تورم) ، ثم بعد زوالها يقلل منه.

أما تفصيل الحمية؛ فيتوقف على نتائج الفحوص المخبرية، ورأي الطبيب المعالج.

=

= وأشير هنا أن القصور الكلوي الحابس للبولة (الاوره) يوجب الفطر.

٥- خناق الصدر:

يحمي المريض عن الأغذية الثقيلة والدهنية، ويمنع عن الشاي والقهوة والتدخين والتعرض للانفعالات العنيفة والجهد، ويقوى تحريم الغول (الأشربة المسكرة) عليه.

ويسعى في خارج النوب لتخفيف وزنه إذا كان بديناً.

أما قصور القلب؛ فيجب معه مراجعة الطبيب؛ ليسمح للمريض بالصوم، أو يوجب عليه الإفطار، أو يجعله يناوب بين فطر وصوم، أو يتركه ليجرب الصوم ويرى أثره عليه؛ لأن الأمر يختلف بحسب شدة القصور وحالة المريض العامة ولزوم تعدد الوجبات الطعامية الصغيرة.

٦- الالتهاب الهضمية المزمنة:

وفي طليعتها: التهاب المعدة المزمن، والتهاب الأمعاء المزمن، والتهاب الكولون المزمن. إنها تستفيد من الصيام؛ لأن إبعاد الغشاء المخاطي عن تماس الطعام مدة طويلة يساعد على ترميم الخلايا الملتهبة، ويقلل من إفرازاتها المرضية الكثيرة.

٧- حصيات المرارة:

للصوم أثر متباين لدى المصابين بحصيات المرارة: فمنهم من يتأثر بالصوم ويستفحل مرضه فتتكرر نوباته، ومنهم من تهدأ آلامه بالصيام، والحالة الثانية أغلب من الأولى فيما لو تابع الصائم الحمية الغذائية الخاصة بمرضه.

٨- الأمراض الجلدية:

ويقول الدكتور محمد الظواهري- أستاذ الأمراض الجلدية بجامعة القاهرة-: «إن علاقة التغذية بالأمراض الجلدية متينة؛ فالامتناع عن الغذاء والشراب مدة ما؛ يقلل من الماء في الجسم والدم، وهذا بدوره يدعو إلى قلة الماء في الجلد؛ وحينئذ تزداد مقاومة الجلد للأمراض الجلدية المؤذية والميكروبية...

وقلة الماء في الجلد تقلل -أيضاً- من حدة الأمراض الجلدية الالتهابية والحادة المنتشرة بمساحات كبيرة في الجسم، وأفضل علاج لهذه الحالات -من وجهة الغذاء- هي الامتناع عن الطعام والشراب لفترة ما».

=

= ومن الواضح أن المصاب بأحد تلك الأمراض التي تستفيد من الصيام يباح له الفطر؛ إذا اقتضت حالته الصحية العامة ذلك، أو تعين أخذ الدواء عن طريق جهاز الهضم خلال وقت الصيام بإرشاد طبيب مسلم عدل حاذق.

وبالإيضاح المتقدم عن فوائد الصيام في الصحة الجسمية والنفسية وفي معالجة بعض الأمراض؛ يتبين لنا أن صيام رمضان يعتبر دورة وقائية سنوية تقي من كثير من الأمراض،ودورة علاجية -أيضاً- بالنسبة لبعض الأمراض، وأنه يقي المسلم المتبع المعتدل من أمراض الشيخوخة التي ينجم معظمها عن الإفراط في إرهاق العضوية طوال حياتها. فالصيام الإسلامي من الطب الوقائي أكثر من أن يكون من الطب العلاجي، بل إن الإسلام رخص للمريض بالفطر بقوله -تعالى-: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

الصيام تقوى ووقاية:

ينفذ المؤمن فريضة الصيام عبادة لله وطاعة له وتقوى؛ ابتغاء لمرضاته، واتقاء لسخطه، وهو في هذا التنفيذ يستفيد لصحة جسمه ونفسه.

وللعبادات المؤداة كما يريد الإسلام آثار حميدة، وثمرات طيبة، تظهر على صاحبها في سلوكه وعلاقاته بمجتمعه، فإن لم تظهر تلك الآثار والثمرات؛ دل ذلك على أنه كان في صورة العبادة لا في حقيقتها، وفي ضعفها إشارة لضعف عبادته وتقواه لله -سبحانه-.

إن الصيام جنة؛ أي: وقاية بين المسلم وبين ما يؤذي حياته الروحية والبدنية والنفسية عاجلاً وآجلاً. وهو وسيلة الى الزيادة في تقوى الله -تعالى-، قال الله -سبحانه-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال رسوله الكريم: «**الصيام جنة، فإذا كان أحدكم صائماً؛ فلا يرفث**؛ (أي: لا يفحش في القول)، **ولا يجهل**؛ (أي: لا يسفه)، **فإن امرؤ قاتله أو شاتمه؛ فليقل: إني صائم- مرتين**».

إن الصيام الذي لا يحقق معناه الإلهي؛ فلا يشعر الصائم بأنس عبادته -تعالى-، ولا يفتح قلبه لكثرة ذكر مولاه، والقيام بما أوجبه والذي يحقق معناه الإنساني؛ فلا =

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التي هي من أعظم أسباب القوة، وحفظ الصحة، وصلابة القلب والبدن، ودفع فضلاتهما، وزوال الهم والغم والحزن؛ فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب .

وكذلك الحج، وفعل المناسك، وكذلك المسابقة على الخيل، وبالنصال، والمشي في الحوائج، وإلى الإخوان، وقضاء حقوقهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، والمشي إلى المساجد للجمعات والجماعات، وحركة الوضوء والاغتسال، وغير ذلك .

وهذا أقل ما فيه: الرياضة المعينة على حفظ الصحة، ودفع الفضلات. وأما ما شرع له من التوصل به إلى خيرات الدنيا والآخرة، ودفع شرورهما؛ فأمر وراء ذلك .

فعلمت أن هديه فوق كل هدي: في طب الأبدان والقلوب، وحفظ صحتها، ودفع أسقامهما، ولا مزيد على ذلك لمن قد أحضر رشده. وبالله التوفيق .

فصل

وأما الجماع والباه؛ فكان هديه فيه أكمل هدي: يحفظ به الصحة، وتتم به اللذة وسرور النفس، ويحصل به مقاصده التي وضع لأجلها؛ فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية:

= يهذب نفس الصائم، ولا يقوم أخلاقه، ولا يروضه على الصبر وتحمل المشاق، والذي لا يحقق معناه الصحي؛ فلا يكون حمية أو علاجاً لإسراف في الطعام والشراب؛ إنه صورة الصوم لا حقيقته، والعيب في ذلك على المسيء في صيامه لا في الصيام نفسه. فعلى المسلم أن يلحظ في صيامه الحكم الروحية والنفسية والجسمية، وأن يطبق التعليمات المتعلقة بها ملتزماً بالاعتدال في الطعام والشراب، وبذلك يحظى بالثواب الكامل والفوائد الجمة».

أحدها : حفظ النسل، ودوام النوع الإنساني إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله بروزها إلى هذا العالم .

الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن .

الثالث: قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وهذه -وحدها- هي الفائدة التي في الجنة؛ إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال .

وفضلاء الأطباء يرون: أن الجماع من أحد أسباب حفظ الصحة .

قال جالينوس : «الغالب على جوهر المني: النار والهواء. ومزاجه حار رطب؛ لأن كونه: من الدم الصافي الذي تغتذي به الأعضاء الأصلية. وإذا ثبت فضل المني؛ فاعلم أنه لا ينبغي إخراجه إلا في طلب النسل، أو إخراج المحتقن منه؛ فإنه إذا دام احتقانه: أحدث أمراضاً رديئة؛ منها: الوسواس، والجنون، والصرع، وغير ذلك، وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض كثيراً؛ فإنه إذا طال احتباسه: فسد،واستحال إلى كيفية سمية، توجب أمراضاً رديئة كما ذكرنا؛ ولذلك تدفعه الطبيعة بالاحتلام إذا كثر عندها من غير جماع» .

وقال بعض السلف: «ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً: أن لا يدع المشي، فإن احتاج إليه يوماً؛ قدر عليه. وينبغي أن لا يدع الأكل؛ فإن أمعاءه تضيق. وينبغي أن لا يدع الجماع؛ فإن البئر إذا لم تنزح؛ ذهب ماؤها» .

وقال محمد بن زكريا[1]: «من ترك الجماع مدة طويلة؛ ضعفت قوى أعصابه، وانسدت مجاريها، وتقلص ذكره.

قال: ورأيت جماعة تركوه؛ لنوع من التقشف؛ فبردت أبدانهم، وعسرت حركاتهم، ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم». انتهى .

---

(١) هو الرازي الطبيب.

ومن منافعه: غضُّ البصر، وكفُّ النفس، والقدرة على العفة عن الحرام؛ وتحصيل ذلك للمرأة. فهو ينفع نفسه في دنياه وأخراه، وينفع المرأة؛ ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويحبه، ويقول: «حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب»[١].

وحثَّ على التزويج أمته، فقال: «تزوجوا؛ فإني مكاثر بكم الأمم»[٢].

وقال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»[٣].

وقال ﷺ: «إني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر؛ فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني»[٤].

وقال: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحفظ للفرج. ومن لم يستطع: فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»[٥].

ولما تزوج جابر ثَيِّباً، قال له: «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»[٦].

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١)، وأحمد (٣/ ١٩٩) من حديث أنس- رضي الله عنه-،وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٥/ ٤٠/ ٥١٨٩- هداية الرواة).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥) من حديث معقل بن يسار- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس- رضي الله عنه-.

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٧٩)، ومسلم (٧١٥).

ومن حديث ابن عباس -يرفعه- قال: «لم نر للمتحابين مثل النكاح»[١].

ومن حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاع؛ وخير متاع الدنيا: المرأة الصالحة»[٢].

وكان ﷺ يحرض أمته على نكاح الأبكار الحسان، وذوات الدين؛ فعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ:أيُّ النِّساء خير ؟ قال: «التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله»[٣].

وعنه، عن النبيِّ ﷺ قال : «تنكح المرأة: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين؛ تربت يداك»[٤].

وكان يحث على نكاح الولود، ويكره المرأة التي لا تَلِد؛ كما في «سنن أبي داود»: عن مَعْقِلِ بن يسار: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأةً ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال: «لا». ثم أتاه الثانية، فنهاه. ثم أتاه الثالثة، فقال: «تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم»[٥].

ومما ينبغي تقديمه على الجماع: ملاعبة المرأة وتقبيلها، ومصّ لسانها. وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله، ويقبلها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧)، والحاكم (٢/ ١٦٠)، وصححه شيخنا - رحمه الله- في «الصحيحة» (٦٢٤)

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

(٣) أخرجه النسائي (٦/ ٦٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١)، والحاكم (٢/ ١٦١)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٨٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٥) تقدم (ص ٣٢٨).

وكان ﷺ ربما جامع نساءه كلّهن بغسل واحد، وربما اغتسل عند كل واحدة منهن؛ فعن أنس: « أن النبي ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد »[١].

وعن أبي رافع -مولى رسول الله ﷺ-: أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة، فاغتسل عند كلّ امرأةٍ منهنّ غسلاً، فقلت: يا رسول الله! لو اغتسلت غُسلاً واحداً؛ فقال: «هذا أزكى وأطهر وأطيب»[٢].

وشرع للمجامع إذا أراد العود قبل الغسل: الوضوء بين الجماعين؛ كما في حديث أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ :«إذا أتى أحدكم أهله، ثم أراد أن يعود؛ فليتوضأ»[٣].

وفي الغسل والوضوء بعد الوطء: من النشاط وطيب النفس، وإخلاف بعض ما تحلّل بالجماع، وكمال الطهر والنظافة، واجتماعِ الحار الغريزي إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع، وحصولِ النظافة التي يحبها الله ويبغض خلافها؛ ما هو من أحسن التدبير في الجماع، وحفظ الصحة والقوى فيه.

فصل

وأنفع الجماع ما حصل بعد الهضم، وعند اعتدال البدن؛ في حرّه وبرده، ويبوسته ورطوبته، وخلائه وامتلائه . وضرره عند امتلاء البدن؛ أسهل وأقل من ضرره عند خلوّه. وكذلك ضرره عند كثرة الرطوبة؛ أقلّ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٩)، وابن ماجه (٥٩٠)، وحسنه شيخنا الإمام الألباني-رحمه الله-.

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٨)

منه عند اليبوسة. وعند حرارته؛ أقل منه عند برودته. وإنما ينبغي أن يجامع: إذا اشتدت الشهوة، وحصل الانتشار التام الذي ليس عن تكلف، ولا فكر في صورة، ولا نظر متتابع.

ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع ويتكلفها، ويحمل نفسه عليها، وليبادر إليه: إذا هاجت به كثرة المني، واشتد شبقه.

وليحذر جماع العجوز، والصغيرة التي لا يوطأ مثلها، والتي لا شهوة لها، والمريضة، والقبيحة المنظر، والبغيضة؛ فوطء هؤلاء يوهن القوى، ويضعف الجماع بالخاصّية .

وغلط من قال من الأطباء: إن جماع الثيّب أنفع من جماع البكر، وأحفظ للصحة!.

وهذا من القياس الفاسد، حتى ربما حذر منه بعضهم؛ وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس، ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة.

وفي جماع البكر من الخاصية، وكمال التعلق بينها وبين مجامعها، وامتلاء قلبها من محبته، وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره؛ ما ليس للثيب .

وقد قال النبي ﷺ لجابر: «هلا تزوجت بكراً»[1]، وقد جعل الله -سبحانه- من كمال نساء أهل الجنة -من الحور العين- أنهن لم يطمثهنَّ أحد قبل من جعلن له من أهل الجنة.

وقالت عائشة للنبي ﷺ: أرأيت لو مرت بشجرة قد أرتع فيها، وشجرة لم يرتع فيها؛ ففي أيهما كنت ترتع بعيرك ؟قال: « في التي لم يرتع فيها»[2] ؛ تريد: أنه لم يأخذ بكراً غيرها .

وجماع المرأة المحبوبة في النفس يقلُّ إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمني.

---

(١) مضى تخريجه (ص ٣٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٧).

وجماع البغيضة يحلُّ البدن، ويوهن القوى مع قلة استفراغه.

وجماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً؛ فإنه مضرٌّ جداً، والأطباء قاطبة تحذر منه[1].

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في «الطب النبوي والعلم الحديث» (٢/ ١١٥-١١٧): «إن للاعتزال الجنسي مدة الحيض مبررات بدنية ونفسية في كلا الجنسين، وخاصة عند المرأة:

أولاً: عند المرأة:

١- إن احتقان الأعضاء الجنسية الخارجية والداخلية في فترات الحيض يجعلها أكثر حساسية وأسرع تعرضاً للتسلخ والالتهاب؛ خاصة إذا وجد عدم التناسب بين أعضاء الرجل والمرأة، أو استعمل الرجل ضراوته نتيجة تهيجه.

٢- إن معظم الجراثيم ترحب بالوسط الذي تتيحه إفرازات الحيض حيث أن الدم يجعل وسط المهبل معتدلاً أو قلوياً بعد أن كان حامضاً، فتتكاثر بسرعة عظيمة ونشاط عجيب، وذلك حال الجراثيم الكامنة في أعضاء المرأة والرجل والجراثيم التي تدخل من الخارج أثناء المباضعة. وإضافة إلى ذلك فإن مقاومة المرأة للأمراض تنقص إلى حدها الأدنى أثناء الحيض، وكثيراً ما يستفيق في الطمث التهاب كامن في أعضاء المرأة الجنسية، ويزيد في إمكانية ذلك وفي اشتداد الالتهاب حدوث المباضعة وقت الحيض.

٣-إن التهيج المرافق للمناسبة الجنسية يزيد في احتقان وتوارد الدم إلى الأعضاء الجنسية، وقد يؤدي ذلك إلى النزف الطمثي الشديد- لا سيما إذا كان بالأعضاء التناسلية ورم أو التهاب-، وقد يؤدي إلى زيادة ألم الطمث، فإذا كان عند المرأة ميل للنزف الطمثي أو لاشتداد آلام الطمث؛ فعلى بعلها أن يمتنع حتى عن الاقتراب النفسي والملاعبة الزائدة.

٤- يتقلص الرحم أثناء الارتعاش الجنسي عند المرأة ثم يرتخي مرتشفاً محتويات المهبل من مني ومفرزات وما تحوي من جراثيم، وقد يؤدي ذلك إلى التهاب البطانة الرحمية أو التهاب الملحقات، خاصة وأن أعضاء المرأة الجنسية تكون أكثر استعداداً للالتهاب في فترة الحيض.

=

= ٥- إن التوعك والآلآم والحالة شبه المرضية أو المرضية التي تصيب كثيراً من النساء في فترة الحيض تجعل المرأة غير مستعدة نفسياً للمناسبة الجنسية في ذلك الظرف على الغالب، خاصة وأنها تشعر في تلك الفترة بالهبوط والضيق والزهد.

٦- وإذا كانت المرأة على استعداد نفسي للمناسبة الجنسية أثناء طمثها؛ فلتذكر أنها معصية الله -تعالى-، وأن أغلبية الرجال يشعرون بالاشمئزاز والنفور من الرائحة الشهرية المرافقة للطمث، وقليل منهم الذين يشعرون ببهجة وانجذاب.

إن شم هذه الرائحة الشهرية لا يقتصر على منطقة الأعضاء الجنسية، بل تمتد في معظم النساء إلى إفرازات الجلد والنفس؛ فالذوق الغني الجميل يهيب بالمرأة أن تأخذ حذرها في فترة الطمث من إثارة اشمئزاز زوجها؛ لتظل بهيجة في نظره، محببة إلى نفسه، وليزداد شوقه.

ثانياً: عند الرجال:

١- إن النفور والاشمئزاز الذي يعرض للرجل من الرائحة الشهرية ومنظر الدم السائل قد يؤدي به إلى برودة تجاه زوجته.

٢- قد يحدث عند الرجل التهاب الإحليل بعد البضاع في أثناء الطمث؛ بتسرب مفرزات الحيض إليه. وعوامل هذا الالتهاب جراثيم مختلفة: قد تكون كامنة في أعضاء المرأة التناسلية فتعود إلى نشاطها وحيويتها أثناء الطمث، وقد تصل جراثيم التهاب الإحليل إلى سائر الجهاز البولي التناسلي؛ فتسبب في بعض أقسامه التهاباً قد يزمن.

٣- إن الجماع في أثناء الحيض إسراف من جانب الرجل في وقت مقطوع فيه بعدم حدوث الحمل، وهو الغرض الأسمى من الجماع، والحيض على كل حال يمكن اعتباره فترة استجمام للرجل أياً كانت قوته، يكون بعدها أشد رغبة في الجماع وأكثر لذة فيه.

إن تلك الإضرار التي قد تلحق بالمرأة أو الرجل من جراء المباضعة وقت الحيض هي الأذى المذكور في قوله -تعالى-: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ أي: يسألونك عن إتيان النساء أثناء حيضهن؛ فقل لهم: إن ذلك أذى وضرر؛ فابتعدوا عنه.

ذكر الله -جل وعلا- ذلك بأسلوب عال لطيف، ونزلت هذه الآية قصداً بين ما يفعله العرب في المدينة وما حولها، وما يفعله اليهود من إفراطهم في مجانبة النساء في =

وأحسن أشكال الجماع: أن يعلو الرجل المرأة، مستفرشاً لها، بعد الملاعبة والقُبلة؛ وبهذا سميت المرأة: فراشاً؛ كما قال ﷺ : «الولد للفراش»[1].

وهذا من تمام قوَّامية الرجل على المرأة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣٤]، وكما قيل:

إذا رمتها كانت فراشاً يقلُّني
وعند فراغي خادمٌ يتملَّق

وقد قال -تعالى-: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧]. وأكمل اللباس وأسبغه على هذه الحال؛ فإن فراش الرجل لباس له، وكذلك لحاف المرأة لباس لها. فهذا الشكل الفاضل مأخوذ من هذه الآية، وبه يحسن موقعُ استعارة اللباس: من كلٍ من الزوجين للآخر .

وفيه وجه آخر، وهو أنها تنعطف عليه أحياناً، فتكون عليه كاللباس. قال الشاعر[2]:

= أثناء الحيض؛ فلا يجالسونهن ولا يؤاكلونهن، وبين النصارى الذين لا يتحرجون من إتيان نسائهم في الحيض.

وبما أن المرأة غالباً ما تكون في أيام الطمث عديمة الرغبة بالجماع أو نافرة منه، وبما أن الرجل هو العنصر الفاعل في المناسبة الجنسية اقتضى ذلك توجيه الخطاب إلى الرجال: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

إن الحكمَ الصحية التي ذكرتها في اعتزال النساء في المحيض ينطبق معظمها على اعتزالهن في النفاس».

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٥)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.

(٢) هو النابغة الجعدي، والبيت في ديوانه (ص٨١)، وانظر:« الشعر والشعراء» (ص٢٩٦).

إذا مـــا الضَّجيـــع ثنـــى جيدهـــا
تثنَّـــت فكـــانتْ عليـــه لباســـاً

وأردأ أشكاله: أن تعلوه المرأة، ويجامعها علــى ظـهره. وهـو خـلاف الشكل الطبيعي الذي طبع الله عليه الرجل والمرأة، بل نوع الذكر والأنثى.

وفيه من المفاسد: أن المنّي يتعّسر خروجه كلُّه، فربمـا بقـي في العضـو منه بقية: فيتعفن ويفسد، فيضر.

و-أيضاً- : فربما سال إلى الذّكر رطوبات من الفرج. و-أيضاً-: فـإن الرحم لا يتمكن من الاشتمال على الماء، واجتماعـه فيـه، وانضمامـه عليـه لتخليق الولد.

و-أيضاً- : فإن المرأة مفعول بها طبعـاً وشـرعاً، وإذا كـانت فاعلـة؛ خالفت مقتضى الطبع والشرع .

وكان أهل الكتاب إنما يـأتون النسـاء علـى جنوبـهن -علـى حـرف- ويقولون: هو أيسر للمرأة .

وكانت قريش والأنصار تشرح النساء علـى أقفائـهن، فعـابت اليـهود عليـهم ذلـك؛ فـأنزل الله- عــز وجــل-: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٣][١] .

وعن جابر، قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته مِن دبرهـا في قبلها؛ كان الولـدُ أحـوَلَ، فـأنزل الله -عـز وجـل-: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾.

وفي لفظ لمسلم: « إن شاء مجبية، وإن شاء غير مجبية، غـير أن ذلـك في صمامٍ واحد»[٢] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٦٤)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥).

والمجبية: المنكبة على وجهها، والصمام الواحد: الفـرج، وهـو موضـع الحرث والولد .

وأما الدبر؛ فلم يبح قط على لسان نبي مـن الأنبيـاء. ومـن نسـب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها؛ فقد غلط عليه.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **« ملعون من أتى المـرأة في دبرها»**(١) .

وفي لفظ: **«لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها»**(٢) .

وفي لفظ: **« من أتى حائضاً، أو امـرأة في دبرهـا، أو كاهنـا، فصدقـه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**(٣) .

وقـال رسـول الله ﷺ: **«لا تـأتوا النسـاء في أعجـازهن؛ فـإن الله لا يستحي من الحق»**(٤) .

عن جابر –يرفعه-: **«استحيوا من الله؛ فإن الله لا يستحيي من الحق، لا تأتوا النساء في حشوشهن»**.

ورواه الدارقطني(٥) من هذه الطريـق؛ ولفظـه: **« إن الله لا يسـتحيي من الحق؛ لا يحل مأتاك النساء في حشوشهن»**.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيـه عـن جـده: أن رسـول الله ﷺ قـال: **«تلك اللوطية الصغرى»**(٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٦٢)، وابن ماجه (١٩٢٣)، وأحمـد (٢/ ٤٤٤و٤٧٩)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٣١٢٩- «هداية الرواة»).

(٢) أخرجـه ابـن ماجـه (١٩٢٣) ، وأحمـد (٢/ ٢٧٢و٣٤٤) مـن حديـث أبـي هريرة- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا في « صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٥)، وأبو داود (٣٩٠٤)، وابن ماجـه (٦٣٩)، وأحمـد (٢/ ٤٠٨و٤٧٦)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٢٠٠٦).

(٤) صحيح؛ كما في «إرواء الغليل» (٢٠٠٥).

(٥) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٢٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٢) وغيره، وحسنه شـيخنا الألبـاني- رحمـه الله- في « صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٢٥).

وعن ابن عباس، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هلكت، فقال: «وما الذي أهلكك؟» ، قال: حولت رحلي البارحة، قال: فلم يرد عليه شيئاً؛ فأوحى الله إلى رسوله: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾؛ «أقبل وأدبر، واتق الحيضة والدبر»[١].

وعن ابن عباس مرفوعا : «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر»[٢] .

عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قال: « ملعون من يأتي النساء في محاشهن»؛ يعني : أدبارهن[٣] .

عن خزيمة بن ثابت: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساء في أدبارهن، فقال: «حلا ل». فلما ولى؛ دعاه، فقال: « كيف قلت؟ في أي الخربتين؟ أو في أي الخرزتين؟ أو في أي الخصفتين أم من دبرها في قبلها : فنعم، أم من دبرها في دبرها: فلا، إن الله لا يستحيي من الحق؛ لا تأتوا النساء في أدبارهن»[٤] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٨١)، وأحمد (١/ ٢٩٧)، وحسنه شيخنا الألباني-رحمه الله- في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) أخرجه الترمذي (١١٦٥)، وحسنه شيخنا الألباني-رحمه الله- في « مشكاة المصابيح« (٣٥١٨- «هداية الرواة»).

(٣) إسناده حسن؛ أخرجه ابن عدي في « الكامل» (١/ ٢١١)، ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم .

(٤) أخرجه الشافعي (٢/ ٥٦/ ٩٠)- ومن طريقة البيهقي (٧/ ١٩٦)-، وأحمد (٥/ ٢١٣و٢١٤و٢١٥)، والدارمي (١/ ٢٦١و٢/ ١٤٥) من طرق عن خزيمة بن ثابت مرفوعاً به.

قلت:والحديث بمجموع طرقه حسن، والله أعلم.

قلت : ومن هاهنا نشأ الغلط على من نقل عنه الإباحة من السلف والأئمة؛ فإنهم أباحوا أن يكون الدُّبُر طريقاً إلى الوطء في الفرج، فيطأ من الدبر، لا في الدبر؛ فاشتبه على السامع: «من» بـ «في»، ولم يظن بينهما فرقاً، فهذا الذي أباحه السلف والأئمة، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشه .

وقد قال -تعالى-: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

قال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله -تعالى-: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ فقال: « تأتيها من حيث أمرت أن تعتزلها»؛ يعني: في الحيض .

وقال علي بن أبي طلحة عنه: يقول: « في الفرج، ولا تعده إلى غيره» .

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها من وجهين:

أحدهما : أنه أباح إتيانها في الحرث- وهو موضع الولد- لا في الحُشِّ الذي هو موضع الأذى. وموضع الحرث هو المراد من قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾، وإتيانها في قبلها من دبرها مستفاد من الآية -أيضاً-؛ لأنه قال: ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾؛ أي: من أين شئتم من أمام أو من خلف . قال ابن عباس: ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ ﴾؛ يعني: الفرج.

وإذا كان الله حرَّم الوطء في الفرج؛ لأجل الأذى العارض؛ فما الظنُّ بالحشِّ الذي هو محلّ الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل؟! والذريعة القريبة جداً من أدبار النساء إلى أدبار الصبيان .

و-أيضاً-؛ فللمرأة حقٌّ على الزوج في الوطء؛ ووطؤها في دبرها يفوِّت حقّها، ولا يقضي وطرها، ولا يحصل مقصودها.

و-أيضاً-؛ فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل، ولم يخلق له؛ وإنما الذي هيُئ له الفرج، فالعادلون عنه إلى الدُّبُر؛ خارجون عن حكمة الله وشرعه جميعاً .

و-أيضاً-؛ فإن ذلك مضر بالرجل؛ ولهذا ينهى عنه عقلاء الأطباء من الفلاسفة وغيرهم؛ لأن للفرج خاصّية في اجتذاب الماء المحتقن، وراحة الرجل منه، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء، ولا يخرج كلّ المحتقن؛ لمخالفته للأمر الطبيعي .

و-أيضاً-؛ يضر من وجه آخر، وهو: إحواجه إلى حركات متعبة جداً؛ لمخالفته للطبيعة.

و-أيضاً-؛ فإنه محل القذر والنّجو، فيستقبله الرجل بوجهه، ويلابسه .

و-أيضاً-؛ فإنه يضُّر بالمرأة جداً؛ لأنه وارد غريب، بعيد عن الطباع، منافر لها غاية المنافرة .

و-أيضاً-؛ فإنه يحدث الهمّ والغم، والنفرة عن الفاعل والمفعول .

و-أيضاً-؛ فإنه يسوّد الوجه، ويظلم الصدر، ويطمس نور القلب، ويكسو الوجه وحشة تصير عليه كالسِّيماء: يعرفها من له أدنى فراسة .

و-أيضاً-؛ فإنه يوجب النُّفرة والتباغض الشديد، والتقاطع بين الفاعل والمفعول؛ ولا بد .

و-أيضاً-؛ فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فساداً لا يكاد يرجى بعده صلاح؛ إلا أن يشاء الله بالتوبة النصوح .

و-أيضاً-؛ فإنه يذهب بالمحاسن منهما، ويكسوهما ضدّها، كما يذهب بالمودة بينهما، ويبدلهما بها تباغضاً وتلاعناً .

و-أيضاً-؛ فإنه من أكبر أسباب زوال النعم، وحلول النقم؛ فإنه يوجب اللعنة والمقت من الله، وإعراضه عن فاعله، وعدم نظره إليه، فأيُّ خير يرجوه بعد هذا؟ وأيُّ شر يأمنه؟ وكيف حياة عبد قد حلّت عليه لعنة الله ومقته، وأعرض عنه بوجهه، ولم ينظر إليه؟!

و-أيضاً-؛ فإنه يذهب بالحياء جملة، والحياء هو حياة القلوب، فإذا فقدها القلب؛ استحسن القبيح، واستقبح الحسن؛ وحينئذ فقد استحكم فساده .

و-أيضاً-؛ فإنه يحيل الطباع عما ركبها الله عليه، ويخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يركب الله عليه شيئاً من الحيوان؛ بل هو طبع منكوس، وإذا نكس الطبع؛ انتكس القلب، والعمل، والهدى؛ فيستطيب حينئذ الخبيث من الأعمال والهيئات، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره .

و-أيضاً-؛ فإنه يورث من الوقاحة والجرأة؛ ما لا يورثه سواه .

و-أيضاً-؛ فإنه يورث من المهانة والسِّفال والحقارة؛ ما لا يورثه غيره.

و-أيضاً- ؛ فإنه يكسو العبد -من حلة المقت والبغضاء، وازدراء الناس له، واحتقارهم إياه، واستصغارهم له - ما هو مشاهد بالحسِّ.

فصلاة الله وسلامه على من سعادة الدنيا والآخرة في هديه واتباع ما جاء به، وهلاك الدنيا والآخرة: في مخالفة هديه وما جاء به .

فصل

والجماع الضار: نوعان:

ضار شرعاً.

وضار طبعاً .

فالضار شرعاً : المحرم. وهو مراتب بعضها أشدُّ من بعض . والتحريم العارض منه أخفُّ من اللازم؛ كتحريم الإحرام، والصيام، والاعتكاف، وتحريم المظاهر منها قبل التكفير، وتحريم وطء الحائض، ونحو ذلك؛ ولهذا لا حدَّ في هذا الجماع .

وأما اللازم؛ فنوعان:

نوع لا سبيل إلى حلّه ألبتة؛ كذوات المحارم، فهذا من أضر الجماع، وهو يوجب القتل حداً عند طائفة من العلماء؛ كأحمد بن حنبل -رحمه الله- وغيره. وفيه حديث مرفوع ثابت(١).

والثاني : ما يمكن أن يكون حلالاً؛ كالأجنبية:

فإن كانت ذات زوج؛ ففي وطئها حقّان : حقّ لله، وحقّ للزوج .

فإن كانت مكرهة: ففيه ثلاثة حقوق.

وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك؛ صار فيه أربعة حقوق.

فإن كانت ذات محرم منه؛ صار فيه خمسة حقوق .

فمضرة هذا النوع بحسب درجاته في التحريم .

وأما الضار طبعاً، فنوعان -أيضاً- :

نوع ضار بكيفيته؛ كما تقدم.

ونوع ضار بكميته؛ كالإكثار منه، فإنه يسقط القوة، ويضر بالعصب، ويحدث الرعشة، والفالج، والتشنج، ويضعف البصر وسائر القوى، ويطفئ الحرارة الغريزية، ويوسع المجاري، ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية .

وأنفع أوقاته: ما كان بعد انهضام الغذاء في المعدة، وفي زمان معتدل لا على جوع؛ فإنه يضعف الحار الغريزي، ولا على شبع؛ فإنه يوجب أمراضاً شديدةً، ولا على تعب، ولا إثْر حمام، ولا استفراغ، ولا انفعال نفساني؛ كالغم والهمِّ والحزن وشدة الفرح .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٧)، والترمذي (١٣٦٢)، والنسائي (٦/ ١٠٩)، وأحمد (٢/ ٢٩٥) من حديث البراء بن عازب، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٨/ ١٨/ ٢٣٥١).

وأجود أوقاته: بعد هزيع من الليل، إذا صادف انهضام الطعام. ثم يغتسل أو يتوضأ، وينام عليه، وينام عقبه، فتراجع إليه قواه، وليحذر الحركة والرياضة عقبه؛ فإنها مضرة جداً .

فصل
في هديه ﷺ في علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض: في ذاته وأسبابه وعلاجه. وإذا تمكَّن واستحكم؛ عزَّ على الأطباء دواؤه، وأعيى العليل داؤه.

وإنما حكاه الله -سبحانه- في كتابه عن طائفتين من الناس: من النساء، وعشاق الصبيان المردان. فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط؛ فقال -تعالى- إخباراً عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٦٧-٧٢].

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حقَّ قدره؛ أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال: «سبحان مقلِّب القلوب»! وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة : أمسكها؛ حتى أنزل الله عليه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾

[الأحزاب:٣٧] [(١)]، فظنّ هذا الزاعم: أن ذلك في شأن العشق؛ وصنَّف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء، وذكر هذه الواقعة. وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله ﷺ إلى ما برأه الله منه. فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه، وكان يدعى: زيد بن محمد، -وكانت زينب فيها شمم وترفُّع عليه-؛ فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه أن يتزَّوجها إن طلقها زيد؛ وكان يخشى من قالة الناس: أنه تزوَّج امرأة ابنه؛ لأن زيداً كان يدعى ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له. ولهذا ذكر -سبحانه- هذه الآية يعدّد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحقُّ أن يخشاه، فلا يتحرَّج ما أحله له؛ لأجل قول الناس. ثم أخبره أنه -سبحانه- زوّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها؛ لتقتدي أمَّته به في ذلك، ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبنّي، لا امرأة ابنه لصلبه؛ ولهذا قال في آية التحريم: ﴿ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ ﴾ [النساء:٢٣]، وقال في هذه السورة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٠]؛ وقال في أولها: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، فتأمَّل هذا الذبَّ عن رسول الله ﷺ، وادفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق .

نعم: كان رسولُ الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبَّهن إليه عائشة -رضي الله عنها-، ولم تكنِ تبلغ محبته لها ولا لأحد -سوى ربه- نهاية

---

(١) خبر باطل؛ أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٠١-١٠٢)، والحاكم (٤/ ٢٣) من طريق محمد بن عمر الواقدي؛ وهو متروك.

الحب؛ بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلا».[1]

وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن»[2] .

فصل

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله –تعالى–، المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه. فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه: دفع ذلك عنه مرض عشق الصور؛ ولهذا قال –تعالى– في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤]؛ فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه؛ ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ؛ يعني: فارغاً مما سوى معشوقه .

قال –تعالى–: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ [القصص:١٠]؛ أي: فارغاً من كل شيء إلا من موسى؛ لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به .

والعشق مركب من أمرين: استحسان للمعشوق، وطمع في الوصول إليه. فمتى انتفى أحدهما: انتفى العشق.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٦) من حديث عبد الله بن عباس– رضي الله عنهما–. ومسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود– رضي الله عنه–.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) (٧) من حديث عبد الله بن مسعود– رضي الله عنه–.

وقد أعيت علَّة العشق على كثير من العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب .

فنقول: قد استقرت حكمة الله - عز وجل - في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسرُّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسّفلي، إنما هو: التناسب والتشاكل والتوافق. وسرُّ التباين والانفصال، إنما هو: بعدم التشاكل والتناسب. وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر، والضِّد عن ضده هارب، وعنه نافر. وقد قال -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩]؛ فجعل -سبحانه- علة سكون الرجل إلى امرأته؛ كونها مِن جنسه وجوهره، فعلة السكون المذكور - وهو الحب -؛ كونها منه؛ فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي وإن كانت هذه -أيضاً- من أسباب السكون والمحبة .

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«الأرواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**(١) .

وسبب هذا الحديث: أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس، فجاءت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبيّ ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة»**(٢) الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٨١) من حديث عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة- رضي الله عنها-.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٨): «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح»؛ وهو كما قال.

وقد استقرت شريعته -سبحانه-: أن حكم الشيء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبداً، ولا تجمع بين متضادين، ومن ظن خلاف ذلك؛ فإما لقلة علمه بالشريعة، وإما لتقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطاناً؛ بل يكون من آراء الرجال. فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه، وبالعدل والميزان قام الخلق والشرع، وهو: التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين .

وهذا كما أنه ثابت في الدنيا؛ فهو كذلك يوم القيامة ، قال -تعالى-: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات:٢٢].

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبعده الإمام أحمد -رحمه الله-: أزواجهم: أشباهُهم ونُظراؤهم.

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير:٧]؛ أي: قرن كلّ صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين في الله: في الجنة، وقرن بين المتحابّين في طاعة الشيطان: في الجحيم. فالمرء مع من أحبّ شاء أو أبى. عن النبي ﷺ:« لا يحب المرء قوماً إلا حشر معهم»(١) .

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥و١٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٢/٨- تحفة الأشراف)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٥٦٦)، والحاكم (١/ ١٩) وغيرهم من طرق عن شيبة الخضري، قال:كنا عند عمر بن عبد العزيز، فحدثنا عروة بن الزبير عن عائشة- رضي الله عنها-:أن رسول الله ﷺ قال: « ...ولا يحب رجل قوماً إلا جعله الله -عز وجل- معهم...».

قلت: إسناده ضعيف؛ لجهالة شيبة الخضري، قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف».

ولكن يشهد له حديث ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول!كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: « المرء مع من أحب».

أخرجه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).

والمحبة أنواع متعددة:

فأفضلها وأجلها : المحبة في الله ولله؛ وهي تستلزم محبة ما أحبَّ الله، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها: محبة الاتفاق في طريقة، أو دين، أو مذهب، أو نحلة، أو قرابة، أو صناعة، أو مراد ما .

ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب؛ إمّا من جاهه، أو من ماله، أو مِن تعليمه وإرشاده، أو قضاء وطر منه، وهذه هي المحبة العرضية: التي تزول بزوال موجبها، فإنَّ من ودَّك لأمر؛ ولَّى عنك عند انقضائه .

وأمّا محبة المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب؛ فمحبة لازمة، لا تزول إلا لعارض يزيلها. ومحبة العشق من هذا النوع: فإنها استحسان روحانيّ، وامتزاج نفسانيّ، ولا يعرض في شيء من أنواع المحبة: من الوسواس والنّحول، وشغل البال، والتلف ما يعرض من العشق .

فإن قيل: فإذا كان سبب العشق ما ذكرتم -من الاتصال والتناسب الروحاني-، فما باله لا يكون دائماً مِن الطرفين، بل تجده كثيراً من طرف العاشق وحده؟ فلو كان سببه الاتصال النفسي، والامتزاج الروحاني؛ لكانت المحبة مشتركة بينهما .

فالجواب: أن السبب قد يتخلَّف عنه مسبَّبه؛لفوات شرط، أو لوجود مانع، وتخلُّف المحبة من الجانب الآخر، لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة في المحبة، وأنها محبة عرضية لا ذاتية، ولا يجب الاشتراك في المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب .

الثاني : مانع يقوم بالمحب يمنع محبة محبوبه له، إما في خلقه، أو في خُلقِهِ، أو هديه، أو فعله، أو هيئته، أو غير ذلك .

الثالث: مانع يقوم بالمحبوب، يمنع مشاركته للمحب في محبته، ولولا ذلك المانع: لقام به من المحبة لمحبّه مثل ما قام بالآخر.

فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية؛ فلا يكون قط إلا من الجانبين.

ولولا مانع الكبر والحسد، والرياسة والمعاداة في الكفار؛ لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم؛ كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال .

فصل

والمقصود: أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض، كان قابلاً للعلاج، وله أنواع من العلاج.

فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعاً وقدراً، فهو علاجه؛ كما ثبت في« الصحيحين» من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب!من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع : فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»(١) .

فدل المحب على علاجين: أصلي، وبدلي، وأمره بالأصلي: وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلا .

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺأنه قال: «لم نر للمتحابين مثل النكاح»(٢) .

وهذا هو المعنى الذي أشار إليه -سبحانه- عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨]؛ فذكر تخفيفه -سبحانه- في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان: يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة،

---

(١) تقدم (ص ٣٢٨).

(٢) تقدم (ص ٣٢٨).

وأنه - سبحانه - خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء- إن احتاج إلى ذلك-؛ علاجا لهذه الشهوة، وتخفيفا عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به .

فصل

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال معشوقه قدرًا أو شرعاً، أو هو ممتنع عليه من الجهتين- وهو الداء العضال- فمن علاجه:

إشعار نفسه اليأس منه؛ فإن النفس متى يئست من الشيء: استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس؛ فقد انحرف الطبع انحرافاً شديداً، فينتقل إلى علاج آخر، وهو علاج عقله؛ بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها، والدوران معها في فلكها. وهذا معدود -عند جميع العقلاء- في زمرة المجانين .

وإن كان الوصال متعذراً شرعاً لا قدراً؛ فعلاجه:

بأن ينزله منزلة المتعذر قدرًا؛ إذ ما لم يأذن فيه الله؛ فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات، فإن لم تجبه النفس الأمارة؛ فليتركه لأحد أمرين: إما خشية، وإما فوات محبوب هو أحب إليه، وأنفع له، وخير له منه، وأدوم لذة وسرورًا؛ فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال، بفوات محبوب أعظم منه، وأدوم، وأنفع، وألذ، أو بالعكس: ظهر له التفاوت، فلا تبع لذة الأبد -التي لا خطر لها- بلذة ساعة تنقلب آلاما، وحقيقتها: أنها أحلام نائم، أو خيال لا ثبات له؛ فتذهب اللذة، وتبقى التبعة، وتزول الشهوة، وتبقى الشقوة .

الثاني : حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب، بل يجتمع له الأمران؛ أعني : فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب. فإذا تيقن أن في إعطاء النفس حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين؛ هان عليه تركه، ورأى أن صبره على فوته أسهل من صبره عليهما بكثير. فعقله ودينه، ومروءته وإنسانيته؛ تأمره باحتمال الضرر اليسير، الذي ينقلب سريعاً لذة وسروراً وفرحاً؛ لدفع هذين الضررين العظيمين . وجهله وهواه، وظلمه وطيشه، وخفته: يأمره بإيثار هذا المحبوب العاجل بما فيه، جالبا عليه ما جلب، والمعصوم من عصمه الله .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تطاوعه لهذه المعالجة؛ فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلته، وما تمنعه من مصالحها. فإنها أجلب شيء لمفاسد الدنيا، وأعظم شيء تعطيلا لمصالحها؛ فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذي هو ملاك أمره، وقوام مصالحه .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء؛ فليتذكر قبائح المحبوب، وما يدعوه إلى النفرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعاف محاسنه التي تدعو إلى حبه. وليسأل جيرانه عما خفي عليه منها؛ فإن المحاسن كما هي داعية الحب والإرادة؛ فالمساوئ داعية البغض والنفرة. فليوازن بين الداعيين، وليحب أسبقهما وأقربهما منها بابا، ولا يكن ممن غره لون جمال على جسم أبرص مجذوم، وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل، وليعبر من حسن المنظر والجسم، إلى قبح المخبر والقلب .

فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها: لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه: مستغيثا به، متضرعاً، متذللاً، مستكيناً. فمتى وفق لذلك: فقد قرع باب التوفيق. فليعف وليكتم، ولا يشبب بذكر المحبوب، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى؛ فإنه يكون ظالما معتديا .

ولا يغتَّر بـالحديث الموضـوع علـى رسـول الله ﷺ؛ أنـه قـال: « مـن عشق؛ فعف، فمات؛ فهو شهيد»، وفي روايـة:« مـن عشـق، وكتـم وعـف وصبر؛ غفر الله له، وأدخله الجنة»[١].

فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن يكون مـن كلامه؛ فإن الشهادة درجة عالية عنـد الله، مقرونـة بدرجـة الصديقيـة، ولهـا أعمال وأحوال هي شرط في حصولها. وهي نوعان: عامة وخاصة.

فالخاصة: الشهادة في سبيل الله.

والعامة: خمس مذكورة في «الصحيح»[٢]، ليس العشق واحدا منها[٣].

وكيف يكون العشق -الـذي هـو شـرك في المحبـة، وفـراغ القلـب عـن الله، وتمليك القلب والروح، والحب لغيره- تنال به درجـة الشـهادة؟! هـذا مـن المحال؛ فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد، بـل هـو خمـر الـروح الذي يسكرها، ويصدها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاتـه، والأنـس بـه، ويوجب عبودية القلب لغيره؛ فإن قلب العاشق متعبد لمعشوقه، بـل العشـق لب العبودية: فإنها كمال الذل، والحب والخضوع والتعظيم. فكيـف يكـون تعبد القلب لغير الله، مما تنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم؟!

---

(١) وانظر- لزاما-: « السلسلة الضعيفة» (٤٠٩)؛ ففيها بحث حديثي ماتع.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنـه-: أن رسـول الله ﷺ قـال: «الشـهداء خمسـة: المطعـون، والمبطـون، والغـرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله».

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٩)، ومسلم (١٩١٤) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنـه- أن رسـول الله ﷺ قـال: «الشـهداء خمسـة: المطعـون، والمبطـون، والغـرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله».

قلت: وانظر الأحاديث المجموعة في ذلك في رسالة: «أبـواب السـعادة في أسـباب الشـهادة» للسيوطي، وفي «أحكـام الجنـائز وبدعـها» (ص٥٨-٥٩) لشـيخنا الإمـام الألباني- رحمه الله-.

وخواصِّ الأولياء؟! فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس: كان غلطاً ووهماً. ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق، في حديث صحيح ألبتة.

ثم إن العشق منه حلال، ومنه حرام. فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه يحكم على كلِّ عاشق يكتم ويعفُّ بأنه شهيد؟! فترى من يعشق امرأة غيره، أو يعشق المردان والبغايا، ينال بعشقه درجة الشهداء. وهل هذا إلاَّ خلاف المعلوم من دينه ﷺ بالضرورة. كيف والعشق مرض من الأمراض التي جعل الله -سبحانه- لها الأدوية شرعاً وقدراً، والتداوي منه إما واجب: إن كان عشقاً حراماً؛ وإما مستحب.

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات - التي حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة-؛ وجدتها من الأمراض التي لا علاج لها؛ كالمطعون، والمبطون، والمجنوب، والحريق، والغريق، وموت المرأة يقتلها ولدها في بطنها، فإن هذه بلايا من الله لا صنع لعبد فيها، ولا علاج لها، وليست أسبابها محرمة، ولا يترتب عليها: مِن فساد القلب، وتعبده لغير الله، ما يترتب على العشق. فإن لم يكف هذا في إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقلِّد أئمة الحديث العالمين به وبعلله: فإنه لا يحفظ عن إمام واحد منهم قط؛ أنه شهيد له بصحة، بل ولا بحسن، كيف: وقد أنكروا على سويد هذا الحديث، ورموه لأجله بالعظائم، واستحل بعضهم غزوه لأجله[1].

---

(١) قال ابن قيم الجوزية- رحمه الله- في « الداء والدواء» (ص٣٧٤): « وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، وما صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه، ويرجع في علم التصحيح إليه... ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وشهد ببطلانه».

وفي صحته موقوفاً على ابن عباس نظر[١].

فصل
في هديه ﷺ في حفظ الصحة بالطيب

لما كانت الرائحة الطيبة غذاء الروح، والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطِّيب: وهو ينفُع الدماغ والقلب، وسائر الأعضاء الباطنية، ويفرح القلب، ويسر النفس، ويبسط الروح. وهو أصدقُ شيء للروح، وأشدُّه ملاءمة لها؛ وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قريبة: كان أحد المحبوبين من الدنيا، إلى أطيب الطيِّبين -صلوات الله عليه وسلامه- .

وفي « صحيح البخاري» أنه ﷺ كان لا يردُّ الطِّيب.[٢]

وفي« صحيح مسلم» عنه ﷺ :**« من عرض عليه ريحان، فلا يرده؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»**[٣] .

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ :**«من عرض عليه طيب، فلا يرده: فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة»**[٤] .

---

(١) قال المصنف - رحمه الله- في « الداء والدواء» (ص٣٧٤): «... نعم، ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه... وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس»

قلت: الصواب عدم صحة الأثر عن ابن عباس؛ لأنه - أيضاً- من طريق سويد(!)

وأقره شيخنا - رحمه الله- في« الضعيفة» (١/ ٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٩) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٥٣) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٤) أخرجه أبو داود (٤١٧٢)، والنسائي ٨/ ١٨٩)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

وعن النبي ﷺ؛ أنه قال :« نظفوا أفناءكم وساحاتكم، ولا تشبهوا باليهود، يجمعون الأكب في دورهم»[١]. الأكب: الزبالة .

وصح عنه؛ أنه قال: «إن لله حقا على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، وإن كان له طيب أن يمس منه»[٢].

وفي الطيب من الخاصية: أن الملائكة تحبه، والشياطين تنفر عنه، وأحب شيء إلى الشياطين: الرائحة المنتنة الكريهة، فالأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة، وكل روح تميل إلى ما يناسبها؛ فالخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات. وهذا وإن كان في النساء والرجال؛ فإنه يتناول الأعمال والأقوال، والمطاعم والمشارب، والملابس والروائح؛ إما بعموم لفظه، أو بعموم معناه[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) من حديث سعد بن أبي وقاص، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «جلباب المرأة المسلمة» (١٩٧-١٩٨) بشواهده.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٦١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢٣٤-إحسان) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح ابن خزيمة»، وقال: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٣) قال الإمام ابن مفلح- رحمه الله- في « الآداب الشرعية» (٢/ ٣٨٤-٣٩٥): «ذكر أنواع ما يتطيب به شماً أو بخوراً أو غير ذلك.

قال الأطباء: أظفار الطيب هي أظفار تشبه الأظفار، عطرة الرائحة، حار يابس في الثانية، ملطف إذا تبخرت به المرأة أزال الحيض، ودخانه ينفع من بها اختناق الرحم، وإذا شرب حرك البطن.

بان: حار يابس في الثانية. وقيل: حرارته في الثانية، وقيل: رطب، وقيل: قشره قابض، وهو يجلو ويقطع ويقلع الثآليل والكلف والبهق، وينفع الأورام الصلبة مع المرهم، وينفع من الجرب والحكة والبثور، ويسخن العصب، ويقطع الرعاف بقبضه، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويلين صلابتهما ضماداً مع دقيق الكرسنة، وينفع من السوداء والبلغم.

=

= قال ابن جزلة: مثقال حبة منه يسهل البلغم، وهو يؤذي المعدة ويغثي، ويصلحه الرازيانج، وبدله وزنه فوه ونصف وزنه قشور السليخة، وعشر وزنه بسباسة.

البنفسج: بارد في الثانية، رطب في الثالثة، يجلب النوم، ويسكن الصداع الحار.

ريحان: قال الله -تعالى-: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]. وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن:١٢].

أهل المغرب يخصون الريحان بالآس، وهو الذي تعرفه العرب من الريحان. وهو بارد في الأولى يابس في الثانية. والأكثر فيه الجوهر الأرضي البارد، وفيه مع هذا شيء حار لطيف؛ فهو لذلك يجفف تجفيفاً قوياً، قوته قابضة حابسةمن داخل وخارج معاً، قاطع للإسهال الصفراوي وهو ينشف الرطوبات في المعدة، ويقوي المعدة والقلب، ويذهب الخفقان ويولد السهر. إصلاحه بالبنفسج الطري نافع للبخار الحار الرطب إذا شم وأكل حبه، ويفرح القلب جداً، وشمه نافع للوباء، وكذلك افتراشه في البيت، ويبري الأورام الحادثة في الحالبين إذا وضع عليها، وإذا دق ورقه غضاً وضرب بالخل ووضع على الرأس قطع الرعاف. وإذا سحق ورقه اليابس وذر على القروح ذوات الرطوبة نفعها، وتقوي الأعضاء الواهنة إذا ضمد به، وينفع الداحس، وفي الآباط والأربية وغيرهما المتغير الرائحة، ويقطع عرق من به خفقان ويقويه. ويؤكل حبه رطباً ويابساً لنفث الدم. وطبيخ ثمره يسود الشعر، وحبه صالح للسعال بما فيه من الحلاوة الطبيعية، وليس بضار للصدر ولا الرئة، قاطع للعطش، ذاهب بالقيء، وليس في الأشربة ما يعقل وينفع من أوجاع الرئة والسعال غير شرابه.

وإذا جلس في طبيخه نفع من خروج المقعدة والرحم ومن استرخاءالمفاصل، وإذا صب على كسور العظام التي لم تلحم نفعها. ويجلو قشور الرأس وبثوره ويمسك الشعر المتساقط ويسوده، وإذا دق ورقه وصب عليه ماء يسير وخلط به شيء من زيت أو دهن الورد وضمد به وافق القروح الرطبة والنملة والحمرة والأورام الحارة والبثرة والبواسير.

وهو مدر للبول نافع من لدغ المثانة وعض الرتيلا ولسع العقرب. وَرُبُّه يمنع سيلان الفضول إلى المعدة، وليحذر التخلل بعرقه؛ فإنه يضر لحم الفم ويهيج الدم.

ومن الخواص: أنه إذا اتخذت حلقة مثل الخاتم من قضيب الآس الطري وأدخل فيها خنصر الرجل الذي في أرنبته ورم سكنه.

=

= ومن المجرب: أن يؤخذ عود من آس ويحرق طرفه ويوضع على طرف الدمل أول ما يظهر؛ فإنه لا يتزيد.

وأما الآس المعتصر والمستقطر؛ فيقطع العرق، وإذا جفف ورقه وبخرت به البواسير البارزة أضمرها وشفى منها، وإن خلط مع سندروس كان أقوى. وإذا طبخ حبه في زيت إنفاق ويدهن به قطع العرق الكثير، وأصلح نسيم العرق .

والآس يقوي العين ويقطع دمعتها ويمنع ما ينحدر إليها إذا طلي على الجبهة.

وأما الريحان: غير الآس؛ فيطلق على الحبق، قال بعضهم: أهل الشام والعراق يخصونه به. قال ابن جزلة: قيل: هو ورق الخلاف وهو جبلي وبستاني ونهري، وهو نبات طيب الريح جيد الطعم مربع الساق ورقه نحو ورق الخلاف، والجبلي حار يابس في الثالثة، والبستاني حار في الثانية يابس في الأولى، والنهري أقوى أنواعه وهو يذهب بنفخ العدس والباقلاء إذا خلط به ويقطع البلغم ويقوي المعدة وينفع من الاستسقاء إذا أكل مع التين حبه. وقال ابن جزلة: ريحان هو الشاهسفرم أجوده الصعتري حار في الأولى يابس في الثانية، وقيل: معتدل ، وقيل: بارد، وهو يحلل الفضلات من الدماغ ويملأ الدماغ البارد بخاراً، وإصلاحه باللينوفر.

وقال بعضهم: الريحان الفارسي الذي يسمى الحبق قيل: حار ينفع شمه من الصداع الحار إذا رش عليه الماء، ويبرد ويرطب بالغرض. وقيل : بارد، وقيل رطب، وقيل: يابس يجلب النوم، وبزره حابس للإسهال الصفراوي مقو للقلب نافع للأمراض السوداوية. قال أهل اللغة والغريب: الريحان كل نبت مشموم طيب الرائحة، والكلام على ذلك يطول.

سك: حار يابس في الثانية قابض مقو للإحشاء، وفي الطيب منه تحليل وتفتيح وهو جيد لأوجاع المفاصل، وقيل: يزيد في الباه، وهو يعقل الطبع إذا ضمد به البطن، ويمنع النزيف، وينفع من أوجاع القلب. وقدر ما يؤخذ منه نصف درهم وشمه يصدع الرأس الحار، ويصلحه الكافور.

سنبل الطيب: حار في الأولى يابس في الثانية، وقيل: في أول الثالثة مفتح محلل يتخذ منه غسول لليد طيب. وذريرته تمنع العرق. وهو يحلل الأورام ويقوي الدماغ، ويثبت أهداب العين إذا وضع في الأكحال. وينفع الخفقان وينقي الصدر والرئة، ويفتح سدد الكبد والمعدة ويقويهما، ويطيب النكهة، ويمنع من اليرقان ووجع الطحال، ويمسك الطبع، وقدر ما يؤخذ منه درهم.

=

= العنبر: حار يابس في الثانية ينفع المشايخ ملطف، تسخينه يقوي الدماغ والحواس والقلب تقوية عجيبة، ويزيد في الروح، قال بعضهم: هو مقو لجوهر كل روح في الأعضاء، وإذا تبخر به نفع من الزكام والصداع والشقيقة الباردة.

وأجود ألوانه الأشهب ثم الأزرق ثم الأصفر. واختلف الناس في عنصره، وهو مذكور في الفقه في إزالة النجاسة. ويضر من يعتاده الماشر ويصلحه الكافور والخيار.

غالية: تلين الأورام الصلبة، ومع دهن البان تقطر في الأذن الوجعة، وشمها ينفع المصروع وينعشه وللمسكوت، وتسكن الصداع البارد، وشمها يفرح القلب وينفع من أوجاع الرحم الباردة حمواً ومن أورامها الصلبة والبلغمية، وتدر الحيض وتنفع من اختناق الرحم وينقيها ويهيئها للحبل وهي مركبة من مسك وسك ومثل نصف المسك عنبر. ويخلط الجميع بدهن بان أو دهن اللينوفر. والعود قريب منه، ومزاجه أقرب إلى العدل. ويضر شمه بأمراض الدماغ الحار، ومضغه يطيب النكهة ويفرح القلب. وأجوده الهندي، ثم الصيني، ثم القماري بفتح القاف، ثم المندلي، وأجوده الأسود والأزرق الصلب، وأقله جودة ما خف وطفا على الماء. وفي خلط الكافور به إصلاح كل منهما بالآخر، وفي التبخر وهو التجمر مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه فإن في صلاحه صلاح البدن.

الفاغية: نور الحناء.

زباد: حار في الثالثة معتدل في الرطوبة محلل ينفع للصداع البارد، ويسكن وجع الأذن وينفع من البول العارض في الفراش محلولاً بدهن البنفسج أو يعمل على ورقه مقشورة فتيلة وتحمل في القضيب، وإذا أمسك في الفم جفف المني، وقيل: يلذذ الجماع طلاء، وفي عنصره خلاف في إزالة النجاسة.

زعفران: حار في الثانية يابس في الأولى فيه قبض، وهو محلل منضج يصلح العفونة والبلغم ويقوي الأحشاء ويحسن اللون ويجلو البصر والغشاوة ويكتحل به للزرقة المكتسبة في الأمراض. ويقوي القلب ويفرحه وينوم صاحب الشقيقة ويهيج الباه، يدر البول، ويسهل الولادة إذا شرب بمح البيض، وينفذ الأدوية التي يخلط بها إلى جميع البدن. وأكثر ما يستعمل منه إلى درهم وهو مصدع بالرأس منوم مظلم للحواس، ويسقط الشهوة ويغثي ويضر بالرئة، ويصلحه الأينيسون، ويقال: ثلاثة مثاقيل منه تقتل بالتفريح.

=

= القرنفل: حار يابس في الثانية، يطيب النكهة، ويحد البصر، ويقوي الكبد ورائحته تقوي الدماغ البارد وهو مفرح. قال بعضهم: هو مقو للمعدة والدماغ والقلب وينفع من القيء والغثيان وقدر ما يؤخذ منه إلى درهم.

كافور : بارد يابس في الثالثة يمنع الأورام الحارة مع عصير البنج أو ماء الباذروج، وينفع الصداع الحار، ويقوي حواس المحرورين، وينفع في أدوية الرمد الحارة. ودانق منه ينفع من الورم الحار، ودرهم منه يخلص من مضرة العقرب الجرارة مع ماء التفاح الحامض. والإكثار منه يسرع الشيب ويقطع الباه، ويولد حصاة الكلى والمثانة، وشمه يسهر في الحميات، ويصلحه البنفسج واللينوفر، ويجعل في غسل الميت؛ لأنه يطيب ويصلب ويبرد، فلا يسرع الفساد.

اللينوفر: بارد رطب في الثانية برده أكثر من البنفسج، وقيل: بارد في الثالثة، أصله ينفع إذا جعل على البهق بالماء، ومن الأورام الحادة ضماداً ،وبزره يمنع النزف، وإذا غلي وصب على رأس من ناله حرارة نفعه. قال ابن سينا في كتاب « الأدوية القلبية» : اللينوفر يقرب في أحكامه من الكافور إلا أنه أرطب منه ورطوبته لكثرتها تحدث لجوهر الروح الذي في الدماغ كلالاً وفتوراً إلا أن يكون محتاجاً إلى ترطيب وتبريد ليعتدل. ويعدل برده بالدارصيني. وقال غيره: يقرب من الكافور الصندل وهو بارد في آخر الثانية، وقيل: في الثالثة، يابس في الثانية ينفع من الصداع والخفقان العارض في الحميات الحادة وللكبد الحارة وللفم الحار، والمحرك منه يفيد الحك يسير حرارة كما يستفيد الدقيق من العجن، وإن خلط مع الأدوية المشروبة لتقوية المعدة والكبد وتبريدهما نفع، ويضر بالصوت ويصلحه الجلاب. وأجوده المقاصري، وقيل: الأبيض منه أقوى من الأحمر، وقيل: أضعف، والأحمر بارد يابس في الثانية، وقيل: بارد في الثالثة، يمنع من انصباب المواد، ويحلل الأورام الحادة ويطلي على الحمرة وينفع الصداع.

لبان: الذي يقال له: حصى لبان، وهو الكندر. حار في الدرجة الثانية يابس في الأولى، وقيل: في الثانية منهما، ينفع من قذف الدم ونزفه، ويحبس القيء، ومن وجع المعدة واستطلاق البطن، ويهضم الطعام، ويطرد الرياح، ويجلو قروح العين، وينبت اللحم في سائر القروح، ويقوي المعدة الضعيفة ويسخنها، ويجفف البلغم، وينشف رطوبات الصدر، ويجلو ظلمة البصر، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار وفيه قبض يسير. وهو أفضل العلك. وإذا مضغ وحده أو مع الصعتر الفارسي جلب البلغم، ونفع =

= من اعتقال اللسان، ويزيد في الذهن ويذكيه، وأن بخر بهما نفع من الوباء وطيب رائحة الهواء، وهويجود الحفظ.

وهذا إذا كان النسيان حدث من البلغم الرطب الذي يربط مقدم الدماغ، ويمنعه من قبول ما يودعه فيه، فيبقى كالشمع الذائب، ولا يقبل الطابع، وينفع فيه شم المسك والمرزنجوش وجميع الطيب الحار، والتغذي فيه بماء الحمص مع الخردل والحساء المتخذة من اللوز مع العسل، ويستعمل فيه الانكباب على المياه اللطيفة المحللة؛ كماء البابونج والمرزنجوش، وللكندر خاصية في تجفيف الدماغ وقوته بخاصية في النارنجيل، وهو : جوز الهند ومرقة الدجاج ولحمها والذي يضر الذهن: الكسفرة الرطبة والتفاح الحامض ولم يقل بعضهم الحامض وإدمان السكر وكثرة الهم والفكر والغم.

مرزنجوش: ويسمى المردقوش يابس في الثانية، وقيل: في الرابعة، وقيل : في الثالثة ملطف ينفع من الصداع عن برد وبلغم سوداء وزكام ورياح غليظة، ويفتح السدد الحادثة في الرأس والمنخرين، ويحلل أكثر الأورام والأوجاع الباردة الرطبة، وإذا احتمل أدر الطمث، وأعان على الحبل، وإذا طلي ماؤه على العضو بعد الفراغ من الحجم منع الآثار الحادثة عن الشرط بعد الحجم، ويطلى يابسه على الدم واخضراره وخصوصاً تحت العين فيحلله. وطبيخه ينفع من الاستسقاء. وخمسة دراهم منه ينفع من الشري البلغمي، وهو ينفع من عسر البول والحيض، ويضمد به لسع العقرب مع الخل، ودهنه نافع لوجع الظهر والركبتين ويذهب بالإعياء. ومن شمه لم ينزل في عينه الماء، وإذا استعط بمائه مع دهن اللوز المر، فتح سدد المنخرين، ونفع من الريح العارضة فيهما وفي الرأس. وذكر حنين: أنه يضر بالمثانة وأنه يصلحه بزر البقلة الحمقاء.

المسك: قال -تعالى-: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُۥ مِسْكٌ ﴾ [المطففين:٢٥و٢٦].

وهو حار يابس في الثانية، وقيل: في الثالثة، يسر النفس ويقوي الأعضاء الباطنة جميعها شرباً وشماً، والظاهرة إذا وضع عليها، نافع للمشايخ والمبرودين لا سيما زمن الشتاء، جيد للغشي والخفقان وضعف القوة بإنعاشه للحرارة الغريزية ، ويجلو بياض العين وينشف رطوبتها وينفس الرياح منها ومن جميع الأعضاء، ويبطل عمل السموم، وينفع من نهش الأفاعي، ويوصل الأدوية إلى داخل طبقات العين ويقوي القلب ويفرح ويذكي، وشمه يضر بالدماغ الحار، ويورث الصفار، ويصلحه الكافور.

=

= وذكر ابن جزلة وغيره: أن من خواصه أن يبخر الفم إذاوقع في الطبيخ، وهو أطيب الطيب كما سبق عن الصادق المصدوق ﷺ ؛ ولهذا كان هو المذكور في أخبار صفة الجنة. ففي حديث أنس: « **ترابها المسك**» متفق عليه. « **وطين نهر الكوثر المسك الإذفر**» رواه البخاري.

ومن قدم من الأطباء العنبر على المسك؛ فقد أخطأ، وكون العنبر لا يتغير على طول الزمان فهو كالذهب، فهذه خاصية واحدة للعنبرلا تقاوم ما في المسك، والله أعلم.

ميعة: فيها قبض وتجفيف حارة يابسة،وقيل : رطبة تسخن وتلين وتنضج، وقيل: تنقي الدماغ، وتنفع الجذام، وتمسك الطبع. يؤخذ منها إلى مثقال، وتنفع من السعال، والزكام، والنزلات، والبحوحة من رطوبة وتحدر الحيض شرباً وحملاً وهي مصدعة، وقيل: تضر بالرئة، ويصلحها المصتكي.

ند: يسخن إذا بخر به، والبخور به يقوي القلب وينفع من السموم، وهو مركب من عود هندي ومسك وعنبر يعجن بهما، وقد يعمل من عنبر ومسك، وقد يضم إلى ذلك الكافور.

نرجس: معتدل في الحر واليبس يلطف. وقيل: حار يابس في الثانية، وقيل: في الثالثة فيه تحليل قوي.

وينفع الزكام البارد، ويفتح سدد الدماغ والمنخرين، وينفع من الصداع عن رطوبة أو سوداء، ويصدع الرؤوس الحارة، ويصلحه البنفسج أو الكافور.

وأصله وهوبصل يدمل القروح الغائرة إلى العصب، وله قوة جالية جاذبة تجذب من القعر، ويجلو ويخرج الشوك ويجلو الكلف، وينفع من داء الثعلب، ويهيج الدبيلات. وأكله يهيج القيء ويجذب الرطوبة من قعر البدن، والمحدق منه إذا شق بصله صليباً وغرس صار مضاعفاً. ومن أدمن شمه في الشتاء أمن البرسام في الصيف، وفيه من العطرية ما يقوي القلب والدماغ، قال صاحب « التيسير»: شمه يذهب بصرع الصبيان.

ورد : مركب من جوهرين مائي وأرضي، فيه حراقة وقبض ومرارة، ومرارته تقل إذا يبس، بارد في الأولى، يابس في الثانية، وقيل: في الثالثة متوسط في الغلظ واللطافة، تجفيفه أقوى من قبضه. يقوي الأعضاء الباطنة واللثة والأسنان، ويصلح نتن العرق إذا استعمل في الحمام ويقطع الثآليل. وإذا استعمل مسحوقاً ينفع من القروح والسجوح في المعلى وينبت اللحم في القرحة العميقة، مسكن للصداع الحار، مهيج للزكام والعطاس، وأقماعه تنفع من نفث الدم، وهو نافع للكبد والمعدة. ويسكن أوجاع

=

= السفل طلاء بريشة، ويحتقن بطبيخه لقروح الأمعاء. والطري منه يسهل: عشرة دراهم منه عشرة مجالس، وثلاثة دراهم منه تنفع من حرارة حمة الربع، ويابسه لا يسهل. وإذا طبخ مع العدس وضمدت به المعدة نفع قروحها. وإذا أمسك في الفم نفع من النتن والقلاع، لا سيما إذاخلط معه العدس والكافور، وشم الطري يقوي الدماغ والقلب وهو يقطع شهوة الباه إذا اضطجع على المفروش منه أو أكل لتبريده وتجفيفه. وماء الورد بارد، وقيل: حار، يشد اللثة ويسكن وجع العين من حرارة، وإذا تجرع منه نفع من الغشي ونفث الدم، وقوي القوة وآلاتها والمعدة ، خشن الصدر، ويصلحه نبات الجلاب. ومن الورد نوع حار محرق.

ورد صيني: وهو ورد النسرين: هو كالياسمين في أفعاله، وأضعف منه، ودهنه كدهن النرجس. وهوحار يابس في الأولى، وقيل: في الثالثة، منق ملطف ينفع من برد العصب، ويقتل الديدان في الأذن وينفع من طنينها ودويها، ويفتح سدد المنخرين، ويسكن القيء والفواق.

ورد الخلاف: ورد التفاح وورد الكمثرى وورد السفرجل بارد يقوي القلب والدماغ.

ورد الجوري: أجوده الأصفر، حار في الأولى، معتدل في اليبس ملطف محلل، شمه ينفع الدماغ البارد الرطب، ويحلل الرياح الغليظة. وماؤه المطبوخ إذا شرب أدر الحيض، وأسقط المشيمة ويحلل أورام الرحم إذا طلي على العانة.

لاذن: هو رطوبة تتعلق بشعر المعزى ولحاها إذا رعت نباتاً معروفاً يقع عليه طل وترتكم عليه نداوة، فإذا علق بشعر المعزى؛ أخذ عنها وكان اللاذن. والرديء منه ما يعلق بأظلافها. وأجوده: الدسم الرزين، الطيب الريح الذي لونه إلى الصفرة ، وهو حار في آخر الأولى، وقيل: في آخر الثانية، رطب، وقيل: يابس، وهو لطيف جداً وفيه يسير قبض، منضج للرطوبات الغليظة اللزجة، وينبت الشعر المنتشر ويكثفه ويحفظه مع دهن الآس، ويخرج الجنين الميت والمشيمة تدخيناً في قمع. وإن شرب بشراب؛ عقل البطن، وأدر البول. وهو ينقي البلغم، وقدر ما يؤخذ منه إلى نصف درهم، ويلين صلابة المعدة والكبد ويقويهما إذا كان قد نالها ضعف من برد.

ياسمين: ويقال له:ياسمون، وهو أبيض وأصفر وأرجواني، والأبيض أسمنه وبعده الأصفر، وهو يابس حار في الدرجة الثالثة، وقيل: في الثانية، ويلطف الرطوبات، ويذهب الكلف، ويحل الصداع البلغمي إذا شم، وينفع أصحاب اللقوة والفالج، ويفتح السدد، وينفع من عرق النسا، وكثيره ينفع الطحال، ويرث الصفار، ورائحته مصدعة، ويصلحه الكافور».

فصل
في هديه ﷺ في حفظ صحة العين

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كانت للنبي ﷺ مكحلة يكتحل منها ثلاثاً في كل عين»[(١)] .

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان رسول الله ﷺ إذا اكتحل: يجعل في اليمنى ثلاثاً، يبتدئ بها، ويختم بها، وفي اليسرى ثنتين»[(٢)] .

وعنه ﷺ قال: «من اكتحل؛ فليوتر»[(٣)] .

فهل الوتر بالنسبة إلى العينين كلتيهما؛ فيكون في هذه ثلاث، وفي هذه ثنتان- واليمنى أولى بالابتداء والتفضيل- أو هو بالنسبة إلى كل عين؛ فيكون في هذه ثلاث، وفي هذه ثلاث؟ وهما قولان في مذهب أحمد وغيره .

وفي الكحل: حفظ لصحة العين، وتقوية للنور الباصر، وجلاء لها، وتلطيف للمادة الرديئة، واستخراج لها مع الزينة في بعض أنواعه، وله عند النوم مزيد فضل؛ لاشتمالها على الكحل، وسكونها عقيبه عن الحركة المضرة بها، وخدمة الطبيعة لها، وللإثمد من ذلك خاصية .

وعن سالم عن أبيه -يرفعه-: «عليكم بالإثمد؛ فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر»[(٤)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩٩)،والترمذي (١٧٥٧)، وأحمد (١/ ٣٥٤)، وصححه بشواهده شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٤/ ٢٤٨/ ٤٣٩٨- «هداية الرواة»).

(٢) «الصحيحة» (٦٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥)، وابن ماجه (٣٣٧)، وضعفه شيخنا الألباني- رحمه الله-، ويغني عنه ما صححه شيخنا في «الصحيحة» (٢٧٤٦) بلفظ: «كان يكتحل وتراً».

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٤٩٥)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٧٢٤).

وفي كتاب أبي نعيم[1]: «فإنه منبتة للشعر، مذهبة للقذى، مصفاة للبصر».

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- يرفعه: «خير أكحالكم الإثمد؛ يجلو البصر، وينبت الشعر»[2].

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٧٨) من حديث علي- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٦٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٧٨)، وابن ماجه (٣٤٩٧)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

فصل

في ذكر شيء من الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسانه ﷺ مرتبة على حروف المعجم

حرف الهمزة

إثمد[1]:

---

(١) هو الكحل الأسود، وليس له قيمة علاجية، ويستعمل -الآن- للزينة فقط.(ع).

قلت: هكذا قال الدكتور عادل الأزهري (!) ولعل مراده: أن الكحل لم يعد يستعمل كعلاج في طب العيون الحديث وإنما للزينة فقط.

وإن أراد نفي قيمته العلاجية؛ فخطأ مركز من ثلاثة وجوه:

الأول: أنه مصادم للأحاديث النبوية الصحيحة.

الثاني: أن الكحالين (أطباء العيون) استعملوه كعلاج على مر العصور.

قال الكحال ابن طرخان: « وأجود الإثمد: السريع التفتت، وما كان لفتاته بريق وكان داخله أملس، ولم يكن فيه شيء من الأوساخ ، ينفع العيون.. ويحفظ صحتها».

وقال داود الأنطاكي: « وأجوده: الرزين والبراق السريع التفتت، اللذاع بين مرارة وحلاوة وقبض... وهو قابض، مكثف، يشد الأعصاب ، ويقطع الدم مطلقاً حيث كان ، خصوصاً بالشحوم. وتغسله أهل مصر بماء طوبه؛ يعني : كانون الثاني؛ فيصير غاية في حدة البصر وحفظ صحة العين خصوصاً بالمسك...».

وقد ذكر ابن البيطار في « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» (١/ ١٧-١٨) كثيراً من فوائده الطبية العلاجية عند الأطباء القدماء.

الثالث: أن الأطباء المعاصرين لا يزالون يقرون بفوائده الطبية العلاجية.

قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٢٧٧):

«عرف العرب والبشر منذ القديم استعمال كحل الزينة للعين؛ ليعطيها والوجه جمالاً، وليخفف عنها أشعة الشمس، فتزيد الرؤيا وضوحاً وجلاء؛ ولذا كثر استعماله حتى عند الرجال في البلاد الحارة ذات الشمس الساطعة معظم السنة والصحارى الواسعة؛ كما في شبه الجزيرة العربية، وخاصة أهل البادية والرعاة وفي العاملين في حراثة الأرض وزراعتها تحت أشعة الشمس القوية.. ولقد فضل رسول الله ﷺ كحل الأثمد على غيره من أكحال الزينة الخالية منه؛ وذلك لأن الأثمد يقوي بصيلات أهداب العين فيحفظ الرموش فتطول أكثر، وبذلك تزاد قدرتها في حفظ العين من أشعة الشمس وفي تصفية الغبار والأوساخ ، فتزيد الرؤيا وضوحا وجلا أكثر منها في استعمال الأكحال الخالية من الإثمد».

=

هو حجر الكحل الأسود، يؤتى به من أصبهان، وهو أفضله، ويؤتى به من جهة المغرب -أيضاً-. وأجوده السريع التفتيت الذي لفتاته بصيص، وداخله أملس ليس فيه شيء من الأوساخ.

ومزاجه بارد يابس: ينفع العين ويقوّيها، ويشد أعصابها، ويحفظ صحتها، ويذهب اللحم الزائد في القروح ويدملها، وينقي أوساخها، ويجلوها، ويذهب الصداع: إذا اكتحل به مع العسل المائي الرقيق، وإذا دقّ وخلط ببعض الشحوم الطرية، ولطخ على حرق النار؛ لم تعرض فيه خشكريشة، ونفع من التنفُّط الحادث بسببه، وهو أجود أكحال العين؛ لا سيما للمشايخ والذين قد ضعفت أبصارهم، إذا جعل معه شيء من المسك.

أترجّ:[1]

ثبت في «الصحيح»: عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن؛ كمثل الأترجة: طعمها طيب، وريحها طيب**»[2].

= قلت: والإثمد هو: الأنتيموان، عنصر من أشباه المعادن، بلوري الشكل، قصديري اللون، صلب هش لامع، ذو تركيب رقائقي، يوجد في الطبيعة في حالة حرة نقية، وغالباً متحداً مع غيره من العناصر بحالة (سولفيد) أو (أوكسيد) أو (أوكسي سولفيد)، وشكله بحالة (سولفيد)، ويدعى: «انتمونيت»، وعندما يفرك بين الأصابع ينشر رائحة واضحة.

والأثمد لا يستعمل صرفاً كحلاً للعين، وإنما يمزج بكحل الزينة.

(١) ويسمى- أيضاً-: تفاح العجم أو ليمون اليهود، وقشره يحتوي على زيت طيار؛ وهو لذلك طارد للأرياح هاضم.(ع).

قلت: هو ثمر شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر إلى استدارة، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، زكي الرائحة، حامض الماء، وبزره شبيه ببزر الكمثرى.

(٢) أخرجه البخاري(٥٠٢٠)، ومسلم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه-.

في الأترج منافع كثيرة. وهو مركب من أربعة أشياء: قشر، ولحم، وحمضٍ، وبزر، ولكل واحد منها مزاج يخصُّه: فقشره حار يابس، ولحمه حار رطب، وحمضه بارد يابس، وبزره حار يابس .

ومن منافع قشره: أنه إذا جعل في الثياب منع السوس. ورائحته تصلح فساد الهواء والوباء، ويطيب النَّكهة إذا أمسكه في الفم، ويحلّل الرياح. وإذا جعل في الطعام؛ كالأبازير[1]: أعان على الهضم .

قال صاحب «القانون» : « وعصارة قشره تنفع من نهش الأفاعي شرباً، وقشره ضماداً، وحراقة قشره طلاء جيد للبرص» . انتهى .

وأمّا لحمه: فملّطف لحرارة المعدة، نافع لأصحاب المرَّة الصفراء، قامع للبخارات الحارة .

وقال الغافقيُّ : «أكل لحمه ينفع البواسير» . انتهى .

وأمّا حمضه: فقابض كاسر للصفراء، ومسكن للخفقان الحار، نافع من اليرقان شرباً واكتحالاً، قاطع للقيء الصفراوي، مشهٌ للطعام، عاقل للطبيعة، نافع من الإسهال الصفراويُّ، وعصارةُ حمضه يسكّن غلمة النساء[2]، وينفع طلاءً من الكلف، ويذهب بالقوباء[3].

ويستدل على ذلك مِن فعله في الحبر: إذا وقع في الثياب قلعه. وله قوة تلطّف وتقطع وتبرد، وتطفئ حرارة الكبد، وتقوّي المعدة، وتمنع حدَّة المرَّة الصفراء، وتزيل الغمَّ العارض منها، وتسكن العطش .

وأما بزره: فله قوة محللة مجففة .

---

(١) جمع الجموع لـ« بزور» أو « أبزار» ، ومفردها « بزر» ، وهو: الحب الذي يلقي في الأرض للإنبات.

(٢) شدة شهوة الجماع.

(٣) القوباء: داء في الجسد يتقشر منه الجلد، ويعرف عند العامة بالحزاز.

وقال ابن ماسويه[١] : « خاصية حَبِّه: النفع من السموم القاتلة إذا شرب منه وزن مثقال مقشَّراً بماء فاتر، وطلاء مطبوخ . وإن دُقَّ ووضع على موضع اللسعة: نفع. وهو ملين للطبيعة، مطيب للنكهة، وأكثر هذا الفعل موجود في قشره».

وقال غيره: «خاصية حبّه: النفع من لسعات العقارب إذا شرب منه وزن مثقالين مقشراً بماء فاتر. وكذلك إذا دقَّ ووضع على موضع اللدغة».

وقال غيره: «حبُّه يصلح للسُّموم كلِّها، وهو نافع من لدغ الهوام كلها» .

وذُكِر أن بعض الأكاسرة غضب على قوم من الأطباء، فأمر بحبسهم، وخيرَّهم أدماً لا يزيد لهم عليه، فاختاروا الأترج، فقيل لهم: لم اخترتموه على غيره؟ فقالوا : لأنه في العاجل ريحان، ومنظره مفرح، وقشره طيب الرائحة، ولحمه فاكهة، وحمضه أدم، وحبه ترياق، وفيه دهن .

وحقيق بشيء هذه منافعه أن يشبّه به خلاصة الوجود، وهو المؤمن الذي يقرأ القرآن، وكان بعض السلف يحبُّ النظر إليه؛ لما في منظره من التفريح .

أَرُزٌ[٢]:

فيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ:

أحدهما : « أنه لو كان رجلاً؛ لكان حليماً».

---

(١) هو يوحنا بن ماسويه البغدادي،طبيب سرياني، نشأ في بغداد، واتصل بهارون الرشيد، وعهد إليه بترجمة الكتب الطبية، توفي بسامراء(٢٤٣)هـ.

(٢) صنف من الحبوب من الفصيلة النجيلية، وهو نبات حولي، لا غنية له عن الماء حتى يحصد، يحمل سنابل ذوات غلف صفر تقشر عن حب أبيض صغير، وهو من الأغذية الرئيسية في كثير من أنحاء العالم.

وأجوده : الأبيض؛ فالأصفر، وأردؤه الأسود، والذي يزرع في شبه القارة الهندية أجود الجميع.

الثاني :« كل شيء أخرجته الأرض؛ ففيه داء وشفاء؛ إلا الأرز: فإنه شفاء لا داء فيه».

ذكرناهما: تنبيهاً وتحذيراً من نسبتهما إليه ﷺ .

وبعد؛ فهو حار يابس، وهو أغذى الحبوب بعد الحنطة، وأحمدها خلطا: يشد البطن شداً يسيراً، ويقوي المعدة، ويدبغها، ويمكث فيها . وأطباء الهند تزعم: أنه أحمد الأغذية وأنفعها إذا طبخ بألبان البقر. وله تأثير في خصب البدن، وزيادة المني، وكثرة التغذية، وتصفية اللون .

أرز[١]:

بفتح الهمزة وسكون الراء؛ وهو: الصنوبر، ذكره النبي ﷺ في قوله: «مثل المؤمن؛ مثل الخامة من الزرع، تفيئها الرياح؛ تقيمها مرة، وتميلها أخرى. ومثل المنافق؛ مثل الأرزة: لا تزال قائمة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[٢].

وحبه حار رطب، وفيه انضاج وتليين وتحليل ولذع يذهب بنقعه في الماء، وهو عسر الهضم، وفيه تغذية كثيرة، وهو جيد للسعال، ولتنقية رطوبات الرئة، ويزيد في المني، ويولد مغصاً، وترياقه: حب الرمان المز .

إذخر:

ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ؛ أنه قال في مكة: «لا يختلى خلاها». فقال له العباس –رضي الله عنه-: إلا الإذخر يا رسول الله؟! فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر»[٣] .

---

(١) شجر عظيم صلب من الفصيلة الصنوبرية، دائم الخضرة، يعلو كثيراً، تصنع منه السفن، وأشهر أنواعه أرز لبنان.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٣)، ومسلم (٢٨١٠) من حديث كعب بن مالك- رضي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس- رضي الله عنه-.

=

والإذخر: حار في الثانية، يابس في الأولى، لطيف مفتح للسدد وأفـواه العروق، يدر البول والطمـث، ويفتـت الحصـى، ويحلـل الأورام الصلبـة في المعدة والكبـد والكليتـين: شـرباً وضمـاداً. وأصلـه يقـوي عمـود الأسـنان والمعدة، ويسكن الغثيان، ويعقل البطن .

حرف الباء

بطيخ:

عن النبي ﷺ؛ أنه كان يأكل البطيخ بالرطب، يقول: « نكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا»[1] .

= ويسمى: طيب العـرب، يمضغـه الهنـود؛ فيحـدث تنبيـهاً في الجـهاز العصـبي، ويستخرج منه زيت طيار يفيد خارجياً لعلاج الروماتزم.(ع).

وهو نبات معروف عند العرب وبخاصة أهل مكة، طيب الريح له، أصـل غليـظ مندفن وقضبان دقاق، وورقه يميل إلى حمرة وصفرة وحدة، ينبت في السهل والحزن.

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٣٦)، والترمذي (١٨٤٣) من حديث عائشـة -رضـي الله عنها-، وصححه شيخنا الألباني-رحمه الله- في «الصحيحة» (٥٧).

قال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقـه» (١/ ٣٤٩-٣٥٠): «في هـذا الحديـث من الفوائد: أن قوماً ممن سلك طريق الصلاح والتزهد، قالوا: لا يحـل للآكـل أن يـأكل تلذذاً، ولا على سبيل التشهي والإعجاب، ولا يأكل إلا ما لا بد منه؛ إلا لإقامة الرمق، فلما جاء هذا الحديث؛ سقط قول هذه الطائفة، وصلح أن يأكل الأكـل تشـهياً وتفكـهاً وتلذذاً.

وقالت طائفة من هؤلاء القوم -أيضاً-: إنه ليس لأحد أن يجمع بين شـيئين مـن الطعام، ولا بين أدمين على خوان، فكان هذا الحديث يرد علـى صـاحب هـذا القـول ، ويبيح أن يجمع الإنسان بين لونين من الطعام وبين أدمين وأكثر».

وفي البطّيخ عدة أحاديث، لا يصحُّ منها شيء غير هذا الحديث الواحد[١]، والمراد به الأخضر[٢]، وهو بارد رطب، وفيه جلاء، وهو أسرع انحداراً عن المعدة من القثاء والخيار، وهو سريع الاستحالة إلى أي خلط كان صادفه في المعدة. وإذا كان آكله محروراً: انتفع به جداً، وإن كان مبروداً: دفع ضرره بيسير من الزَّنجبيل ونحوه. وينبغي أكله قبل الطعام، ويتبع به؛ وإلا

---

(١) هكذا قال- رحمه الله- ؛ فإن أراد: أنه لا يصح عن غير عائشة -رضي الله عنها-؛ ففيه نظر؛فقد أخرج أحمد (٣/ ١٤٢و١٤٣)، والترمذي في «الشمائل» (ص١١٠- مختصر) وغيرهما عن أنس بن مالك- رضي الله عنه-: **«أن النبي ﷺ كان يأكل الرطب مع الخِرْبز؛ يعني: البطيخ»**

قال شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٥٨): «إسناده صحيح».

(٢) قال شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (١/ ١/ ١٢٥): «هو ظاهر من الحديث، ولكن الحافظ رده في « الفتح» ، وذكر أن المراد به الأصفر...قال : «و(الخربز)- هو بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وكسر الموحدة بعد ها زاي- نوع من البطيخ الأصفر، وقد تكبر القثاء من شدة الحر؛ فتصير كالخربز؛ كما شاهدته كذلك بالحجاز.

وفي هذا تعقب على من زعم: أن المراد بالبطيخ في الحديث الأخضر، واعتل بأن في الأصفر حرارة كما في الرطب، وقد ورد التعليل بأن أحدهما يطفىء حرارة الآخر.

والجواب عن ذلك: بأن في الأصفر بالنسبة للرطب برودة، وإن كان فيه لحلاوته طرف حرارة ، والله أعلم ».

أقول (أي: شيخنا): وفي هذا التعقب نظر عندي؛ ذلك لأن الحديثين مختلفا المخرج؛ فالأول من حديث عائشة، وهذا من حديث أنس؛ فلا يلزم تفسير أحدهما بالآخر؛ لاحتمال التعدد والمغايرة، ولا سيما أن في الأول تلك الزيادة: « نكسر حر هذا ببرد هذا...»، ولا يظهر هذا المعنى تمام الظهور بالنسبة إلى الخربز ما دام أنه يشابه الرطب في الحرارة، والله أعلم».

غثى وقياً. وقال بعض الأطباء[1]: إنه قبل الطعام يغسل البطن غسلاً، ويذهب بالداء أصلاً .

بلح:

وفي البلح برودة ويبوسة، وهو ينفع الفم واللثة والمعدة، وهو رديء للصدر والرئة: بالخشونة التي فيه، بطيء في المعدة، يسير التغذية، وهو للنخلة؛ كالحصرم لشجرة العنب، وهما جميعاً يولدان رياحاً وقراقر ونفخاً، ولا سيما إذا شرب عليهما الماء، ودفع مضرتهما: بالتمر، أو بالعسل والزبد.

بسر:

ثبت في «الصحيح» [2]: أن أبا الهيثم بن التيهان لما ضافه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-؛ جاءهم بعذق - وهو من النخلة؛ كالعنقود من العنب -، فقال له: «هلا انتقيت لنا من رطبه»، فقال: أحببت أن تنتقوا من بسره ورطبه.

البسر[3]:

حار يابس، ويبسه أكثر من حره، ينشف الرطوبة، ويدبغ المعدة، ويحبس البطن، وينفع اللثة والفم، وأنفعه ما كان هشاً وحلواً. وكثرة أكله وأكل البلح: يحدث السدد في الأحشاء .

---

(١) قال شيخنا -رحمه الله- في « الصحيحة» (١/ ١/ ١٢٥): « وهذا الذي عزاه لبعض الأطباء قد روي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ؛ ولكن لا يصح».

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بنحوه.

(٣) تمر النخل قبل أن يرطب.

بيض:

ويختار من البيض الحديث على العتيق، وبيض الدجاج على سائر بيض الطير. وهو معتدل يميل إلى البرودة قليلاً.

قال صاحب «القانون»[1]: «ومحه[2] حار رطب، يولد دماً صحيحاً محموداً، ويغذي غذاء يسيراً، ويسرع الانحدار من المعدة: إذا كان رخواً».

وقال غيره: «مح البيض: مسكن للألم، مملس للحلق وقصبة الرئة، نافع للحلق والسعال وقروح الرئة والكلى والمثانة، مذهب للخشونة، لا سيما إذا أخذ بدهن اللوز الحلو، ومنضج لما في الصدر، ملين له، مسهل لخشونة الحلق.

وبياضه إذا قطر في العين الوارمة ورماً حاراً: برده وسكن الوجع، وإذا لطخ به حرق النار أول ما يعرض له: لم يدعه يتنفط، وإذا لطخ به الوجه: منع الاحتراق العارض من الشمس، إذا خلط بالكندر، وإن لطخ على الجبهة: نفع من النزلة».

وذكره صاحب «القانون» في الأدوية القلبية، ثم قال: «وهو وإن لم يكن من الأدوية المطلقة - فإنه مما له مدخل في تقوية القلب جداً ؛ أعني: الصفرة. وهي تجمع ثلاثة معان : سرعة الاستحالة إلى الدم، وقلة الفضلة، وكون الدم المتولد منه مجانسا للدم الذي يغذو القلب خفيفاً مندفعاً إليه بسرعة؛ ولذلك هو أوفق ما يتلافى به عادية الأمراض المحللة لجوهر الروح».

---

(١) (ص ٢٩-٣٠).

(٢) صفار البيض.

بصل:

ثبت في«الصحيحين»: أنه منع آكله من دخول المسجد[١].

والبصل: حار في الثالثة، وفيه رطوبة فضلية. ينفع من تغير المياه، ويدفع ريح السموم، ويفتق الشهوة، ويقوي المعدة، ويهيج الباه، ويزيد في المني، ويحسن اللون، ويقطع البلغم، ويجلو المعدة. وبزره يذهب البهق، ويدلك به حول داء الثعلب؛ فينفع جدا، وهو بالملح يقلع الثآليل، وإذا شمه من شرب دواء مسهلا: منعه من القيء والغثيان، وأذهب رائحة ذلك الدواء. وإذا استعط بمائه: نقى الرأس. ويقطر في الأذن؛ لثقل السمع والطنين والقيح والماء الحادث في الأذنين، وينفع من الماء النازل في العينين اكتحالاً: يكتحل ببزره مع العسل؛ لبياض العين. والمطبوخ منه كثير الغذاء: ينفع من اليرقان والسعال، وخشونة الصدر، ويدر البول، ويلين الطبع، وينفع من عضة الكلب غير الكلب إذا نطل عليها ماؤه بملح وسذاب. وإذا احتمل: فتح أفواه البواسير.

وأما ضرره؛ فإنه يورث الشقيقة، ويصدع الرأس، ويولد أرياحاً، ويظلم البصر، وكثرة أكله: تورث النسيان، ويفسد العقل، ويغير رائحة الفم والنكهة، ويؤذي الجليس، والملائكة، وإماتته طبخاً تذهب بهذه المضرات منه.

وفي «السنن»[٢]: أنه ﷺ أمر آكله وآكل الثوم أن يميتهما طبخاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٥٢)، ومسلم (٥٦٤).

(٢) الذي وجدته في «سنن النسائي» (٢/ ٤٣)، و«الكبرى» (١١١٣٦)، و«سنن ابن ماجه» (١٠١٤و٣٣٦٢)، والبزار (٣١٤)، وأبي يعلى (١٨٤)، والطيالسي (٥٣و١٤١)، وكذلك في «صحيح مسلم» (٥٦٧و١٦١٧): أن الذي أمر بذلك هو عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-؛ فهو موقوف عليه، وأما المرفوع؛ فأخرجه أحمد (٤/ ١٩)، وأبو داود (٢٨٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦٦٨١)، والطحاوي في

=

ويذهب رائحته مضغ ورق السذاب[1] عليه.

باذنجان:

في الحديث الموضوع المختلق على رسول الله ﷺ: «الباذنجان لما أكل له»[2]. وهذا الكلام مما يستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلا عن الأنبياء.

وهو نوعان: أبيض وأسود، وفيه خلاف: هل هو بارد أو حار؟ والصحيح: أنه حار. وهو مولد للسوداء والبواسير، والسدد والسرطان والجذام، ويفسد اللون ويسوده، ويضر بنتن الفم، والأبيض منه المستطيل عار من ذلك .

= «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٣٨)، والطبراني في « الكبير» (١٩/ ١٥) من حديث قرة المزني بإسناد حسن.

وللجملة التي ذكرها المصنف- رحمه الله- شاهد من حديث أنس - رضي الله عنه- عند الطبراني في « الأوسط» (٣٦٦٨) بإسناد فيه نظر.

وروي عن علي موقوفاً عند الترمذي (١٨٠٨و١٨٠٩) ، وأبي داود (٣٨٢٨) بإسناد فيه نظر.

(١) جنس نباتات طبية من الفصيلة السذابية. وهو الفيجن باليونانية؛ وهو عشبة خضراء زرقاء اللون، تزهو في شهري تموز وآب.

منه بري وبستاني؛ فالبستاني يفرع فروعاً تطلع من ساق له قصيرة تتعشب عليه شعب مثل الأغصان، ويحمل في أطراف أغصانه رؤوساً تتفتح عن زهر صغار الورق أصفر يخلف بزراً في أقماع كالشونيز، مر الطعم حاد، صحفه شديد الحدة. وأما البري؛ فهو أصغر ورقاً من البستاني، وزهره مثل زهر البستاني؛ لكنه أحد وأقوى.

(٢) وقد اتفق الحفاظ على بطلانه.

حرف التاء

تمر:

ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ: «من تصبح بسبع تمرات -وفي لفظ: من تمر العالية-؛لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»[١] .

وثبت عنه أنه قال: «بيت لا تمر فيه جياع أهله»[٢].

وثبت عنه: أكل التمر بالزبد، وأكله مفرداً [٣].

وهو حار في الثانية، وهل هو رطب في الأولى؟ أو يابس فيها ؟ على قولين.

وهو: مقو للكبد، ملين للطبع، يزيد في الباه ولا سيما مع حب الصنوبر، ويبرئ من خشونة الحلق، ومن لم يعتده- كأهل البلاد الباردة-؛ فإنه يورث لهم السدد، ويؤذي الأسنان، ويهيج الصداع. ودفع ضرره باللوز والخشخاش.

وهو من أكثر الثمار تغذية للبدن؛ بما فيه من الجوهر الحار الرطب. وأكله على الريق يقتل الدود؛ فإنه -مع حرارته- فيه قوة ترياقية، فإذا أديم استعماله على الريق: خفف مادة الدود وأضعفه، وقلله أو قتله. وهو فاكهة، وغذاء، ودواء، وشراب، وحلوى[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٩)، ومسلم (٢٠٤٧)، من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٣٧)، وابن ماجه (٣٣٣٤)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٤) وانظر - لزاماً- ما كتبه الدكتور حسان شمسي باشا في كتابه: «الأسودان: التمر والماء» حول فوائد التمر العلاجية والغذائية.

تين:

لما لم يكن التين بأرض الحجاز والمدينة؛ لم يأت له ذكر في السنة؛ فإن أرضه تنافي أرض النخل، ولكن قد أقسم الله به في كتابه[١]؛ لكثرة منافعه وفوائده، والصحيح: أن المقسم به: هو التين المعروف .

وهو حار، وفي رطوبته ويبوسته قولان. وأجوده: الأبيض الناضج القشر؛ يجلو رمل الكلى والمثانة، ويؤمن من السموم، وهو أغذى من جميع الفواكه، وينفع خشونة الحلق والصدر، وقصبة الرئة، ويغسل الكبد والطحال، وينقي الخلط البلغمي من المعدة، ويغذو البدن غذاء جيداً، إلا أنه يولد القمل إذا أكثر منه جداً.

ويابسه: يغذو وينفع العصب؛ وهو مع الجوز واللوز محمود. قال جالينوس: « وإذا أكل مع الجوز والسذاب -قبل أخذ السم القاتل-؛ نفع، وحفظ من الضرر» .

واللحم منه أجود، ويعطش المحرورين، ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح، وينفع السعال المزمن، ويدر البول، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويوافق الكلى والمثانة، ولأكله على الريق منفعة عجيبة: في تفتيح مجاري الغذاء، وخصوصا باللوز والجوز. وأكله مع الأغذية الغليظة رديء جدا.

والتوت الأبيض قريب منه؛ لكنه أقل تغذية وأضر بالمعدة .

تلبينة:

قد تقدم[٢] أنها ماء الشعير المطحون، وذكرنا منافعها، وأنها أنفع لأهل الحجاز من ماء الشعير الصحيح.

---

(١) في السورة المعروفة به.

(٢) (ص ١٨٤).

حرف الثاء

ثلج:

ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[١] .

وفي هذا الحديث من الفقه: أن الداء يداوى بضده؛ فإن في الخطايا، من الحرارة والحريق ما يضاده الثلج والبرد والماء البارد.

ولا يقال: إن الماء الحار أبلغ في إزالة الوسخ؛ لأن في الماء البارد من تصليب الجسم وتقويته ما ليس في الحار، والخطايا توجب أثرين: التدنيس والإرخاء، فالمطلوب مداواتها بما ينظف القلب ويصلبه؛ فذكر الماء البارد والثلج والبرد إشارة إلى هذين الأمرين .

وبعد؛ فالثلج بارد على الأصح، وغلط من قال: حار، وشبهته: تولد الحيوان فيه! وهذا لا يدل على حرارته؛ فإنه يتولد في الفواكه الباردة، وفي الخل. وأما تعطيشه؛ فلتهييجه الحرارة، لا لحرارته في نفسه. ويضر المعدة والعصب، وإذا كان وجع الأسنان من حرارة مفرطة: سكنها .

ثوم:

هو قريب من البصل، وفي الحديث: «من أكلهما فليمتهما طبخا»[٢]، وأهدي إليه طعام فيه ثوم، فأرسل به إلى أبي أيوب الأنصاري، فقال: يا رسول الله! تكرهه وترسل به إلي؟ فقال :«إني أناجي من لا تناجي»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

(٢) تقدم (ص ٣٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤) (٧٣) من حديث جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما-.

=

وبعد: فهو حار يابس في الرابعة، يسخن تسخيناً قوياً، ويجفف تجفيفاً بالغاً، نافع للمبرودين، ولمن مزاجه بلغمي، ولمن أشرف على الوقوع في الفالج. وهو مجفف للمنيّ، مفتح للسّدد، محلل للرياح الغليظة، هاضم للطعام، قاطع للعطش، مطلق للبطن، مدر للبول، يقوم في لسع الهوامّ وجميع الأورام الباردة، مقام التِّرياق، وإذا دُقَّ وعمل منه ضماد على نهش الحيات، أو على لسع العقارب؛ نفعها، وجذب السموم منها؛ ويسخن البدن، ويزيد في حرارته، ويقطع البلغم، ويحلّل النفخ، ويصفّي الحلق، ويحفظ صحة أكثر الأبدان، وينفع من تغير المياه، والسعال المزمن، ويؤكل نيئاً ومطبوخاً ومشوياً، وينفع من وجع الصدر من البَرْدِ، ويخرج العلق من الحلق، وإذا دُقَّ مع الخل والملح والعسل، ثم وضع على الضرس المتأكّل؛ فتّته وأسقطه، وعلى الضرس الوجع: سكّن وجعه.

وإن دق منه مقدار درهمين، وأخذ مع ماء العسل: أخرج البلغم والدّود. وإذا طُلي بالعسل على البهق؛ نفع.

ومن مضاره: أنه يصدِّع، ويضرُّ الدماغ والعينين، ويضعف البصر والباه، ويعطِّش، ويهيِّج الصفراء، ويجيف رائحة الفم. ويذهب رائحته: أن يمضغ عليه ورق السَّذاب.

ثريد:

ثبت في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: **«فضل عائشة على النساء؛ كفضل الثريد على سائر الطعام»**[1].

والثريد: وإن كان مركّباً؛ فإنه مركب من خبز ولحم، فالخبز أفضل الأقوات، واللحم سيد الإدام، فإذا اجتمعا: لم يكن بعدهما غاية.

= وأخرجه مسلم- أيضاً- (٢٥٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه-.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٤٦) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-.

وتنازع الناس أيهما أفضل ؟ والصواب أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعم، واللحم أجل وأفضل، وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه، وهو طعام أهل الجنة، وقد قال -تعالى- لمن طلب البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٦١].

وكثير من السلف على أن الفوم الحنطة. وعلى هذا؛ فالآية نص على أن اللحم خير من الحنطة.

حرف الجيم

جمار:

قلب النخل. ثبت في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس، إذ أتي بجمار نخلة، فقال النبي ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثل الرجل المسلم لا يسقط ورقها»[١] الحديث.

والجمار: بارد يابس في الأولى: يختم القروح، وينفع من نفث الدم، واستطلاق البطن، وغلبة المرة الصفراء، وثائرة الدم، وليس برديء الكيموس[٢]، ويغذو غذاء يسيراً، وهو بطيء الهضم، وشجرته كلها منافع؛ ولهذا مثلها النبي ﷺ بالرجل المسلم؛ لكثرة خيره ومنافعه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٤)، ومسلم (٢٨١١).

(٢) الكيموس في عرف الأطباء: هو الطعام إذا انهضم في المعدة قبل أن ينصرف عنها ويتحول.

(٣) قال المصنف- رحمه الله- في « مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٧٧-٣٨٠- المنتقى): «ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله؛ تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك؛ فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه؛ ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن- كما مثله النبي ﷺ-، وذلك من وجوه كثيرة:

=

= أحدها: ثبات أصلها في الأرض، واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها، كذلك المؤمن: طيب الكلام، طيب العمل، فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها؛ فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء؛ كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه -تعالى-.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها؛ فلا يحوج المتناول أن يرقاها، وأما باسقها؛ فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها، وكذلك المؤمن؛ خيره سهل قريب لمن رام، لا بالغر ولا باللئيم.

الخامس: إن ثمرتها من أنفع ثمار العالم؛ فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قوتا وأدما وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار.

السادس: من وجوه التشبيه: أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد، وغيرها من الدوح العظام؛ تميلها الريح تارة، وتقلعها تارة، وتعصف أفنانها، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة؛ فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة؛ فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع مالا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب، ويستر به الفرج والخلل، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عندالناس، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور؛ فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

الثامن: أنها كلما طال عمرها؛ ازداد خيرها، وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن: إذا طال عمره؛ ازداد خيره، وحسن عمله.

التاسع: إن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

=

جبن:

عن عبد الله بن عمر قال: أتي النبي ﷺ بجبنة في تبوك، فدعا بسكين، وسمى وقطع[١]. وأكله الصحابة -رضي الله عنهم- بالشام والعراق. والرطب منه غير المملوح: جيد للمعدة، هين السلوك في الأعضاء، يزيد في اللحم، ويلين البطن تليينا معتدلاً، والمملوح أقل غذاء من الرطب. وهو رديء للمعدة، مؤذ للأمعاء. والعتيق يعقل البطن- وكذا المشوي-، وينفع القروح، ويمنع الإسهال.

= العاشر: إنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدا، بل إن تعطلت منها منفعة؛ ففيها منافع أخر، حتى لو تعطلت ثمارها سنة؛ لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط؛ إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأموناً.

فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً في خلق النخلة وهيئتها، فلنرجع إليه ، فتأمل خلقة الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا، وأخرى معترضة كاللحمة؛ كنحو المنسوج باليد؛ وذلك لتشد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل ، وتصبر على هز الرياح العاصفة، ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضا طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض؛ فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه، فإنه لو كان مصمتاً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها ، ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء؛ وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة، ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها، وتعذر على الناس كثير من مصالحهم».

(١) أخرجه أبو داود (٣٨١٩)، وحسنه شيخنا الألباني-رحمه الله-.

وهو بارد رطب، فإن استعمل مشوياً: كان أصلح لمزاجه؛ فإن النار تصلحه وتعدله، وتلطف جوهره، وتطيب طعمه ورائحته . والعتيق المالح حار يابس. وشيّه يصلحه -أيضاً- بتلطيف جوهره، وكسر حرافته؛ لما تجذبه النار منه من الأجزاء الحارة اليابسة المناسبة لها. والمملح منه يهزل، ويولد حصاة الكلى والمثانة. وهو رديء للمعدة. وخلطه بالملطفات أردأ: بسبب تنفيذها له إلى المعدة .

حرف الحاء

حناء:

قد تقدمت[١] الأحاديث في فضله وذكر منافعه؛ فأغنى عن إعادته.

الحبة السوداء:

ثبت في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال: **«عليكم بهذه الحبة السوداء؛ فإن فيها شفاء من كل داء؛ إلا السام»**[٢]؛ والسام: الموت.

الحبة السوداء: هي الشونيز في لغة الفرس. وهي: الكمون الأسود، وتسمى: الكمون الهندي[٣] . قال الحربي، عن الحسن: إنها الخردل، وحكى الهروي: أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم، وكلاهما وهم. والصواب: أنها الشونيز .

وهي كثيرة المنافع جدا[٤].

---

(١) (ص ١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥).

(٣) وتسمى- أيضا- حبة البركة، ويستخرج من بذرها زيت يستعمل في السعال وهو مهضم وطارد للأرياح. (ع).

(٤) وقد صنفت كتب مفردة في فوائد الحبة السوداء منها:

=

وقوله: « شفاء من كل داء» ؛ مثل قوله -تعالى-:﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف:٢٥]؛ أي: كل شيء يقبل التدمير ونظائره. وهي نافعة من جميع الأمراض الباردة، وتدخل في الأمراض الحارة اليابسة بالعرض، فتوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسرعة تنفيذها؛ إذا أخذ يسيرها .

وقد نص صاحب «القانون» وغيره على الزعفران في قرص الكافور؛ لسرعة تنفيذه وإيصاله قوته، وله نظائر يعرفها حذاق الصناعة. ولا تستبعد منفعة الحار في أمراض حارة بالخاصية؛ فإنك تجد ذلك في أدوية كثيرة، منها : الأنزروت[1] وما يركب معه من أدوية الرمد؛ كالسكر وغيره من المفردات الحارة. والرمد:ورم حار باتفاق الأطباء، وكذلك نفع الكبريت الحار جدا من الجرب .

والشونيز حار يابس في الثالثة، مذهب للنفخ، مخرج لحب القرع، نافع من البرص وحمى الربع[2] والبلغمية، مفتح للسدد، ومحلل للرياح، مجفف لبلة المعدة ورطوبتها . وإن دق وعجن بالعسل، وشرب بالماء الحار: أذاب الحصاة التي تكون في الكليتين والمثانة. ويدر البول والحيض واللبن؛ إذا أديم شربه أياماً. وإن سخن بالخل، وطلي على البطن: قتل حب القرع. فإن

= ١-« معجزات الشفاء في الحبة السوداء والعسل والثوم والبصل»: محمد عزت عارف.

٢-«الحبة السوداء في الطب الشعبي»: الدكتور الفاضل العبيد عمر.

٣-«التداوي بالقرآن والسنة والحبة السوداء»: الدكتور عمر يوسف حمزة.

٤-«الشفاء في الحبة السوداء بين التجربة والبرهان»: طيب عبد الله الطيب.

(١) هو الكحل الفارسي والكرماني، وهو صمغ شجره شائكة كشجرة الكندر تنبت بجبال فارس، ويدرك بتموز، وأجوده الهش الرزين المائل إلى البياض، وأردؤه الأسود القليل الرائحة.

(٢) حمى الربع: هي التي تنوب كل رابع يوم.

عجن بماء الحنظل الرطب أو المطبوخ: كان فعله في إخراج الدود أقوى، ويجلو ويقطع ويحلل، ويشفي من الزكام البارد: إذا دق وصير في خرقة، واشتم دائما؛ أذهبه .

ودهنه نافع لداء الحية، ومن الثآليل والخيلان[1] . وإذا شرب منه مثقال بماء: نفع من البهر وضيق النفس. والضماد به ينفع من الصداع البارد. وإذا نقع منه سبع حبات عدداً في لبن امرأة، وسعط به صاحب اليرقان: نفعه نفعا بليغا .

وإذا طبخ بخل، وتمضمض به: نفع من وجع الأسنان عن برد. وإذا استعط به مسحوقاً: نفع من ابتداء الماء العارض في العين. وإن ضمد به مع الخل: قلع البثور والجرب المتقرح، وحلل الأورام البلغمية المزمنة، والأورام الصلبة.

وينفع من اللقوة: إذا تسعط بدهنه. وإذا شرب منه مقدار نصف مثقال إلى مثقال: نفع من لسع الرتيلاء[2] . وإن سحق ناعماً، وخلط بدهن الحبة الخضراء، وقطر منه في الأذن ثلاث قطرات: نفع من البرد العارض فيها، والريح والسدد .

وإن قلي، ثم دق ناعماً، ثم نقع في زيت، وقطر في الأنف ثلاث قطرات أو أربع: نفع من الزكام العارض معه عطاس كثير .

وإذا أحرق وخلط بشمع مذاب بدهن السوسن، أو دهن الحناء، وطلي به القروح الخارجة من الساقين، بعد غسلها بالخل: نفعها وأزال القروح .

---

(١) الخيلان: جمع خال، وهو شامة في البدن؛ أي:بثره سوداء ينبت حولها الشعر غالبا، ويغلب على شامة الخد.

(٢) الرتيلاء: أنواع من الهوام؛ كالذباب والعنكبوت ، والجمع: رتيلاوات.

وإذا سحق بخل، وطلي به البرص والبهق الأسود والحزاز[1] الغليظ: نفعها وأبرأها .

وإذا سحق ناعما، واستف منه كل يوم درهمين بماء بارد، من عضه كلب كلب قبل أن يفرغ من الماء: نفعه نفعاً بليغاً، وأمن على نفسه من الهلاك . وإذا استعط بدهنه: نفع من الفالج والكزاز، وقطع موادهما. وإذا دخن به: طرد الهوام.

وإذا أذيب الأنزروت بماء، ولطخ على داخل الحلقة، ثم ذر عليها الشونيز: كان من الذرورات الجيدة، العجيبة النفع من البواسير. ومنافعه أضعاف ما ذكرنا. والشربة منه درهمان. وزعم قوم: أن الإكثار منه قاتل .

حرير:

قد تقدم[2] أن النبي ﷺ أباحه للزبير ولعبد الرحمن بن عوف، من حكة كانت بهما. وتقدم منافعه ومزاجه، فلا حاجة إلى إعادته .

حرف[3]:

قال أبو حنيفة الدينوري: هذا هو الحب الذي يتداوى به؛ وهو: الثفاء[4] ، ونباته يقال له: الحرف؛ وتسميه العامة: حب الرشاد. وقال أبو عبيد: الثفاء: هو الحرف.

---

(١) الحزاز- بفتح الحاء-: داء يظهر في الجسد؛ فيتقشر ويتسع،وهو -أيضاً- القشرة التي تتساقط من الرأس؛ كالنخالة.

(٢) (ص ١٣٢).

(٣) وقد صنف الدكتور محمد على البار كتاباً نافعاً : « ماذا في الأمرين من الشفاء: الصبر والثفاء»، ذكر فيه فوائد حب الرشاد (ص١٣٧-١٦١)؛ فانظره غير مأمور.

(٤) الثفاء: نبات حشيشي، وتسمى بذوره: حب الرشاد؛ يستعمل؛ كمدر للعاب، طارد للأرياح، ومقو جنسي.(ع).

وقوته في الحرارة واليبوسة في الدرجة الثالثة،وهو يسخن، ويلين البطن، ويخرج الدود وحب القرع، ويحلل أورام الطحال، ويحرك شهوة الجماع، ويجلو الجرب المتقرح والقوباء .

وإذا ضمد به مع العسل: حلل ورم الطحال. وإذا طبخ مع الحناء: أخرج الفضول التي في الصدر. وشربه ينفع من نهش الهوام ولسعها. وإذا دخن به في موضع: طرد الهوام عنه، ويمسك الشعر المتساقط. وإذا خلط بسويق الشعير والخل، وتضمد به: نفع من عرق النسا، وحلل الأورام الحارة في آخرها .

وإذا تضمد به مع الماء والملح: أنضج الدماميل. وينفع من الاسترخاء في جميع الأعضاء، ويزيد في الباه، ويشهي الطعام. وينفع الربو وعسر النفس وغلظ الطحال، وينقي الرئة، ويدر الطمث، وينفع من عرق النسا، ووجع حق الورك -مما يخرج من الفضول-: إذا شرب أو احتقن به، ويجلو ما في الصدر والرئة من البلغم اللزج .

وإن شرب منه بعد سحقه، وزن خمسة دراهم بالماء الحار: أسهل الطبيعة، وحلل الرياح، ونفع من وجع القولنج البارد السبب. وإذا سحق وشرب: نفع من البرص .

وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض: بالخل، نفع منهما. وينفع من الصداع الحادث من البرد والبلغم. وإن قلي وشرب: عقل الطبع، لا سيما إذا لم يسحق؛ لتحلل لزوجته بالقلي. وإذا غسل بمائه الرأس: نقاه من الأوساخ والرطوبات اللزجة .

قال جالينوس : «قوته مثل قوة بزر الخردل؛ ولذلك قد يسخن به أوجاع الورك المعروفة بالنسا، وأوجاع الرأس، وكل واحد من العلل التي تحتاج إلى التسخين؛ كما يسخن بزر الخردل. وقد يخلط -أيضا- في أدوية يسقاها أصحاب الربو: من طريق أن الأمر فيه معلوم أنه يقطع الأخلاط الغليظة تقطيعاً قوياً؛ كما يقطعها بزر الخردل؛ لأنه شبيه به في كل شيء» .

حلبة:

وقوة الحلبة من الحرارة في الدرجة الثانية، ومن اليبوسة في الأولى، وإذا طبخت بالماء: لينت الحلق والصدر والبطن، وتسكن السُّعال والخشونة والربو، وعسر النفس، وتزيد في الباه. وهي جيدة للريح والبلغم والبواسير، محدرة الكيموسات المرتبكة في الأمعاء، وتحلّل البلغم اللزج من الصدر، وتنفع من الدُّبيلات[1] وأمراض الرئة، وتستعمل لهذه الأدواء في الأحشاء مع السمن والفانيذ[2].

وإذا شربت مع وزن خمسة دراهم فوَّةٍ[3] ؛ أدرَّت الحيض، وإذا طبخت، وغسل بها الشعر؛ جعدته، وأذهبت الحزاز[4] .

ودقيقها إذا خلط بالنَّطرون[5] والخل، وضمِّد به حلَّل ورم الطِّحال، وقد تجلس المرأة في الماء الذي طبخت فيه الحلبة، فتنتفع به من وجع الرحم العارض من ورم فيه .

وإذا ضمِّد به الأورام الصلبة القليلة الحرارة؛ نفعتها وحللتها، وإذا شرب ماؤها، نفع من المغص العارض من الرياح، وأزلق الأمعاء.

وإذا أكلت مطبوخةً بالتمر، أو العسل، أو التين على الريق؛ حللت البلغم اللزج العارض في الصدر والمعدة، ونفعت من السعال المتطاول منه .

وهي نافعة من الحصر، مطلقة للبطن، وإذا وضعت على الظفر المتشنج

---

(١) مفردها دبيلة، وهي خراج ودمل تظهر في الجوف غالباً وقد تظهر في العين.

(٢) كلمة فارسية معربة؛ تعني: نوع من الحلوى.

(٣) نبات من فصيلة الفويات، ساقه مشبعة غليظة ، له عروق دقاق طوال حمر يصبغ بها ويداوي بها، تنفع الكبد والطحال، ويسمى:« عروق الصباغين».

(٤) المراد: قشرة الرأس.

(٥) جنس لأنواع البورق، والبورق ملح يتولد من الأحجار السبخة، والنطرون هو الأحمر.

أصلحته، ودهنها ينفع إذا خلط بالشمع من الشقاق العارض من البرد، ومنافعها أضعاف ما ذكرنا .

وقال بعض الأطباء: لو علم الناس منافعها؛ لاشتروها بوزنها ذهباً .

حرف الخاء

خبز:

ثبت في «الصحيحين»[1] عن النبي ﷺ؛ أنه قال:« تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده؛ كما يكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة».

وعن عائشة -رضي الله عنها- ترفعه: «أكرموا الخبز»[2].

فصل

وأحمد أنواع الخبز: أجودها اختماراً وعجناً، ثم خبز التنور أجود أصنافه، وبعده خبز الفرن، ثم خبز الملة في المرتبة الثالثة، وأجوده ما اتخذ من الحنطة الحديثة.

وأكثر أنواعه تغذية: خبز السميذ، وهو أبطؤها هضماً؛ لقلة نخالته، ويتلوه خبز الحواري، ثم الخشكار[3] .

(١) البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-.

(٢) حسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح الجامع الصغير وزيادته»، و«الضعيفة» (٦/ ٤٢٤).

(٣) الخبز الأسمر غير النقي.

وأحمد أوقات أكله: في آخر اليوم الذي خبز فيه، واللين منه أكثر تليينا وغذاءً وترطيباً وأسرع انحداراً، واليابس بخلافه .

ومزاج الخبز من البُرِّ حار في وسط الدرجة الثانية، وقريب من الاعتدال في الرطوبة واليبوسة، واليبس يغلب على ما جففته النار منه، والرطوبة على ضده .

وفي خبز الحنطة خاصية، وهو: أنه يسمن سريعاً، وخبز القطائف يولد خلطاً غليظاً، والفتيت نفاخ بطيء الهضم، والمعمول باللبن مسدد كثير الغذاء، بطيء الانحدار .

وخبز الشعير بارد يابس في الأولى، وهو أقل غذاء من خبز الحنطة .

خل:

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ سأل أهله الإدام، فقالوا : ما عندنا إلا خل. فدعا به، وجعل يأكل ويقول: **«نعم الإدام الخل، نعم الإدام الخل»**[1] .

الخل: مركب من الحرارة، والبرودة أغلب عليه. وهو يابس في الثالثة، قوي التجفيف، يمنع من انصباب المواد، ويلطف الطبيعة. وخل الخمر: ينفع المعدة الملتهبة، ويقمع الصفراء، ويدفع ضرر الأدوية القتالة، ويحلل اللبن والدم: إذا جمدا في الجوف. وينفع الطحال، ويدبغ المعدة، ويعقل البطن، ويقطع العطش، ويمنع الورم حيث يريد أن يحدث، ويعين على الهضم، ويضاد البلغم، ويلطف الأغذية الغليظة، ويرق الدم .

(١) تقدم (ص ٢٨٤).

وإذا شرب بالملح: نفع من أكل الفطر القتال، وإذا احتسي: قطع العلق المتعلق بأصل الحنك، وإذا تمضمض به مسخناً: نفع من وجع الأسنان، وقوى اللثة.

وهو نافع للداحس[1]: إذا طلي به، والنملة، والأورام الحارة، وحرق النار، وهو مشه للأكل، مطيب للمعدة، صالح للشباب وفي الصيف لسكان البلاد الحارة .

خلال:

فيه حديثان لا يثبتان:

أحدهما: يروى من حديث أبي أيوب الأنصاري يرفعه: «يا حبذا المتخللون من الطعام، إنه ليس شيء أشد على الملك من بقية تبقى في الفم من الطعام»؛ وفيه واصل بن السائب؛ قال البخاري والرازي: منكر الحديث، وقال النسائي والأزدي: متروك الحديث.

الثاني: يروى من حديث ابن عباس؛ قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن شيخ روى عنه صالح الوحاظي يقال له: محمد بن عبد الملك الأنصاري، حدثنا عطاء، عن ابن عباس، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتخلل بالليط[2] والآس، وقال: «إنهما يسقيان عروق الجذام»، فقال أبي: رأيت محمد بن عبد الملك -وكان أعمى- يضع في الحديث ويكذب.

---

(١) بثرة تظهر بين الظفر واللحم فينقلع منها الظفر.

(٢) قشرة القصب التي تليط بها.

وبعد: فالخلال نافع اللّثة والأسنان، حافظ لصحتها، نافع من تغير النّكهة. وأجوده: ما اتُّخذ من عيدان الأخلة وخشب الزيتون والخلاف، والتخلل بالقصب والآس والريحان والباذروج[١] مضر .

حرف الدال

دهن:

الدهن يسد مسام البدن، ويمنع ما يتحلَّل منه. وإذا استعمل بعد الاغتسال بالماء الحار: حسَّن البدن ورطَّبه، وإن دهن به الشعر: حسَّنه وطوَّله، ونفع من الحصبة، ودفع أكثر الآفات عنه.

وعن النبي ﷺ: **«كلوا الزَّيت وادهنوا به»**[٢] . وسيأتي -إن شاء الله تعالى-.

والدُّهن في البلاد الحارة؛ كالحجاز ونحوه،من آكد أسباب حفظ الصحة وإصلاح البدن، وهو كالضروري لهم. وأمّا البلاد الباردة؛ فلا يحتاج إليه أهلها، والإلحاح به في الرأس؛ فيه خطر بالبصر.

وأنفع الأدهان البسيطة: الزيت، ثم السمن، ثم الشَّيْرَج .

وأما المركبة: فمنها بارد رطب؛ كدهن البنفسج، ينفع من الصُّداع الحار، وينوِّم أصحاب السهر، ويرطِّب الدماغ، وينفع من الشُّقاق، وغلبة اليبس، والجفاف، ويطلى به الجرب، والحِكة اليابسة، فينفعها، ويسهِّل حركة المفاصل، ويصلح لأصحاب الأمزجة الحارة في زمن الصيف .

ومنها : حار رطب؛ كدهن البان. وليس دهن زهره؛ بل: دهن يستخرج من حبٍّ أبيض أغبر نحو الفستق، كثير الدُّهنية والدسم، ينفع من

---

(١) في «المعتمد»: ويسمى الحوك وهو: ريحانة معروفة، أو صنف من البقول.

(٢) حسن لغيره؛ كما في «الصحيحة» (٣٧٩).

صلابة العصب، ويلينه، وينفع من البرش[١] والنمش[٢] والكلف[٣] والبهق، ويسهل بلغماً غليظاً، ويلين الأوتار اليابسة، ويسخن العصب.

ومن منافعه: أنه يجلو الأسنان، ويكسبها بهجة، وينقيها من الصدأ. ومن مسح به وجهه ورأسه وأطرافه: لم يصبه حصبة ولا شقاق، وإذا دهن به حقوه ومذاكيره وما والاها: نفع من برد الكليتين، وتقطير البول.

حرف الذال

ذريرة:

ثبت في «الصحيحين» عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي، بذريرة في حجة الوداع؛ لحله وإحرامه»[٤].

تقدم الكلام في الذريرة ومنافعها وماهيتها؛ فلا حاجة لإعادته[٥].

ذباب:

تقدم في حديث أبي هريرة: في أمره ﷺ بغمس الذباب في الطعام إذا سقط فيه؛ لأجل الشفاء الذي في جناحه، وهو كالترياق للسم الذي في الجناح الآخر. وذكرنا منافع الذباب هناك[٦].

---

(١) تغير لون الجلد وظهور نقطة حمراء وأخرى سوداء أو غبراء أو نحو ذلك.

(٢) بقع على جلد الوجه تخالف لونه، وأكثر ما يكون في الشعر.

(٣) نمش يعلو الوجه كالسمسم.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٣٠)، ومسلم (١١٨٩).

(٥) (ص ١٧٨).

(٦) (ص ١٦٧).

ذهب:

ثبت أن النبي ﷺ رخص لعرفجة بن أسعد لما قطع أنفه يوم الكلاب، واتخذ أنفا من ورق؛ فأنتن عليه، فأمره النبي ﷺ أن يتخذ أنفاً من ذهب»[1].

وليس لعرفجة عندهم غير هذا الحديث الواحد .

الذهب: زينة الدنيا، وطلسم الوجود، ومفرح النفوس، ومقوي الظهور، وسر الله في أرضه، ومزاجه في سائر الكيفيات، وفيه حرارة لطيفة تدخل في سائر المعجونات اللطيفة والمفرحات، وهو أعدل المعادن على الإطلاق وأشرفها.

من خواصه: أنه إذا دفن في الأرض: لم يضره التراب، ولم ينقصه شيئا، وبرادته إذا خلطت بالأدوية: نفعت من ضعف القلب، والرجفان العارض من السوداء، وينفع من حديث النفس، والحزن والغم، والفزع، والعشق، ويسمن البدن، ويقويه، ويذهب الصفار، ويحسن اللون، وينفع من الجذام وجميع الأوجاع والأمراض السوداوية، ويدخل بخاصية في أدوية داء الثعلب وداء الحية[2]؛ شرباً وطلاء، ويجلو العين ويقويها، وينفع من كثير من أمراضها، ويقوي جميع الأعضاء.

وإمساكه في الفم يزيل البخر، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكي، وكوي به: لم يتنفط موضعه، ويبرأ سريعاً، وإن اتخذ منه ميلاً، واكتحل به:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٣٢و٤٢٣٣و٤٢٣٤)، والترمذي (١٧٧٠)، والنسائي (٨/ ١٦٣و١٦٤)، وأحمد (٥/ ٢٣)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٢) مرضان يصيبان الحيوانين المذكورين، وصورتهما تناثر الشعر ونقصه أو ذهابه وغايتهما فساد منابته.

قوّى العين وجلاها. وإذا اتخذ منه خاتمٌ فصّه منه، وأحمي وكوي به قوادم أجنحة الحمام: ألفت أبراجها، ولم تنتقل عنها.

وله خاصّية عجيبة في تقوية النفوس؛ لأجلها أبيح في الحرب والسّلاح منه ما أبيح.

وهو معشوق النفوس التي متى ظفرت به: سلاّها عن غيره من محبوبات الدنيا، قال -تعالى-:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واد من ذهب؛ لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له ثانٍ؛ لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

هذا؛ وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها، وأعظم شيء عصي الله به، وبه قطعت الأرحام، وأريقت الدماء، واستحلت المحارم، ومنعت الحقوق، وتظالم العباد، وهو المرغب في الدنيا وعاجلها، والمزهد في الآخرة وما أعده الله لأوليائه فيها؛ فكم أميت به من حق، وأحيي به من باطل، ونصر به ظالم، وقهر به مظلوم؟! وما أحسن ما قال فيه الحريري[٢]:

تباً له من خادع مماذق
أصفر ذي وجهين كالمنافق

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) (١٧) من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه-.

(٢) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري صاحب المقامات الشهيرة؛ لما اشتملت على كثير من بلاغة العرب في لغاتها وأمثالها وأسرار كلامها، توفي سنة (٥١٦هـ)، والأبيات من المقامة الدينارية الثالثة (ص٢٩-٣٠).

يبـــدو بموصفـــين لعـــين الرامـــق
زينـــة معشـــوق ولـــون عاشـــق
وحبـــه عنـــد ذوي الحقـــائق
يدعـــو إلى ارتكـــاب ســـخط الخـــالق
لـــولاه لم تقطـــع يمـــين الســـارق
ولا بـــدت مظلمـــة مـــن فاســـق
ولا اشمـــأز بـــاخل مـــن طـــارق
ولا اشـــتكى المطـــول مطـــل العـــائق
ولا اســـتعيذ مـــن حســـود راشـــق
وشـــر مـــا فيـــه مـــن الخلائـــق
أن ليـــس يغنـــى عنـــك في المضـــايق
إلا إذا فـــر فـــرار الآبـــق

حرف الراء

رطب:

قال الله -تعالى- لمريم: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ﴾ [مريم:٢٥-٢٦] [(١)].

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٢/ ٢٩٣-٢٩٤):« ومن حكمة هذا الإكرام الرباني الطبي: أن الماخض تحتاج إلى الأشربة أو الأطعمة السكرية؛ لكثرة احتراق السكاكر في عضلة الرحم أثناء المخاض، وخاصة إذا طال زمنه، ولأن سكر العنب والفيتامين (ب١) يساعدان على تقوية =

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن جعفر، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب»[(١)].

وعن أنس، قال: « كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي؛ فإن لم تكن رطبات؛ فتمرات، فإن لم تكن تمرات؛ حسا حسوات من ماء»[(٢)].

= التقلصات الرحمية، وهما متوفران في الرطب، وسكر هذا سريع الامتصاص من جهاز المضم».

وقال الدكتور حسان شمسي باشا في «الأسودان التمر والماء» (ص٥٩-٦٠): «أشار عدد من المؤلفين إلى تأثير الرطب القابض للرحم . . .

فقد ذكر الدكتور مصطفى محمود في مقال له نشر في مجلة « العلم والإيمان» (عام ١٣٩٨هـ العدد٣٠): « أن أحدث بحث علمي عن الرطب يقول: إن فيه مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة وعلى منع النزيف بعد الولادة».

وذكر ذلك -أيضاً- الدكتور محمد كمال عبد العزيز في كتابه «الأطعمة القرآنية»، فقال: «يقوي الرطب الرحم، خاصه عند الولادة؛ حيث ثبت من البحوث الحديثة أن له تأثيرا منبها لحركة الرحم وزيادة فترة انقباضاته. وقد أشار الله على مريم -عليها السلام- بأن تأكل البلح؛ فيغذيها من جهة، ويزيد من انقباض الرحم بانتظام؛ فتضع وليدها بسهولة من جهة أخرى.

وقد جاءت الأبحاث الطبية الأخيرة لتكشف عن آثار الرطب التي تعادل آثار العقاقير الميسرة لعملية الولادة، والتي تكفل سلامة الأم والجنين معاً، وانقباض الرحم بعد الولادة مباشرة يمنع النزيف الحادث بعد الولادة، ويعود بالرحم إلى حجمه ومكانه الطبيعي قبل الحمل».

كما أن الدكتوران: عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز نقلا ذلك في كتابهما « مع الطب في القرآن الكريم»، جاء في الكتاب:« تبين في الأبحاث الجراة على الرطب؛ أي: ثمرة النخيل الناضجة، أنها تحوي مادة مقبضة للرحم، تقوي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل؛ فتساعد على الولادة من جهة، كما تقلل النزف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى».

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٠)، ومسلم (٢٠٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦)، وأحمد (٣/ ١٦٤)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

طبع الرُّطب طبع المياه: حار رطب، يقوي المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه، ويخصب البدن، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة، ويغذو غذاء كثيراً .

وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التي هو فاكهتهم فيها، وأنفعها للبدن- وإن كان من لم يعتده يسرع التعفُّن في جسده، ويتولَّد عنه دم ليس بمحمود-، ويحدث في إكثاره منه صداع وسوداء، ويؤذي أسنانه، وإصلاحه بالسَّكنجبين ونحوه .

وفي فطر النبي ﷺ من الصوم عليه، أو على التمر، أو الماء؛ تدبير لطيف جداً [1]؛ فإن الصوم يخلي المعدة من الغذاء؛ فلا تجد الكبد فيها ما

---

(١) قال الدكتور حسان شمسي باشا في « الأسودان » (ص٦٢-٦٤): « يقول الدكتور أحمد عبد الرؤوف هاشم في كتابه « رمضان والطب»: « إن وراء هذا الهدي النبوي حكمة رائعة وهدياً طبياً وصحياً عظيماً، فقد اختار النبي ﷺ هذه المأكولات دون غيرها، وإن كانت بحكم بيئته الصحراوية متوفرة، ولكنه لم يلجأ لأشياء أخرى رغم توافرها، وهنا يكمن سر الإعجاز وروعة النبوة والوحي.

فأهم شيء يجب تزويد الصائم به حال فطره هو طاقة جديدة تعوض ما فقده نهار صومه، والطاقة تأتي من تناول غذاء في صورة مادة دهنية أوسكرية أو بروتينية، ثم تتحول بالهضم إلى عناصرها البدئية، فتمتص إلى الدم ويحترق جزء منها بالأنسجة مولداً الطاقة. كذلك فالجسم في حاجة ماسة لتعويض الماء وإزالة شعور العطش.

وأسرع شيء يمكن امتصاصه وذهابه إلى الدم هي المواد السكرية والنشوية، وبخاصة تلك الحاوية على سكر أحادي (جلوكوز)أو ثنائي (سكروز)؛ لأن المواد السكرية في صورة محلول مائي يمكن امتصاصها في صورة ميسرة بالمعدة والأمعاء خلال مدة قصيرة(٥-١٠ دقائق بالنسبة للمعدة والأمعاء الخالية)- كما هو الحال بالنسبة للصائم- والرطب يحقق هذه الفائدة؛ إذ أنه يحوي حوالي (٢٥بالمئة) من وزنه مواد سكرية و(٦٨ بالمئة) من وزنه ماء، (٢,٢ بالمئة) من وزنه بروتينات، وحوالي (٣ بالمئة) ألياف سيلولوزية، و(٠,٦بالمئة) دهون.

=

= أما التمور؛ فالجزء المأكول حوالي (٨٧ بالمئة) من الوزن،وبه مواد سكرية حوالي (٧٣ بالمئة) من وزن الجزء المأكول، و(٢,٢ بالمئة) بروتينات، و(٠,٦) دهون وحوالي (٢٢ بالمئة) ماء.

ومعنى هذا: أن تناول الرطب أو التمر يزود الجسم بمادة سكرية بكمية كبيرة فضلا عن السرعة في التزويد؛ لأن المعدة خالية وكذلك الأمعاء، وهما مستعدتان للعمل والامتصاص السريع، وبخاصة في وجود نسبة الماء العالية في الرطب، أو وجود التمر منقوعا في الماء، بالإضافة لوجود ثلثي هذه المادة السكرية في صورة كيميائية تخطت مرحلة الهضم الأولى، وبذا يرتفع مستوى سكر الدم في وقت وجيز.

ويقول العلامة الأستاذ الدكتور أنور المفتي -رحمه الله-: إن الإمعاء تمتص الماء المحلى بالسكر في أقل من خمس دقائق، فيرتوي الجسم وتزول أعراض نقص السكر فيه، في حين أن الصائم الذي يملأ معدته مباشرة من الطعام والشراب يحتاج إلى(٣-٤ ساعات) حتى تمتص معدته- مباشرة- ما يكون في إفطاره من سكر.

ومن الملاحظات الهامة: أن الرطب والتمر يكادان أن يخلوا من الدهون (٠,٦ بالمئة)، وبذا فلا يحتاج هضم الرطب والتمر لساعات طويلة تستغرق في هضم الدهون، وكذلك الحال بالنسبة للبروتينات؛ فهي تشكل حوالي (٢ بالمئة)، وهضمها وإن كان أسرع من هضم الدهون؛ إلا أنه يحتاج لـ(٢-٤ ساعات).

ووجود الألياف السليولوزية بنسبة عالية في تركيب الرطب والتمر له مزايا أخرى تفيد الصائم؛ فهذه الألياف تعمل كإسفنجة تمتص الماء داخل الأمعاء، وتعطي البراز حجما معقولا مع إحداث تليين طبيعي، وبذلك يتلاشى الصائم حدوث إمساك؛ لأنه قلل عدد الوجبات وكمية الطعام والشراب، وبالتالي كمية الفضلات التي تكون البراز في الأيام العادية. وتلافي الإمساك يجنب الصائم أي متاعب صحية في صورة اضطراب الهضم أو البواسير . . . إلخ.

وفي الحالات التي لا يجد فيها الصائم رطبا أو تمرا؛ فليفطر على ماء؛ كما فعل رسول الله ﷺ، أو يكون الماء في صورة حساء دافىء (كالشوربة)، أو يفطر على عصير فواكه محلى بالسكر؛ كالبرتقال، أو الليمون، أوالجوافة، أو منقوع التين الجاف، أو عصير العنب، أو كوب ماء مذاب فيه ملعقة من العسل الأبيض أو الأسود..»

=

تجذبه وترسله إلى القوى والأعضاء، والحلو أسرع شيء وصولا إلى الكبد، وأحبه إليها- ولا سيما إن كان رطباً- فيشتد قبولها له، فتنتفع به هي والقوى، فإن لم يكن؛ فالتمر؛ لحلاوته وتغذيته، فإن لم يكن؛ فحسوات الماء: تطفئ لهيب المعدة، وحرارة الصوم، فتتنبه بعده للطعام، وتأخذه بشهوة.

ريحان:

قال -تعالى-: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن:١٢].

وعن النبي ﷺ:«من عرض عليه ريحان؛ فلا يرده؛ فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة»[(١)]

الريحان: كل نبت طيب الريح، فكل أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك؛ فأهل الغرب يخصونه بالآس، وهو الذي يعرفه العرب من الريحان، وأهل العراق والشام يخصونه بالحبق.

فأما الآس: فمزاجه بارد في الأولى، يابس في الثانية، وهو مع ذلك مركب من قوى متضادة، والأكثر فيه الجوهر الأرضي البارد، وفيه شيء

= وهنا تظهر الحكمة النبوية الشريفة في البدء بتعاطي مادة سكرية كالتمر، ثم يقوم المسلم بعدها إلى الصلاة. وعندما ينتهي منها يتناول طعاماً خفيفاً يسد جوعه، ويفي جسمه من الغذاء دون شعور بالتخمة أو الامتلاء.

وإن تناول التمر أولا يحد من جوع الصائم؛ فلا يقبل على الأكل بعجلة دون مضغ أو تذوق... كما أنه يزيل الأعراض الناتجة عن نقص سكر الدم بسرعة ،مثل عدم القدرة على الحركة المثلى، والشعور بالضعف والكسل، وزوغان البصر، وعدم القدرة على التفكير والتركيز».

(١) تقدم (ص ٣٥٣).

حار لطيف، وهو يجفف تجفيفاً قوياً، وأجزاؤه متقاربة القوة، وهي قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معاً .

وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الحار الرطب: إذا شم، مفرح للقلب تفريحا شديدا، وشمه مانع للوباء، وكذلك افتراشه في البيت .

ويبرئ الأورام الحادثة في الحالبين: إذا وضع عليها، وإذا دق ورقه وهو غض، وضرب بالخل، ووضع على الرأس: قطع الرعاف، وإذا سحق ورقه اليابس، وذر على القروح ذوات الرطوبة: نفعها، ويقوي الأعضاء الواهية: إذا ضمد به، وينفع داء الداحس، وإذا ذر على البثور والقروح التي في اليدين والرجلين: نفعها .

وإذا دلك به البدن: قطع العرق، ونشف الرطوبات الفضلية، وأذهب نتن الإبط، وإذا جلس في طبيخه: نفع من خراريج المقعدة والرحم، ومن استرخاء المفاصل، وإذا صب على كسور العظام التي لم تلتحم: نفعها .

ويجلو قشور الرأس وقروحه الرطبة وبثوره، ويمسك الشعر المتساقط ويسوده. وإذا دق ورقه، وصب عليه ماء يسير، وخلط به شيء من زيت أو دهن الورد، وضمد به: وافق القروح الرطبة، والنملة والحمرة، والأورام الحادة، والشرى[1] والبواسير .

وحبه نافع من نفث الدم العارض في الصدر والرئة، دابغ للمعدة. وليس بضار للصدر ولا الرئة: لجلاوته. وخاصيته النفع من استطلاق البطن مع السعال، وذلك نادر في الأدوية، وهو مدر للبول، نافع من لذع المثانة، وعض الرتيلاء، ولسع العقارب، والتخلل بعرقه مضر؛ فليحذر .

وأما الريحان الفارسي الذي يسمى: الحبق؛ فحار في أحد القولين، ينفع شمه من الصداع الحار: إذا رش عليه الماء، ويبرد ويرطب بالعرض.

---

(١) بثور حمراء كالدراهم حكاكة مؤلمة.

وبارد في الآخر، وهل هو رطب أو يابس ؟ على قولين . والصحيح: أن فيه من الطبائع الأربع، ويجلب النوم.

وبزره حابس للإسهال الصفراويّ، ومسكّن للمغص، مقوٍّ للقلب، نافع للأمراض السوداويّة .

رمان:

قال -تعالى- : ﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الرحمن:٦٨].

عن علي؛ أنه قال: «كلوا الرمان بشحمه؛ فإنه دباغ المعدة».

حلو الرمان حار رطب، جيد للمعدة، مقوٍّ لها بما فيه من قبض لطيف، نافع للحلق والصدر والرئة، جيد للسُّعال، ماؤه مليِّن للبطن، يغذو البدن غذاءً فاضلاً يسيراً، سريع التحلل: لرقته ولطافته، ويولّد حرارة يسيرة في المعدة وريحاً، ولذلك يعين على الباه، ولا يصلح للمحمومين، وله خاصّية عجيبة: إذا أُكل بالخبز يمنعه من الفساد في المعدة .

وحامضه بارد يابس، قابض لطيف، ينفع المعدة الملتهبة، ويدرُّ البول أكثر من غيره من الرمان، ويسكّن الصفراء، ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويلطّف الفضول .

ويُطفئ حرارة الكبد، ويقوِّي الأعضاء، نافع من الخفقان الصفراويّ، والآلام العارضة للقلب، وفم المعدة، ويقوي المعدة، ويدفع الفضول عنها، ويطفئ المرَّة الصفراء والدم .

وإذا استخرج ماؤه بشحمه، وطبخ بيسير من العسل حتى يصير كالمرهم، واكتحل به: قطع الصّفرة من العين، ونقَّاها من الرطوبات الغليظة، وإذا لطخ على اللثة: نفع من الأكلة العارضة لها، وإن استخرج ماؤهما بشحمهما: أطلق البطن، وأحدر الرطوبات العفنة المِّرية، ونفع من حميات الغب المتطاولة .

وأما الرُّمان المزُّ؛ فمتوسط طبعاً وفعلاً بين النوعين، وهذا أميل إلى لطافة الحامض قليلاً، وحبُّ الرمان مع العسل طلاء للداحس والقروح الخبيثة، وأقماعه للجراحات، قالوا : ومن ابتلع ثلاثةً من جُنْبُذِ[1] الرمان في كل سنة؛ أمن من الرمد سنته كلها .

حرف الزاي

زيت:

قال -تعالى-: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور:٣٥].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة» [2] .

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ :«ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»[3].

الزيت: حار رطب في الأولى، وغلط من قال: يابس. والزيت بحسب زيتونه؛ فالمعتصر مِن النّضيج أعدله وأجوده، ومن الفجِّ فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتين، ومن الأسود يسخِّن ويرطِّب باعتدال، وينفع من السُّموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخيناً وتحليلاً، وما استخرج منه بالماء؛ فهو أقلُّ حرارة، وألطف، وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه ملِّينة للبشرة، وتبطئ الشيب .

---

(١) جنبذ الرمان: هو زهر الرمان البستاني، وقيل: هو عقد الرمان.

(٢) تقدم (ص ٣٩٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٩)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٣٧٩).

وماء الزيتون المالح يمنع من تنُّفط حرق النار، ويشد الّلثة وورقه ينفع من الحمرة[١]، والنملة والقروح الوسخة والشَّرى، ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا[٢].

زبد:

عن ابني بسر السُّلميّين -رضي الله عنهما- قالا : «دخل علينا رسول الله ﷺ، فقدَّمنا له زبداً وتمراً، وكان يحبُّ الزُّبد والتمر»[٣].

الزبد حار رطب، فيه منافع كثيرة، منها: الإنضاج والتحليل، ويبرئ الأورام التي تكون إلى جانب الأذنين والحالبين، وأورام الفم، وسائر الأورام التي تعرِض في أبدان النساء والصبيان: إذا استعمل وحده، وإذا لعق منه: نفع في نفث الدم الذي يكون من الرئة، وأنضج الأورام العارضة فيها .

وهو مليِّن للطبيعة والعصب والأورام الصّلبة العارضة من المرّة السوداء والبلغم، نافع من اليبس العارض في البدن، وإذا طلي به على منابت أسنان الطفل: كان معيناً على نباتها وطلوعها، وهو نافع مِن السُّعال العارض من البرد واليبس، ويذهب القوباء والخشونة التي في البدن، ويلين الطبيعة، ولكنه يضعف شهوة الطعام، ويذهب بوخامة الحلو؛ كالعسل والتمر. وفي جمعه ﷺ بين التمر وبينه من الحكمة: إصلاح كل منهما بالآخر.

---

(١) مرض جلدي يحمر فيه موضع الإصابة ، تصحبه حمى عالية.

(٢) وانظر بعضها في «زيت الزيتون بين الطب والقرآن» للدكتور حسان شمسي باشا (ص٥٣-٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٣٧)، وابن ماجه(٣٣٣٤)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

زبيب:

روي فيه حديثان لا يصحان:
أحدهما: « نعم الطعام الزبيب: يطيب النكهة، ويذيب البلغم».
الثاني: « نعم الطعام الزبيب: يذهب النصب، ويشد العصب، ويطفىء الغضب، ويصفي اللون، ويطيب النكهة».
وهذا - أيضاً- لا يصح فيه شيء عن رسول الله ﷺ.
وبعد: فأجود الزبيب ما كبر جسمه، وسمن شحمه ولحمه، ورقّ قشره، ونزع عجمه، وصغر حبه .
وجرم الزبيب حارّ رطب في الأولى، وحبّه بارد يابس، وهو كالعنب المتّخذ منه: الحلو منه حار، والحامض قابض بارد، والأبيض أشد قبضاً من غيره، وإذا أكل لحمه: وافق قصبة الرئة، ونفع من السّعال، ووجع الكلى، والمثانة، ويقوّي المعدة، ويلين البطن .
والحلو اللحم أكثر غذاء من العنب، وأقلّ غذاء من التين اليابس، وله قوة منضجة هاضمة، قابضة محلّلة باعتدال.
وهو بالجملة: يقوي المعدة والكبد والطّحال، نافع من وجع الحلق والصدر والرئة والكلى والمثانة.
وأعدله أن يؤكل بغير عَجَمه .
وهو يغذي غذاءً صالحاً، ولا يسدد كما يفعل التمر. وإذا أكل منه بعجمه: كان أكثر نفعاً للمعدة والكبد والطّحال، وإذا لصق لحمه على الأظافير المتحركة: أسرع قلعها، والحلو منه وما لا عجم له نافع لأصحاب الرطوبات والبلغم، وهو يخصب الكبد، وينفعها بخاصّيته .
وفيه نفع للحفظ: قال الزهري: من أحبّ أن يحفظ الحديث؛ فليأكل الزبيب.

زنجبيل:

قال -تعالى-: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ [الإنسان:١٧].

الزنجبيل: حار في الثانية، رطب في الأولى، مسخن معين على هضم الطعام، ملين للبطن تليينًا معتدلًا، نافع من سدد الكبد العارضة عن البرد والرطوبة ومن ظلمة البصر الحادثة عن الرطوبة أكلًا واكتحالًا، معين على الجماع. وهو محلل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة .

وبالجملة: فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج، وإذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار، أسهل فضولًا لزجة لعابية، ويقع في المعجونات التي تحلل البلغم وتذيبه .

والمزي منه حار يابس يهيج الجماع، ويزيد في المني، ويسخن المعدة والكبد، ويعين على الاستمراء، وينشف البلغم الغالب على البدن، ويزيد في الحفظ، ويوافق برد الكبد والمعدة، ويزيل بلتها الحادثة عن أكل الفاكهة، ويطيب النكهة، ويدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة .

حرف السين

سنا:

قد تقدم، وتقدم سنوت -أيضاً-[١].

وفيه سبعة أقوال:

أحدها : أنه العسل.

الثاني : أنه رب عكة السمن، يخرج خططا سوداء على السمن.

(١) (ص ٣٩٠).

الثالث: أنه حبٌّ يشبه الكمُّون، وليس بكمون.

الرابع: الكمون الكرماني.

الخامس: أنه الشِّبت[1].

السادس: أنه التمر.

السابع: أنه الرَّازيانج.

سفرجل:

وقد روي في السفرجل أحاديث لا تصح.

والسفرجل بارد يابس، ويختلف في ذلك باختلاف طعمه، وكله بارد قابض، جيد للمعدة، والحلو منه أقلّ برودة ويبساً، وأميل إلى الاعتدال، والحامض أشد قبضاً ويبساً وبرودة، وكله يسكِّن العطش والقيء، ويدرُّ البول، ويعقل الطبع، وينفع من قرحة الأمعاء، ونفث الدم، والهيضة، وينفع من الغثيان، ويمنع من تصاعد الأبخرة: إذا استعمل بعد الطعام، وحراقة أغصانه وورقه المغسولة؛ كالتوتياء في فعلها .

وهو قبل الطعام يقبض، وبعده يلِّين الطبع، ويسرع بانحدار الثفل، والإكثار منه مضر بالعصب، مولِّد للقولنج، ويطفئ المَّرة الصفراء المتولدة في المعدة .

وإن شوي كان أقلّ لخشونته وأخف، وإذا قوِّر وسطه، ونزع حبُّه، وجعل فيه العسل، وطين جرمه بالعجين، وأودع الرماد الحارّ: نفع نفعاً حسناً .

وأجود ما أكل مشوّياً أو مطبوخاً بالعسل، وحبُّه ينفع من خشونة الحلق، وقصبة الرئة، وكثير من الأمراض، ودهنه يمنع العرق، ويقوي المعدة، والمربى منه يقوي المعدة والكبد، ويشد القلب، ويطيِّب النفس.

---

(١) الشبت: نبات من فصيلة الخيميات يشبه الشمر، وهو من الوابل.

سواك:

في« الصحيحين»[١] عنه ﷺ: «لـولا أن أشـق علـى أمـتي لأمرتـهم بالسواك عند كل صلاة» .

وفيهما : «أنه ﷺ كان إذا قام من الليلِ يشـوص فـاه بالسـواك»[٢].

وعنه ﷺ: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للربِ»[٣] .

وفي « صحيح مسلم[٤]»: «أنه ﷺ كان إذا دخل بيته، بدأ بالسِّواك».

والأحاديث فيه كثيرة.

وصح عنه من حديث أنه استاك عند موته بسـواك عبـد الرحمـن بـن أبي بكر[٥] .

وصح عنه أنه قال: «أكثرت عليكم في السِّواك»[٦] .

وأصلح ما اتخـذ السـواك: مـن خشـب الأراك ونحـوه. ولا ينبغـي أن يؤخذ من شجرة مجهولة: فربما كانت سُمّاً. وينبغي القصد في استعماله، فـإن بالغ فيه: فربما أذهـب طـلاوة الأسـنان وصقالتـها، وهيأهـا لقبـول الأبخـرة المتصاعدة من المعدة والأوسـاخ، ومتـى اسـتعمل بـاعتدال: جـلا الأسـنان، وقوّى العمود، وأطلق اللسان، ومنع الحفر، وطيَّب النَّكهـة، ونقَّـى الدمـاغ، وشهى الطعام .

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه البخاري (٨٨٩)، ومسلم (٢٥٥) مـن حديـث حذيفـة -رضـي الله عنه-.

(٣) صحيح؛ كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠٩).

(٤) برقم (٢٥٣) من حديث عائشة-رضي الله عنها-.

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٣٨) من حديث عائشة- رضي الله عنها-.

(٦) أخرجه البخاري (٨٨٨) من حديث أنس- رضي الله عنه-.

وأجود ما استعمل مبلولاً بماء الورد، ومن أنفعه: أصول الجوز. قال صاحب «التيسير»: «زعموا أنه إذا استاك به المستاك كل خامس من الأيام: نقى الرأس، وصفى الحواس، وأحد الذهن».

وفي السواك عدة منافع[1]: يطيب الفم، ويشد اللثة، ويقطع البلغم، ويجلو البصر، ويذهب بالحفر، ويصح المعدة، ويصفي الصوت، ويعين على هضم الطعام، ويسهل مجاري الكلام، وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات .

ويستحب كل وقت، ويتأكد عند الصلاة والوضوء والانتباه من النوم وتغيير رائحة الفم، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت؛ لعموم الأحاديث فيه، ولحاجة الصائم إليه، ولأنه مرضاة للرب ومرضاته مطلوبة في الصوم أشد من طلبها في الفطر، ولأنه مطهرة للفم، والطهور للصائم من أفضل أعماله .

وقال البخاري: قال ابن عمر : « يستاك أول النهار وآخره» .

وأجمع الناس على أن الصائم يتمضمض وجوباً واستحباباً، والمضمضة أبلغ من السواك، وليس لله غرض في التقرب إليه بالرائحة الكريهة، ولا هي من جنس ما شرع التعبد به، وإنما ذكر طيب الخلوف عند الله يوم القيامة: حثاً منه على الصوم؛ لا حثاً على إبقاء الرائحة، بل الصائم أحوج إلى السواك من المفطر .

و-أيضاً-؛ فإن رضوان الله أكبر من استطابته لخلوف فم الصائم.

و-أيضاً-؛ فإن محبته للسواك أعظم من محبته لبقاء خلوف فم الصائم.

و-أيضاً-؛ فإن السواك لا يمنع طيب الخلوف -الذي يزيله السواك- عند الله يوم القيامة؛ بل يأتي الصائم يوم القيامة وخلوف فمه أطيب من

(١) وانظر لهذه الفوائد: « السواك»: للدكتور محمد على البار(ص٦٣-١٧٥)، و« الطب النبوي والعلم الحديث» : للدكتور محمود النسيمي (١/ ١٨٣-١٩٠).

المسك، علامة على صيامه ولو أزاله بالسواك، كما أن الجريح يأتي يوم القيامة ولون دم جرحه لون الدم، وريحه ريح المسك، وهو مأمور بإزالته في الدنيا .

و-أيضاً-؛ فإن الخلوف لا يزول بالسواك؛ فإن سببه قائم، وهو: خلو المعدة عن الطعام، وإنما يزول أثره، وهو المنعقد على الأسنان واللثة .

و-أيضاً-؛ فإن النبي ﷺ علم أمته ما يستحب لهم في الصيام، وما يكره لهم، ولم يجعل السواك من القسم المكروه، وهو يعلم أنهم يفعلونه، وقد حضهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول وهم يشاهدونه يستاك وهو صائم مراراً كثيرة تفوت الإحصاء، ويعلم أنهم يقتدون به، ولم يقل لهم يوماً من الدهر: لا تستاكوا بعد الزوال، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع، والله أعلم.

سمن:

والسمن حار رطب في الأولى، وفيه جلاء يسير ولطافة، وتفشية الأورام الحادثة من الأبدان الناعمة، وهو أقوى من الزبد في الإنضاج والتليين. وذكر جالينوس: «أنه أبرأ به الأورام الحادثة في الأذن، وفي الأرنبة». وإذا دلك به موضع الأسنان: نبتت سريعاً، وإذا خلط مع عسل ولوز مر: جلا ما في الصدر والرئة، والكيموسات الغليظة اللزجة؛ إلا أنه ضار بالمعدة سيما إذا كان مزاج صاحبها بلغمياً .

وأما سمن البقر والمعز؛ فإنه إذا شرب مع العسل: نفع من شرب السم القاتل، ومن لدغ الحيات والعقارب.

سمك:

عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال »[1] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه(٣٢١٨و٣٣١٤)، وأحمد (٢/ ٩٧) من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-، وصححه شيخنا الألباني-رحمه الله- في «الصحيحة» (١١١٨).

أصناف السمك كثيرة، وأجوده ما لذ طعمه، وطاب ريحه، وتوسط مقداره، وكان رقيق القشر، ولم يكن صلب اللحم ولا يابسه، وكان في ماء عذب جار على الحصباء، ويغتذي بالنبات؛ لا الأقذار، وأصلح أماكنه: ما كان في نهر جيد الماء، وكان يأوي إلى الأماكن الصخرية، ثم الرملية، والمياه الجارية العذبة التي لا قذر فيها ولا حمأة، الكثيرة الاضطراب والتموج، المكشوفة للشمس والرياح .

والسمك البحري: فاضل، محمود لطيف، والطري منه: بارد رطب، عسر الانهضام، يولد بلغماً كثيراً، إلا البحري وما جرى مجراه: فإنه يولد خلطاً محموداً، وهو يخصب البدن ، ويزيد في المني، ويصلح الأمزجة الحارة.

وأما المالح، فأجوده ما كان قريب العهد بالتملح، وهو حار يابس، وكلما تقادم عهده: ازداد حره ويبسه. والسلور منه كثير اللزوجة، ويسمى الجري، واليهود لا تأكله. وإذا أكل طرياً: كان مليناً للبطن، وإذا ملح وعتق وأكل: صفى قصبة الرئة، وجود الصوت، وإذا دق ووضع من خارج: أخرج السلى[1] والفضول من عمق البدن، من طريق أن له قوة جاذبة .

وماء ملح الجري المالح إذا جلس فيه من كانت به قرحة الأمعاء، في ابتداء العلة، وافقه: بجذبه المواد إلى ظاهر البدن، وإذا احتقن به: أبرأ من عرق النسا .

وأجود ما في السمك: ما قرب من مؤخرها، والطري السمين منه يخصب البدن لحمه وودكه . وفي «الصحيحين»[2] : من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب، وأميرنا أبو

---

(١) السلى: هو الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه.
(٢) أخرجه البخاري(٥٤٩٤)، ومسلم (١٩٣٥).

عبيدة بن الجراح، فأتينا الساحل، فأصابنا جوع شديد؛ حتى أكلنا الخبط[١]، فألقى لنا البحر حوتاً، يقال لها : عنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وائتدمنا بودكه؛ حتى ثابت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه، وحمل رجلاً على بعيره، ونصبه، فمر تحته .

سلق[٢]:

عن أمّ المنذر، قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ومعه علي -رضي الله عنه- ولنا دوالٍ معلَّقة، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يأكل، وعلي معه يأكل. فقال رسول الله ﷺ: «مه يا علي! فإنك ناقه»، قالت: فجعلت لهم سلقاً وشعيراً؛ فقال النبيُّ ﷺ: «يا علي! فأصب من هذا؛ فأنه أوفق لك»[٣].

السلق: حار يابس في الأولى، وقيل: رطب فيها، وقيل: مركب منهما، وفيه برودة ملطفة، وتحليل وتفتيح، وفي الأسود منه قبض ونفع من داء الثعلب والكلف والحزاز والثآليل إذا طلي بمائه، ويقتل القمل، ويطلى به القوباء مع العسل، ويفتح سدد الكبد والطحال، وأسوده يعقل البطن، ولا سيما مع العدس، وهما رديئان، والأبيض يلين مع العدس، ويحقن بمائه للإسهال، وينفع من القولنج مع المري والتوابل، وهو قليل الغذاء، رديء

(١) ما تساقط من ورق الشجر

(٢) السلق: يقصد به السلق البحري، ولا يستعمل -الآن- إلا في الجروح المتقيحة، وبعض الأمراض الجلدية. (ع).

قلت: هكذا قال الدكتور الأزهري ، ولا أعلم مستنده في ذلك، بل المراد: النبات المعروف، والله أعلم.

(٣) تقدم (ص١٦٠).

الكيموس، يحرق الدم، ويصلحه الخل والخردل، والإكثار منه يولد القبض والنفخ.

حرف الشين

شونيز:
هو الحبة السوداء، وقد تقدم في حرف الحاء[١] .

شبرم[٢]:
الشُّبرم: شجر صغير وكبير؛ كقامة الرجل وأرجح، له قضبان حمر ملمَّعة ببياض، وفي رؤوس قضبانه جمَّة من ورق، وله نور صغار أصفر إلى البياض، يسقط ويخلفه مراود صغار فيها حبٌّ صغير مثل البطم في قدره، أحمر اللون، ولها عروق عليها قشور حمر، والمستعمل منه قشر عروقه، ولبن قضبانه .

وهو حار يابس في الدرجة الرابعة، ويسهِّل السوداء والكيموسات الغليظة، والماء الأصفر، والبلغم، مكرب، مغثٌّ، والإكثار منه يقتل، وينبغي إذا استعمل أن ينقع في اللبن الحليب يوماً وليلة، ويغيَّر عليها اللب في اليوم مرتين أو ثلاثاً، ويخرج ويجفَّف في الظل، ويخلط معه الورود والكثيراء[٣]، ويشرب بماء العسل، أو عصير العنب، والشَّربة منه ما بين أربع دوانق إلى دانقين على حسب القوة.

---

(١) (ص٣٨٥)

(٢) شبرم: نبات كان يستعمل قديماً، وبطل استعماله؛ لكثرة أنواعه، وكثرة السام منها؛ مما أدى إلى وفاة الكثيرين من استعماله، وتستعمل بعض خلاصاته الآن كمدر للبلغم. (ع).

(٣) رطوبة تخرج من أصل شجرة تكون بجبال بيروت ولبنان.

قال حنين :« أما لبن الشبرم، فلا خير فيه، ولا أرى شربه ألبتة؛ فقد قتل به أطباء الطرقات كثيرا من الناس».

شعير:

ماء الشعير المغلي أكثر غذاء من سويقه، وهو نافع للسعال، وخشونة الحلق، صالح لقمع حدة الفضول، مدر للبول، جلاء لما في المعدة، قاطع للعطش، مطفئ للحرارة، وفيه قوة يجلو بها ويلطف ويحلل .

وصفته: أن يؤخذ من الشعير الجيد المرضوض مقدار، ومن الماء الصافي العذب خمسة أمثاله، ويلقى في قدر نظيف، ويطبخ بنار معتدلة إلى أن يبقى منه خمساه، ويصفى، ويستعمل منه مقدار الحاجة محلا(١) .

---

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٣/ ٣٠٢-٣٠٣): « أما الطب الحديث؛ فإنه يصف حساء الشعير في الحميات، وكغذاء لطيف سهل الهضم، ولقد ورد ذكر ماء الشعير في كتاب« فن التمريض» للأستاذ الدكتور مرشد الخاطر، فذكر صنعه كما يلي: يؤخذ (٥٠غم) من جريش الشعير، ويغسل جيدا بالماء، ويضاف إليه (لتر ونصف اللتر) من الماء البارد، ويسخن رويداً حتى الغليان، ويثابر على ذلك ساعة ونصف الساعة في وعاء مغلق حتى يعود الماء لتراً واحدا، ويملح أولا يملح، ويجوز أن يحلى بالسكر، وبعطر الليمون ليعود حسن الطعم.

وفي علم الأدوية للأستاذ الدكتور عزة مريدن أفاد أن في « أبحاث الأغذية وخصائصها الدوائية» يستعمل مهروس الشعير بعد نزع قشوره مطبوخا بالحليب أو الماء للمسعورين والأطفال.

إن حساء الشعير أو التلبينة من الأغذية اللطيفة؛ يتغذى بها الحزين، أو المتوعك، أو المصاب بالحمى، أو بقلة الشهية، أو بعسرة الهضم؛ ما لم يحدد الطبيب غيرها من الحميات».

شواء:

قال الله -تعالى- في ضيافة خليله إبراهيم -عليه السلام- لأضيافه: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود:٦٩]؛ والحنيذ: المشوي على الرضف، وهي: الحجارة المحماة.

وعن أم سلمة -رضي الله عنها-؛ **أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنباً مشوياً، فأكل منه ثم قام إلى الصلاة؛ ولم يتوضأ** [(١)].

وعن عبد الله بن الحارث، قال: « **أكلنا مع رسول الله ﷺ شواء في المسجد**»[(٢)].

وعن المغيرة بن شعبة، قال: ضفت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فأمر بجنب، فشوي، ثم أخذ الشفرة، فجعل يحز لي بها منه، قال: فجاء بلال يؤذن للصلاة، فألقى الشفرة؛ فقال: «**ما له تربت يداه؟!**»[(٣)].

أنفع الشواء: شواء الضأن الحولي، ثم العجل اللطيف السمين، وهو حار رطب إلى اليبوسة، كثير التوليد للسوداء، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء والمرتاضين، والمطبوخ أنفع وأخف على المعدة، وأرطب منه، ومن المطجن .

وأردؤه: المشوي في الشمس، والمشوي على الجمر خير من المشوي باللهب، وهو: الحنيذ .

شحم:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٢٩)، وأحمد (٦/ ٣٠٧)، وصححه شيخنا الألباني - رحمه الله-.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١١)، وأحمد (٤/ ١٩٠-١٩١)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٣) أخرجه أبو داود (١٨٨)، وأحمد (٤/ ٢٥٢)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

عن أنس:« أن يهودياً أضاف رسول الله ﷺ، فقدم له خبز شعير وإهالة سنخة»[١] .

والإهالة: الشحم المذاب والألية، والسنخة: المتغيرة.

وثبت في « الصحيح»[٢] عن عبد الله بن مغفل، قال:« دلي جراب من شحم يوم خيبر، فالتزمته، وقلت: والله لا أعطي أحداً منه شيئاً، فالتفت؛ فإذا رسول الله ﷺ يضحك، ولم يقل شيئاً » .

أجود الشحم ما كان من حيوان مكتمل، وهو حار رطب، وهو أقل رطوبة من السمن؛ ولهذا لو أذيب الشحم والسمن كان الشحم أسرع جمودا، وهو ينفع من خشونة الحلق، ويرخي ويعفن، ويدفع ضرره باالليمون المملوح، والزنجبيل، وشحم المعز أقبض الشحوم، وشحم التيوس أشد تحليلا، وينفع من قروح الأمعاء، وشحم العنز أقوى في ذلك، ويحتقن به للسحج[٣] والزحير[٤] .

حرف الصاد

صلاة:

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة:٤٥] ، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٨و٢١٠-٢١١-٢٣٢و٢٥٢و٢٧٠و٢٨٩)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (٥/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٣)، ومسلم (١٧٧٢).

(٣) داء في البطن قاشر.

(٤) استطلاق البطن.

-تعالى- : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه:١٣٢].

وفي« السنن» :« كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»(١)

وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع قبل استحكامها(٢) .

والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشطة للجوارح، ممدة للقوى، شارحة للصدر، مغذية للروح، منورة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة من الشيطان، مقربة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظ المصلي منهما أقل، وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً؛ فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسر ذلك: أن الصلاة صلة بالله - عز وجل-، وعلى قدر صلة العبد بربه -عز وجل- تفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابها، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه -عز وجل-، والعافية والصحة، والغنيمة والغنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها محضرة لديه، ومسارعة إليه .

---

(١) تقدم (ص٢٧٦).

(٢) تقدم (ص٢٧٣).

صبر:

الصبر نصف الإيمان؛ فإنه ماهية مركبة من صبر وشكر؛ كما قال بعض السلف: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، قال -تعالى- : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥].

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وهو ثلاثة أنواع:

صبر على فرائض الله، فلا يضيعها.

وصبر عن محارمه، فلا يرتكبها.

وصبر على أقضيته وأقداره، فلا يتسخطها.

ومن استكمل هذه المراتب الثلاث: استكمل الصبر. ولذة الدنيا والآخرة ونعيمها، والفوز والظفر فيهما، لا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط.

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-« خير عيش أدركناه بالصبر».

وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم: رأيتها كلها منوطة بالصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته: رأيته كله من عدم الصبر. فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار، كله صبر ساعة .

فالصبر طلسم[1] على كنز العلا
من حل ذا الطلسم: فاز بكنزه

---

(١) الطلسم: جمع طلسمات، وهي خطوط أو كتابة يستعملها المشعوذ، ويزعم أنه يدفع بها كل مؤذ.

وأكثر أسقام البدن والقلب؛ إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر؛ فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم، ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله؛ فإن الله مع الصابرين، ومحبته لهم؛ فإن الله يحب الصابرين، ونصره لأهله؛ فإن النصر مع الصبر، وإنه خير لأهله ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل:١٢٦] ، وإنه سبب الفلاح: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠].

صبر(١):

الصبر كثير المنافع -لا سيما الهندي منه-: ينقي الفضول الصفراوية التي في الدماغ وأعصاب البصر، وإذا طلي على الجبهة والصدغ بدهن الورد: نفع من الصداع، وينفع من قروح الأنف والفم، ويسهل السوداء والماليخوليا(٢) .

والصبر الفارسي: يذكي العقل، ويمد(٣) الفؤاد، وينقي الفضول الصفراوية والبلغمية من المعدة: إذا شرب منه ملعقتان بماء، ويرد الشهوة الباطلة والفاسدة، وإذا شرب في البرد؛ خيف أن يسهل دماً .

---

(١) الصبر: يستعمل إلى -الآن- في العطارة وفي الأدوية الحديثة؛ كمسهل في بعض حالات الامساك بمقادير معروفة محددة.(ع).

(٢) اسم جنس تحته أنواع كثيرة تختلف باختلاف علامات حاضرة، وتجمعها فساد الدماغ والعقل.

(٣) في نسخة: « يشد».

صوم:

الصوم جنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب: في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن إليه طبعاً .

ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها، وفيه خاصية تقتضي إيثاره، وهي: تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم .

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعاً وشرعاً: عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه، ويعينه على قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائية؛ فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب، وباعتبار ذلك الأمر اختص من بين الأعمال: بأنه لله -سبحانه-، ولما كان وقاية وجنة بين العبد وبين ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً؛ قال الله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة:١٨٣].

فأحد مقصودي الصيام: الجنة والوقاية؛ وهي حمية عظيمة النفع.

والمقصود الآخر: اجتماع القلب والهم على الله -تعالى-، وتوفير قوى النفس على محابه وطاعته.

وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه[١] .

---

(١) (تقدم ص ٣١٨)

حرف الضاد

ضب:

ثبت في «الصحيحين»[١] : من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سئل عنه لما قدم إليه، وامتنع من أكله: أحرام هو ؟ فقال: «لا؛ ولكن لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه».

«وأكل بين يديه وعلى مائدته: وهو ينظر».

وفي «الصحيحين»[٢]: من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- عنه ﷺ أنه قال:« لا أحله ولا أحرمه».

وهو حار يابس، يقوي شهوة الجماع، وإذا دق، ووضع على موضع الشوكة: اجتذبها .

ضفدع:

قال الإمام أحمد: الضفدع لا يحل في الدواء؛ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها؛ يريد الحديث الذي رواه في « مسنده » من حديث عثمان بن عبدالرحمن -رضي الله عنه-: أن طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ؛ فنهاه عن قتلها [٣].

قال صاحب «القانون» : «من أكل من دم الضفدع أو جرمه: ورم بدنه، وكمد لونه، وقذف المني حتى يموت؛ ولذلك ترك الأطباء استعماله خوفا من ضرره. وهي نوعان: مائية وترابية، والترابية يقتل أكلها».

---

(١) تقدم (ص ٢٨٣).

(٢) تقدم (ص ٢٨٤).

(٣) تقدم (ص ٢٢٠).

حرف الطاء

طيب:

ثبت عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[١].

وكان ﷺ يكثر التطيب، وتشتد عليه الرائحة الكريهة، وتشق عليه.

والطيب؛ غذاء الروح التي هي مطية القوى. والقوى تتضاعف وتزيد بالطيب؛ كما تزيد بالغذاء والشراب، والدعة والسرور، ومعاشرة الأحبة، وحدوث الأمور المحبوبة، وغيبة من تسر غيبته، ويثقل على الروح مشاهدته؛ كالثقلاء والبغضاء؛ فإن معاشرتهم توهن القوى، وتجلب الهم والغم، وهي للروح بمنزلة الحمى للبدن، وبمنزلة الرائحة الكريهة؛ ولهذا كان مما حبب الله -سبحانه- الصحابة بنهيهم عن التخلق بهذا الخلق في معاشرة رسول الله ﷺ لتأذيه بذلك، فقال: ﴿ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

والمقصود: أن الطيب كان من أحب الأشياء إلى رسول الله ﷺ، وله تأثير في حفظ الصحة، ودفع كثير من الآلام، وأسبابها؛ بسبب قوة الطبيعة به .

طين:

ورد في أحاديث موضوعة لا يصح منها شيء،مثل:

---

(١) تقدم (ص ٣٢٨).

حديث: « من أكل الطين؛ فقد أعان على قتل نفسه»، ومثل: حديث:« يا حميراء! لا تأكلي الطين؛ فإنه يعصم البطن، ويصفر اللون، ويذهب بهاء الوجه».

وكل حديث في الطين؛ فإنه لا يصح، ولا أصل له عن رسول الله ﷺ وهو رديء مؤذ، يسد مجاري العروق، وهو بارد يابس، قوي التجفيف، ويمنع استطلاق البطن، ويوجب نفث الدم وقروح الفم.

طلح:

قال -تعالى-: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة:٢٩]؛ قال أكثر المفسرين: هو الموز، والمنضود: هو الذي قد نضد بعضه على بعض؛ كالمشط.

وقيل: الطلح: الشجر ذو الشوك، نضد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض؛ فهو مثل الموز. وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص، والله أعلم .

وهو حار رطب، أجوده: النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين، والمثانة، ويدر البول، ويزيد في المني، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم. ودفع ضرره: بالسكر أو العسل .

طلع:

قال -تعالى-:﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق:١٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء:١٤٨].

طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى: الكفرى، والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له: نضيد ما دام في كفراه، فإذا انفتح؛ فليس بنضيد.

وأما الهضيم؛ فهو المنضم بعضه إلى بعض، فهو كالنضيد -أيضاً-، وذلك يكون قبل تشقق الكفرى عنه.

والطلع نوعان: ذكر وأنثى، والتلقيح هو: أن يؤخذ من الذكر- وهو مثل دقيق الحنطة-؛ فيجعل في الأنثى، وهو: التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى. وقد روى مسلم في «صحيحه»[1] عن طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأى قوماً يلَّقحون، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى، قال: «ما أظن ذلك يغني شيئاً»؛ فبلغهم؛ فتركوه؛ فلم يصلح، فقال النبيُّ ﷺ : «**إنما هو ظن، فإن كان يغني شيئاً؛ فاصنعوه؛ فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن: ما قلت لكم عن الله -عز وجل- ؛ فلن أكذب على الله**[2]».

طلع النخل ينفع من الباه، ويزيد في المباضعة، ودقيق طلعه إذا تحمَّلت به المرأة قبل الجماع: أعان على الحبل إعانة بالغة، وهو في البرودة واليبوسة في الدرجة الثانية، يقوِي المعدة ويجففها، ويسكِّن ثائرة الدم مع غلظة وبطء هضم .

ولا يحتمله إلا أصحاب الأمزجة الحارة، ومن أكثر منه؛ فإنه ينبغي أن يأخذ عليه شيئاً من الجوارشات الحارة، وهو يعقل الطبع، ويقوي الأحشاء، والجمار[3] يجري مجراه، وكذلك البلح والبسر، والإكثار منه يضر بالمعدة والصدر، وربما أورث القولنج، وإصلاحه: بالسمن، أو بما تقدم ذكره.

---

(١) برقم (٢٣٦١).

(٢) قلت: وانظر فقه الحديث (ص ٢٥).

(٣) الجمّار: شحم النخلة.

حرف العين

عنب:

ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب العنب والبطيخ.

وقد ذكر الله -سبحانه- العنب في ستة مواضع[١] من كتابه في جملة نعمه التي أنعم بها على عباده في هذه الدار وفي الجنة. وهو من أفضل الفواكه وأكثرها منافع، وهو يؤكل رطباً ويابساً، وأخضر ويانعاً، وهو فاكهة مع الفواكه، وقوت مع الأقوات، وأدم مع الإدام، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وطبعه طبع الحبّات: الحرارة والرطوبة، وجيده الكبار المائي، والأبيض أحمد من الأسود: إذا تساويا في الحلاوة، والمتروك بعد قطفه يومين أو ثلاثة أحمد مِن المقطوف في يومه؛ فإنه منفخ مطلق للبطن، والمعلَّق حتى يضمر قشره: جيد للغذاء، مقو للبدن، وغذاؤه كغذاء التين والزبيب، وإذا ألقي عجم العنب: كان أكثرَ تلييناً للطبيعة، والإكثار منه مصدع للرأس، ودفع مضرته: بالرمان المُزّ.

ومنفعة العنب: يسهل الطبع، ويسمن، ويغذو جيده غذاءً حسناً، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ هو والرُّطب والتين.

عسل:

قد تقدم ذكر منافعه[٢] .

قال ابن جريج : قال الزهري : «عليك بالعسل؛ فإنه جيد للحفظ».

---

(١) ورد ذكر العنب في القرآن في أحد عشر موضعاً؛ في سورة البقرة: ٢٢٦، وفي سورة الأنعام: ٩٩، وفي سورة الرعد: ٤، وفي سورة النحل: ١١و٦٧، وفي سورة الإسراء : ٩١، وفي سورة الكهف: ٣٢، وفي سورة المؤمنين:١٩، وفي سورة يس:٣٤، وفي سورة النبأ: ٣٢، وفي سورة عبس:٢٨.

(٢) تقدم (ص ٦٨).

وأجوده: أصفاه وأبيضه، وألينه حدة، وأصدقه حلاوة، وما يؤخذ من الجبال والشجر؛ له فضل على ما يؤخذ من الخلايا، وهو بحسب مرعى نحله.

عجوة:

في «الصحيحين» من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ؛ أنه قال:« من تصبح بسبع تمرات عجوة؛ لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»[1].

ومن حديث جابر وأبي سعيد -رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ: «العجوة من الجنة، وهي شفاء من السم، والكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[2].

وقد قيل: إن هذا في عجوة المدينة، وهي أحد أصناف التمر بها، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق، وهو صنف كريم، ملذذ، متين للجسم والقوة، من ألين التمر وأطيبه وألذه، وقد تقدم ذكر التمر وطبعه ومنافعه في حرف التاء[3]، والكلام على دفع العجوة للسم والسحر؛ فلا حاجة لإعادته.

---

(١) تقدم (ص ٣٧٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٣)، وأحمد (٣/ ٤٨).

قال شيخنا الألباني- رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٤/ ١٦٤/ ٤١٦٣- «هداية الرواة»): «رواية ابن ماجه: «... هي شفاء من الجنة»؛ وهي منكرة».

وأخرجه الترمذي (٢٠٦٦و٢٠٦٨) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا - رحمه الله-.

(٣) (ص ٣٧٨).

عنبر:

تقدم[1] في « الصحيحين» من حديث جابر في قصة أبي عبيدة، وأكلهم من العنبر شهراً، وأنهم تزوَّدوا من لحمه وشائق إلى المدينة، وأرسلوا منه إلى النبي ﷺ. وهو أحد ما يدل على أن إباحة ما في البحر لا يختصُّ بالسمك، وعلى أن ميتته حلال، واعترض على ذلك: بأن البحر ألقاه حيّاً، ثم جزر عنه الماء، فمات، وهذا حلال؛ فإن موته بسبب مفارقته للماء، وهذا لا يصحُّ؛ فإنهم إنما وجدوه ميتاً بالساحل، ولم يشاهدوه قد خرج عنه حيّاً، ثم جزر عنه الماء .

و-أيضاً- ؛ فلو كان حياً؛ لما ألقاه البحر إلى ساحله؛ فإنه من المعلوم أن البحر إنما يقذف إلى ساحله الميت من حيواناته، لا الحيٌ منها .

و-أيضاً- ؛ فلو قُدِّرَ احتمال ما ذكروه؛ لم يجز أن يكون شرطاً في الإباحة؛ فإنه لا يباح الشيء مع الشك في سبب إباحته؛ ولهذا منع النبيُّ ﷺ من أكل الصيد إذا وجده الصائد غريقاً في الماء؛ للشك في سبب موته: هل هو الآلة؟ أم الماء؟.

وأما العنبر الذي هو أحد أنواع الطِّيب؛ فهو من أفخر أنواعه بعد المسك، وأخطأ من قدَّمه على المسك، وجعله سيد أنواع الطِّيب؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في المسك: «هو أطيب الطيب»[2]، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ذكر الخصائص والمنافع التي خص بها المسك؛ حتى إنه طيب الجنة، والكثبان -التي هي مقاعد الصديقين هناك- من مسك لا من عنبر .

---

(١) (ص٤١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-.

والذي غر هذا القائل: أنه لا يدخله التغير على طول الزمان؛ فهو كالذهب، وهذا يدل على أنه أفضل من المسك؛ فإنه بهذه الخاصية الواحدة، لا يقاوم ما في المسك من الخواص.

وبعد؛ فضروبه كثيرة، وألوانه مختلفة؛ فمنه: الأبيض، والأشهب، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والأسود، وذو الألوان. وأجودهُ: الأشهب، ثم الأزرق، ثم الأصفر، وأردؤه: الأسود .

وقد اختلف الناس في عنصره[1]؛ فقالت طائفة: هو نبات ينبت في قعر البحر، فيبتلعه بعض دوابِّه، فإذا ثملت منه؛ قذفته رجيعاً، فيقذفه البحر إلى ساحله.

وقيل: طلٌّ ينزل من السماء في جزائر البحر، فتلقيه الأمواج إلى الساحل.

وقيل: روث دابة بحرية تشبه البقرة .

وقيل: بل هو جفاء من جفاء البحر؛ أي: زبد.

وقال صاحب «القانون» : «هو -فيما يظن- ينبع من عين في البحر. والذي يقال: إنه زبد البحر، أو روث دابة؛ بعيد» انتهى .

ومزاجه حار يابس، مقو للقلب والدماغ والحواس وأعضاء البدن، نافع من الفالج واللَّقوة، والأمراض البلغمية، وأوجاع المعدة الباردة،

---

(١) قال الدكتور محمد علي البار في «التداوي بالمحرمات» (٦٦): «... والصحيح أنه مادة تفرزها أمعاء الحوت - وهو المعروف بالعنبر، والذي وجده أبو عبيدة وأصحابه في غزاة؛ كما ذكره البخاري في «صحيحه»-... وتذكر دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف المخدرات العنبر، وأنه مادة يفرزها الحوت من أمعائه فتوجد طافية على البحر في المناطق الاستوائية».

والرياح الغليظة، ومن السدد: إذا شرب، أو طلي به من خارج، وإذا تبخر به: نفع من الزُّكام والصداع والشقيقة الباردة [١].

عود:

العود الهندي نوعان:

أحدهما : يستعمل في الأدوية، وهو: الكست، ويقال له: القسط. وسيأتي في حرف القاف.

الثاني : يستعمل في الطيب، ويقال له: الألوَّة.

عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: أنه كان يستجمر بالألوة غير مطراة، وبكافور يطرح معها، ويقول: هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ [٢].

وثبت عنه في صفة نعيم أهل الجنة: «مجامرهم الألوة» [٣].

والمجامر: جمع مِجْمَر، وهو: ما يتجمَّر به من عود وغيره. وهو أنواع، أجودها: الهندي، ثم الصِّيني، ثم القماري، ثم المندلي، وأجوده: الأسود والأزرق الصّلب الرزين الدسم، وأقلّه جودة: ما خف وطفا على الماء، ويقال: إنه شجر يقطع ويدفن في الأرض سنة، فتأكل الأرض منه ما لا ينفع، ويبقى عود الطيب، لا تعمل فيه الأرض شيئاً، يتعفن منه قشره وما لا طيب فيه.

---

(١) البحث الطبي لم يثبت أي فائدة علاجية له؛ خلاف رأي العامة من الناس؛ فإنهم لا يزالون يستعملونه كمقو للجماع وفي حالات الشلل، ويستعمل -الآن- طبياً في صناعة الأرواح العطرية فقط. (ع).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) (١٥) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

وهو حار يابس في الثالثة، يفتح السدد، ويكسر الرياح، ويذهب بفضل الرطوبة، ويقوي الأحشاء والقلب ويفرحه، وينفع الدماغ، ويقوي الحواس، ويحبس البطن، وينفع من سلس البول الحادث عن برد المثانة .

قال ابن سمجون[1]: «العود ضروب كثيرة، يجمعها اسم الألوة، ويستعمل من داخل وخارج، ويتجمر به مفردا ومع غيره، وفي خلط الكافور به عند التجمير معنى طبي، وهو: إصلاح كل منهما بالآخر، وفي التجمير مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه؛ فإنه أحد الأشياء الستة الضرورية، التي في صلاحها صلاح الأبدان».

عدس:

وقد ورد فيه أحاديث كلها باطلة على رسول الله ﷺ، لم يقل شيئاً منها.

وأرفع شيء جاء فيه، وأصحه: أنه شهوة اليهود التي قدموها على المن والسلوى، وهو قرين الثوم والبصل في الذكر .

وطبعه طبع المؤنث: بارد يابس، وفيه قوتان متضادتان :

إحداهما : يعقل الطبيعة .

والأخرى : يطلقها.

وقشره حار يابس في الثالثة، حريف مطلق للبطن، وترياقه في قشره؛ ولهذا كان صحاحه أنفع من مطحونه، وأخف على المعدة، وأقل ضررا؛ فإن لبه بطيء الهضم؛ لبرودته ويبوسته، وهو مولد للسوداء، ويضر بالماليخوليا ضرراً بيناً، ويضر بالأعصاب والبصر.

وهو غليظ الدم، وينبغي أن يتجنبه أصحاب السوداء، وإكثارهم منه يولد لهم أدواء رديئة؛ كالوسواس والجذام، وحمى الربع، ويقلل ضرره

---

(١) هو حامد بن سمجون من رجال القرن الرابع، فاضل في صناعة الطب، متميز في قوى الأدوية المفردة وأفعالها.

السلق والإسفاناخ[1] وإكثار الدهن. وأردأ ما أكل بالنمكسود[2]. وليتجنب خلط الحلاوة به؛ فإنه يورث سدداً كبدية، وإدمانه يظلم البصر؛ لشدة تجفيفه؛ ويعسر البول، ويوجب الأورام الباردة، والرياح الغليظة. وأجوده: الأبيض السمين، السريع النضج.

وأما ما يظنه الجهال: أنه كان سماط الخليل الذي يقدمه لأضيافه؛ فكذب مفترى، وإنما حكى الله عنه الضيافة بالشواء، وهو: العجل الحنيذ.

وذكر البيهقي عن إسحاق، قال: سئل ابن المبارك عن الحديث الذي جاء في العدس: «أنه قدس على لسان سبعين نبياً»، فقال: ولا على لسان نبي واحد، وإنه لمؤذ منفخ، من حدثكم به؟ قالوا : سلم بن سالم[3]، فقال: عمن؟ قالوا: عنك. قال: وعني -أيضاً-؟[4].

حرف الغين

غيث:

مذكور في القرآن في عدة مواضع، وهو لذيذ الاسم على السمع، والمسمى على الروح والبدن، تبتهج الأسماع بذكره، والقلوب بوروده، وماؤه أفضل المياه وألطفها، وأنفعها وأعظمها بركة، ولا سيما إذا كان من سحاب راعد، واجتمع في مستنقعات الجبال.

---

(١) الإسفاناخ: نبات معروف معرب، فيه قوة جالبة غسالة ينفع الصدر والظهر، ملين.

(٢) النمكسود: هو اللحم إذا شرح وجعل عليه الملح والأبازير.

(٣) هو سلم بن سالم البلخي الزاهد، ضعفة ابن معين وأحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٩٥).

وهو أرطب من سائر المياه؛ لأنه لم تطل مدته على الأرض، فيكتسب من يبوستها، ولم يخالطه جوهر يابس؛ ولذلك يتغير ويتعفن سريعاً؛ للطافته، وسرعة انفعاله.

وهل الغيث الرّبيعي ألطف من الشتوي، أو بالعكس ؟ فيه قولان :

قال من رجح الغيث الشتوي: حرارة الشمس تكون حينئذ أقلّ؛ فلا تجتذب من ماء البحر إلا ألطفه، والجو صافٍ، وهو خالٍ من الأبخرة الدخانية، والغبار المخالط للماء، وكلٌّ هذا يوجب لطفه وصفاءه، وخلوَّه من مخالط .

قال من رجّح الربيعي: الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة، وتوجب رقة الهواء ولطافته؛ فيخف بذلك الماء، وتقل أجزاؤه الأرضية، وتصادف وقت حياة النبات والأشجار وطيب الهواء .

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنهما- قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فأصابنا مطر؛ فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، وقال: «**إنه حديث عهد بربه**[1]»، وقد تقدم في هديه في الاستشفاء ذكر استمطاره ﷺ، وتبركه بماء الغيث عند أول مجيئه.

حرف الفاء

فاتحة الكتاب:

وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن؛ لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسرّ الذي لأجله كانت كذلك .

---

(١) أخرجه مسلم (٨٩٨).

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك؛ رقى بها اللديغ؛ فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وما أدراك أنها رقية؟!»[١].

ومن ساعده التوفيق، وأعين بنور البصيرة؛ حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه: من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة، والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة على التحقق بها؛ أغنته عن كثير من الأدوية والرقى، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه .

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى، وعقل آخر، وإيمان آخر، وتالله؛ لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة؛ إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها وإبطالها، بأقرب الطرق، وأصحها وأوضحها، ولا تجد باباً من أبواب المعارف الإلهية، وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها؛ إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلاً من منازل السائرين إلى رب العالمين؛ إلا وبدايته ونهايته فيها.

ولعمر الله؛ إن شأنها لأعظم من ذلك، وهي فوق ذلك. وما تحقق عبد بها، واعتصم بها، وعقل عمن تكلم بها، وأنزلها شفاء تاماً، وعصمة بالغة، ونوراً مبيناً، وفهمها وفهم لوازمها كما ينبغي؛ ووقع في بدعة ولا شرك، ولا أصابه مرض من أمراض القلوب إلا لماماً، غير مستقر.

هذا؛ وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة؛ ولكن ليس كل واحد يحسن الفتح بهذا المفتاح، ولو أن طلاب الكنوز

---

(١) تقدم (ص ٢٤٠).

وقفوا على سر هذه السورة، وتحققوا بمعانيها، وركبوا لهذا المفتاح أسناناً، وأحسنوا الفتح به: لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاوق، ولا ممانع.

ولم نقل هذا مجازفة، ولا استعارة؛ بل حقيقة؛ ولكن لله -تعالى- حكمة بالغة في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالمين؛ كما له حكمة بالغة في إخفاء كنوز الأرض عنهم، والكنوز المحجوبة قد استخدم عليها أرواح خبيثة شيطانية: تحول بين الإنس وبينها، ولا تقهرها إلا أرواح علوية شريفة، غالبة لها بحالها الإيماني: معها منه أسلحة لا تقوم لها الشياطين، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المثابة: فلا يقاوم تلك الأرواح، ولا يقهرها، ولا ينال من سلبها شيئاً، فإن من قتل قتيلا؛ فله سلبه.

فاغية:

هي: نور الحناء، وهي من أطيب الرياحين.

وهي معتدلة في الحر واليبس، فيها بعض القبض، وإذا وضعت بين طي ثياب الصوف حفظتها من السوس، وتدخل في مراهم الفالج والتمدد، ودهنها يحلل الأعضاء، ويلين العصب .

فضة:

ثبت أن رسول الله ﷺ كان خاتمه من فضة، وفصه منه[(١)]، وكانت قبيعة سيفه فضة[(٢)]. ولم يصح عنه في المنع من لباس الفضة والتحلي بها شيء ألبتة؛ كما صح عنه المنع من الشرب في آنيتها، وباب الآنية أضيق من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٧٠) من حديث أنس- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٨٣)، والنسائي (٨/ ٢١٩)، والترمذي (١٦٩١) من حديث أنس-رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

باب اللباس والتحلي، ولهذا يباح للنساء لباساً، وحلية ما يحرم عليهن استعماله آنية، فلا يلزم من تحريم الآنية تحريم اللباس والحلية .

وعنه ﷺ: «وأما الفضة؛ فالعبوا بها لعباً»[1] ، فالمنع يحتاج إلى دليل يبينه: إما نص أو إجماع؛ فإن ثبت أحدهما، وإلا؛ ففي القلب من تحريم ذلك على الرجال شيء، والنبي ﷺ أمسك بيده ذهبا، وبالأخرى حريراً، وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي، حل لإناثهم»[2] .

والفضة سر من أسرار الله في الأرض، وطلسم الحاجات، وأحساب أهل الدنيا بينهم، وصاحبها مرموق بالعيون بينهم، معظم في النفوس، مصدر في المجالس، لا تغلق دونه الأبواب، ولا تمل مجالسته، ولا معاشرته، ولا يستثقل مكانه، تشير الأصابع إليه، وتعقد العيون نطاقها عليه: إن قال؛ سمع قوله، وإن شفع؛ قبلت شفاعته، وإن شهد؛ زكيت شهادته، وإن خطب فكفء: لا يعاب، وإن كان ذا شيبة بيضاء؛ فهي أجمل عليه من حلية الشباب .

وهي من الأدوية المفرحة النافعة من الهم والغم والحزن، وضعف القلب وخفقانه، وتدخل في المعاجين الكبار، وتجتذب بخاصيتها ما يتولد في القلب من الأخلاط الفاسدة، خصوصاً إذا أضيفت إلى العسل المصفى والزعفران .

ومزاجها إلى اليبوسة والبرودة، ويتولد عنها من الحرارة والرطوبة ما يتولد، والجنان التي أعدها الله -عز وجل- لأوليائه يوم يلقونه أربع: جنتان من ذهب، وجنتان من فضة، آنيتهما وحليتهما وما فيهما. وقد ثبت عنه ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٣٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٤و٣٧٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وحسنه شيخنا الألباني -رحمه الله-.

(٢) صحيح؛ كما فصلته في تحقيقي لـ «تحفة المودود» (ص٤٠٣-٤٠٤).

في «الصحيح» من حديث أم سلمة؛ أنه قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة؛ إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»[١].

وصح عنه ﷺ؛ أنه قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما؛ فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة»[٢].

فقيل: علة التحريم: تضييق النقود؛ فإنها إذا اتخذت أواني فاتت الحكمة التي وضعت لأجلها من قيام مصالح بني آدم، وقيل: العلة: الفخر والخيلاء، وقيل: العلة: كسر قلوب الفقراء والمساكين إذا رأوها وعاينوها.

وهذه العلل فيها ما فيها؛ فإن التعليل بتضييق النقود يمنع من التحلي بها، وجعلها سبائك ونحوها مما ليس بآنية ولا نقد، والفخر والخيلاء حرام بأي شيء كان، وكسر قلوب المساكين لا ضابط له؛ فإن قلوبهم تنكسر بالدور الواسعة، والحدائق المعجبة، والمراكب الفارهة، والملابس الفاخرة، والأطعمة اللذيذة، وغير ذلك من المباحات، وكل هذه علل منتقضة؛ إذ توجد العلة، ويتخلف معلولها .

فالصواب: أن العلة - والله أعلم - ما يكسب استعمالها القلب من الهيئة والحالة المنافية للعبودية منافاة ظاهرة؛ ولهذا علل النبي ﷺ بأنها للكفار في الدنيا: إذ ليس لهم نصيب من العبودية التي ينالون بها في الآخرة نعيمها، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله في الدنيا؛ وإنما يستعملها من خرج عن عبوديته، ورضي بالدنيا وعاجلها من الآخرة .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٠٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٢٦) من حديث حذيفة- رضي الله عنه-.

حرف القاف

قرآن:

قال الله -تعالى-: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

والصحيح: أن « من» ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض.

وقال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس:٥٧].

فالقرآن هو: الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه: لم يقاومه الداء أبداً .

وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء: الذي لو نزل على الجبال؛ لصدعها، أو على الأرض؛ لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان؛ إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه.

وقد تقدم -في أول الكلام على الطب[1]- بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي حفظ الصحة، والحمية، واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع .

وأما الأدوية القلبية؛ فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١]؛ فمن لم يشفه القرآن؛ فلا شفاه الله، ومن لم يكفه؛ فلا كفاه الله.

(١) (ص ١٠١).

قثاء[١]:

عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه-:« أن رسول الله ﷺ كان يأكل القثاء بالرطب»[٢].

القثاء بارد رطب في الدرجة الثانية، مطفئ لحرارة المعدة الملتهبة، بطيء الفساد فيها، نافع من وجع المثانة، ورائحته تنفع من الغشي، وبزره يدر البول، وورقه إذا اتخذ ضمادا؛ نفع من عضة الكلب.

وهو بطيء الانحدار عن المعدة، وبرده مضر ببعضها؛ فينبغي أن يستعمل معه ما يصلحه ويكسر برودته ورطوبته؛ كما فعل رسول الله ﷺ، إذ أكله بالرطب. فإذا أكل بتمر أو زبيب أو عسل: عدله .

قسط وكست[٣] بمعنى واحد:

عن أنس -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ: «خير ما تداويتم به: الحجامة، والقسط البحري»[٤].

وعن أم قيس، عن النبي ﷺ: «عليكم بهذا العود الهندي؛ فإن فيه سبعة أشفية، منها: ذات الجنب»[٥].

القسط: نوعان: أحدهما : الأبيض الذي يقال له: البحري .

---

(١) القثاء: يستعمل كمسهل، ويجب استعماله بحذر. (ع).

قلت: وهو نبات معروف، قريب من الخيار، لكنه أطول، ويسمى: الفقوس، أو العجور.

(٢) تقدم (ص ص١٥٧و٣٩٩).

(٣) هو على أنواع كثيرة تختلف في مفعولها ؛ فمثلا: القسط الهندي يستعمل كمقو ومنبه، والعربي يستعمل -نادرا- كمدر للبلغم في حالات الربو، وفي تحضير العطور، ويمنع العتة عن الملابس. (ع).

(٤) تقدم (ص ٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٩٢).

والآخر: الهندي، وهو أشدهما حراً، والأبيض ألينهما، ومنافعهما كثيرة جداً.

وهما حاران يابسان في الثالثة، ينشفان البلغم، قاطعان للزكام، وإذا شربا؛ نفعاً من ضعف الكبد والمعدة، ومن بردهما، ومن حمى الدور والربع، وقطعا وجع الجنب، ونفعا من السموم، وإذا طلي به الوجه معجوناً بالماء والعسل؛ قلع الكلف.

وقال جالينوس: «ينفع من الكزاز، ووجع الجنبين، ويقتل حب القرع».

وقد خفي على جهال الأطباء نفعه من وجع ذات الجنب؛ فأنكروه، ولو ظفر هذا الجاهل بهذا النقل عن جالينوس؛ لنزوله منزلة النص! كيف وقد نص كثير من الأطباء المتقدمين على أن القسط يصلح للنوع البلغمي من ذات الجنب؟!- ذكره الخطابي عن محمد بن الجهم.

وقد تقدم: أن طب الأطباء بالنسبة إلى طب الأنبياء، أقل من نسبة طب الطرقية والعجائز إلى طب الأطباء، وأن بين ما يلقى بالوحي وبين ما يلقى بالتجربة، والقياس -من الفرق- أعظم مما بين الفدم[1] والقرم[2].

ولو أن هؤلاء الجهال وجدوا دواء منصوصاً عن بعض اليهود والنصارى والمشركين -من الأطباء-: لتلقوه بالقبول والتسليم، ولم يتوقفوا على تجربته.

نعم؛ نحن لا ننكر أن للعادة تأثيرا في الانتفاع بالدواء وعدمه؛ فمن اعتاد دواء وغذاء: كان أنفع له، وأوفق ممن لم يعتده، بل ربما لم ينتفع به من لم يعتده.

---

(١) الغبي الثقيل.

(٢) السيد الجليل.

وكلام فضلاء الأطباء -وإن كان مطلقاً- فهو بحسب الأمزجة والأزمنة، والأماكن والعوائد، وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح في كلامهم ومعارفهم؛ فكيف يقدح في كلام الصادق المصدوق؟! ولكن نفوس البشر مركبة على الجهل والظلم؛ إلا من أيده الله بروح الإيمان، ونوّر بصيرته بنور الهدى.

قصب السكر:

جاء في بعض ألفاظ السنة الصحيحة في الحوض: «ماؤه أحلى من السكر»[1] . ولا أعرف السكر في الحديث؛ إلا في هذا الموضع[2] .

والسكر حادث لم يتكلم فيه متقدِّمو الأطباء، ولا كانوا يعرفونه، ولا يصفونه في الأشربة، وإنما يعرفون العسل، ويدخلونه في الأدوية. وقصب السكر حار رطب، ينفع من السعال، ويجلو الرطوبة والمثانة، وقصبة الرئة، وهو أشدُّ تلييناً من السكر، وفيه معونة على القيء، ويدر البول، ويزيد في الباه.

---

(١) هكذا قال المصنف -رحمه الله-، ولم أقف على هذا اللفظ في وصف الحوض؛ لكن عند مسلم (٢٤٧و٢٣٠٠) وغيره بلفظ :« أحلى من العسل».

وقد ورد لفظ (السكر) في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-؛ أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) مرفوعاً بلفظ: « يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله – عز وجل -: أبي يغترون أم علي يجترؤون؟! فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

قلت: وهو ضعيف جداً.

(٢) قال المصنف- رحمه الله- في « مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٠١- المنتقى): «ولهذا لم يجيء في شيء قط ذكر السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلاً».

قلت: هذا الإطلاق ليس صحيحاً على الإطلاق بل لا بد من التقييد، فيقال: لم يرد شيء صحيح، والله أعلم.

قال عفان بن مسلم الصفّار: «**من مص قصب السكر بعد طعامه؛ لم يزل يومه أجمع في سرور**» .

وهو ينفع من خشونة الصدر والحلق: إذا شوي، ويولّد رياحاً دفعها: بأن يقشَّر، ويغسل بماء حار .

والسكر حار رطب على الأصح، وقيل: بارد. وأجوده: الأبيض الشفاف الطَّبرزد[١]، وعتيقه ألطف من جديده، وإذا طبخ ونزعت رغوته: سكن العطش والسُّعال، وهو يضر المعدة التي تتولد فيها الصفراء: لاستحالته إليها، ودفع ضرره: بماء الليمون، أو النارنج، أو الرمان اللَّفاء.

وبعض الناس يفضّله على العسل؛ لقلة حرارته ولينه، وهذا تحامل منه على العسل؛ فإن منافع العسل أضعاف منافع السكر[٢] وقد جعله الله

---

(١) الطبرزد: فارسي معرب، وأصله تبزر؛ أي: أنه صلب ليس برخو ولا لين. ولا يصير كذلك إلا إذا طبخ بعشره من الحليب اللبن حتى ينعقد.

(٢) قال المصنف- رحمه الله- في « مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٠١-٤٠٣- المنتقى).

« ...وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية؛ حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر، ولا هو مذكور في كتبهم أصلاً، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله؛ إنه لأنفع من السكر، وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها، وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للأرواح، وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن؛ ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلاً، ولو عدم من العالم؛ لما احتاج إليه، ولو عدم العسل؛ لاشتدت الحاجة إليه، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه، ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله؛ كسرها بمقابلها، فيصير أنفع له من السكر.

وسنفرد - إن شاء الله- مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع، وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلوا بلغماً، ويذيب خلطاً، =

شفاء ودواء، وإداماً وحلاوة، وأين نفع السكر من منافع العسل: من تقوية المعدة، وتليين الطبع، وإحداد البصر، وجلاء ظلمته، ودفع الخوانيق بالغرغرة به، وإبرائه من الفالج واللقوة، ومن جميع العلل الباردة التي تحدث في جميع البدن من الرطوبات، فيجذبها من قعر البدن، ومن جميع البدن، وحفظ صحته وتسمينه وتسخينه، والزيادة في الباه، والتحليل والجلاء، وفتح أفواه العروق، وتنقية المعي، وإحدار الدود، ومنع التخم وغيره من العفن، والأدم النافع، وموافقة من غلب عليه البلغم، والمشايخ، وأهل الأمزجة الباردة؟!

= أو يشفي من داء؟! وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق؛ للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل؛ فقد حرمه الله كثيرا من الناس؛ حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته، ولا ريب أن كونه شفاء ، وكون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر الله، والإقبال عليه شفاء، أمر لا يعم الطبائع والأنفس؛ فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به! بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً!! وكذلك ذكر الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، والفزع إلى الصلاة؛ كم قد شفي به من عليل؟ وكم قد عوفي به من مريض؟ وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء؟ وأنت ترى كثيرا من الناس- بل أكثرهم- لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلا، ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية- رحمه الله- يقول : وقد عرض له بعض الألم ، فقال له الطبيب : أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه، والتوجه والذكر، فقال : ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض؟ فإنه عدوها، فإذا قويت عليه؛ قهرته.

فقال له الطبيب: بلى.

فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم ، وظفرت بما يشكل عليها منه، فرحت به وقويت؛ فأوجب ذلك دفع العارض هذا، أو نحوه من الكلام».

وعجز الأدوية، وحفظ قواها، وتقوية المعدة، إلى أضعاف هذه المنافع؛ فأين للسكر مثل هذه المنافع والخصائص، أو قريب منها؟

حرف الكاف

كتاب للحمى[١]:

---

(١) اختلف أهل العلم في جواز تعليق التمائم التي من القرآن، وإليك التفصيل الصريح والترجيح الصحيح:

قال الإمام البغوي في « شرح السنة» (١٢/ ١٥٨): « وقالت عائشة: ليست التميمة ما يعلق بعد نزول البلاء،ولكن التميمة ما علق قبل نزول البلاء؛ ليدفع به مقادير الله».

وقال عطاء: «لا يعد من التمائم ما يكتب من القرآن».

وسئل سعيد بن المسيب عن الصحف الصغار يكتب فيه القرآن؛ فيعلق على النساء والصبيان؛فقال: «لا بأس بذلك؛إذا جعل في كير من ورق أو حديد أو يحرز عليه».

وقال حماد: «كان إبراهيم يكره كل شيء يعلق على صغير أو كبير، ويقول: هو من التمائم».

وفي «تيسير العزيز الحميد» (ص١٦٧-١٦٨): « اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته:

فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره، وهو ظاهر ما روي عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر، وأحمد في رواية ، وحملوا الحديث على التمائم الشركية، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته؛ فكالرقية بذلك.

قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك ، وبه قال ابن مسعود وابن عباس، وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم- رضي الله عنهم-، وبه قال جماعة من التابعين، منهم: أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بحديث: « إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، وما في معناه؛ فإن ظاهره العموم: لم يفرق بين التي في القرآن وغيرها، بخلاف الرقى؛ فقد فرق فيها.

=

= ويؤيد ذلك: أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم- كما تقدم عن ابن مسعود-. وروى أبو داود عن عيسى بن حمزة؛ قال: دخلت على عبد الله بن عكيم- وبه حمرة-، فقلت: ألا تعلق تميمة؟ فقال: «نعوذ بالله من ذلك»؛ قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئا؛ وكل إليه». وروى وكيع عن ابن عباس؛ قال: «اتفل بالمعوذتين ولا تعلق».

قلت: مما سبق يتبين ما يأتي:

١- لم يثبت في كتابة القرآن وتعليقه وجعله بتميمة شيء عن رسول الله ﷺ؛ بل لم يرد شيء ألبتة.

٢- ليس في الأحاديث المرفوعة -لا الصحيحة ولا الضعيفة- ما يخصص أحاديث النهي عن التمائم؛ ولذا تبقى أحاديث النهي عن التمائم على عمومها، أكانت من القرآن أم غيره؟

٣- ما ورد عن عبد الله بن عمرو لا يصح: «...وكان عبد الله بن عمرو يلقنها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ؛ كتبها في صك، ثم علقها في عنقه».

فهذه زيادة ضعيفة؛ لأن فيها محمد بن إسحاق وهو مدلس، وقد عنعن .

٤- أما ما أورده البغوي عن عائشة- رضي الله عنها-؛ فأخرجه الحاكم (٤/ ٤١٨) وصححه، ووافقه الذهبي والمنذري وشيخنا- رحمهم الله-؛ كما في « صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٥٠/ ٣٤٥٨).

قلت: كلامها في تعريف التميمة وليس في بيان حكمها؛ فتدبر.

٥- ما ورد عن أبي جعفر وعطاء وسعيد؛ فمدفوع بالأحاديث الصحيحة الصريحة، وكذلك هم مدفوعون بمن هو أكثر منهم وأعلم.

قال شيخنا الإمام الألباني- رحمه الله- في تعليقه على « الكلم الطيب» (ص٤٥):

«وقد روى أبو عبيد في « فضائل القرآن» (ق ١١١/ ١) بسند صحيح عن إبراهيم -وهو النخعي التابعي الجليل-؛ قال: «كانوا يكرهون (يعني: الصحابة) التمائم من القرآن وغيره». قال المغيرة- وهو ابن مقسم الضبي الفقيه الثقة-: « وسألت ابراهيم، فقلت: أعلق في عضدي هذه الآية: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ من حمى كانت بي؟ فكره ذلك».

=

= ثم روى أبو عبيد عن الحسن البصري: « أنه كان يكره أن يغسل القرآن ويسقاه المريض، أو يعلق القرآن». وإسناده صحيح؛ لولا أن فيه عثمان بن وكيع؛ قال أبو حاتم: لا أعرفه».

٦- لا يجوز قياس التمائم على الرقى لما يأتي:

أ- تفريق الرسول ﷺ بين الرقى الشرعية والشركية؛ ولكنه في التمائم لم يفرق.

ب- في « تيسير العزيز الحميد» (ص١٦٨): « وأما القياس على الرقية بذلك؛ فقد يقال بالفرق، فكيف يقاس التعليق الذي لا بد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على ما لا يوجد ذلك فيه، فهذا إلى الرقى المركبة من حق باطل أقرب».

ت- أن الرقى تعين على تعلق القلب بالله الشافي؛ لأن الرقية لا تفعل بنفسها ، وأما التمائم؛ فترسخ في العبد عكس هذا المعنى، وتجعله يتعلق بها، ويركن إليها، ويتوكل عليها.

ولو جعل هذا الأمر في الرقى؛ لم تشرع؛ فكيف به في التمائم؟!

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في « فتح الباري» (١٠/ ١٩٥): « أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أن يكون بكلام الله -تعالى- أو بأسمائه وصفاته.

وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره.

وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله -تعالى-.

واختلفوا في كونها شرطا.

والراجح : أنه لا بد من اعتبار الشروط المذكورة».

٧- أن التمائم تسد باب الرقى الشرعية.

قال شيخنا الإمام الألباني - رحمه الله- في تعليقه على « الكلم الطيب» (ص٤٤-٤٥): « لا يجوز الاحتجاج به على جواز تعليق التمائم في القرآن؛ لعدم ثبوت ذلك عن ابن عمرو، ولا سيما وهو موقوف عليه، فلا حجة فيه؛ قال الشوكاني: وقد ورد ما يدل على عدم جواز تعليق التمائم، فلا يقوم بقول عبد الله بن عمرو حجة.

والسلف من التابعين وغيرهم مختلفون في ذلك؛ فأجازه بعضهم، وكرهه آخرون، وهذا الذي نختاره؛ لعدم ثبوت ذلك عن النبي ﷺ، ولأن القول بجوازه يعطل سنة الترقية بالمعوذات وغيرها».

=

قال المروزي: بلغ أبا عبد الله أني حممت، فكتب لي من الحمى رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله، وبالله، محمد رسول الله، ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ ﴾ [الأنبياء:٦٩-٧٠]، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل: اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، إله الحق آمين.

قال المروزي: وقرأ على أبي عبد الله -وأنا أسمع- أبو المنذر عمرو ابن مجمع، حدثنا يونس بن خباب قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي أن أعلق التعويذ، فقال: إن كان من كتاب الله، أو كلام عن نبي الله؛ فعلقه، واستشف به ما استطعت(١).

= ٨- أن ذلك وسيلة لكتابة الحجب واتخاذ ذلك مهنة للتكسب وابتزاز أموال العوام والطغام والسذج.

وقال أستاذنا الإمام عبد العزيز بن باز -رحمه الله- في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٣٣٢): «أما ما يتعلق بعمله الآخر: من كتابته الحجب؛ فهذا لا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ قال: «من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له»، وقال ﷺ: «من تعلق تميمة؛ فقد أشرك».

والحجب: هي التمائم، فلا يجوز كتب التمائم ولا تعليقها، والذي يعلقها ينكر عليه، والذي يكتبها للناس ينكر عليه؛ حتى ولو كانت من القرآن، كان عبد الله بن مسعود وجماعة غيره من السلف الصالح ينكرون ذلك، سواء كانت من القرآن أو غيره؛ للأحاديث العامة السابقة في ذلك، ولقوله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، والمراد بالرقى الممنوعة: الرقى المجهولة، أو الرقى التي فيها شرك، أما التي تجوز؛ فالرقى الشرعية فقط؛ لقول النبي ﷺ: «لا بأس بالرقى مالم تكن شركاً»، ولأنه ﷺ رقى ورقي».

٩- وكذلك تكون هذه الأشياء وسيلة للاتصال بالنساء والخلوة بهن؛ لأن النساء تجذبهن هذه الأشياء أكثر من الرجال.

(١) خبر باطل، عزاه المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٠/ ١٠٦) للطبري، وفي إسناده يونس بن خباب؛ وهو رافضي خبيث كذاب!

قلت: أكتب هذه من حمى الربع: باسم الله، وبالله، ومحمد رسول الله إلى آخره؟ قال: أي نعم.

وذكر أحمد عن عائشة -رضي الله عنها- وغيرها، أنهم سهلوا في ذلك.

قال حرب: ولم يشدد فيه أحمد بن حنبل. قال أحمد: وكان ابن مسعود يكرهه كراهة شديدة جداً.

وقال أحمد -وقد سئل عن التمائم تعلق بعد نزول البلاء؟- قال: أرجو أن لا يكون به بأس.

قال الخلال: وحدثنا عبد الله بن أحمد، قال: رأيت أبي يكتب التعويذ للذي يفزع، وللحمى بعد وقوع البلاء.

كتاب لعسر الولادة:

قال الخلال: حدثني عبد الله بن أحمد، قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض، أو شيء نظيف، يكتب حديث ابن عباس -رضي الله عنه-: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم»[1]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف:٣٥]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦].

قال الخلال: أنبأنا أبو بكر المروزي: أن أبا عبد الله جاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله! تكتب لامرأة قد عسر عليها ولدها منذ يومين ؟ فقال: قل له: يجيء بجام واسع، وزعفران . ورأيته يكتب لغير واحد.

---

(١) تقدم (ص ٢٦٢).

ويذكر عن عكرمة عن ابن عباس، قال: مر عيسى -صلى الله على نبينا وعليه وسلم- على بقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله! ادع الله لي أن يخلصني مما أنا فيه، فقال: يا خالق النفس من النفس! ويا مخلص النفس من النفس! ويا مخرج النفس من النفس! خلصها. قال: فرمت بولدها؛ فإذا هي قائمة تشمه. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها؛ فاكتبه لها.

وكل ما تقدم من الرقى؛ فإن كتابته نافعة.

ورخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه، وجعل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه.

كتاب آخر لذلك: يكتب في إناء نظيف: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق:١-٤]، وتشرب منه الحامل، ويرش على بطنها[١].

كتاب للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يكتب على جبهته: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود:٤٤].

وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، فقال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعف؛ كما يفعله الجهال؛ فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله -تعالى-.

كتاب آخر له: خرج موسى -عليه السلام- برداء، فوجد منبعاً، فسده[٢] بردائه: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

---

(١) ما ورد لا يصح سنده، بل هو ضعيف جدا، وانظر -لزاما-: «عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني» (٢/ ٦٩٨-٦٩٩).

(٢) في طبعة عبد الغني عبد الخالق (ص٢٧٨): كذا بأحكام الحموي (٢/ ٤٣). وفي الأصل والزاد: «شعيباً فشده»، وهو تصحيف خطير؛ اضطر ناشر مطبوعة حلب أن يثبت بآخر النص قوله: « هكذا في النسختين المطبوعة والمخطوطة»!!

كتاب آخر للحزاز: يكتب عليه: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة:٢٦٦] بحول الله وقوته .

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس، يكتب عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

كتاب آخر للحمى المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرت، بسم الله مرت، بسم الله قلت، ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت عرق النسا في؛ فلا تسلطه علي بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

كتاب لوجع الضرس: يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك:٢٣]، وإن شاء كتب: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام:١٣].

كتاب للخراج: يكتب عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

كمأة[١]:

(١) قال الدكتور محمود النسيمي في « الطب النبوي والعلم الحديث» (٢٨٠/٣٢-٢٨٦): « تنتسب الكمأة إلى مجموعة النباتات الفطرية المعروفة في العالم كالفطر العادي الذي يباع في الأسواق، وتعد الكمأة الصحراوية من أفخر أنواع الفطر، وتمتاز عن غيرها من الفطور بقيمتها الغذائية البروتينية العالية وطعمها اللذيذ، فهي تحتوي البروتين بنسبة (٩ بالمئة) والنشويات والسكاكر بنسبة (١٣ بالمئة) والدسم بنسبة لا تتجاوز (١ بالمئة) وبعض الأحماض الآمينية الضرورية لنمو الجسم.

كما تحتوي الفسفور والبوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم، وهي غنية بالفيتامين (ب١ وب٢).

إن الأمطار المبكرة في شهري تشرين الأول والثاني والمصحوبة مع الرعد، وأمطار الربيع(آذار) المترافقة مع الرعد ضروريان لتأمين موسم للكمأة، على أن يرافق هذه الأمطار الرعدية ارتفاع ملموس في درجات الحرارة؛ فيتحول آزوت الهواء الحر (النتروجين) إلى حمض الآزوت الذي تمتصه التربة مع مياه الأمطار؛ فيتحول إلى نترات ذلك السماد الذي تستفيد منه الكمأة؛ لأنها تحتاج إلى أسمدة آزوتية.

ماء الكمأة دواء نبوي لمرض عيني:

تشير إلى ذلك الأحاديث النبوية الصحيحة، ولم يعين فيها الرسول -عليه الصلاة والسلام- الأمراض العينية التي تستفيد من ماء الكمأة تاركاً معرفة ذلك لجهد العلماء والأطباء المختصين في أبحاثهم وتجاربهم العلمية؛ لأن تعليم الطب وتشخيص الأمراض ومداواتها ليس من مهام الرسالة السماوية. وعندما يكتشف العلم والطب تلك الأمراض يكونان قد اكتشفا معجزة من معجزات الرسول -عليه الصلاة والسلام- لإخباره بأن ماء الكمأة دواء عيني منذ أربعة عشر قرناً أو أكثر.

(وذكر بعض الأحاديث وشيئاً من كلام ابن قيم الجوزية).

وقال المناوي في «فيض القدير»: «المن أنواع من النباتات الذي يؤخذ عفواً بلا علاج».

قد يتبادر إلى ذهن المطلعين على أحاديث الكمأة الأسئلة التالية:

١- ما المراد من ماء الكمأة؟ هل هو الرطوبة التي تخرج من بين خلاياها إذا شقت؟ أو إنها السائل الناتج من عصر الكمأة؟ ثم هل يؤخذ الماء الناتج بإحدى الطريقتين والكمأة نيئة أم بعد سلقها بالماء أو تعريضها جافة للحرارة؟ وهل يستعمل ماءها ذلك صرفاً أو مخلوطاً بأدوية يكتحل بها؟

=

= الجواب: النص يحتمل كل وجه من الوجوه السابقة، ولا يشترط خلطها بأدوية عينية أخرى، فيمكن المعالجة بها وحدها، وقد يكون في الخلط تقوية لدواء آخر وتعاضد.

قال الغافقي في «المفردات»: «ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عجن به الإثمد واكتحل به؛ فإنه يقوي الجفن، ويزيد الروح الباصرة حدة وقوة، ويدفع عنها النوازل».

وأضعف الأقوال: هو القول بأن المراد: ماؤها الذي تنبت به؛ فإنه أول قطر يقع في الأرض، فتربى به الأكحال؛ حكاه ابن الجوزي عن أبي بكر بن عبد الباقي.

وذكر ابن الجوزي طريقة لاستحصال ماء الكمأة: وذلك أن تؤخذ الكمأة، فتشق، وتوضع على الجمر، حتى يغلي ماؤها، ثم يؤخذ الميل، فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر؛ فيكتحل بمائها.

أما عصر الكمأة؛ فخطأ؛ لأن ماءها يختلط حينئذ بمواد بروتينية وغيرها تخرج من خلاياها، فقد يتحمل بعضهم ماء عصرها، وقد يسبب لأخرين تحسسا أو تخرشا في ملحمة العين وأجفانها.

قال ابن الجوزي: «وقد حكى إبراهيم الحربي عن صالح وعبد الله ابني أحمد بن حنبل: أنهما اشتكت أعينهما، فأخذا كمأة وعصراها واكتحلا بمائها؛ فهاجت أعينهما ورمدا».

وقال ابن الجوزي: «وحكى شيخنا أبو بكر بن عبد الباقي أن بعض الناس عصر ماء كمأة، فاكتحل به؛ فذهبت عينه».

٢- هل يقصد من الحديث أن ماء الكمأة شفاء لكل أمراض العين أم لبعضها؟

الجواب: من معاني الشفاء: الدواء، ولفظ «شفاء» الوارد في أحاديث الكمأة نكرة، وقد وردت في معرض الثبوت؛ ولذا فإنها في أساليب البيان للغة العربية لا تفيد العموم. فالمراد في أحايث الكمأة: أنها دواء لبعض أمراض العين؛ كقولك: قطرة الزنك دواء للعين أو شفاء للعين، فلا يراد أنها دواء أو شفاء لكل أمراض العين.

أما استعمال الصالحين لها بشكل عام: اعتقادا وتبركا بالحديث الشريف، ولعدم معرفتهم لمجال فائدتها وتخصيصها؛ فذلك استشفاء روحي، ولقد أصابوا النتيجة الحسنة معونة من الله -تعالى- وإكراما، ولا يقاس عليهم غيرهم. ولقد ذكر النووي من هؤلاء الشيخ العدل الأمين الكمال بن عبد الدمشقي صاحب صلاح ورواية في الحديث، وكان استعماله لماء الكمأة اعتقادا في الحديث وتبركاً به، فنفعه الله به وأعاد إليه بصره. وقال ابن حجر في الفتح: «وينبغي تقييد ذلك بمن عرف من نفسه قوة الاعتقاد في صحة =

ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»[1].

قال ابن الأعرابي: الكمأة: جمع، واحده: كمء، وهذا خلاف قياس العربية: فإن ما بينه وبين واحده التاء؛ فالواحد منه بالتاء، وإذا حذفت كان للجمع . وهل هو جمع؟ أو اسم جمع ؟ على قولين مشهورين، قالوا : ولم يخرج عن هذا إلا حرفان: كمأة وكمء، وخبأة وخبء. وقال غير ابن الأعرابي: بل هي على القياس: الكمأة للواحد، والكمء للكثير. وقال غيرهما: الكمأة تكون واحداً وجمعاً .

واحتج أصحاب القول الأول: بأنهم قد جمعوا كمئاً على أكمؤ، قال الشاعر:

= الحديث والعمل به، كما يشير إليه آخر كلام النووي وهو ينافي قوله مطلقاً»؛ أي: أن ابن حجر يؤيد أن الاستشفاء بماء الكمأة لكل أمراض العين هو خاص بمن قوي اعتقاده، لا لكل المسلمين؛ فالنص لا يفيد العموم.

٣- هل أجرى أطباء العيون تجارب تعطي حكماً صحيحاً يعين الأمراض العينية التي تستفيد من ماء الكمأة؟.

الجواب: لم يجر ذلك، وآمل أن تهتم مراكز البحوث العلمية في جامعات الدول الإسلامية والعربية بماء الكمأة، وأن تستخرجه بطرق مختلفة يتقبلها العلم، ثم تجري تجارب واسعة النطاق في العيادات العينية وفي مشافي الأمراض العينية، وتحتفظ لكل مريض بمصنف خاص يذكر فيه الحالة الصحية العامة والمرض العيني المجرى عليه التجربة وطريقة استعمال ماء الكمأة ومدة الاستعمال والنتيجة مع مقارنتها بالأدوية الأخرى المستعملة في ذات المرض العيني. ولا أشك بأنها ستفلح في تعيين ولو مرض واحد يستفيد من ماء الكمأة؛ تصديقاً لرسول الله ﷺ، وسعياً في صالح المرضى والإنسانية. وعلى المسلمين من غير خاصة الخواص أن ينتظروا حدوث دراسة وافية لاستحصال ماء الكمأة ومعرفة نتائج استعمالها في أمراض العين؛ ليستعملوها في المجال الذي يحدده العلم، طالما أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- لم يحدده ولم يعممه».

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٨)، ومسلم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد -رضي الله عنه-.

ولقــــد جنيتــــك[1] أكمـــؤا وعســـــاقلاً

ولقــد نــهيتك عــن بنـــات الأوبـــر[2]

وهذا يدل على أن(كمء) مفرد، (وكمأة) جمع.

والكمـأة تكـون في الأرض مـن غـير أن تـزرع، وسـميت: كمـأة؛ لاستتارها، ومنه كمأ الشـهادة: إذا سترها وأخفاهـا، والكمـأة مخفيـة تحت الأرض، لا ورق لها ولا ساق، ومادتها من جوهر أرضي بخـاري، محتقـن في الأرض نحو سطحها: يحتقن ببرد الشتاء، وتنميه أمطار الربيع، فيتولد ويندفع نحو سطح الأرض متجسـداً، ولذلـك يقـال لهـا : جـدري الأرض، تشـبيهاً بالجدري في صورته ومادتـه؛ لأن مادتـه رطوبـة دمويـة، فتندفـع عنـد سـن الترعرع في الغالب، وفي ابتداء استيلاء الحرارة، ونماء القوة.

وهي مما يوجد في الربيع، ويؤكـل نيئـاً ومطبوخـاً، وتسـميها العـرب: نبات الرعد؛ لأنها تكثر بكثرته، وتنفطر عنها الأرض، وهي من أطعمة أهل البوادي، وتكثر بأرض العرب، وأجودها: ما كانت أرضها رملية قليلة الماء.

وهي أصنـاف: منـها صنـف قتـال يضـرب لونـه إلى الحمـرة، يحـدث الاختناق.

وهي باردة رطبة في الدرجة الثالثة، رديئة للمعدة، بطيئة الهضم، وإذا أدمنت؛ أورثت القولنج والسكتة والفـالج، ووجـع المعـدة، وعسـر البـول، والرطبة أقل ضرراً من اليابســة، ومـن أكلـها؛ فليدفنـها في الطـين الرطـب، ويسـلقها بالمـاء والملـح والصعـتر، ويأكلـها بـالزيت والتوابـل الحـارة؛ لأن جوهرها أرضي غليظ، وغذاؤها رديء؛ لكن فيها جوهر مائي لطيـف يـدل

---

(١) أي: جنيت لك؛ أي: لقطت الكمأة، وجئت بها.

(٢) بنات الاوبر: شر الكماة.

ومعنى البيت: أنه جاءه بخيار الكمأة، ونهاه عن أكل رديئها ومالا خير فيه.

والبيـت في « مجـالس ثعلـب» (ص٦٢٤)، و« الخصـائص» (٣/ ٥٨)، و« مجمـع الأمثال» (١/ ١٦٩) ولم يعرف قائله مع شهرته.

على خفتها، والاكتحال بها نافع من ظلمة البصر، والرمد الحار، وقد اعترف فضلاء الأطباء: بأن ماءها يجلو العين. وممن ذكره المسيحي، وصاحب القانون وغيرهما.

وقوله ﷺ :«الكمأة من المن»، فيه قولان:

أحدهما: أن المن الذي أنزل على بني إسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط، بل أشياء كثيرة منّ الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفواً من غير صنعة ولا علاج ولا حرث، فإن المن مصدر بمعنى المفعول؛ أي: ممنون به، فكل ما رزقه الله العبد عفواً بغير كسب منه ولا علاج، فهو منّ من الله -تعالى- عليه؛ لأنه لم يشبه كسب العبد، ولم يكدره تعب العمل. فهو من محض، وإن كانت سائر نعمه مناً منه على عبده، فخص منها ما لا كسب له فيه، ولا صنع، باسم المن؛ فإنه من بلا واسطة العبد. وجعل – سبحانه- قوتهم بالتيه: الكمأة، وهي تقوم مقام الخبز، وجعل أدمهم: السلوى، وهو يقوم مقام اللحم، وجعل حلواهم: الطل الذي ينزل على الأشجار، يقوم لهم مقام الحلوى، فكمل عيشهم.

وتأمل قوله ﷺ: «الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل»[1]؛ فجعلها من جملته، وفرداً من أفراده، والترنجبين[2] الذي يسقط على الأشجار نوع من المن، ثم غلب استعمال المن عليه عرفاً حادثاً.

والقول الثاني: أنه شبه الكمأة بالمن المنزل من السماء؛ لأنه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بزر ولا سقي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤٩) (١٥٩-١٦١) من حديث سعيد بن زيد- رضي الله عنه-.

(٢) الترنجبين: هو طل يقع من السماء شبيه بالعسل، جامد متحبب، وتأويله عسل الندى وأكثر ما يقع بخراسان على شجر الحاج: وهو شجر القتاد.

فإن قلت: فإن كان هذا شأن الكمأة؛ فما بال هذا الضرر فيها؟ ومن أين أتاها ذلك؟

فاعلم أن الله -سبحانه- أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه؛ فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيئ وخلق له، وإنما تعرض له الآفات- بعد ذلك- بأمور أخر: من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب أخر تقتضي فساده، فلو ترك على خلقته الأصلية، من غير تعلق أسباب الفساد به؛ لم يفسد.

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه، يعرف أن جميع الفساد- في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله- حادث بعد خلقه؛ بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص؛ ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقحوط، والجدوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أمورا متتابعة يتلو بعضها بعضاً، فإن لم يتسع علمك لهذا؛ فاكتف بقوله -تعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، ونزل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان؟ وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض؟ وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً؛ أحدث لهم ربهم -تبارك وتعالى- من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم: حكماً

قسطاً، وقضاء عدلاً، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بقية رجز -أو عذاب- أرسل على بني إسرائيل»[(١)].

وكذلك سلط الله -سبحانه وتعالى- الريح على قوم عاد سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله -سبحانه- أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه: فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببا لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين، والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوي على الضعيف؛ سببا لجور الملوك والولاة: الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم؛ فإن الله -سبحانه- بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها؛ فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحصرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم، تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا؛ لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له: أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره؛ لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وبالله التوفيق .

وقوله ﷺ في الكمأة: «وماؤها شفاء للعين»؛ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ماءها يخلط في الأدوية التي يعالج بها العين، لا أنه يستعمل وحده؛ ذكره أبو عبيد .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢١٨/ ٩٦و٩٧).

الثاني: أنه يستعمل بحتاً [١] بعد شيها، واستقطار مائها؛ لأن النار تلطفه وتنضجه، وتذيب فضلاته ورطوبته المؤذية، وتبقي المنافع.

الثالث: أن المراد بمائها: الماء الذي يحدث به من المطر، وهو أول قطر ينزل إلى الأرض؛ فتكون الإضافة إضافة اقتران، لا إضافة جزء؛ ذكره ابن الجوزي، وهو أبعد الوجوه وأضعفها.

وقيل: إن استعمل ماؤها لتبريد ما في العين؛ فماؤها مجرداً شفاء، وإن كان لغير ذلك؛ فمركب مع غيره.

وقال الغافقي: ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين: إذا عجن به الإثمد واكتحل به، ويقوي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة، ويدفع عنها نزول النوازل.

كباث:

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث، فقال: «عليكم بالأسود منه؛ فإنه أطيبه» [٢].

الكباث- بفتح الكاف، والباء الموحدة المخففة، والثاء المثلثة-: ثمر الأراك، وهو بأرض الحجاز، وطبعه حار يابس، ومنافعه كمنافع الأراك: يقوي المعدة، ويجيد الهضم، ويجلو البلغم، وينفع من أوجاع الظهر، وكثير من الأدواء.

قال ابن جلجل: «إذا شرب طحينه؛ أدر البول، ونقى المثانة».

وقال ابن رضوان: « يقوي المعدة، ويمسك الطبيعة».

كتم:

عن عثمان بن عبد الله بن موهب، قال: دخلنا على أم سلمة -رضي الله عنها- فأخرجت إلينا شعراً من شعر رسول الله ﷺ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكتم [٣].

---

(١) بحتاً؛ أي: صرفاً، ليس معه غيره.

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٥٣)، ومسلم (٢٠٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٧).

وعن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إن أحسن ما غيرتم به الشيب: الحناء والكتم»[١].

وعن أنس -رضي الله عنه-: أن أبا بكر -رضي الله عنه- اختضب بالحناء والكتم[٢].

قال الغافقي: «الكتم: نبت ينبت بالسهول، ورقه قريب من ورق الزيتون، يعلو فوق القامة، وله ثمر قدر حب الفلفل، في داخله نوى، إذا رضخ: اسودّ، وإذا استخرجت عصارة ورقه، وشرب منها قدر أوقية: قيأ قيئاً شديداً، وينفع عن عضة الكلب. وأصله إذا طبخ بالماء: كان منه مداد يكتب به».

وقال الكندي: « بزر الكتم إذا اكتحل به: حلل الماء النازل في العين وأبرأها».

وقد ظن بعض الناس أن الكتم هو الوسمة، وهي: ورق النيل، وهذا وهم فإن الوسمة غير الكتم، قال صاحب «الصحاح»: «الكتم بالتحريك: نبت يخلط بالوسمة، يختضب به. قيل: والوسمة نبات له ورق طويل يضرب لونه إلى الزرقة، أكبر من ورق الخلاف، يشبه ورق اللوبيا، وأكبر منه، يؤتى به من الحجاز واليمن».

فإن قيل: قد ثبت في «الصحيح» عن أنس -رضي الله عنه-؛ أنه قال: «لم يختضب النبي ﷺ»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٠٥)، والترمذي (١٧٥٣)، والنسائي (٨/ ١٣٩)، وابن ماجه (٣٦٢٢)، وأحمد (٥/ ١٤٧) من حديث أبي ذر- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٥٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٥)، ومسلم (٢٣٤١) (١٠٣).

قيل: قد أجاب أحمد بن حنبل عن هذا، وقال: قد شهد به غير أنس -رضي الله عنه- على النبي ﷺ؛ أنه خضب، وليس من شهد بمنزلة من لم يشهد. فأحمد أثبت خضاب النبي ﷺ، ومعه جماعة من المحدثين، ومالك أنكره.

فإن قيل: فقد ثبت في «صحيح مسلم» النهي عن الخضاب بالسواد في شأن أبي قحافة، لما أتي به ورأسه ولحيته كالثغامة[1] بياضا، فقال: غيروا هذا الشيب، وجنبوه السواد»[2].

والكتم يسود الشعر.

فالجواب من وجهين.

أحدهما: أن النهي عن التسويد البحت، فأما إذا أضيف إلى الحناء شيء آخر -كالكتم ونحوه-؛ فلا بأس به؛ فإن الكتم والحناء يجعل الشعر بين الأحمر والأسود، بخلاف الوسمة: فإنها تجعله أسود فاحماً، وهذا أصح الجوابين.

الجواب الثاني: أن الخضاب بالسواد المنهي عنه خضاب التدليس: كخضاب شعر الجارية، والمرأة الكبيرة: تغر الزوج، والسيد بذلك، وخضاب الشيخ يغر المرأة بذلك؛ فإنه من الغش والخداع، فأما إذا لم يتضمن تدليساً ولا خداعاً؛ فقد صح عن الحسن والحسين -رضي الله عنهما- أنهما كانا يخضبان بالسواد؛ ذكر ذلك ابن جرير عنهما في كتاب «تهذيب الآثار»، وذكره عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن جعفر، وسعد بن أبي وقاص، وعقبة بن عامر، والمغيرة بن شعبة، وجرير بن عبد الله، وعمرو بن العاص، وحكاه عن جماعة من التابعين؛ منهم: عمرو بن عثمان، وعلي بن عبد الله

---

(١) شجرة بيضاء الثمر والزهر، تنبت في قنة الجبل، وإذا يبست اشتد بياضها.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٢) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

ابن عباس، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن الأسـود، وموسى ابن طلحة، والزهري، وأيوب، وإسماعيل بن معدي كرب.

وحكاه ابن الجوزي عن محارب بن دثار، ويزيد، وابن جريـج، وأبـي يوسف، وأبي إسحاق، وابن أبي ليلى، وزياد بن علاقة، وغيلان بن جـامع، ونافع بن جبير، وعمرو بن علي المقدمي، والقاسم بن سلام.

كرم:

شجرة العنب، وهي الحبلة، ويكره تسميتها كرمـا؛ لما روى مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ؛ أنـه قـال: «لا يقولـن أحدكـم للعنـب: الكـرم؛ الكـرم: الرجـل المسـلم». وفي روايـة: «إنما الكـرم قلـب المؤمـن»[١]، وفي أخرى: «لا تقولوا: الكرم، وقولوا: العنب والحبلة»[٢].

وفي هذا معنيان:

أحدهما: أن العرب كانت تسمي شجرة العنب: الكرم؛ لكثرة منافعها وخيرها، فكره النبي ﷺ تسميتها باسم يهيج النفوس على محبتـها ومحبـة مـا يتخذ منها من المسـكر، وهـو أم الخبـائث؛ فكـره أن يسـمى أصلـه بأحسـن الأسماء وأجمعها للخير.

والثاني: أنه من باب قوله: «ليـس الشـديد بالصرعـة»[٣]، و« ليـس المسكين بالطواف»[٤]؛ أي: أنكم تسمون شجرة العنب كرماً؛ لكثرة منافعه، وقلب المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه؛ فـإن المؤمـن خـير كلـه ونفع، فهو من باب التنبيه والتعريف لما في قلب المؤمـن مـن الخـير والجـود،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٧) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-. وهـو عنـد البخاري (٦١٨٣) بلفظ: «إنما الكرم قلب المؤمن».

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (٢٢٤٨) من حديث وائـل -رضـي الله عنه-.

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

والإيمان والنور، والهدى والتقوى، والصفات التي يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحبلة له.

وبعد: فقوة الحبلة باردة يابسة، وورقها وعلائقها وعرموشها مبرد في آخر الدرجة الأولى، وإذا دقت وضمد بها من الصداع: سكنته، ومن الأورام الحارة، والتهاب المعدة.

وعصارة قضبانه إذا شربت: سكنت القيء، وعقلت البطن، وكذلك إذا مضغت قلوبها الرطبة.

وعصارة ورقها: تنفع من قروح الأمعاء، ونفث الدم وقيئه، ووجع المعدة، ودمع شجره -الذي يحمل على القضبان-؛ كالصمغ: إذا شرب أخرج الحصاة، وإذا لطخ به: أبرأ القوب والجرب المتقرح وغيره، وينبغي غسل العضو قبل استعمالها بالماء والنطرون، وإذا تمسح بها مع الزيت: حلقت الشعر.

ورماد قضبانه إذا تضمد به مع الخل ودهن الورد والسذاب: نفع من الورم العارض في الطحال.

وقوة دهن زهرة الكرم قابضة، شبيهة بقوة دهن الورد، ومنافعها كثيرة قريبة من منافع النخلة.

كرفس:

روي في حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «**من أكله ثم نام عليه؛ نام ونكهته طيبة، وينام آمناً من وجع الأضراس والأسنان**». وهذا باطل على رسول الله ﷺ، ولكن البستاني منه يطيب النكهة جداً.

وهو حار يابس، وقيل: رطب مفتِّح لسدد الكبد والطحال، وورقه رطباً ينفع المعدة والكبد البارد، ويدر البول والطمث، ويفتت الحصاة، وحبه أقوى في ذلك، ويهيج الباه، وينفع من البخر.

قال الرازي: «وينبغي أن يجتنب أكله إذا خيف من لدغ العقارب».

كراث:

فيه حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ؛ بل هو باطل موضوع: «من أكل الكراث ثم نام عليه؛ نام آمناً من ريح البواسير، واعتزله الملك؛ لنتن نكهته حتى يصبح».

وهو نوعان: نبطي، وشامي.

فالنبطي: البقل الذي يوضع على المائدة.

والشامي: الذي له رؤوس.

وهو حار يابس مصدع، وإذا طبخ وأكل، أو شرب ماؤه: نفع من البواسير الباردة. وإن سحق بزره، وعجن بقطران، وبخرت به الأضراس التي فيها الدود: نثرها وأخرجها، ويسكن الوجع العارض فيها، وإذا دخنت المقعدة ببزره: خفت البواسير، هذا كله في الكراث النبطي.

وفيه مع ذلك: فساد الأسنان واللثة، ويصدع، ويري أحلاما رديئة، ويظلم البصر، وينتن النكهة، وفيه إدرار للبول والطمث، وتحريك للباه، وهو بطيء الهضم.

حرف اللام

لحم:

قال الله -تعالى-: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ [الطور:٢٢]، وقال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة:٢١].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: **«فضل عائشة على النساء؛ كفضل الثريد على سائر الطعام»**[1].

والثريد: الخبز واللحم؛ قال الشاعر:

(١) تقدم (ص ٣٨١).

إذا مــــا الخـــــبز تأدمــــــه بلحــــــم
فـــــــذاك أمانـــــــة الله الـــــــثريد[١]

وقال الزهري: «أكل اللحم يزيد سبعين قوة».

وقال محمد بن واسع: «اللحم يزيد في البصر».

ويروى عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: كلوا اللحم؛ فإنه يصفي اللون، ويخمص البطن، ويحسن الخلق.

وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضان لم يفته اللحم؛ وإذا سافر لم يفته اللحم.

ويذكر عن علي: من تركه أربعين ليلة، ساء خلقه.

واللحم أجناس يختلف باختلاف أصوله وطبائعه، فنذكر حكم كل جنس وطبعه ومنفعته ومضرته.

لحم الضأن:

حار في الثانية، رطب في الأولى، جيده الحولي: يولد الدم المحمود القوي لمن جاد هضمه، يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة والمعتدلة، ولأهل الرياضات التامة في المواضع والفصول الباردة، نافع لأصحاب المرة السوداء، يقوي الذهن والحفظ.

ولحم الهرم والعجيف رديء، وكذلك لحم النعاج.

وأجوده: لحم الذكر الأسود منه؛ فإنه أخف وألذ وأنفع.

والخصي أنفع وأجود.

والأحمر من الحيوان السمين أخف وأجود غذاء.

والجذع من المعز أقل تغذية، ويطفو في المعدة.

---

(١) لا يعرف قائله، وأنشده سيبويه في «الكتاب» (١/ ٤٣٤و٢/ ١٤٤)، وهو في شرح «المفصل» (٩/ ٩٢و١٠٢و١٠٤).

وأفضل اللحم: عائذه بالعظم، والأيمن أخف وأجود من الأيسر، والمقدم أفضل من المؤخر، وكان أحب الشاة إلى رسول الله ﷺ مقدمها، وكل ما علا منه -سوى الرأس- كان أخف وأجود مما سفل، وأعطى الفرزدق رجلاً يشتري له لحماً، وقال له: خذ المقدم، وإياك والرأس والبطن؛ فإن الداء فيهما.

ولحم العنق جيد لذيذ، سريع الهضم خفيف.

ولحم الذراع أخف اللحم وألذه وألطفه وأبعده من الأذى، وأسرعه انهضاماً.

وفي «الصحيحين»[1]: «أنه كان يعجب رسول الله ﷺ».

ولحم الظهر كثير الغذاء، يولّد دماً محموداً.

لحم المعز:

قليل الحرارة، يابس، وخلطه المتولد منه ليس بفاضل، وليس بجيد الهضم، ولا محمود الغذاء .

ولحم التيس: رديء مطلقاً، شديد اليبس، عسر الانهضام، مولد للخلط السوداوي.

قال الجاحظ: «قال لي فاضل من الأطباء: يا أبا عثمان! إياك ولحم المعز؛ فإنه يورث الغم، ويحرك السوداء، ويورث النسيان، ويفسد الدم، وهو -والله- يخبل الأولاد».

وقال بعض الأطباء: إنما المذموم منه: المسن، ولا سيما للمسنين، ولا رداءة فيه لمن اعتاده.

وجالينوس جعل الحولي منه من الأغذية المعتدلة المعدلة للكيموس المحمود، وإناثه أنفع من ذكوره.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

وحكم الأطباء عليه بالمضرة حكم جزئي، ليس بكلي عام، وهو بحسب المعدة الضعيفة، والأمزجة الضعيفة التي لم تعتده واعتادت المأكولات اللطيفة، وهؤلاء أهل الرفاهية من أهل المدن، وهم القليلون من الناس.

لحم الجدي:

قريب إلى الاعتدال؛ خاصة ما دام رضيعاً، ولم يكن قريب العهد بالوِلادة، وهو أسرع هضماً لما فيه من قوة اللبن، ملين للطبع، موافق لأكثر الناس في أكثر الأحوال، وهو ألطف من لحم الجمل، والدم المتولد عنه معتدل.

لحم البقر:

بارد يابس، عسر الانهضام، بطيء الانحدار، يولد دماً سوداوياً، لا يصلح إلا لأهل الكد والتعب الشديد، ويورث إدمانه الأمراض السوداوية: كالبهق والجرب، والقوباء والجذام، وداء الفيل، والسرطان، والوسواس، وحمى الربع، وكثير من الأورام، وهذا لمن لم يعتده، أو لم يدفع ضرره بالفلفل والثُّوم والدارصيني[1]- والزنجبيل ونحوه، وذكره أقل برودة، وانثاه أقل يبساً.

ولحم العجل- ولا سيما السمين- من أعدل الأغذية وأطيبها، وألذها وأحمدها، وهو حار رطب، وإذا انهضم غذى غذاء قوياً.

لحم الفرس:

عن أسماء -رضي الله عنها-، قالت: «نحرنا فرساً؛ فأكلناه على عهد رسول الله ﷺ»[2].

وثبت عنه ﷺ:« أنه أذن في لحوم الخيل، ونهى عن لحوم الحمر»[3].

---

(١) هو القرفة، وهو قشر شجر من الفصيلة الفارية ، أشهره: القرفة السيلانية والقرفة الصينية، وهي تستعمل لعطرية بها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥١٩)، ومسلم (١٩٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

واقترانه بالبغال والحمير في القرآن: لا يدل على أن حكم لحمه حكم لحومها بوجه من الوجوه؛ كما لا يدل على أن حكمها في السهم في الغنيمة حكم الفرس. والله -سبحانه- يقرن في الذكر بين المتماثلات تارة، وبين المختلفات، وبين المتضادات، وليس في قوله: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل:٨] ما يمنع من أكلها؛ كما ليس فيه ما يمنع من غير الركوب من وجوه الانتفاع، وإنما نص على أجل منافعها، وهو الركوب، والحديثان في حلها صحيحان، لا معارض لهما.

وبعد: فلحمها حار يابس، غليظ سوداوي، مضر لا يصلح للأبدان اللطيفة.

لحم الجمل:

فرق ما بين الرافضة وأهل السنة، كما أنه أحد الفروق بين اليهود وأهل الإسلام؛ فاليهود والرافضة تذمه ولا تأكله[1]، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام حله، وطالما أكله رسول الله ﷺ وأصحابه حضراً وسفراً.

ولحم الفصيل منه: من ألذ اللحوم وأطيبها، وأقواها غذاء، وهو لمن اعتاده بمنزلة لحم الضأن: لا يضرهم ألبتة، ولا يولد لهم داء، وإنما ذمه بعض الأطباء بالنسبة إلى أهل الرفاهية من أهل الحضر الذين لم يعتادوه؛ فإن فيه حرارة ويبساً، وتوليداً للسوداء، وهو عسر الانهضام، وفيه قوة غير محمودة؛ لأجلها أمر النبي ﷺ بالوضوء من أكله في حديثين صحيحين لا معارض لهما، ولا يصح تأويلهما بغسل اليد؛ لأنه خلاف المعهود من الوضوء في كلامه ﷺ؛ لتفريقه بينه وبين لحم الغنم: فخير بين الوضوء

---

(١) إذن هو من أوجه الشبه بين اليهود والرافضة- قاتلهم الله أنى يؤفكون-.

وتركه منها، وحتم الوضوء من لحوم الإبل[١]. ولو حمل الوضوء على غسل اليد فقط؛ لحمل على ذلك في قوله: «من مس فرجه؛فليتوضأ»[٢].

و-أيضاً-: فإن آكلها قد لا يباشر أكلها بيده: بأن يوضع في فمه، فإن كان وضوءه غسل يده؛ فهو عبث، وحمل لكلام الشارع على غير معهوده وعرفه!

ولا يصح معارضته بحديث: «كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار»[٣]؛لعدة أوجه:

أحدها: أن هذا عام، والأمر بالوضوء منها خاص .

الثاني: أن الجهة مختلفة؛ فالأمر بالوضوء منها بجهة كونها لحم إبل، سواء كان نيئاً، أو مطبوخاً، أو قديداً، ولا تأثير للنار في الوضوء. وأما ترك الوضوء مما مست النار؛ ففيه بيان أن مس النار ليس بسبب للوضوء، فأين أحدهما من الآخر ؟ هذا فيه إثبات سبب الوضوء، وهو كونه لحم إبل، وهذا فيه نفي لسبب الوضوء، وهو كونه ممسوس النار؛ فلا تعارض بينهما بوجه.

الثالث: أن هذا ليس فيه حكاية لفظ عام عن صاحب الشرع؛ وإنما هو إخبار عن واقعة فعل في أمرين: أحدهما متقدم على الآخر؛ كما جاء ذلك مبيناً في نفس الحديث: أنهم قربوا إلى النبي ﷺ لحماً، فأكل ثم حضرت الصلاة، فتوضأ فصلى، ثم قربوا إليه فأكل، ثم صلى، ولم يتوضأ، فكان آخر الأمرين منه ترك الوضوء مما مست النار، هكذا جاء الحديث، فاختصره

---

(١) أخرجه مسلم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه أبو داود (١٨١)، والنسائي(١/ ١٠٠)، والترمذي (٨٢)، وابن ماجه(٤٧٩)، وأحمد (٦/ ٤٠٦) من حديث بسرة بنت صفوان- رضي الله عنها- وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٢) من حديث جابر- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

الراوي؛ لمكان الاستدلال؛ فأين في هذا ما يصلح لنسخ الأمر بالوضوء منه؟ حتى لو كان لفظاً عاماً متأخراً مقاوماً: لم يصلح للنسخ، ووجب تقديم الخاص عليه، وهذا في غاية الظهور .

لحم الضب:

تقدم الحديث في حلّه[1]، ولحمه حار يابس، يقوّي شهوة الجماع .

لحم الغزال:

الغزال أصلح الصيد، وأحمده لحماً، وهو حارٌ يابس، وقيل: معتدل جداً، نافع للأبدان المعتدلة الصحيحة، وجيده: الخشف[2] .

لحم الظبي:

حار يابس في الأولى، مجفِّف للبدن، صالح للأبدان الرطبة .

قال صاحب «القانون»: وأفضل لحوم الوحش: لحم الظبي، مع ميله إلى السوداوية.

لحم الأرانب:

عن أنس بن مالك، قال: «أنفجنا[3] أرنباً، فسعوا في طلبها، فأخذوها، فبعث أبو طلحة بوركها إلى رسول الله ﷺ فقبله»[4] .

لحم الأرنب معتدل إلى الحرارة واليبوسة، وأطيبها وركها، وأحمده أكل لحمها مشوياً وهو يعقل البطن، ويدرُّ البول، ويفتّت الحصى، وأكل رؤوسها ينفع من الرعشة .

لحم حمار الوحش:

---

(١) مضى (ص ٢٨٣)

(٢) هو ولد الظبية أول ما يولد، ويطلق على الذكر والأنثى.

(٣) أثرناه من مجثمه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣٥)، ومسلم (١٩٥٣).

ثبت في « الصحيحين»[١] من حديث أبي قتادة -رضي الله عنه-: «أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض عمره، وأنه صاد حمار وحش؛ فأمرهم النبيُّ ﷺ بأكله وكانوا محرمين، ولم يكن أبو قتادة محرماً» .

في «سنن ابن ماجه»[٢] وعن جابر، قال: «أكلنا زمن خيبر الخيل وحمر الوحش».

لحمه حار يابس، كثير التغذية، مولّد دماً غليظاً سوداوياً؛ إلا أن شحمه نافع -مع دُهن القُسط- لوجع الظهر والريح الغليظة المرخية للكلى، وشحمُه جيد للكلف طلاء.

وبالجملة؛ فلحوم الوحوش كلُّها تولد دماً غليظاً سوداوياً، وأحمده: الغزال، وبعده الأرنب .

لحوم الأجنَّة:

غير محمودة؛ لاحتقان الدم فيها، وليست بحرام؛ لقوله ﷺ: **« ذكاة الجنين: ذكاة أمه»**[٣] .

ومنع أهل العراق من أكله؛ إلا أن يدركه حياً، فيذكيه، وأولوا الحديث على أن المراد به: أن ذكاته كذكاة أمه.

قالوا : فهو حجة على التحريم.

وهذا فاسد؛ فإن أول الحديث: أنهم سألوا رسول الله ﷺ، فقالوا : يا رسول الله! نذبح الشاة، فنجد في بطنها جنينا؛ أفنأكله ؟ فقال: **« كلوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه»**.

---

(١) البخاري (٥٤٩٢)، ومسلم (١١٩٦).

(٢) (٣١٩١)؛ وسنده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٢٧)، والترمذي (١٤٧٦)، وابن ماجه (٣١٩٩) وأحمد (٣/ ٣١و٣٩و٤٥و٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «إرواء الغليل» (٨/ ١٧٢/ ٢٥٣٩).

و-أيضاً- : فالقياس يقتضي حلَّه؛ فإنه ما دام حملاً، فهو جزء من أجزاء الأم؛ فذكاتُهَا ذكاةٌ لجميع أجزائها، وهذا هو الذي أشار إليه صاحبُ الشرع بقوله: « ذكاته ذكاة أمه»، كما تكون ذكاتها ذكاةَ سائر أجزائها، فلو لم تأت عنه السنة الصريحة بأكله؛ لكان القياس الصحيح يقتضي حله .

لحم القديد:

في «السنن» من حديث ثوبان -رضي الله عنه- قال: ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون؛ فقال: « أصلح لحمها»، فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة[١].

القديد: أنفع من النمكسود، ويقوي الأبدان، ويحدث حكة، ودفع ضرره بالأبازير الباردة الرطبة، ويصلح الأمزجة الحارة، والنمكسود : حار يابس مجفف، جيده من السمين الرطب، يضر بالقولنج، ودفع مضرته: طبخه باللبن والدهن، ويصلح للمزاج الحار الرطب .

فصل

في لحوم الطير

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ ﴾ [الواقعة:٢١].

ومنه حلال، ومنه حرام .

فالحرام: ذو المخلب؛ كالصقر، والبازي، والشاهين.

وما يأكل الجيف؛ كالنسر، والرخم، واللقلق، والعقعق، والغراب الأبقع، والأسود الكبير.

وما نهي عن قتله؛ كالهدهد، والصرد[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٥)، وأبو داود (٢٨١٤) ، والنسائي في «الكبرى» (٤١٤٢)، وقصر المصنف- رحمه الله-؛ فعزاه لأهل «السنن»!

(٢) صحيح، وانظر:«صحيح الجامع الصغير» (٦٩٦٨و٦٩٧٠)، و- أيضا- «إرواء الغليل» (٢٤٩٠).

=

وما أمر بقتله؛ كالحدأة والغراب .

والحلال أصناف كثيرة، فمنه:

الدجاج؛ كما في حديث أبي موسى: «أن النبي ﷺ أكل لحم الدجاج»[١].

وهو حار رطب في الأولى، خفيف على المعدة، سريع الهضم، جيد الخلط، يزيد في الدماغ والمني، ويصفي الصوت، ويحسن اللون، ويقوي العقل، ويولد دماً جيداً، وهو مائل إلى الرطوبة، ويقال: إن مداومة أكله تورث النقرس، ولا يثبت ذلك .

ولحم الديك: أسخن مزاجاً، وأقل رطوبة، والعتيق منه دواء ينفع القولنج والربو والرياح الغليظة: إذا طبخ بماء القرطم[٢] والشبت[٣]، وخصيها محمود الغذاء، سريع الانهضام، والفراريج:سريعة الهضم، ملينة للطبع، والدم المتولد منها: دم لطيف جيد .

لحم الدراج:

حار يابس في الثانية، خفيف لطيف، سريع الانهضام، مولد للدم المعتدل، والإكثار منه يحد البصر .

لحم الحجل:

يولد الدم الجيد، سريع الانهضام .

لحم الإوز :

حار يابس، رديء الغذاء إذا اعتيد، وليس بكثير الفضول .

= والصرد: طائر أكبر من العصفور،ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، فكانوا يتشاءمون به.

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٧و٥٥١٨)، ومسلم (١٦٤٩) (٩).

(٢) القرطم: هو حب العصفر.

(٣) الشبت: بقلة.

لحم البط:

حار رطب، كثير الفضول، عسر الانهضام، غير موافق للمعدة.

لحم الحبارى :

وهو حار يابس، عسر الانهضام، نافع لأصحاب الرياضة والتعب.

لحم الكركي:

يابس خفيف، وفي حره وبرده خلاف، يولد دماً سوداوياً، ويصلح لأصحاب الكد والتعب، وينبغي أن يترك بعد ذبحه يوماً أو يومين، ثم يؤكل.

لحم العصافير والقنابر:

ولحمه حار يابس، عاقل للطبيعة، يزيد في الباه، ومرقه يلين الطبع، وينفع المفاصل، وإذا أكلت أدمغتها بالزنجبيل والبصل: هيجت شهوة الجماع، وخلطها غير محمود.

لحم الحمام:

حار رطب، وحشيه أقل رطوبة، وفراخه أرطب خاصية، وما ربي في الدور وناهضه أخف لحماً، وأحمد غذاء، ولحم ذكورها شفاء من الاسترخاء والخدر، والسكتة والرعشة. وكذلك شم رائحة أنفاسها، وأكل فراخها معين على النساء، وهو جيد للكلى، يزيد في الدم، وفي الحديث: أنه ﷺ رأى رجلا يتبع حمامة، فقال: «شيطان يتبع شيطانة»[1].

وكان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- في خطبته يأمر بقتل الكلاب، وذبح الحمام .

لحم القطا:

يابس، يولد السوداء، ويحبس الطبع، وهو من شر الغذاء؛ إلا أنه ينفع من الاستسقاء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٠)، وابن ماجه (٣٧٦٥)، وأحمد (٢/ ٣٤٥) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

لحم السماني:

حار يابس، ينفع المفاصل، ويضر بالكبد الحار، ودفع مضرته بالخل والكسبرة.

وينبغي أن يجتنب من لحوم الطير ما كان في الآجام والمواضع العفنة، ولحوم الطير كلها أسرع انهضاماً من المواشي، وأسرعها انهضاماً: أقلها غذاء، وهي: الرقاب والأجنحة، وأدمغتها أحمد من أدمغة المواشي.

الجراد:

عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[1].

وعنه ﷺ: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال»[2].

وهو حار يابس، قليل الغذاء، وإدامة أكله تورث الهزال، وإذا تبخِّر به: نفع من تقطير البول وعسره، وخصوصاً للنساء، ويتبخَّر به للبواسير، وسمانه تشوى، ويؤكل للسع العقرب، وهو ضار لأصحاب الصَّرع، رديء الخلط.

وفي إباحة ميتته بلا سبب قولان: فالجمهور على حلّه، وحرمه مالك، ولا خلاف في إباحة ميتته إذا مات بسبب: كالكبس والتحريق ونحوه.

فصل

وينبغي أن لا يداوم على أكل اللحم؛ فإنه يورث الأمراض الدموية والامتلائية، والحميات الحادَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢).

(٢) تقدم(ص ٤١٢).

قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: إياكم واللحم؛ فإن له ضراوةً كضراوة الخمر، وإن الله يبغض أهل البيت اللحمين [(١)].

وقال أبقراط: لا تجعلوا أجوافكم مقبرةً للحيوان .

اللبن:

قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦]، وقال في الجنة: ﴿ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ [محمد:١٥].

اللبن وإن كان بسيطاً في الحس؛ إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيباً طبيعياً من جواهر ثلاثة: الجبنيَّة، والسمنية، والمائيَّة .

فالجبنية: باردة رطبة، مغذِّية للبدن .

والسمنية: معتدلة الحرارة في الرطوبة، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح، كثيرة المنافع.

والمائية: حارة رطبة، مطلقة للطبيعة، مرطِّبة للبدن.

واللبنُ -على الإطلاق- أبرد وأرطب من المعتدل .

وقيل: قوته عند حلبه الحرارةُ والرطوبة، وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٣٥)، وفي سنده انقطاع.

وأجود ما يكون اللبن حين يحلب، ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات؛ فيكون حين يُحلب أقلَّ برودة، وأكثر رطوبة. والحامض بالعكس.

ويختار اللبن بعد الولادة بأربعين يوماً، وأجوده: ما اشتد بياضه، وطاب ريحه، ولذَّ طعمه، وكان فيه حلاوة يسيرة، ودسومة معتدلة، واعتدل قوامه في الرِّقة والغلظة، وحلب من حيوان فتيٍّ صحيح، معتدل اللحم، محمود المرعى والمشرب.

وهو محمود يولِّد دماً جيداً، ويرطِّب البدن اليابس، ويغذو غذاءً حسناً، وينفع من الوسواس والغم والأمراض السوداويّة. وإذا شرب مع العسل: نقى القروح الباطنة من الأخلاط العفنة. وشربه مع السكر يحسِّن اللون جداً.

والحليب يتدارك ضرر الجماع، ويوافق الصدر والرئة، جيد لأصحاب السل، رديء للرأس والمعدة، والكبد والطحال، والإكثار منه مضر بالأسنان واللِّثة؛ ولذلك ينبغي أن يتمضمض بعدَه بالماء. وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ شرب لبناً، ثم دعا بماء؛ فتمضمض، وقال: «**إن له دسماً**»[1].

وهو رديء للمحمومين، وأصحاب الصُّداع، مؤذٍ للدماغ والرأس الضعيف، والمداومة عليه تحدث ظلمة البصر والغشاء، ووجع المفاصل، وسدة الكبد، والنفخ في المعدة والأحشاء، وإصلاحه: بالعسل والزنجبيل المربّى ونحوه، وهذا كلُّه لمن لم يعتده .

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١)، ومسلم (٣٥٨) من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-.

لبن الضأن:

أغلظ الألبان وأرطبها، وفيه من الدسومة والزهومة ما ليس في لبن الماعز والبقر، يولد فضولاً بلغمية، ويحدث في الجلد بياضاً: إذا أدمن استعماله؛ ولذلك ينبغي أن يشاب هذا اللبن بالماء؛ ليكون ما نال البدن منه أقل، وتسكينه للعطش أسرع، وتبريده أكثر .

لبن المعز:

لطيف معتدل، مطلق للبطن، مرطّب للبدن اليابس، نافع من قروح الحلق والسعال اليابس ونفث الدم .

واللبن المطلق أنفع المشروبات للبدن الإنساني؛ لما اجتمع فيه من التغذية والدَّموية، ولاعتياده حال الطفولية، وموافقته للفطرة الأصلية.

وفي «الصحيحين»[1]: «أن رسول الله ﷺ أتي ليلة أسري به، بقدحٍ من خمرٍ، وقدحٍ من لبنٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن، فقال جبريل: **الحمد لله الذي هداك للفطرة؛ لو أخذت الخمر: غوت أمتك»**.

والحامض منه بطيء الاستمراء، خام الخلط، والمعدة الحارة تهضمه، وتنتفع به .

لبن البقر:

يغذو البدن، ويخصبه، ويطلق البطن باعتدال، وهو من أعدل الألبان وأفضلها بين لبن الضأن ولبن المعز: في الرقة والغلظ والدَّسم، وفي «السنن» من حديث عبد الله بن مسعود -يرفعه-: **« عليكم بألبان البقر؛ فإنها ترم من كل الشجر»**[2] .

---

(١) البخاري (٥٥٧٦)، ومسلم (١٦٧) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٠٣)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «الصحيحة» (١٩٤٣).

لبن الإبل:

تقدم ذكره في أول الفصل[١]، وذكر منافعه، فلا حاجة لإعادته.

لبان:

هو الكندر، يروى عن علي؛ أنه قال لرجل شكا إليه النسيان: عليك باللبان؛ فإنه يشجع القلب، ويذهب بالنسيان.

ويذكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- :أن شربه مع السكر على الريق، جيد للبول والنسيان.

ويذكر عن أنس -رضي الله عنه-؛ أنه شكا إليه رجل النسيان، فقال: عليك بالكندر، وانقعه من الليل، فإذا أصبحت؛ فخذ منه شربة على الريق؛ فإنه جيد للنسيان.

ولهذا سبب طبيعي ظاهر؛ فإن النسيان إذا كان لسوء مزاج بارد رطب يغلب على الدماغ، فلا يحفظ ما ينطبع فيه: نفع منه اللبان. وأما إذا كان النسيان لغلبة شيء عارض؛ أمكن زواله سريعاً بالمرطبات .

والفرق بينهما: أن اليبوسي يتبعه سهر، وحفظ الأمور الماضية دون الحالية، والرطوبي بالعكس.

وقد يحدث النسيان أشياء بالخاصية: كحجامة نقرة القفا، وإدمان أكل الكسبرة الرطبة، والتفاح الحامض، وكثرة الهم والغم، والنظر في الماء الواقف، والبول فيه، والنظر إلى المصلوب، والإكثار من قراءة ألواح القبور، والمشي بين جملين مقطورين، وإلقاء القمل في الحياض، وأكل سؤر الفأر، وأكثر هذا معروف بالتجربة[٢].

---

(١) (ص ٤٦٨)

(٢) هكذا قال المصنف- رحمه الله-! وغالب ما ذكره لا يعتمد على عقل ولا نقل، وإنما هو أوهام تروج على العوام، ولشدة تمكن ذلك من عقولهم يظنون أنها تجارب!

والمقصود: أن اللبان مسخن في الدرجة الثانية، ومجفف في الأولى، وفيه قبض يسير، وهو كثير المنافع، قليل المضار، فمن منافعه: أن ينفع من قذف الدم ونزفه، ووجع المعدة، واستطلاق البطن، ويهضم الطعام، ويطرد الرياح، ويجلو قروح العين، وينبت اللحم في سائر القروح، ويقوي المعدة الضعيفة ويسخنها، ويجفف البلغم، وينشف رطوبات الصدر، ويجلو ظلمة البصر، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار، وإذا مضغ وحده أو مع الصعتر الفارسي: جلب البلغم، ونفع من اعتقال اللسان، ويزيد في الذهن ويذكيه، وإن بخر به ماء: نفع من الوباء، وطيب رائحة الهواء .

حرف الميم

ماء:

مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي: فإن السماوات خلقت من بخاره، والأرض من زبده. وقد جعل الله منه كل شيء حي.

وقد اختلف فيه: هل يغذو؟ أو ينفذ الغذاء فقط ؟ على قولين، وقد تقدما، وذكرنا القول الراجح ودليله .

وهو بارد رطب، يقمع الحرارة، ويحفظ على البدن رطوباته، ويرد عليه بدل ما تحلل منه، ويرقق الغذاء، وينفذه في العروق .

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق:

أحدها : من لونه: بأن يكون صافياً .

الثاني : من رائحته: بأن لا تكون له رائحة البتة .

الثالث: من طعمه: بأن يكون عذب الطعم حلوه؛ كماء النيل والفرات .

الرابع: من وزنه: بأن يكون خفيفاً رقيق القوام .

الخامس: من مجراه : بأن يكون طيب المجرى والمسلك .

السادس: من منبعه: بأن يكون بعيد المنبع .

السابع: من بروزه للشمس والريح: بأن لا يكون مختفياً تحت الأرض، فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته .

الثامن: من حركته: بأن يكون سريع الجري والحركة .

التاسع: من كثرته: بأن يكون له كثرة تدفع الفضلات المخالطة له .

العاشر: من مصبه: بأن يكون آخذاً من الشمال إلى الجنوب، أو من المغرب إلى المشرق .

وإذا اعتبرت هذه الأوصاف؛ لم تجدها بكمالها إلا في الأنهار الأربعة: النيل، والفرات، وسيحون، وجيحون .

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات، كل من أنهار الجنة»**[1] .

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه:

أحدها : سرعة قبوله للحر والبرد.

قال أبقراط : «الماء الذي يسخن سريعاً ويبرد سريعاً أخف المياه».

الثاني : بالميزان.

الثالث: أن تبل قطنتان متساويتا الوزن بماءين مختلفين، ثم يجففا بالغاً، ثم توزنا، فأيتهما كانت أخف؛ فماؤها كذلك .

والماء- وإن كان في الأصل بارداً رطباً- فإن قوته تنتقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها. فإن الماء المكشوف للشمال، المستور عن الجهات الأخر: يكون بارداً، وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال، وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر .

والماء الذي ينبع من المعادن: يكون على طبيعة ذلك المعدن، ويؤثر في البدن تأثيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٩).

والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء، والبارد منه أنفع وألذ، ولا ينبغي شربه على الريق، ولا عقيب الجماع، ولا الانتباه من النوم، ولا عقيب الحمام، ولا عقيب أكل الفاكهة، وقد تقدم .

وأما على الطعام، فلا بأس به إذا اضطر إليه، بل يتعين، ولا يكثر منه، بل يتمصصه مصاً، فإنه لا يضره ألبتة، بل يقوي المعدة، وينهض الشهوة، ويزيل العطش .

والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه، وبائته أجود من طريه، وقد تقدم .

والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه من خارج، والحار بالعكس. وينفع البارد من عفونة الدم، وصعود الأبخرة إلى الرأس، ويدفع العفونات، ويوافق الأمزجة والأسنان، والأزمان والأماكن الحارة، ويضر على كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل؛ كالزكام والأورام، والشديد البرودة منه يؤذي الأسنان، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات، وأوجاع الصدر .

والبارد والحار بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء؛ لأن أحدهما محلل، والآخر مكثف. والماء الحار يسكن لذع الأخلاط الحارة. ويحلل وينضج، ويخرج الفضول، ويرطب ويسخن، ويفسد الهضم شربه، ويطفو بالطعام إلى أعلى المعدة ويرخيها، ولا يسرع في تسكين العطش، ويذبل البدن، ويؤدي إلى أمراض رديئة، ويضر في أكثر الأمراض، على أنه صالح للشيوخ، وأصحاب الصرع، والصداع البارد والرمد . وأنفع ما استعمل من خارج .

ولا يصح في الماء المسخن بالشمس حديث ولا أثر، ولا كرهه أحد من قدماء الأطباء، ولا عابوه، والشديد السخونة يذيب شحم الكلى. وقد تقدم الكلام على ماء الأمطار في حرف الغين[1] .

(١) (ص ٤٣٣)

ماء الثلج والبرد:

ثبت في «الصحيحين»[١] عن النبي ﷺ؛ أنه كان يدعو في الاستفتاح وغيره: «اللهم اغسلني من خطاياي بماء الثلج والبرد».

الثلج له في نفسه كيفية حادة دخانية، فماؤه كذلك، وقد تقدم وجه الحكمة في طلب الغسل من الخطايا بمائه؛ لما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية، ويستفاد من هذا أصل طب الأبدان والقلوب، ومعالجة أدوائها بضدها.

وماء البرد ألطف وألذ من ماء الثلج، وأما ماء الجمد، وهو: الجليد؛ فبحسب أصله .

والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التي يسقط عليها في الجودة والرداءة. وينبغي تجنب شرب الماء المثلوج، عقيب الحمام والجماع، والرياضة والطعام الحار، ولأصحاب السعال، ووجع الصدر، وضعف الكبد، وأصحاب الأمزجة الباردة .

ماء الآبار والقني قليلة اللطافة، وماء القني المدفونة تحت الأرض ثقيل؛ لأن أحدهما محتقن لا يخلو عن تعفن، والآخر محجوب عن الهواء. وينبغي ألا يشرب على الفور: حتى يصمد للهواء، وتأتي عليه ليلة. وأردؤه: ما كانت مجاريه من رصاص، أو كانت بئره معطلة؛ ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة؛ فهذا الماء وبيء وخيم .

ماء زمزم:

سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً، وأحبها إلى النفوس، وأغلاها ثمناً، وأنفسها عند الناس، وهو هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل.

---

(١) تقدم (ص ٣٨٠).

وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ، أنه قال لأبي ذر -وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة: ليس له طعام غيره-؛ فقال النبي ﷺ: « **إنها طعام طعم**»[١] ، وزاد غير مسلم بإسناده: « **وشفاء سقم**»[٢] .

ومن حديث جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ماء زمزم لما شرب له**»[٣] .

وقد ضعف هذا الحديث طائفة؛ بعبد الله بن المؤمل، راويه عن محمد بن المنكدر . وقد روينا عن عبد الله بن المبارك: أنه لما حج؛ أتى زمزم، فقال: اللهم إن ابن أبي الموالي حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر - رضي الله عنه- عن نبيك ﷺ؛ أنه قال:« **ماء زمزم لما شرب له**»، وإني أشربه لظمأ يوم القيامة.

وابن أبي الموالي ثقة؛ فالحديث إذاً حسن، وقد صححه بعضهم، وجعله بعضهم موضوعاً، وكلا القولين فيه مجازفة.

وقد جربت أنا وغيري -من الاستشفاء بماء زمزم- أموراً عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض؛ فبرأت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد- قريباً من نصف الشهر، أو أكثر- ولا يجد جوعاً، ويطوف مع الناس كأحدهم؛ وأخبرني: أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً، وكان له قوة؛ يجامع بها أهله، ويصوم، ويطوف مراراً .

ماء النيل:

أحد أنهار الجنة؛ أصله من وراء جبال القمر -في أقصى بلاد الحبشة- من أمطار تجتمع هناك، وسيول يمد بعضها بعضاً؛ فيسوقه الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٣).

(٢) صحيح؛ كما في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٠/ ١١٦٢)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢)، وحسنه شيخنا الألباني- رحمه الله- في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٤١/ ١١٦٥).

- تعالى- إلى الأرض الجرز التي لا نبات لها، فيخرج به زرعاً، تأكل منه الأنعام والأنام.

ولما كانت الأرض التي يسوقه إليها إبليزاً[١] صلبة، إن أمطرت مطر العادة: لم ترو، ولم تتهيأ للنبات، وإن أمطرت فوق العادة: ضرت المساكن والساكن، وعطلت المعايش والمصالح، فأمطر البلاد البعيدة، ثم ساق تلك الأمطار إلى هذه الأرض في نهر عظيم، وجعل -سبحانه- زيادته في أوقات معلومة على قدر ري البلاد وكفايتها، فإذا أروى البلاد وعمها: أذن -سبحانه- بتناقصه وهبوطه؛ لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع، واجتمع في هذا الماء الأمور العشرة التي تقدم ذكرها، وكان من ألطف المياه وأخفها، وأعذبها وأحلاها.

ماء البحر:

ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته».[٢]

وقد جعله الله -سبحانه- ملحاً أجاجاً، مراً زعاقاً؛ لتمام مصالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم؛ فإنه دائم راكد، كثير الحيوان، وهو يموت فيه كثيراً ولا يقبر، فلو كان حلواً؛ لأنتن من إقامته وموت حيواناته فيه وأجاف، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك، وينتن ويجيف، فيفسد العالم؛ فاقتضت حكمة الرب -سبحانه وتعالى- أن جعله كالملاحة التي لو ألقي فيه جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته: لم تغيره شيئاً، ولا يتغير على مكثه من حين خلق، وإلى أن يطوي الله العالم. فهذا هو السبب الغائي الموجب لملوحته، وأما الفاعلي؛ فكون أرضه سبخة مالحة.

---

(١) طين الإبليز: طين مصر الذي يتركه نيل مصر بعد انحساره عن الأرض .

(٢) تقدم (ص ٤٤٠).

وبعد: فالاغتسال به نافع من آفات عديدة في ظاهر الجلد، وشربه مضرٌّ بداخله وخارجه؛ فإنه يطلق البطن، ويهزل، ويحدث حكَّةٍ وجرباً، ونفخاً وعطشاً.

ومن اضطر إلى شربه؛ فله طرق من العلاج يدفع بها مضرته:

منها: أن يجعل في قدر، ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف، فإذا كثر: عصره، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد، فيحصل في الصوف من البخار ما عذب، ويبقى في القدر الزعاق .

ومنها: أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها، ثم إلى جانبها قريباً منها أخرى ترشح هي إليها، ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء.

وإذا ألجأته الضرورة إلى شرب الماء الكدر؛ فعلاجه: أن يلقي فيه نوى المشمش، أو قطعة من خشب الساج، أو جمراً ملتهباً يطفأ فيه، أو طيناً أرمنياً، أو سويق حنطة، فإن كدرته ترسب إلى أسفل .

مسك:

عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أطيب الطيب المسك»[1] .

وعن عائشة -رضي الله عنها-: «كنت أطيب النبي ﷺ قبل أن يحرم، ويوم النحر، وقبل أن يطوف بالبيت بطيب فيه مسك»[2] .

المسك: ملك أنواع الطيب، وأشرفها وأطيبها، وهو الذي تضرب به الأمثال، ويشبه به غيره، ولا يشبه بغيره، وهو كثبان الجنة. وهو حار يابس في الثانية، يسر النفس ويقويها، ويقوي الأعضاء الباطنة جميعها شرباً وشماً، والظاهرة إذا وضع عليها. نافع للمشايخ والمبرودين؛ لا سيما زمن الشتاء،

---

(١) تقدم (ص ٤٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٣٩)، ومسلم (١١٨٩).

جيد للغشي والخفقان، وضعف القوة: بإنعاشه للحرارة الغريزية، ويجلو بياض العين، وينشّف رطوبتها ، ويفشُّ الرياح منها ومن جميع الأعضاء، ويبطل عمل السموم، وينفع مِن نهش الأفاعي ، ومنافعه كثيرة جداً ، وهو من أقوى المفرِّحات.

حرف النون

نخل:

مذكور في القرآن في غير موضع.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر -رضي الله عنهما-، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ؛ إذ أتي بجمار نخلة، فقال النبي ﷺ: **«إن من الشجر شجرة، مثلها مثل الرجل المسلم، لا يسقط ورقها؛ أخبروني: ما هي»**؟. فوقع الناس في شجر البوادي، فوقع في نفسي: أنها النخلة، فأردت أن أقول: هي النخلة، ثم نظرت؛ فإذا أنا أصغر القوم سناً؛ فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» ، فذكرت ذلك لعمر؛ فقال: لأن تكون قلتها؛ أحب إلي من كذا وكذا[١].

ففي هذا الحديث: إلقاء العالم المسائل على أصحابه، وتمرينهم، واختبار ما عندهم.

وفيه: ضرب الأمثال والتشبيه.

وفيه: ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلالهم، وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم.

وفيه: فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب.

وفيه: أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه، وإن لم يعرفه الأب، وليس في ذلك إساءة أدب عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤٨)، ومسلم (٢٨١١).

وفيه: ما تضمنه تشبيه المسلم بالنخلة: من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام .

وثمرها يؤكل رطباً ويابساً، وبلحاً ويانعاً، وهو غذاء ودواء، وقوت وحلوى، وشرابٌ وفاكهة، وجذوعها للبناء والآلات والأواني، ويتخذ من خوصها: الحصر والمكاتل والأواني والمراوح، وغير ذلك، ومن ليفها: الحبال والحشايا، وغيرها، ثم آخر شيء: نواها علف للإبل، ويدخل في الأدوية والأكحال، ثم جمال ثمرتها ونباتها، وحسن هيئتها، وبهجة منظرها، وحسن نضد ثمرها، وصنعته وبهجته، ومسرة النفوس عند رؤيته؛ فرؤيتها مذكّرة لفاطرها وخالقها، وبديع صنعته، وكمال قدرته، وتمام حكمته، ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن؛ إذ هو خير كله، ونفع ظاهر وباطن .

وهي الشجرة التي حنَّ جذعها إلى رسول الله ﷺ لما فارقه؛ شوقاً إلى قربه، وسماع كلامه، وهي التي نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى -عليه السلام- .

وقد اختلف الناس في تفضيلها على الحَبَلَةِ أو بالعكس، على قولين، وقد قرن الله بينهما في كتابه، في غير موضع. وما أقرب أحدهما من صاحبه؛ وإن كان كلٌّ واحد منهما في محل سلطانه ومنبته، والأرض التي توافقه أفضل وأنفع .

نبق:

وقد ذكر النبي ﷺ النَّبق في الحديث المتفق على صحته؛ أنه رأى سدرة المنتهى ليلة أسري به: «وإذا نبقها مثل قلال هجر»[١] .

والنبق: ثمر شجر السدر، يعقِل الطبيعة، وينفع من الإسهال، ويدبغ المعدة، ويسكن الصفراء، ويغذو البدن، ويشهِّي الطعام، ويولد بلغماً، وينفع

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة -رضي الله عنه-، واللفظ للبخاري.

الذَّرب الصفراوي، وهو بطيء الهضم، وسويقه يقوي الحشا، وهو يصلح الأمزجة الصفراوية، وتدفع مضرته بالشهد .

واختلف فيه: هل هو رطب أو يابس؟ على قولين. والصحيح: أن رطبه بارد رطب، ويابسه بارد يابس.

حرف الهاء

هندبا: ورد فيها ثلاثة أحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ولا يثبت مثلها؛ بل هي موضوعة:

أحدها: «كلوا الهندباء، ولا تنفضوه؛ فإنه ليس يوم من الأيام إلا وقطرات من الجنة تقطر عليه».

الثاني: «من أكل الهندباء، ثم نام عليها لم يحل فيه سم ولا سحر».

الثالث: «ما من ورقة من ورق الهندباء إلا وعليها قطرة من الجنة».

وبعد؛ فهي مستحيلة المزاج، منقلبة بانقلاب فصول السنة؛ فهي في الشتاء باردة رطبة، وفي الصيف حارة يابسة، وفي الربيع والخريف معتدلة، وفي الغالب أحوالها تميل إلى البرودة واليبس، وهي قابضة مبردة جيدة للمعدة، وإذا طبخت وأكلت بخل؛ عقلت البطن، وخاصة البري منها، فهي أجود للمعدة، وأشد قبضاً، وتنفع من ضعفها.

وإذا تضمد بها: سلبت الالتهاب العارض في المعدة، وتنفع من النقرس، ومن أورام العين الحارة، وإذا تضمد بورقها وأصولها: نفعت من لسع العقرب، وهي تقوي المعدة وتفتح السدد العارضة في الكبد، وتنفع من أوجاعها حارها وباردها، وتفتح سدد الطحال والعروق والأحشاء، وتنقي مجاري الكلى.

وأنفعها للكبد أمرها، وماؤها المعتصر ينفع من اليرقان السددي؛ ولا سيما إذا خلط به ماء الرازيانج الرطب، وإذا دق ورقها ووضع على الأورام الحارة: بردها وحللها، ويجلو ما في المعدة، ويطفئ حرارة الدم والصفراء،

وأصلح ما أكلت غير مغسولة ولا منفوضة؛ لأنها متى غسلت أو نفضت فارقتها قوتها، وفيها مع ذلك قوة ترياقية تنفع من جميع السموم .

وإذا اكتحل بمائها: نفع من العشا[١]، ويدخل ورقها في الترياق، وينفع من لدغ العقرب، ويقاوم أكثر السموم، وإذا اعتصر ماؤها وصب عليه الزيت: خلص من الأدوية القتالة، وإذا اعتصر أصلها وشرب ماؤه: نفع من لسع الأفاعي ولسع العقرب ولسع الزنبور، ولبن أصلها يجلو بياض العين.

حرف الواو

ورس:[٢]

صح عن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: كانت النُّفساء تقعد بعد نفاسها أربعين يوماً، وكانت إحدانا تطلي الورس على وجهها من الكلف[٣].

قال أبو حنيفة اللغوي: الورس يزرع زرعاً، وليس ببري، ولست أعرفه بغير أرض العرب، ولا من أرض العرب بغير بلاد اليمن .

وقوته في الحرارة واليبوسة في أوَّل الدرجة الثانية، وأجوده: الأحمر اللين في اليد، القليل النخالة، ينفع من الكلف، والحكة، والبثور الكائنة في سطح البدن إذا طلي به، وله قوة قابضة صابغة، وإذا شرب: نفع من الوضح، ومقدار الشربة منه: وزن درهم.

---

(١) ضعف البصر بالليل والنهار.

(٢) الورس: نبت أصفر؛ مثل نبات السمسم، يصبغ به ويتخذ منه حمرة للوجه لتحسين اللون.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١١و٣١٢)، والترمذي (١٣٩)، وأحمد (٦/ ٣٠٠)، وصححه شيخنا الألباني- رحمه الله-.

وهو في مزاجه ومنافعه؛ قريبٌ من منافع القسط البحـري، وإذا لطـخ به على البهق والحكة والبثور والسُّفعة: نفع منها، والثوب المصبوغ بـالورس يقوّي على الباه .

وسمة:

هي: ورق النيل، وهي تسوِّد الشعر.
وقد تقدم قريباً[1] ذكرُ الخلاف في جواز الصبغ بالسواد، ومن فعله .

حرف الياء

يقطين:

وهو الدباء والقرع، وإن كان اليقطين أعمَّ، فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق؛ كالبطيخ والقثاء والخيار، قال الله -تعـالى-: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات:١٤٦].

فإن قيل: ما لا يقومُ على ساق يسمى: نجماً، لا شجراً، والشـجر: مـا له ساق؛ قاله أهل اللغة، فكيف قال: ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾؟.

فالجواب: أن الشجر إذا أطلق: كان ما له ساق يقـوم عليـه، وإذا قيِّـد بشيء: تقيد به، فالفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء باب مهم عظيم النفـع في الفهم، ومراتب اللغة.

واليقطين المذكور في القرآن هو: نبات الدّبـاء، وثمـره يسـمى: الدّبـاء والقرع، وشجرة اليقطين.

ومن حديث أنس بـن مـالك: أن خياطـاً دعـا رسـول الله ﷺ لطعـام صنعه، قال أنس -رضي الله عنه-: فذهبت مع رسول الله ﷺ، فقـرَّب إليـه

(١) (ص ٤٦١).

خبزاً من شعير، ومرقاً فيه دباء وقديد، قال أنس: «فرأيت رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حوالي الصحفة؛ فلم أزل أحب الدباء من ذلك اليوم»[(١)].

وقال أبو طالوت: دخلت على أنس بن مالك -رضي الله عنه- وهو يأكل القرع، ويقول: يا لك من شجرة ما أحبك إلي؛ لحب رسول الله ﷺ إياك!

اليقطين: بارد رطب، يغذو غذاء يسيراً، وهو سريع الانحدار، وإن لم يفسد قبل الهضم: تولَّد منه خلط محمود، ومن خاصيته: أنه يتولَّد منه خلط محمود مجانس لما يصحبه، فإن أكل بالخردل: تولَّد منه خلط حرِّيف، وبالملح خلط مالح، ومع القابض قابض، وإن طبخ بالسفرجل: غذا البدن غذاءً جيداً.

وهو لطيفٌ مائيٌّ، يغذو غذاءً رطباً بلغمياً، وينفع المحرورين، ولا يلائم المبرودين ومن الغالب عليهم البلغم، وماؤه يقطع العطش، ويذهب الصُّداع الحار: إذا شرب أو غسل به الرأس، وهو ملِّين للبطن كيف استعمل، ولا يتداوى المحرورون بمثله، ولا أعجل منه نفعاً .

ومن منافعه: أنه إذا لطخ بعجين، وشوي في الفرن أو التَّنُّور، واستخرج ماؤه، وشرب ببعض الأشربة اللطيفة: سكَّن حرارة الحمَّى الملتهبة، وقطع العطش، وغذى غذاءً حسناً، وإذا شرب بترنجبين وسفرجل مربَّى: أسهل صفراء محضة.

وإذا طبخ القرع، وشرب ماؤه بشيء من عسل، وشيء من نطرون: أحدر بلغماً، ومرَّة معاً، وإذا دقَّ وعمل منه ضمادٌ على اليافوخ: نفع من الأورام الحارة في الدماغ.

وإذا عصرت جرادته[(٢)] وخلط ماؤها بدهن الورد، وقطر منها في الأذن: نفعت من الأورام الحارة. وجرادته نافعة من أورام العين الحارة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣٦)، ومسلم (٢٠٤١).

(٢) جرادة: ما يقشر من العود، والمراد: قشر القرع.

ومن النقرس الحار، وهو شديد النفع لأصحاب الأمزجة الحارة والمحمومين، ومتى صادف في المعدة خلطاً رديئاً: استحال إلى طبيعته وفسد، وولّد في البدن خلطاً رديئاً. ودفع مضرته: بالخلّ والمرّيّ[(١)].

وبالجملة؛ فهو من ألطف الأغذية، وأسرعها انفعالاً، ويذكر عن أنس -رضي الله عنه-: أنَّ رسول الله ﷺ كان يكثر من أكله.

فصل
الوصايا الكلية لحفظ الصحة

وقد رأيت أن أختم الكلام في هذا الباب بفصل مختصر عظيم النفع في المحاذر، والوصايا الكلية النافعة؛ لتتم منفعة الكتاب. ورأيت لابن ماسويه فصلاً في كتاب «المحاذير» نقلته بلفظه:

قال: من أكل البصل أربعين يوماً وكلف؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه .

ومن افتصد، فأكل مالحاً؛ فأصابه بهق أو جرب؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ومن جمع في معدته البيض والسمك، فأصابه فالج أو لقوة؛ فلا يلومن إلا نفسه.

ومن دخل الحمام وهو ممتلئ؛ فأصابه فالج؛ فلا يلومن إلا نفسه.

ومن جمع في معدته اللبن والسمك؛ فأصابه جذام، أو برص، أو نقرس؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ومن جمع في معدته اللبن والنبيذ؛ فأصابه برص أو نقرس؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه .

ومن احتلم، فلم يغتسل حتى وطئ أهله؛ فولدت مجنوناً أو مخبلاً؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه .

---

(١) المري: إدام كالكافح.

ومن أكل بيضاً مسلوقاً بارداً، وامتلأ منه؛ فأصابه ربو؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ومن جامع، فلم يصبر حتى يفرغ؛ فأصابه حصاة؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

ومن نظر في المرآة ليلاً؛ فأصابه لقوة، أو أصابه داء؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

فصل

وقال ابن بختيشوع: احذر أن تجمع بين البيض والسمك؛ فإنهما يورثان القولنج، والبواسير، ووجع الأضراس .

وإدامة أكل البيض يولِّد الكلف في الوجه، وأكل الملوحة والسمك المالح والافتصاد بعد الحمَّام، يولد البهق والجرب .

إدامة أكل كلى الغنم يعقر المثانة .

الاغتسال بالماء البارد بعد أكل السمك الطريِّ يولِّد الفالج.

وطء المرأة الحائض يولِّد الجذام.

الجماع من غير أن يهريق الماء عقيبه يولِّد الحصاة.

طول المكث في المخرج يولِّد الداء الدويَّ.

قال أبقراط : الإقلال من الضار، خير من الإكثار من النافع.

وقال: استديموا الصحة بترك التكاسل عن التعب، وبترك الامتلاء من الطعام والشراب .

وقال بعض الحكماء: من أراد الصِّحة؛ فليجوِّد الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظمأ، وليقلل من شرب الماء، ويتمدَّد بعد الغداء، ويتمشَّ بعد العشاء، ولا ينم حتى يعرض نفسه على الخلاء، وليحذر دخول الحمام عقيب الامتلاء، ومرة في الصيف خيرٌ من عشرٍ في الشتاء، وأكل القديد اليابس بالليل معينٌ على الفناء، ومجامعة العجائز تهرم أعمار الأحياء، وتسقم أبدان الأصحاء، ويروى هذا عن علي -رضي الله عنه-، ولا يصحُّ عنه، وإنما بعضه من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، وكلام غيره.

وقال الحارث : من سره البقاء - ولا بقاء -؛ فليباكر الغداء، وليعجل العشاء، وليخفف الرِّداء، وليقلَّ غشيان النساء .

وقال الحارث : أربعة أشياء تهدم البدن: الجماع على البطنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، وجماع العجوز .

ولما احتضر الحارث: اجتمع إليه الناس، فقالوا : مرنا بأمر ننتهي إليه من بعدك، فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا من الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يتعالجَن أحدكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بتنظيف المعدة في كل شهر؛ فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرة، منبتة للحم، وإذا تغدَّى أحدكم؛ فلينم على إثر غدائه ساعة، وإذا تعشَّى؛ فليمش أربعين خطوة .

وقال بعض الملوك لطبيبه: لعلَّك لا تبقى لي، فصف لي صفة آخذها عنك.

فقال: لا تنكح إلا شابة، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً، ولا تشرب الدواء إلا من علة، ولا تأكل الفاكهة إلا في نضجها، وأجد مضغ الطعام . وإذا أكلت نهاراً؛ فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً؛ فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة، ولا تأكلنَّ حتى تجوع، ولا تتكارهنَّ على الجماع، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك، ولا تأكلنَّ طعاماً وفي معدتك طعامٌ، وإياك أن تأكل ما تعجز أسنانك عن مضغه، فتعجز معدتك عن هضمه، وعليك في كل أسبوع بقيئة تنقِّي جسمك، ونعم الكنز الدم في جسدك؛ فلا تخرجه إلا عند الحاجة إليه، وعليك بدخول الحمام؛ فإنه يخرج من الأطباق ما لا تصل الأدوية إلى إخراجه .

وقال الشافعي :

أربعة تقوي البدن: أكل اللحم، وشمُّ الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتَّان .

وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحامض .

وأربعة تقوي البصر: الجلوس حيال الكعبة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف المجلس .

وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر، وإلى المصلوب، وإلى فرج المرأة، والقعود مستدبر القبلة .

وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير، والإطريفل، والفستق، والخروب .

وأربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، ومجالسة العلماء .

وقال أفلاطون : خمس يذبن البدن- وربما قتلن-: قصر ذات اليد، وفراق الأحبة، وتجرع المغايظ، ورد النصح، وضحك ذوي الجهل بالعقلاء .

وقال طبيب المأمون : عليك بخصال- من حفظها؛ فهو جدير أن لا يعتل إلا علة الموت-: لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام، وإياك أن تأكل طعاماً يتعب أضراسك في مضغه؛ فتعجز معدتك عن هضمه، وإياك وكثرة الجماع؛ فإنه يطفئ نور الحياة، وإياك ومجامعة العجوز؛ فإنه يورث موت الفجأة، وإياك والفصد إلا عند الحاجة إليه، وعليك بالقيء في الصيف .

ومن جوامع كلمات أبقراط، قوله: كل كثير فهو معاد للطبيعة .

وقيل لجالينوس: ما لك لا تمرض ؟ فقال: لأني لم أجمع بين طعامين رديئين، ولم أدخل طعاماً على طعام، ولم أحبس في المعدة طعاماً تأذيت به .

فصل

وأربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير، والنوم الكثير، والأكل الكثير، والجماع الكثير .

فالكلام الكثير: يقلل مخ الدماغ ويضعفه، ويعجل الشيب .

والنوم الكثير: يصفر الوجه، ويعمي القلب، ويهيج العين، ويكسل عن العمل، ويولد الرطوبات في البدن.

والأكل الكثير: يفسد فم المعدة، ويضعف الجسم، ويولد الرياح الغليظة، والأدواء العسرة .

والجماع الكثير: يهد البدن، ويضعف القوى، ويجفف رطوبات البدن، ويرخي العصب، ويورث السدد، ويعم ضرره جميع البدن، ويخص الدماغ لكثرة ما يتحلل به من الروح النفساني، وإضعافه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات، ويستفرغ من جوهر الروح شيئاً كثيراً .

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوة صادقة من صورة جميلة حديثة السن حلالاً، مع سن الشبوبية، وحرارة المزاج ورطوبته، وبعد العهد به، وخلاء القلب من الشواغل النفسانية؛ ولم يفرط فيه، ولم يقارنه ما ينبغي تركه معه من امتلاء مفرط، أو خواء، أو استفراغ، أو رياضة تامة، أو حر مفرط، أو برد مفرط، فإذا راعى فيه هذه الأمور العشرة: انتفع به جداً. وأيها فقد: حصل له من الضرر بحسبه. وإن فقدت كلها أو أكثرها: فهو الهلاك المعجل.

فصل

والحمية المفرطة في الصحة؛ كالتخليط في المرض، والحمية المعتدلة نافعة.

وقال جالينوس لأصحابه: اجتنبوا ثلاثاً، وعليكم بأربع، ولا حاجة بكم إلى طبيب: اجتنبوا الغبار، والدخان، والنتن. وعليك بالدسم، والطيب، والحلوى، والحمام. ولا تأكلوا فوق شبعكم، ولا تتخللوا بالباذروج[1] والريحان، ولا تأكلوا الجوز عند المساء، ولا ينم من به زكمة على قفاه، ولا يأكل من به غم حامضاً، ولا يسرع المشي من افتصد: فإنه مخاطرة الموت.

(١) الباذروج: بقلة معروفة تقوي القلب جداً، وتقبض؛ إلا أن تصادف فضة فتسهل.

ولا يتقيأ من تؤلمه عينه، ولا تأكلوا في الصيف لحماً كثيراً، ولا ينم صاحب الحمى الباردة في الشمس، ولا تقربوا الباذنجان العتيق المبزر، ومن شرب كل يوم في الشتاء قدحاً من ماء حار؛أمن من الأعلال، ومن دلك جسمه في الحمام بقشور الرمان؛ أمن من الجرب والحكة، ومن أكل خمس سوسنات مع قليل مصطكى رومي، وعود خام، ومسك؛ بقي طول عمره لا تضعف معدته ولا تفسد، ومن أكل بزر البطيخ مع السكر؛ نظف الحصى من معدته، وزالت عنه حرقة البول .

فصل

أربعة تهدم البدن: الهم، والحزن، والجوع، والسهر .

وأربعة تفرح: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، والمحبوب، والثمار.

وأربعة تظلم البصر: المشي حافياً، والتصبح والإمساء بوجه البغيض والثقيل، والعدو، وكثرة البكاء، وكثرة النظر في الخط الدقيق .

وأربعة تقوي الجسم: لبس الثوب الناعم، ودخول الحمام المعتدل، وأكل الطعام الحلو والدسم، وشم الروائح الطيبة .

وأربعة تيبس الوجه، وتذهب ماءه وبهجته وطلاقته: الكذب، والوقاحة، وكثرة السؤال عن غير علم، وكثرة الفجور .

وأربعة تزيد في ماء الوجه وبهجته: المروءة، والوفاء، والكرم، والتقوى.

وأربعة تجلب البغضاء والمقت: الكبر، والحسد، والكذب، والنميمة.

وأربعة تجلب الرزق: قيام الليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاهد الصدقة، والذكر أول النهار وآخره.

وأربعة تمنع الرزق: نوم الصبحة، وقلة الصلاة، والكسل، والخيانة.

وأربعة تضر بالفهم والذهن: إدمان أكل الحامض والفواكه، والنوم على القفا، والهم، والغم.

وأربعة تزيد في الفهم: فراغ القلب، وقلة التملي من الطعام والشراب، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوة والدسمة، وإخراج الفضلات المثقلة للبدن.

ومما يضر بالعقل: إدمان أكل البصل والباقلا والزيتون والباذنجان، وكثرة الجماع، والوحدة، والأفكار، والسكر، وكثرة الضحك، والغم .

قال بعض أهل النظر: قطعت[1] في ثلاث مجالس، فلم أجد لذلك علة: إلا أني أكثرت من أكل الباذنجان في أحد تلك الأيام، ومن الزيتون في الآخر، ومن الباقلا في الثالث.

فصل

قد أتينا على جملة نافعة من أجزاء الطب العلمي والعملي؛ لعل الناظر لا يظفر بكثير منها إلا في هذا الكتاب، وأريناك قرب ما بينها وبين الشريعة، وأن الطب النبوي: نسبة طب الطبائعيين إليه؛ أقل من نسبة طب العجائز إلى طبهم .

والأمر فوق ما ذكرناه، وأعظم مما وصفناه بكثير، ولكن: فيما ذكرناه تنبيه باليسير على ما وراءه، ومن لم يرزقه الله بصيرة على التفصيل؛ فليعلم ما بين القوة المؤيدة بالوحي من عند الله، والعلوم التي رزقها الله الأنبياء، والعقول والبصائر التي منحهم الله إياها؛ وبين ما عند غيرهم.

ولعل قائلاً يقول: ما لهدي الرسول ﷺ، وما لهذا الباب، وذكر قوى الأدوية، وقوانين العلاج، وتدبير أمر الصحة؟.

وهذا من تقصير هذا القائل في فهم ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن هذا وأضعافه، وأضعاف أضعافه: من فهم بعض ما جاء به، وإرشاده إليه،

---

(١) أي: غلب في المناظرة والمباحثة.

ودلالته عليه، وحسن الفهم عن الله ورسوله من يمن الله به على من يشاء من عباده .

فقد أوجدناك أصول الطب الثلاثة في القرآن، وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان؛ كاشتمالها على صلاح القلوب؟! وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها، ودفع آفاتها؛ بطرق كلية، قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح، والفطرة السليمة؛ بطريق القياس والتنبيه والإيماء؛ كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه، ولا تكن ممن إذا جهل شيئا عاداه.

ولو رزق العبد تضلعاً من كتاب الله وسنة رسوله، وفهماً تاماً في النصوص ولوازمها: لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه، ولاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخلقه، وذلك مسلم إلى الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه-؛ فهم أعلم الخلق بالله وأمر ه وخلقه، وحكمته في خلقه وأمره.

وطب أتباعهم: أصح وأنفع من طب غيرهم ، وطب أتباع خاتمهم وسيدهم وإمامهم: محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم-: أكمل الطب وأصحه وأنفعه.

ولا يعرف هذا إلا من عرف طب الناس سواهم وطبهم، ثم قارن بينهما؛ فحينئذ يظهر له التفاوت، وهم أصح الأمم عقولاً وفطراً، وأعظمهم علماً ، وأقربهم في كل شيء إلى الحق؛ لأنهم خيرة الله من الأمم، كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذي وهبهم إياه والحلم والحكمة؛ أمر لا يدانيهم فيه غيرهم.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده -رضي الله عنه-، قال :قال رسول الله ﷺ:« **أنتم توفون سبعين**

أمة؛ أنتم خيرها وأكرمها على الله»[1]؛ فظهر أثر كرامتها على الله – سبحانه- في علومهم وعقولهم، وأحلامهم وفطرهم، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم، وأعمالهم ودرجاتهم؛ فازدادوا بذلك علما وحلما وعقولا، إلى ما أفاض الله –سبحانه وتعالى- عليهم من علمه وحلمه.

ولذلك كانت الطبيعة الدموية لهم، والصفراوية لليهود، والبلغمية للنصارى؛ ولذلك غلب على النصارى: البلادة، وقلة الفهم والفطنة. وغلب على اليهود: الحزن والهم والغم والصغار. وغلب على المسلمين: العقل والشجاعة، والفهم والنجدة، والفرح والسرور .

وهذه أسرار وحقائق إنما يعرف مقدارها: من حسن فهمه، ولطف ذهنه، وغزر علمه، وعرف ما عند الناس. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه الترمذي(٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٥/ ٥)، وحسنه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «مشكاة المصابيح» (٦/ ٥٠٥/ ٦٢٤٩-« هداية الرواة»).

الفهارس العلمية

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

حرف الباء

حرف الذال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف اللام

حرف الياء



فهرس الآثار

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف الواو

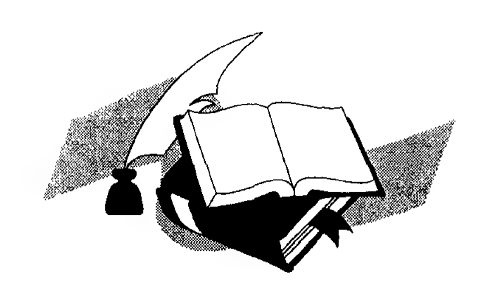
حرف الياء



فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس الأغذية والأدوية

حرف الميم



فهرس الأمراض

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الخاء

حرف الدال

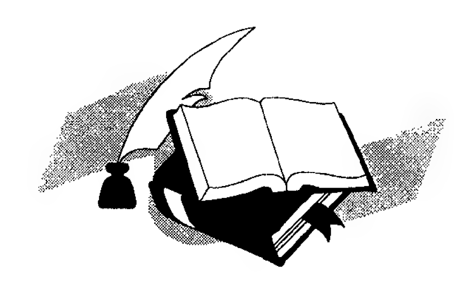
حرف الشين

حرف الصاد

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الياء



فهرس الفوائد

فهرس الموضوعات التفصيلي

حرف الباء

حرف التاء ٣٧٨

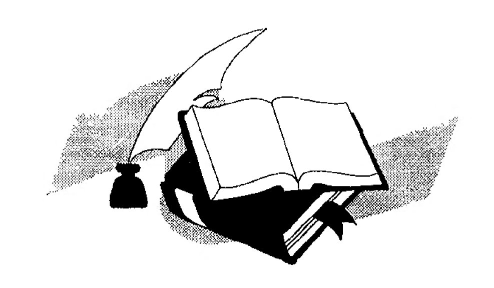
حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الزاي

حرف السين

حرف الياء





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com